الخلافة العباسية

عصر القوة والازدهار

(الجزء الأول)

تأليف

الأستاذ الدكتور **فاروق عمر فوزي**

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(1998/8/1251)

فوزي، فاروق
الخلافة العباسية (الجزء الأول) عصر القوة والازدهار/ فاروق عمر فوزي. ـ عمان: دار الشروق، 2009
(   ) ص
ر.إ.: 1998/8/1251
الواصفات: العصر الاسلامي//

• تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفة ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

ISBN 978-9957 - 00 - 007- 1

- الخلافة العباسية - عصر القوة والازدهار (الجزء الأول) .
- تأليف : الأستاذ الدكتور فاروق عمر فوزي .
- الطبعة العربية الأولى : الإصدار الثالث 2009 .



دار الشروق للنشر والتوزيع
هاتف : 4618190 / 4618191 / 4624321 فاكس : 4610065
ص.ب : 926463 الرمز البريدي : 11118 عمان – الاردن
Email : shorokjo@nol.com.jo

دار الشروق للنشر والتوزيع
رام الله – المصيون : نهاية شارع مستشفى رام الله
هاتف 2975632 - 2991614 - 2975633 فاكس 02/2965319
Email : shorokpr@palnet.com

■ الاخراج الداخلي وتصميم الغلاف وفرز الألوان و الأفلام :
دائرة الإنتاج / دار الشروق للنشر والتوزيع
هاتف : 4618190/1 فاكس 4610065 / ص.ب . 926463 عمان (11118) الأردن

المحتويات

الفصل الحادي عشر: السياسة الخارجية:

«لامروءة لكذوب ولا أخ لملوك ولا راحة لحسود ولا سؤدد لسيئ الخلق»

الإمام جعفر الصادق

«هذا الذي نحن فيه رأي لا نجبر احداً عليه، فمن كان عنده شيء أحسن منه فليأت به»

الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت

«من حفظ التاريخ زاد عقله»

الإمام الشافعي

«رأيتُ الناس في حكاية ما يحكون من ذكر المقالات، ويصنفون في النحل والديانات بين مقتصد فيما يحكيه وغالط فيما يذكره من قول مخالفيه، وبين متعمد للكذب في الحكاية إرادة التشنيع على من يخالفه، وبين تارك للتقصي في روايته من اختلاف المختلفين، وبين من يضيف إلى قول مخالفيه ما يظن أن الحجة تلزمهم به»

الإمام ابو الحسن الأشعري.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على نبينا محمد سيد المرسلين

وبعد فقد كانت معالجتي للتاريخ العباسي في ما نشرته حتى الآن، تسير وفق «الموضوعات » وليس التاريخ الحولي للأحداث. فكانت تناقش مثلاً موقف الخلفاء العباسيين من المعارضة العلوية أو الخارجية في وحدة شمولية ابتداءً من مطالع العصر العباسي الأول وحتى نهايته. وهكذا بالنسبة للموضوعات الاخرى.

إلا أنني وجدت ومن خلال تدريس المادة أن الطلبة في الجامعة وكذلك المثقف المولع بالتاريخ يحبذون النهج الذي اعتادوا عليه في قراءة معظم كتب التاريخ وهو النهج الذي يتبع التسلسل الحولي للأحداث ويسير تبعاً لعهود الخلفاء الواحد بعد الآخر.

ومن هنا فقد أعدت في هذا الكتاب ترتيب الأحداث في العصر العباسي الأول (عصر القوة والازدهار) على عهود الخلفاء وتتابعهم. باستثناء بعض الموضوعات التي لاحظت بأن تقطيعها بين عهود الخلفاء سيؤدي حتماً إلى تشتت وحدة الموضوع وانعدام النظرة الشمولية إليه. ومن الموضوعات التي ظلت محتفظة بوحدتها وإتساقها: موقف العباسيين من الزندقة ، سياسة العباسيين الاعتزالية وردود الفعل تجاهها، السياسة الخارجية وغيرها من الموضوعات القليلة الاخرى، ومع ذلك فقد ذكرت في فهرس المحتويات وكذلك في ثنايا الكتاب أحداث العهد كاملة مشيراً إلى الفصل الذي سيعالجها كموضوع واحد.

يضم هذا الكتاب الموسوم (الخلافة العباسية... عصر القوة والازدهار) مقدمة وأحد عشر فصلاً وخاتمة. يعالج الفصل الأول الدعوة العباسية من حيث طبيعتها وأبعادها وواجهاتها في نظرة جديدة تحاول اعادة تقويم الروايات التاريخية مستفيدة من روايات ضمنتها مصادر نشرت قبل مدة ليست بالطويلة. وقد توصل التفسير الجديد للدعوة أن القوة الضاربة التي أستند إليها العباسيون ودعاتهم هي قو ة العرب في خراسان يساعدهم في ذلك من انضم إليهم من الموالي.

أما الفصل الثاني فيتطرق إلى ظروف إعلان الخلافة والدولة في الكوفة بالعراق. وما اكتنف ذلك من ردود أفعال مباشرة وغير مباشرة مثل انحراف وزير آل محمد أبي سلمة

الخلال عن خط الدعوة وتمرد الراوندية والوضع الصعب في خراسان البؤرة التي أطلقت منها شرارة الثورة.

كما يتكلم هذا الفصل عن اعلان البيعة للخليفة الأول أبي العباس والموقف الذي اتخذته السلطة العباسية المركزية من العديد من الفئات والأحزاب المناهضة مثل انصار الامويين وأتباع الخوارج وشيعة العلويين و سكان بلاد فارس من الذين ظلوا متمسكين بدياناتهم القديمة.

ويتطرق الفصل الثالث إلى الدولة العباسية في عصر القوة، وهنا يبرز دور الخليفة المؤسس أبي جعفر المنصور في وضع أسس الدولة الجديدة وبناء مدينة السلام (بغداد) عاصمة جديدة. وكذلك في قضائه على المنشقين والمتمردين من داخل الحكم أو من الاحزاب والحركات المعارضة مثل العلويين والخوارج والفرس. ورغم أن السياسة الخارجية قد نوقشت في فصل مستقل إلا أن هذا الفصل ذكر باختصار بعض ما يخص سياسة المنصور الخارجية.

اما الفصل الرابع فقد ركز على الدولة في مرحلة الاستقرار النسبي والرخاء ويضم هذا الفصل عهدي الخليفة المهدي وابنه الهادي. ويتعرض إلى حالة الاستقرار والأمن التي كانت نتيجة طبيعية لجهود الخليفة المؤسس المنصور وما تلا ذلك من زيادة النشاط الاقتصادي وزيادة الثروة والرخاء في المجتمع. كما يبحث في سياسة الوفاق التي حاول المهدي اتباعها مع بعض فئات المعارضة. ويستعرض سياسة المهدي تجاه الزندقة وشدته تجاهها. وكذلك الزخم الجديد الذي أعطاه لروح الجهاد وخاصة ضد أرض الروم والهند.

ويعد الفصل الخامس متمماً للفصل السابق من حيث سياسات الدولة الداخلية والخارجية باستثناء إن الخليفة الجديد موسى الهادي حاول على عكس ابيه، أن يخرج عن تأثير الخيزران (زوجة المهدي وأم الهادي والرشيد)، ويحكم الدولة حكماً قوياً مباشراً بعيداً عن أثر الحريم أو التكتلات السياسية في دار الخلافة العباسية، فكان مقتله نتيجة عزمه على أن يباشر الامور بنفسه أولاً ونتيجة مشكلة ولاية العهد ثانياً.

ويناقش الفصل السادس العصر الذهبي في تأريخ الدولة العباسية وهو عهد هارون الرشيد وابنائه من بعده. لقد شهد هذا العصر قمة ما وصلت إليه الحضارة والنظم في مطالع العصر العباسي كما شهد ازدهاراً اقتصادياً كبيراً. ولكنه وفي الوقت نفسه شهد بوادر التفكك السياسي وظهور الامارات الاقليمية في اطراف الدولة العباسية.

لقد كانت الدولة العباسية أثبت ما تكون في علاقاتها بالدول الاجنبية سلماً أو حرباً مع الروم أو الفرنجة أو أمراء آسيا الوسطى وغيرهم، ومن هنا نلحظ خطب الدول لودّها ومحاولتهم تبادل السفراء وإقامة علاقات طيبة معها.

اما الفصل السابع الذي تعرض لعهد محمد الأمين فقد اكتنفته الحرب الأهلية أو النزاع بين ابني الرشيد وهما الأمين المأمون والتي دامت خمس سنوات بطولها وإنتهت بانتصار المأمون على الخليفة الامين ومقتل هذا الأخير. وبسبب وصول حزب المأمون الى السلطة فقد جاءت صورة الأمين وصفاته الشخصية وسياساته خلال المدة القصيرة من حكمه قاتمة وسلبية وتحتاج إلى إعادة تقويم.

وتميز الفصل الثامن الذي ناقش عهد الخليفة المأمون بنظرة تفصيلية الى المظاهر الرئيسة التي وقعت في عهده وخاصة سياسته الاعتزالية وموقفه من العلويين وبوادر الانفصال في المشرق الإسلامي. هذا بالاضافة إلى نزعته العلمية ومحاولته الجادة تشجيع العلوم العقلية من فلسفة وطب وعلوم صرفة وبنائه مرصداً فلكياً وصرفه بسخاء على «بيت الحكمة» من أجل ترجمة «علوم الاوائل» العقلية من اللغات اليونانية والسريانية والفارسية والهندية.

أما الفصل التاسع فيتطرق إلى ظاهرة جديدة في مسيرة الدولة العباسية الا وهي تزايد استخدام الترك في الجيش العباسي ثم في دار الخلافة وفي الإدارة. ولقد كان الترك متواجدين منذ زمن في المجتمع الإسلامي ولكن الخليفة المعتصم زاد من عددهم بنسبة ملحوظة لدرجة أنهم اصطدموا بالمجتمع البغدادي مما اضطر الخليفة إلى بناء عاصمة جديدة له هي (سامراء) ونقل الدواوين والجند الأتراك إليها.

ولقد كان لوجود الترك في العاصمة العباسية الجديدة (سر من رأى) وفي الجيش والإدارة سلبياته وإيجابياته على أن ادخال هذا الدم الجديد إلى عناصر الجيش العباسي زاد من قدرات هذا الجيش وفاعليته في الحرب الخارجية وفي القضاء على التمردات الداخلية، بعد أن استنزفت العناصر الاخرى كل ما لديها من طاقة في الحروب السابقة.

لقد اثبت المعتصم أنه « الرجل المناسب في المحل المناسب والوقت المناسب» فقد وظف قدراته وقدرات الجند الترك في القضاء على الحركات الداخلية التي استعصت على سلفه مثل حركة بابك الخرمي والزط، وكذلك في تلقين البيزنطيين (الروم) درساً قاسياً في معركة «عمورية» في عمق الأناضول.

ولم يكن عهد الواثق بن المعتصم القصير سوى فترة من الهدوء النسبي وتبادل الأسري مع الروم، واستمرار سياسة الاعتزال التي بدأها المأمون وطبقها المعتصم والواثق بتقليد اعمى دون فهم لطبيعتها وأبعادها، ومن هنا كان استخدام الشدة (المحنة) مع المخالفين لمذهب الاعتزال إلى درجة وصلت إلى حد القتل.

وقد عالج الفصل العاشر عهد الخليفة المتوكل الذي يعد انتقالاً بين عصرين عصر القوة والعصر الذي شهد بدايات الضعف. لقد كان المتوكل رغم صعوبة الظروف التي مرت عليه قبل وبعد تسلمه الخلافة متميزاً في سياساته التي وازنت بين القوى المتصارعة في الإدارة والجيش من جهة والأحزاب المناهضة للحكم العباسي من جهة أخرى. ويعود إليه

الفضل في تجنب فتنة اهلية بين أنصار «أهل السنة والجماعة»وأنصار المعتزلة، حيث نجح في نقل السلطة من المعتزلة بهدوء وصرامة وبصورة سلمية دون السماح بعمليات الثأر والانتقام من رؤوس المعتزلة. وقد شهد عهده نشاطاً فكرياً ملحوظاً للعديد من القوى السياسية المعروفة آنذاك.

ويتضمن الفصل العاشر والأخير نظرة شمولية الى سياسة العباسيين الأوائل الخارجية مع الروم (البيزنطيين) ومع الفرنجة ومع الاندلس (أسبانيا) حيث تأسست خلافة أموية جديدة ومع آسيا الوسطى (تركستان) وجنوبي شرقي آسيا. هذا مع العلم أن العباسيين ومنذ بداية حكمهم ادركوا ان الدولة العربية الإسلامية قد بلغت أوج امتدادها جغرافيا ومن واجبهم أن يحافظوا على حدود الدولة وصيانتها دون محاولة التوسع والامتداد ويلاحظ أنه رغم استمرار عمليات الجهاد في حملات الشواتي والصوافي ورغم محاولات اختراق آسيا الصغرى او حصار القسطنطينية التي لم تؤد الى نتيجة عملية تذكر، فإن حدود الدولة العباسية لم تتوسع او تمتد. على ان جهود التوسع وانتشار الإسلام باتت من مهام الامارات في الاطراف وبتأكيد ومباركة الخلفاء العباسيين انفسهم.

وقد انتهى الكتاب بخاتمة اوجزت النتائج، وبفهرس للمصادر والمراجع وملحق.

ونسأل الله تعالى أن يتم نعمته علينا جميعاً ويوفقنا الى ما يحبه ويرضاه انه نعم المولى ونعم النصير.

المؤلف

المفرق- الأردن/ 1998

الفصل الأول

الدعوة العباسية

إن اعادة قراءة الروايات التاريخية في مصادرنا المعروفة والإطلاع على نصوص من مصادر لم تكن معروفة حتى وقت قريب، تساعد الباحث على اعادة تقويم الدعوة العباسية وتوضيح واجهاتها وإظهار الدور الذي لعبته الفئات المختلفة والشخصيات البارزة فيها.

والنظرة الجديدة تشير إلى أن الدعوة التي نظمها الدعاة العباسيون كانت موجهة إلى عرب خراسان المقاتلة منهم والمستقرين على السواء. فقد كان هناك دعاة في قرى مرو حيث استقرت القبائل العربية وفي كل مدينة فيها حامية أو رابطة عربية. لقد أدرك الدعاة بأن العرب مصدر السلطة والقوة الضاربة في خراسان. ومن اجل الانتصار على الامويين كان يتحتم على الدعاة كسب العرب أولاً إلى الدعوة. ولم يفضل الدعاة في بداية الدعوة قبيلة عربية على أخرى بالرغم من أنهم حصلوا على تعضيد اليمانية أكثر من المضرية إلا انهم كانوا يرحبون بالمضريين الذين يرغبون في الانضمام للدعوة. وقد انضم بعض الموالي إلى الدعوة الا ان دورهم لا يمكن مقارنته بدور القبائل العربية من أهل خراسان[1].

إن ظروف خراسان من حيث قبائلها وعلاقتهم ببعضهم وبالسكان المحليين والخلافة الأموية في دمشق لعبت دوراً في ايجاد الجو المناسب للثورة ولكن علينا ألا نؤكد على ناحية معينة ونترك النواحي الأخرى. فالعرب الذين استوطنوا قرى مرو كانت لهم أسباب للتذمر ترجع إلى حرمانهم من الامتيازات التي يتمتع بها المقاتلة من العرب، كما أنهم شاركوا الموالي في استيائهم من سطوة الدهاقين ونفوذهم. على أننا نلاحظ من جهة أخرى ان المقاتلة العرب كانت لديهم أسباب للتذمر أيضا تتلخص في:

1- سياسة التجمير وهي إبقاء المقاتلة في الثغور وعلى خطوط المواجهة شتاءً في الوقت الذي يرغب المقاتلة في قضاء الشتاء مع عوائلهم.

2-كان الوالي الاموي يسلبهم حصتهم من الفيء والغنيمة أحياناً أو يأخذ أكثر من حقه منها احياناً اخرى.

3-سئمت القبائل من النزاع المستمر بين الشيوخ والرؤساء الطموحين للوصول إلى السلطة حيث خلق هذا بين قبائل خراسان نوعا من القلق لدى اليمني والربعي والمضري الذين وجدوا في الدعوة العباسية أملا جديدا لحياة أكثر استقرارا ويسراً[2].

كما أن الوضع المرتبك في بلاد الشام قلب الدولة الاموية في ذلك العهد، حيث ازدادت ثورات المدن السورية ضد حكم مروان الثاني واشتدت مؤامرات الأمراء الأمويين ضد سلطته كل ذلك فت من عضد الدولة وفسح المجال للدعوات السرية بالعمل الفعال من أجل اسقاطها. فقد نشطت المنظمة السرية الهاشمية بقيادة أبي هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية الذي أوصى بالامامة من بعده إلى محمد بن علي بن عبدالله بن العباس وبهذا تحولت المنظمة إلى عباسية صرفة وضاعفت من فعاليتها في خراسان حيث اعلنت الثورة سنة 129هـ سنة 747م[3].

أن الدعوة العباسية كانت لها واجهات عديدة حيث أنها حاولت جذب عناصر مختلفة تحت شعارات براقة متباينة وهذا في الحقيقة سر نجاحها - فأن الذي يهمنا هو الواجهة السياسية للدعوة الذي برز فيه دور العرب من أهل خراسان في هذه الحركة، ذلك الدور الذي كان مغموراً لم يقدره حق قدره إلا القليل من المؤرخين.

إن النصوص التاريخية تشير إلى أننا يجب أن نبحث عن أسباب للثورة العباسية في ظواهر اخرى غير مزاعم التمييز الذي مارسته السلطة الاموية تجاه الموالي. فلقد أهمل المؤرخون المحدثون سياسة الأمويين الإدارية والمالية في خراسان وردود الفعل لدى أهل خراسان من عرب وعجم تجاه هذه السياسة. إن معرفة حال خراسان قبيل الثورة سيقودنا إلى معرفة أسباب التذمر وبالتالي إلى أسباب الثورة.

تتفق أغلب الروايات التاريخية على أن خراسان فتحت أيام الخليفة عثمان بن عفان ﵁. وعلى يد القائد عبدالله بن عامر بين سنة 29 هـ/ 649م - 35هـ/ 655م ولقد عقد مرزبان مرو معاهدة مع المسلمين ترك للدهاقين بموجبها تقدير الضرائب وجبايتها واشترطت المعاهدة كذلك على الايرانيين أن يفسحوا المجال لاستيطان العرب في قراهم ولهذا الاجراء أهمية لانه كان الاساس الذي بنيت عليه علاقات العرب المسلمين بالسكان المحليين[4].

ولم تكن السنوات التي تلت الفتح الإسلامي لخراسان سنوات سهلة ولا هي فترة استقرار في تاريخ خراسان خاصة ، وإن الأوضاع السياسية في قلب الدولة الإسلامية كانت على غير ما يرام . على أن إنتهاء الحرب الأهلية وتولي معاوية سنة 41هـ/ 661م الخلافة ساعد السلطة المركزية بأن توجه انتباهها إلى خراسان. وقد قرر الامويون انشاء قواعد ثابتة للمقاتلة بمرو منذ سنة 45هـ/ 655م[5]. وتتابعت عملية الاستيطان بتتابع الهجرات القبلية من الكوفة والبصرة. وبمرور الزمن أخذت بعض القبائل العربية تفضل الاستقرار والاشتغال بمهن مدنية كالتجارة والزراعة بدلا من الاقتصار على العمل في الجيش . إن هذا الاتجاه نحو الاستقرار أوجد عوامل جديدة في الموقف السياسي والعسكري واضطر الخليفة الاموي هشام بن عبدالملك (سنة 724/105 - سنة 743/125) إلى أن يأمر أمير خراسان بأن يحذف أسماء المقاتلة العرب الذين يرفضون الاشتراك في الحملات العسكرية في بلاد ما وراء النهر وتركستان ويحرمهم من العطاء . ومقابل ذلك أرسل هشام مقاتلة جدداً ممن يرغبون في القتال[6]، وهكذا فإن الخليفة هشاما يعترف ضمناً بأن عملية الاستيطان والاندماج بين العرب المسلمين والسكان المحليين قد بدأت فعلا وبدأ العرب يألفون الحياة المدنية والاشتغال بالمهن ولا يمكن للسلطة الاموية معارضة الاتجاه الجديد بالقوة . وهذا يدل بطبيعة الحال على أن العرب المسلمين قد انقسموا إلى كتلتين (أ) المقاتلة (ب) المستقرين المستوطنين. كما ان ارسال دفعات جديدة من العرب إلى خراسان ادى إلى حدوث شقاق وتصادم بين القادمين الجدد والعرب القدماء (الفاتحين)[7].

اما عملية الاستيطان[8] فقد اتخذت أشكالاً مختلفة ولكن ما لدينا من معلومات بين طيات كتب التاريخ والتراجم ، والكتب الجغرافية الاسلامية لا يعطينا فكرة متكاملة عنها . والظاهر ان العرب من أهل الخراسان استقروا في مرو والقرى المحيطة بها . واستوطن العرب القرى المحيطة ببلخ كما استوطن قسم منهم مدنا أخرى في بلاد ما وراء النهر بصورة مؤقتة أو دائمة . وعدا هذا وذاك فقد كان للعرب (مسالح) وهي مراكز عسكرية وقتية تتبدل مواضعها بتبدل خطة القواد العسكرية ولذلك فقد كان استقرار الجند فيها وقتيا .

لقد انتشر الدعاة العباسيون في مواطن استقرار العرب في خراسان حيث نقل إليها الامام محمد بن علي العباسي الدعوة وأمر دعاته بأن تكون الدعوة للرضا من

آل محمد ﷺ وان يثقوا باليمانية ويتألفوا ربيعة ويتوقوا من مضر ويقبلوا منهم الثقاة.
وليس من السهل التعرف على الدوافع التي دفعت الإمام محمد إلى اختيار خراسان ولكن يمكن القول بأنها كانت موطن المقاتلة العرب الذين عركتهم الحرب الطويلة مع تركستان وفي السند والذين عبروا مرارا عن تذمرهم من سياسة الامويين المالية والعسكرية والمعلوم أن خلفاء بني أمية منذ زمن عبدالملك بن مروان (685م-705م) ادركوا القلق وعدم الاستقرار السائد هناك ويعتبر كتاب اخبار العباس[9] عن أهمية الخراسانية فيقول: «في خراسان جمجمة العرب وفرسانها». وقد نظم الدعاة الاوائل الدعوة تنظيما سريا محكما فكان هناك النقباء يرأسهم سليمان بن كثير الخزاعي شيخ النقباء والقائم بأمر خراسان. أما النقباء فهم إثنا عشر نقيبا[10]:

من خزاعة: سليمان بن كثير الخزاعي، مالك بن الهيثم الخزاعي، زياد بن صالح الخزاعي، طلحة بن رزيق الخزاعي.

من تميم: موسى بن كعب التميمي، عيسى بن كعب التميمي، لاهز بن قريظة التميمي، القاسم بن مجاشع التميمي.

من طيىء: قحطبة بن شبيب الطائي.

من شيبان: خالد بن إبراهيم الذهلي الشيباني.

من بجيلة: أسلم بن سلام البجلي.

من حنيفة: مولى بني حنيفة شبل بن طهمان.

ونلاحظ أن الأكثرية منهم كانوا عرباً. وكان هناك (نظراء النقباء) و 70 داعية، كما كان هناك عدد من الدعاة المسؤولين عن تنظيم الدعوة خارج منطقة مرو.

وهنا لا بد من الانتباه إلى أن بعض الشخصيات العربية تلقبت أو نسبت إلى المدن الفارسية التي عاشت فيها مثل جديع بن علي الازدي (الكرماني) والفضل بن سليمان التميمي (الطوسي) وخازم بن خزيمة التميمي (المروزي) كما لقب عمر بن حفص المهلبي الأزدي والهيثم بن معاوية العتكي بلقب (هزار مرد) ولقد ظن بعض المؤرخين أن هؤلاء وغيرهم كانوا من الموالي.

وأكثر من ذلك فقد فسر بعض المستشرقين وتبعهم مؤرخون مسلمون في ذلك أن الاصطلاح (أهل خراسان) يعني السكان المحليين من الايرانيين ولكن المؤرخين الرواد من المسلمين كالطبري والبلاذري اطلقوا عادة اصطلاح (أهل البصرة) و (أهل

الكوفة) و (أهل الشام) لتدل على القبائل العربية التي سكنت هذه المدن بعد تمصيرها.

ثم أن مؤرخين آخرين فهموا من اصطلاح (سكان القرى) التي وردت في بعض روايات الدينوري والطبري أنهم سكان البلاد المحليين الذين يتعاطون الزراعة ويمتهنون بعض الحرف الا أننا لاحظنا بان العرب انفسهم سكنوا القرى مع عوائلهم. ولذلك فأن رواية الطبري[11] التي تقول (فوافاه... أهل ستين قرية) لا تعني الموالي. كما يظن المستشرق ولهاوزن، بل العرب. على الرغم من ان قسما من اتباع الدعوة كانوا دون شك من الموالي.

وكان اتباع الدعوة يدفعون الخمس[12] للامام ليعينه هذا المال على القيام بواجبه في «الامر بالمعروف والنهي عن المنكر» وكان النقباء عادة ينتهزون فرصة الحج ليلتقوا بالامام ويسلموه المال والهدايا فقد حملوا اليه مرة 10 الاف دينار و 200 الف درهم كما بعثوا مرة أخرى 100 ألف درهم وأشياء عينية من مسك ومتاع كثير قيمتها 30.000درهم. وبعث أبو مسلم قحطبة الطائي ومعه المال الذي يقدر بـ 360 الف درهم صيرها كلها متاعا.

كما استغل الدعاة العباسيون فكرة التنبؤات والملاحم الشعبية المنتشرة بين الناس فأشاعوا أحاديث تقول بأ ن الخلافة كائنة في احفاد العباس عم الرسولﷺ وانها ستبقى في ايديهم إلى يوم القيامة وادعوا بأن هناك علامات مخبرات عن ظهور ابن الحارثية صاحب الرايات السود التي ستظهر في المشرق وانها منتصرة لا محالة[13]. ولما توفي محمد بن علي العباسي سنة 125هـ/ 742م تسلم ابراهيم الإمام القيادة وبدأ وجه جديد فعال للدعوة. وحيث ساءت الحالة في خراسان وانقسم العرب فيها إلى كتلتين رئيستين يقود أحداهما نصر بن سيار والي خراسان، ويقود الثانية جديع بن علي الأزدي الكرماني أدرك الدعاة العباسيون بأن ظروف الثورة قد اختمرت وأن الوقت قد حان لإعلانها فطلب سليمان الخزاعي من الإمام أن يرسل من يمثله في خراسان أثناء إعلان الثورة. وقد عرض ابراهيم الإمام على سليمان الخزاعي أن يمثله فيخراسان فرفض، والظاهر أنه كان يرغب في أن تقوم شخصية هاشمية أو عباسية بتمثيل الإمام في خراسان وبعد أن فشل إبراهيم الإمام في إقناع عدد من الرجال قرر اختيار مولاه أبا مسلم الخراساني لينوب عنه.

إن شخصية أبي مسلم ودوره في الحركة العباسية قد أصبحت أسطورة نسجت حولها الروايات المختلفة. وقد بالغت بعض روايات الطبري والدينوري وحمزة الاصفهاني بدور أبي مسلم وأظهرته بمظهر المحرك للسياسة العباسية. وأكثر من هذا فقد اتخذته العناصر المتذمرة في بلاد فارس رمزاً لثورتها معتبرة إياه منقذاً منتظراً وخاصة بعد قتله من قبل المنصور سنة 137هـ/ 745م ليحقق لها آمالها بأن «يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً». والواقع أن النصوص التاريخية في أخبار العباس وتاريخ الموصل وتاريخ الطبري تشير إلى أن المسؤولية كانت مشتركة بين النقباء الاثني عشر ويساعده في ذلك الدعاة، وأن سليمان الخزاعي نقيب النقباء كان وراء كل عمل قام به أبو مسلم. كما أن سليمان الخزاعي كان المتكلم باسم الدعوة والمفاوض باسمها مع شيوخ القبائل ووالي خراسان نصر بن سيار. وكان سليمان الخزاعي هو الذي يؤم الناس في الصلاة[14].

وحين أرسل إبراهيم الإمام أبا مسلم إلى خراسان أوصاه بوصية اختلف في نصها المؤرخون. وقد جاءت في رواية ابن قتيبة والطبري كالآتي[15]:

«يا عبد الرحمن إنك رجل من أهل البيت احفظ وصيتي: انظر إلى هذا الحي من اليمن فالزمهم واسكن بين أظهرهم فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم وأتهم ربيعة في أمرهم وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار. واقتل من شككت فيه. وإن استطعت إلا تبقي بخراسان من يتكلم العربية فافعل وأيما غلام خمسة أشبار تتهمه فاقتله ولا تخالف هذا الشيخ (سليمان الخزاعي) ولا تعصه وإن اشكل عليك أمر فاكتف به مني».

إن هذه الوصية غير متفق عليها من قبل المؤرخين لذلك لا يمكن قبولها دون تمحيص. فمن جهة النقد الخارجي لنص الوصية فيظهر بأنه مذكور في الطبري دون سلسلة رواة أو إسناد ولذلك فالرواية ضعيفة. أما رواية ابن قتيبة فيضعفها كون المؤرخ غامضاً وغير متكامل في رواياته عن العباسيين ولا ذكر للنص في مصادر مهمة أخرى مثل أنساب الأشراف وأخبار العباس. وليست هناك أهمية لذكرها في كتب تأريخية متأخرة مثل ابن الأثير وابن كثير وابن خلدون لأن هؤلاء بطبيعة الحال نقلوها ممن ذكرها قبلهم لبعد الزمن بينهم وبين عهد الثورة.

ومما يؤكد الشك في نص الوصية أن رواية الدينوري[16] وكتاب العيون والحدائق[17] في أخبار الحقائق لا تذكر النص الذي يأمر فيه ابراهيم أبا مسلم بقتل

العرب دون تمييز، ولكن الوارد أن الأمر كان بقتل العرب الذين يرفضون الدخول في الدعوة أو المشكوك في ولائهم «واقتل من شككت في أمره». أو كما يقول العوفي بقتل كل المدعين بالإمامة من غير العباسيين. وتؤيد هذا التفسير نصوص أوردها صاحب كتاب أخبار العباس[18] على لسان أبي مسلم حيث يقول:

«أمرني الإمام أن انزل في أهل اليمن وأتألف ربيعة ولا ادع نصيبي من صالحي مضر. واحذر أكثرهم من أتباع بني أمية واجمع إلي العجم».

وقال أبو مسلم في مناسبة أخرى «لقد أمرنا الإمام باختصاص اليمن». أما من جهة النقد الداخلي لنص الوصية فيمكن تلخيصه بالنقاط التالية: -

1- نص الرواية مجزأ في الطبري إلى جزأين يذكر بينهما حوادث لا علاقة لها بالوصية ثم تعود الرواية فتتكلم عن الوصية الثانية مما يشعر بأن بعض الفقرات قد حشرت حشراً.

2- تأتي الوصية تحت عنوان «سبب قتل مروان بن محمد لابراهيم الإمام»، مما يدل على أنها أو بعضها وضعت من قبل رواة أمويين لتبرير قتل مروان لابراهيم.

3- التناقض غير المقبول واضح في نص الوصية، فكيف يصح أن يأمر ابراهيم الإمام بقتل العرب كل العرب وهو يدرك أهميتهم ويوصي أبا مسلم بالثقة بالقبائل اليمنية والربعية.

4- وأخيراً فأن سياسة أبي مسلم وسليمان الخزاعي في خراسان لا تنطبق مع الوصية المزعومة فأن الدعاة العباسيين قاموا بدعاية واسعة للثورة بين صفوف القبائل اليمنية والربعية حتى أن أبا مسلم قبل كثيراً من المضريين أيضاً في صفوف الدعوة.

وعلى هذا فإننا نعتقد بأن هذه الوصية أو عبارات منها في أقل تقدير قد وضعت من جانب أعداء العباسيين من الأخباريين كدعاية لتشويه أهداف الدعوة.

وحين عقد مجلس النقباء اجتماعاً تقرر إعلان الثورة في مرو لأنها على حد قول أحدهم «بها خلق كثير من إخواننا وبها السلطان قد وهن أمره. ومتى يقوى بها أمرنا يقوى في غيرها» وقال آخر «إذا اجتث الأصل فلا بقاء للفرع»[19]. وأرسل الدعاة ليخبروا أنصار العباسية بالالتقاء في مرو في يوم عيد الفطر من سنة 129هـ.

وقد ساعد الوضع المتدهور في خراسان بسبب التصادم بين أنصار نصر بن سيار والي خراسان من جهة وأنصار جديع الكرماني شيخ قبائل الأزد اليمنية، أبا مسلم على تركيز جهوده خلال سنة 128هـ - سنة 129هـ في القرى التي يسكنها العرب

الذين أدركوا عدم جدوى هذا النزاع غير المثمر. يقول صاحب كتاب العيون والحدائق[20]:

«ولما رأى الناس.. أن شيعة بني مروان قد وقع بينهم الخلاف وبعضهم يقتل بعضاً وأن جديعاً الكرماني قد قتل الحارث بن سريج وتسلم مرو ثم أن نصرا قتل جديعاً وأن علياً وعثمان ابني جديع مالا إلى أبي مسلم وصادقاه وحلفا له دخل أكثر الناس في طاعته».

وتؤكد ذلك رواية أخبار العباس حيث تقول:

«فطالت الفتنة بين نصر بن سيار وعلي بن الكرماني ومن كان بها من العرب حتى أضجر ذلك كثيراً من أصحابها وجعلت نفوسهم تتطلع إلى غير ما هم فيه وإلى أمر يجمعهم فتحركت الدعوة يدعو اليماني من الشيعة اليماني والربعي الربعي والمضري المضري حتى كثر من استجاب لهم وكفوا بذلك عن القتال والعصبية[21].

تدل هذه النصوص على أن العرب من أهل خراسان كانوا عصب الجند الهاشمية. كما أن تمركزهم في قرى خزاعة اليمنية جعل نصراً يتردد في مهاجمتهم قبل استفحال أمرهم لأنه كان حذراً من «تسويد اليمنية» بأجمعها أي دخولها في صفوف الدعوة العباسية.

وليس يهمنا هنا أن نذكر حوادث الثورة وتطوراتها بالتفصيل فقد تتابعت الأحداث بين أخذ ورد واستطاعت الدعوة كسب شيخ قبائل الأزد اليمنية واتباعه الذين كان بينهم من ربيعة ومضر كذلك إلى صفوف الثورة. وكان هذا المكسب مهما جداً لأنه كان يعني انضمام عدد كبير من العرب إلى الدعوة وبهذه القوة الضاربة كانت نهاية نصر واندحار الأنصار الأمويين في خراسان.

ولا بد لنا أن نذكر بأن أنصار العباسية تعرضوا لدعاية قوية وبليغة ومؤثرة من قبل نصر بن سيار والي الأمويين فقد حاول الوالي الأموي أن يشوه من سمعة الشيعة العباسية واصفاً إياهم بالكفار الذين يعبدون الرؤوس والسنانير والرعاع وسقاط العرب والموالي والسفهاء والمجوس. كما أنه تعرض لهم في الشعر قائلاً:

ليسو إلى عرب منا فنعرفهم — ولا صميم الموالي أن هم نسبوا

ولم يقف الدعاة العباسيون مكتوفي الأيدي تجاه هذه الدعاية التي أقلقتهم لأنهم

خشوا أن يتأثر فيها الأتقياء والعامة من الناس ولذلك قاموا بدعاية مضادة حيث نودي إلى الاجتماع وبايع المجتمعون سليمان الخزاعي شيخ النقباء العباسية «على كتاب الله وسنة رسوله . . وإظهار العدل وإنكار الجور ورفع الظلم عن الضعفاء وأخذ الحق من الأقوياء» . كما أجاب أحد الدعاة العباسيين نصراً بن سيار شعراً بشعر فقال :

لسنا نحابي على الرحمن من أحد　　　فيما نطالب من مولى ومن عرب

على أن هذه النعوت التي أطلقها كل من المعسكرين على الآخر كانت لأسباب دعائية[22] . فالأمويون أنفسهم حينما التقى الجمعان في المعركة نادوا أنصار العباسية قائلين : يا معشر المسلمين . . »[23] .

ودعوهم إلى نبذ الفرقة والانضمام إلى الجماعة على اعتبار أن الخلافة الأموية هي التي تمثل الجماعة شرعاً .

وتفصل روايات البلاذري وأخبار العباس والأزدي والطبري في شرح الحوادث التي صاحبت تقدم قوات أهل خراسان إلى المدن الأخرى بعد احتلالها مرو . فتذكر مثلاً أن خازماً التميمي احتل مرو الروذ باسم العباسيين بمساعدة قبيلة تميم .

ولقد جاءت أوامر ابراهيم الإمام بتعيين قحطبة بن شبيب الطائي قائداً لأهل خراسان الذين توجهوا الآن إلى العراق والشام عبر بلاد فارس ، ويقدرهم صاحب كتاب الإمامة والسياسة بـ 30 ألفاً من اليمنية وفرسان خراسان . وفي نيسابور خاض الجيش الخراساني معركة مع اتباع نصر من العرب والفرسان من سكان نيسابور . على أن المعركة المهمة وقعت في جرجان حيث وقف أهل جرجان الفرس مع الأمويين وقاتلوا معهم جنباً إلى جنب ضد الجيش الخراساني . على أن الجيش الخراساني استطاع إحتلال جرجان وقتل الكثير من الإيرانيين الذين قاوموا الخراسانيين[24] . إن معركة جرجان دليل آخر على أن الدعوة العباسية لم تكن ثورة الفرس على الأمويين ذلك لأن الفرس من أهل جرجان وقفوا إلى جانب الأمويين واستطاعوا مقاومة الخراسانية بل أخروا جيش قحطبة الطائي بعد احتلاله المدينة فكان على قحطبة أن يعيد الكرة لكي يحتل المدينة ثانية . ولعلنا نستطيع القول بأن كثيراً من المدن الإيرانية لم تثرها الدعوة العباسية بالدرجة التي يصورها لنا بعض المؤرخين المحدثين .

ولقد ساعدت القبائل العربية في العراق الجيش الخراساني حيث أهدته إلى أقصر

الطرق وأسلمها إلى الكوفة. وكان من السهولة على شيوخ هذه القبائل أن يغيروا ولاءهم من الأمويين إلى العباسيين وعلى حد قول أحدهم فإن دولة بني أمية مدبرة ودولة المسودة مقبلة فكان زعماء القبائل العربية يأملون منها الخير الكثير.

وقد أغلقت قبائل الموصل أبواب المدينة في وجه الخليفة مروان الأموي الذي اضطر إلى الانسحاب إلى الشام. وفتحت الموصل أبوابها للجيش الخراساني مستقبلة أياه بالتهليل[25].

وفي حصار واسط أغرى أبو جعفر (المنصور) القبائل اليمنية المعتصمة في داخل المدينة مع يزيد بن عمر بن هبيرة والي الأمويين على العراق قائلاً لهم «السلطان سلطانكم والدولة دولتكم». وقد ثمن الخليفة أبو جعفر المنصور موقف القبائل اليمنية معاضدتها للثورة العباسية قائلاً:

«فيحق لنا أن نعرف لهم حق نصرهم لنا وقيامهم بدعوتنا ونهوضهم بدولتنا»[26].

وفي حصار دمشق يستنجد عبد الله بن علي العباسي قائد الجيش الخراساني باليمنية من أهل الشام قائلاً: «إنكم واخوتكم من ربيعة كنتم بخراسان شيعتنا وأنصارنا»[27]. وعلى هذا فعلينا ألا نستغرب بافتخار العرب بأنهم سند الدعوة ونقباؤها وأنصارها[28]. ولا عجب كذلك من رفع الدعوة شعار «يا محمد يا منصور». فمحمد هو محمد بن علي العباسي منظم الدعوة والمنصور هو «منصور اليمن» أي المنقذ اليمني الذي تذكره الملاحم والنبوءات وتتوقعه القحطانية اليمنية.

وبعد.. ولعل في ما ذكرناه قد أوضح أن الوقت قد حان لإعادة النظر في التفسير القديم للدعوة العباسية، واستبداله بتفسير جديد يبين بوضوح بأن العنصر المحرك للدعوة كان العرب الخراسانية الذين كونوا أغلبية أنصار العباسية يساعده في ذلك الموالي. على أننا لاحظنا بأن الموالي لم يكونوا إلى جانب طرف واحد فقط من الطرفين المتنازعين العباسي والأموي بل نجدهم يحاربون في صفوف المعسكرين ولكن دورهم لم يكن كبيراً بحيث يمكن مقارنته بدور العرب.

هوامش الفصل الأول

1-انظر أخبار العباس وولده ص 125، فيما بعد، الطبري: تاريخ الرسل، 111، ص 1945 فما بعد الدينوري. الأخبار الطوال ص 355 فما بعد- نبذة من كتاب التاريخ ص 260أ فما بعد، الأزدي: تاريخ الموصل ص 190 فما بعد.

2-فاروق عمر: الخلافة العباسية، الفصل الثاني. بغداد 1969.

3- انظر فارق عمر: الجذور التاريخية لإدعاء العباسيين بالخلافة، مجلة كلية الدراسات الإسلامية 1967-1968.

4- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، السلسلة الأولى- ابن اعثم الكوفي: الفتوح جـ1، ص 20 فما بعد.

5- العلي: استيطان العرب في خراسان، مجلة كلية الآداب 1959.

6- شعبان: المصدر السابق، ص 157 فما بعد.

7- فاروق عمر: الخلافة العباسية، الفصل الثاني. بغداد 1969.

8- نفس المصدر السابق.

9-أخبار العباس، ص 190 ب.

10- أخبار العباس وولده، ص 102أ فما بعد. - الطبري: تاريخ الرسل والملوك، القسم الثالث، 1988.

11-الطبري: المصدر السابق، القسم الثالث، ص 1952.

12-أخبار العباس، ص، 106 أ-125أ، الطبري 1962 ,1964 .1917 .1916، الدينوري. ص 344، اليعقوبي: التاريخ جـ 2 ص 398، العيون والحدائق، ص 182، ص 1190، الإمامة والسياسة جـ2، ص 217 ص 207 ابن خلدون: التاريخ جـ 3، ص 219 -220.

13-أخبار العباس، ص 58 ب ص62أ. الطبري: المصدر السابق القسم الثالث ص 1929، ابن طاووس: الملاحم والفتن ص30 فما بعد، الخزاعي: كتاب الفتن، ص 18 فما بعد.

14-فاروق عمر الخلافة العباسية، الفصل الثاني، بغداد 1969 (بالانكليزية).

15-الطبري: المصدر السابق، 11، 1927، الإمامة والسياسة، جـ2، ص 212.

16-الدينوري : الأخبار الطوال ، ص 352 .

17-العيون والحدائق ، ص 184 .

18-خبار العباس ، ص 138ب ، ص 139أ ، نبدة من كتاب التاريخ ، ص 260أ .

19- أخبار العباس ، ص 131ب فما بعد .

20-العيون والحدائق ، ص 188 .

21-أخبار العباس ، ص 199أ.

22-انظر : فارق عمر : الخلافة العباسية (بالانكليزية) الفصل الثاني . بغداد 1969 .

23-أخبار العباس ، ص 166ب : «يا معشر المسلمين اتقوا الله وراجعوا جماعتكم ولكم الأمان على ما أحدثتم في هذه الفتنة ولكم العطاء والرزق الواسع» .

24- أخبار العباس ، ص 160 .

25-الأزدي : تاريخ الموصل ، ص 115 . . «ووافى مروان الموصل منهزماً فمنعه هشام بن عمرو من دخول الموصل وسود هشام وأهل الموصل . . » .

26-الأزدي : المصدر السابق ، ص 191-194 .

27-الأزدي : المصدر السابق ، ص 124 « . . ثم إن العباسيين أكرموا شيوخ القبائل الذين ساعدوهم بمنحهم القطائع حيث أقطع أبو العباس وائل السجاعي الازدي الموصلي قطعتين بربض مدينة الموصل ، وزاد من ذلك لخليفة المنصور . (الأزدي ص 136-149) .

28-الجاحظ : رسائل الجاحظ ، (مناقب الترك) .

الفصل الثاني

قيام الدولة العباسية

إن حوادث الثورة العباسية وتطوراتها قد كشفت في الفصل السابق بأن الثورة كانت قضية عربية اصطدم فيها العرب من أنصار الأمويين بالعرب من انصار العباسيين. وقد حاول كل طرف أن يكسب إلى جانبه من يستطيع من القبائل العربية الاخرى في الاقاليم. ولقد اشترك الموالي في احداث الثورة على أن دورهم لم يكن كبيراً بالمقارنة بدور القبائل العربية، فلقد حارب الفرس كموالٍ تابعين لقبائل عربية ولذلك نشاهدهم يحاربون في الجانبين الأموي والعباسي.

اما القبائل العربية الأخرى فقد لعبت دوراً فعالاً في مساعدة جيش قحطبة الطائي المتقدم للسيطرة على مدن غربي بلاد فارس ومدن العراق[1].

لقد حقق قحطبة الطائي والقوات العباسية نصراً جديداً في جرجان في ذي الحجة130هـ، تموز 747م وقتل نباته الكلابي قائد القوات الأموية. ولكن أهل جرجان الفرس قاوموا جيش قحطبة الطائي مما اضطره إلى احتلال المدينة بالقوة، ثم واصل سيره إلى الري ففتحها، على أن المعركة المهمة والتي كانت «الفيصل» بين الطرفين وقعت في قرية جابلق قرب اصفهان بين الجيش الأموي بقيادة عامر بن ضبارة والجيش العباسي بقيادة قحطبة الطائي. وكانت المعركة من الأهمية بحيث أخذ الناس يتوقعون نتائجها ويقولون:

«إن ظفر ابن ضبارة ثبت الملك وإن ظفر قحطبة تم الأمر لبني هاشم»[2]، وقد انتصر انصار العباسيين وقتل ابن ضبارة في المعركة.

وفي حركة سريعة اصبحت القوات العباسية داخل العراق وقد نجح أبو سلمة الخلال رئيس دعاة العباسيين بالعراق في خلق حالة من الفوضى داخل العراق لزعزعة السيطرة الأموية فحرض العديد من رجال القبائل على التمرد ضد الأمويين في الكوفة والبصرة والموصل وغيرها.

ولعل في الرسائل المتبادلة[3] بين مروان بن محمد الخليفة الأموي وواليه على العراق يزيد بن عمر بن هبيرة ما يدل على حالة الارتباك. فمظاهر الضعف ظاهرة في إدارة يزيد بنعمر كما أن موقف مروان بن محمد، الرجل القوى والعسكري المتمرس، من أعوانه وأخذهم بالشك والريبة وتحزبه لبعضهم ضد الآخر أدى إلى ضياع القدرات وتبعثر الجهود.

وفي 27 آب 749م / 132هـ، تقابل الجيشان مرة اخرى على شواطئ الفرات قرب «الفلوجة» وقد دارت معركة لم تكن حاسمة حيث انسحب جيش الأمويين باتجاه واسط، فيما قتل قائد الجيش العباسي قحطبة الطائي في المعركة[4]، ورغم أن معركة الفلوجة لم تكن حاسمة إلا أنها اثرت في معنويات الجند الأموي بدرجة ملحوظة، وكان من نتائجها إعلان الكوفة ولائها للقوات العباسية وخلعها مروان بن محمد.

عهد الخليفة أبي العباس عبدالله (السفاح) 132هـ بيعته 749م - 136هـ/ 754م

في العاشر من محرم الحرام سنة 132هـ آب749م دخل أبو سلمة الخلال مسجد الكوفة محاطاً بقواد أهل خراسان العرب حميد بن قحطبة الطائي (قائد الجيش العباسي الجديد) ومقاتل العكي وخازم التميمي وخطب في الناس فوعدهم وبشرهم بالدولة الجديدة دون أن يسميها كما زاد من اعطياتهم. ويبدو أن عدم تصريح ابي سلمة باسم الامام أو الخليفة الجديد كان لغرض في نفسه فقد كان يسعى سراً إلى تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين.

وفي هذا الوقت بالذات عانت الثورة العباسية من نكسة كبيرة ألا وهي مقتل إبراهيم الامام زعيم الثورة الذي اوصلها بكفاءته إلى النجاح. فقد اعتقله الخليفة

مروان بن محمد في دمشق ثم قتله. وكان إبراهيم العباسي قد اوصى لاخيه ابي العباس عبدالله بن محمد بامامة الدعوة العباسية من بعده وكتب بذلك إلى أبي سلمة في الكوفة وإلى أبي مسلم وسليمان الخزاعي بخراسان. وكان أبو العباس قد هرب من الحميمة بعد اعتقال أخيه وتوجه نحو الكوفة في محرم أو صفر 132هـ آب أو أيلول سنة 749م ولكن بيعته تأخرت بسبب انحراف الخلال عن خط الثورة العباسية مدة شهر حتى اكتشفه قادة الجيش الخراساني العرب وبايعوه في ربيع الأول سنة 132هـ/ تشرين الأول سنة 749م.

وفي أول خطبة ألقاها الخليفة أبو العباس[5] بعد مبايعته في مسجد الكوفة أوضح بأن الثورة العباسية قامت باسم الإسلام ومن أجله وأنها تعني العدالة للمظلومين والمستضعفين من الناس وزاد من اعطيات الناس فجعلها 100 درهم شهرياً. واكد بان للعباسيين الحق في الخلافة لإنهم اقرباء الرسول (ﷺ) وندد بسياسة الأمويين وظلمهم للناس كما حذر المتطرفين (السبأية) من أية حركة واعداً ومتوعداً بإنه السفاح المبيح والثائر المبيد، ومن هنا جاء لقبه بالسفاح.

لقبه: إن النصف الأول من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي كان فترة مشحونة بالتنبؤات عن قرب ظهور (المهدي المنتظر) الذي سيملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً وكانت هذه النبوءات تحفل بها كتب الجفر والملاحم والفتن. وكان من المألوف أن تتبنى كل ثورة على النظام القائم بعض هذه النبوءات وتروجها بين الناس لكسبهم إلى صفها. وكان من هذه الثورات الثورة العباسية التي بدأ تنظيمها نحو سنة 98هـ وفجرت سنة 129م وحققت النصر النهائي سنة 132هـ.

السفاح: وهو اللقب الذي يطلقه أغلب المؤرخين المحدثين على الخليفة العباسي الأول عبدالله بن محمد. ولقد اختلف المؤرخون المحدثون في تقدير هذا اللقب من ناحيتين الأولى من هو صاحب اللقب؟ والثانية ما هي أهميته الحقيقية وما هو مغزاه؟ ويعبر المستشرق امندروز عن حيرته في معرفة السبب وراء اعطاء ابي العباس هذا اللقب ولكنه يؤكد بإن هذا اللقب كان معروفاً في أيام الخليفة وكان من جملة ألقابه، ويؤكد الاستاذ الدوري إن هذا اللقب ليس من القاب أبي العباس بل أن المؤرخين

التبسوا بين عبدالله بن محمد وعبدالله بن علي فأعطوا لقب الاخير إلى الأول. ويتفق البروفسور برنارد لويس مع الاستاذ الدوري في هذا الشأن. أما الاستاذ حسن الباشا فيري بأنها من القاب الخليفة العباسي الأول ويرجح أنها صفة مدح تتصل بالكرم والبذل والعطاء[6].

ولقد اختلف المؤرخون الأوائل كذلك حول هذا اللقب، ومما هو جدير بالذكر أن المؤرخين الرواد كالجهشياري وابن حبيب والطبري واليعقوبي والدينوري لا يشيرون بصورة عامة إلى هذا اللقب بل إنهم حين يتكلمون عن الخليفة العباسي الأول يشيرون إليه بكنيته «أبو العباس».

ولعل المسعودي[7]، يعتبر من أوائل الذين اطلق لقب السفاح على أبي العباس ومن ثم تبعه المؤرخون المتأخرون. على أن هؤلاء المؤرخين يختلفون كذلك في معنى هذا اللقب، أهو يعنى الكرم والسخاء أو أنه كان يعني التقتيل والمجازر. اما الكوفي[8] فيظهر أبا العباس وكأنه الشخص الثائر المطالب بدماء آل البيت من الأمويين، وهنا يجدر بنا أن نذكر بإن الخليفة أبا العباس نفسه استعمله في خطبته الافتتاحية في الكوفة حين أعلن نفسه خليفة حيث قال لأهل الكوفة «... فاسعدوا فأنا السفاح المبيح...» ويؤكد دي خويه بأن أبا العباس كان يعد الناس بالعطاء الكثير والسخاء الوفير ولم يكن يتوعدهم بالقتل والتشريد[9]، ونحن نؤكد هذا الرأي لأن الخليفة اتبع قوله آنف الذكر بأن قال: «... والثائر المبير» وهنا دون شك يكمن الانذار والوعيد[10].

إن هذا اللقب «السفاح» بمعنى الجزار يناسب عبدالله بن علي عم الخليفة أبي العباس أكثر مما يناسب الخليفة. فقد كان عبدالله بن علي والي الشام ولذلك نلاحظ بأن ابن قتيبة والزبيري وصاحب مخطوط اخبار العباس واليعقوبي يسمونه (بالسفاح)، وبعد أن يذكر المقدسي مجازره في الشام يقول بإنه كان يسمى (بالسفاح)، كما وأن المقدسي يشير إلى الابيات التي ذكرها الكوفي ويعزوها إلى أبي العباس على أنها ابيات قيلت في حق عبدالله بن علي وليس في حق عبدالله بن محمد، وهذا في رأينا أكثر قبولاً[9].

وعلى هذا فإن الأقرب إلى الصواب القول بإن عبدالله بن علي كان يلقب بالسفاح بمعنى الجزار ولكن المؤرخين المتأخرين ومن بينهم المسعودي وبعض روايات أخبار العباس حين كتبوا عن الدولة العباسية صعب عليهم ألا يكون للخليفة الأول لقب مثل غيره من الخلفاء العباسيين فاتخذوا لقب (السفاح) خاصة وأن الخليفة نفسه كان قد نعت به نفسه بمعنى المعطاء وليس الجزار.

واستمر المؤرخون في اعطاء هذا اللقب إلى أبي العباس وحاول بعضهم أن يبرره فقال ابن الجوزي والعيني مثلا بأن هذا اللقب اطلق على أبي العباس لإنه كان يحب سفك الدماء وكان ذلك بليغا في كلامه. والواقع أن الخليفة الأول كان معروفاً بصورة عامة بمرونته وحبه للتوفيق والتساهل ويقول عنه المقدسي أنه كان يكره الدماء، وأنه أمر عمه عبدالله ألا يقتل احداً إلا بإذنه.

وقد اضر هذا اللقب من الناحية التاريخية بالخليفة العباسي الأول ذلك لإنه قاد كثيراً من المؤرخين إلى المبالغة في عزو المجازر والقتول التي قام بها الولاة إلى أوامر الخليفة.

إننا نعتقد بأن لقب السفاح لم يكن لقبا رسمياً للخليفة أبي العباس في فترة حياته وانما ابتدعه المؤرخون من بعده. وإن الخليفة حين اطلق على نفسه صفة السفاح كان يعني بها المعطاء لا الجزار. وكان للخليفة أبي العباس القاب اخرى في حياته اطلقها عليه الشيعة العباسية فكان غالباً مايسمى (الأمام) واحيانا (المهدي) والقائم والمهتدي والمرتضى. ويشير القلقشندي[10] إلى ذلك فيقول: «لقد اختلف في لقب أبي العباس فقيل القائم والمهتدي والمرتضى وغلب عليه السفاح لكثرة ما سفح من دماء بني أمية». ويؤيد هذا الرأي هلال الصابى. على أننا ندرك بأن كل هؤلاء المؤرخين متأخرون. بينما نلاحظ روايات في اخبار العباس والنبذة تشير إلى أبي العباس فتقول: «هذا المجلي عن بني هاشم القائم المهدي...». ويشير المسعودي إلى أن أبا العباس «لقب أولاً بالمهدي»، حين بويع بالخلافة. ويؤكد صاحب كتاب اخبار الدول المنقطعة بأن لقب أبي العباس هو «المرتضى»، ويشير إلى أن السفاح هو عبدالله بن علي عم الخليفة بسبب مجازره في الشام وتتبعه الأمويين وقد قال فيه الشاعر[11]:

وهكذا فإن صاحب كتاب اخبار الدول المنقطعة يؤيد المقدسي في نسبة هذه الابيات إلى عبدالله بن علي ويعارض رواية الكوفي.

وكانت أمية في ملكها تجور وتظهر طغيانها
فلما رأى الله أن قد طغت ولم تطق الأرض عدوانها
رماهم بسفاح آل الرسول فحز بكفيه اذقانها

ولايخفى ما لهذه الالقاب من خصائص دينية تتصل بنبوءات الملاحم والجفر. وقد استغل العباسيون كثرة سقوط السدم والكواكب في السنوات الأولى من حكمهم وربطوها بالنبوءات والروايات عن مجيئ المنقذ المنتظر الذي سيملأ الأرض عدلاً مؤكدين أن هذا المنقذ هو عباسي النسب. وظهرت احاديث كثيرة نسبت إلى الرسول(ﷺ) وكلها ذات دلالات دينية سياسية تشير إلى المنقذ المنتظر ومن هذه الأحاديث عن الرسول (ﷺ): «يخرج رجل من أهل بيتي عند انقطاع من الزمن وظهور الفتن يقال له السفاح يكون عطاؤه حسيبا». وفي حديث آخر «منا القائم ومنا المنصور ومنا السفاح ومنا المهدي. . .» وفي حديث آخر عن عبدالله بن عباس «منا أهل البيت أربعة: منا السفاح ومنا المنذر ومنا المنصور ومنا المهدي»[12].

والمعروف في تاريخ العصور الوسطى سواء في أوروبا المسيحية أو الشرق الإسلامي أن اسطورة المنقذ المنتظر الذي سيرسله الله ليقضي على الجور كانت وعدا أكيداً متوقعاً لا يختلف عليه الرأي. وإن النبوءات التي عبرت عن هذه الآمال والتوقعات كانت متداولة في كتب الملاحم والجفر التي استغلها الحكام والاحزاب المعارضة في التأثير على العامة من الناس. وفي كتابه عن الملاحم الأوروبية في العصور الوسطى يقول نرومان كوهن[13] كانت الرعية تحاول أن ترى في كل حاكم جديد ذلك الامبراطور المنتظر الاخير الذي سيكون عصره «العصر الذهبي» المتوقع. . . وفي كل مرة تنتهي التجربة بالخيبة التي لابد منها وعندئذ يحاول الناس أن يتصوروا الحاكم الجديد منقذاً حقيقياً وهكذا. . . ولم يكن هناك على الاطلاق أي نقص في الحكام الذين يستغلون هذه التنبؤات والآمال من قبل الرعية مع اختلاف في ما بينهم في درجات الاخلاص أو الاستهزاء والتهكم.

ولم يكن تأريخ الشرق الإسلامي ليختلف عن تاريخ أوروبا المسيحية في هذه الظاهرة. فلقد ظهر كثير ممن إدعى دعوة المنقذ المنتظر أو المهدي الذي جاءت به النبوءات في الملاحم والجفر والاحاديث. ولم تقتصر هذه الدعوى على حكام أو خلفاء بل شملت رجل دين وثوار معارضين للحكم القائم. وليس يهمنا هنا أن نتطرق إلى المهدي والمهدية والسفياني والسفيانية ولا إلى التميمي أو القحطاني أو إلخ ولكننا نقول بإن هذه الفكرة كانت شائعة منذ القرن الأول الهجري تبناها النظام الأموي القائم وكذلك احزاب المعارضة وخاصة الشيعة العلوية. فكان عمر بن عبدالعزيز مهديا بالنسبة إلى انصار الأمويين بينما دعا المختار الثقفي إلى المهدي العلوي (محمد بن الحنفية). وقامت الثورة العباسية فاستغلت النبوءات وفكرة المهدية ووجهت انتباه الناس إلى الرايات السود التي ستخرج من المشرق يقودها المنقد (ابن الحارثية) الذي لا ترد له راية. وقامت المعارضة العلوية والأموية ضد العباسيين فنادت الأولى بالمهدية ونادت الثانية بالسفيانية. وظهر مهديون علويون عديدين وسفيانيون أمويون كثيرون خلال العصر العباسي الأول. ولقد كانت فكرة المنقذ المنتظر هذه خطراً كبيراً على العباسيين ذلك لإنها جذبت الناس المعدمين والضعفاء سواء كانوا ذوي ميول علوية أم غير علوية حول الثوار الذين ادعوا المهدية أو السفيانية باعتبارهم سينقذون هؤلاء المعدمين من حالتهم التعسة. ولقد كانت هذه المحاولة بارعة من قبل الثوار ذلك لإن الطبقات الفقيرة في المجتمع الإسلامي فقدت رجاءها في الثورة العباسية والمنقذ العباسي بصورة عامة وأخذت تنظر إلى حركة جديدة ومنقذ جديد لتنقل أملها الموعود إليه فكان محمد النفس الزكية ذلك المنقذ العلوي الجديد وكان أبو محمد السفياني ذلك المنقذ الأموي الجديد. وعلى ذلك فإننا يجب أن ندرك بأن كثيراً ممن انخرط في صفوف محمد أو السفياني نظروا إليهما كمنقذين جديدين أكثر من نظرتهم إليهما كعلوي أو أموي أحق من العباسيين بالخلافة.

وكان على العباسيين بطبيعة الحال أن يجابهوا هذه الدعاوى بدعاوي مثلها من الناحية الفكرية وبقوة السلاح من الناحية العملية. ففي المجال النظري ابتدعوا ألقاب المنصور والمهدي العباسي والهادي وكلها القاب ذات مغازي دينية- سياسية كما سنرى قريباً.

هاشمية الكوفة: عاصمة الدولة

باعتلاء العباسيين الحكم انتقل مركز الخلافة من الشام إلى العراق، ولقد ارضى هذا الانتقال أهل العراق من جهة ومن جهة اخرى فأن هذا التحول يظهر بان العباسيين كانوا مقتنعين بأن العراق هو الاقليم المناسب لهم ولأنصارهم لأسباب سياسية واقتصادية. فالعراق هو موطن القبائل العربية التي هاجرت إلى خراسان ثم كسبتها الدعوة العباسية وثارت بها على الأمويين. ثم أن العراق حاضرة لإمبراطوريات قديمة قبل الإسلام وهذا يؤهله لكي يكون مركزاً لدولة جديدة، ولعل اضطراب اقاليم بلاد فارس في أواخر عهد الأمويين وكذلك اضطراب بلاد الشام جعل العباسيين يختارون العراق ليكونوا خارج هذين الإقليمين ولكنهم وفي الوقت نفسه يكونون على صلة قريبة بهما للسيطرة عليهما. وهذا ولابد أن نذكر التحول الاقتصادي والانتعاش التجاري للعراق خلال هذه الفترة بسبب وقوع العراق على الطريق التجاري بين الشرق والغرب. على أنه لم يكن من السهولة بمكان تعيين المحل المناسب من العراق لاقامة العاصمة. فلم يستطع الخليفة أبو العباس أن يتخذ قراراً قطعيا حول موقع العاصمة وكان القرار يتأرجح من منطقة إلى اخرى لاعتبارات غالبا ما كانت سياسية. فلم يستقر أبو العباس في الكوفة بل اختار موقعا قريبا منها وبنى فيه عاصمة جديدة سماها الهاشمية إلا إنه عاد فأنتقل إلى موقع جديد قرب الانبار وبنى هاشمية جديدة[14].

معركة الزاب ونهاية الأمويين

وكان أول عمل يواجه الخليفة أبا العباس هو التصدي لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية الذي كان قد تقدم من الشام إلى الجزيرة الفراتية وتخندق في موقع حصين قرب نهر الزاب الكبير احد فروع نهر دجلة ومعه أهل الشام والجزيرة الفراتية. لقد عين الخليفة أبو العباس عمه عبدالله بن علي لقيادة الجيش العباسي المتقدم لمجابهة مروان بن محمد. وكانت القوتان متكافئتين في العدد حيث يقدر عدد كل منهما بنحو 20 الف مقاتل على أنهما لم يكونا بالانسجام والمعنويات نفسيهما. فقد عملت العصبية القبيلة على زعزعة معنويات الجيش الأموي وعلى تفككه.

استمرت المعركة عشرة أيام ارتكب خلالها مروان بن محمد خطأ استراتيجياً بعبوره إلى الساحل الايسر من الزاب الكبير وتركه موقعه الحصين، ولذلك خسر المعركة النهائية وانسحب باتجاه الموصل فالشام وعبدالله بن علي يتبعه. ولم يستجب لمروان بن محمد كثير من قبائل بلاد الشام مما اضطره إلى الانسحاب مع انصاره باتجاه فلسطين ثم مصر يتبعه عبدالصمد بن علي الذي استطاع اللحاق به والقبض عليه في قرية بوصير في صعيد مصر فقتله وارسل رأسه إلى الخليفة العباسي[15].

لقد خسر مروان بن محمد معركته الأخيرة وخلافته بسبب تخلي القبائل اليمانية وغيرها من أهل الشام التي كانت دعامة الخلافة الأموية خلال عهدها الزاهر، أما الآن فقد استطاع عبدالله بن علي إغراءهم وخاطبهم قائلاً:

«إنكم (أي اليمانية) وإخواتكم من ربيعة كنتم بخراسان شيعتنا وانصارنا»[15] أما القبائل القيسية التي أمل مروان بن محمد فيها خيراً فقد تخلت عنه في اللحظات الحرجة ولهذا قال عنها مروان «انفرجت عني قيس انفراج الرأس»[16].

وبمقتل مروان بن محمد سقطت الخلافة الأموية واستسلمت البقية الباقية من المدن والقبائل العربية التي كانت لاتزال معتصمة بانتظار اخبار مروان.

انحراف الخلال

لقد كان أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال وزير آل محمد[17] والداعية العباسي في الكوفة قد قضى ثلاثين سنة في خدمة الدعوة العباسية وكانت علاقته بإبراهيم العباسي امام الدعوة العباسية قوية ولكنه ما أن سمع بمقتل إبراهيم من قبل السلطة الأموية حتى تردد في الاعتراف بابي العباس زعيما جديداً للدعوة العباسية وانحرف عن الثورة وراسل ثلاث شخصيات علوية هي: جعفر بن محمد (الصادق) وعبدالله بن الحسن المحض وعمر بن علي بن الحسن عارضا عليهم الخلافة. ولكن خطته فشلت بسبب تردد العلويين ولقوة التنظيم العباسي الذي كشف الخطة وسارع إلى بيعة أبي العباس في الكوفة فاسقط في يد ابي سلمة الخلال وسارع إلى بيعة الخليفة الجديد مقدما اعتذاره، ولعل السبب الرئيس الذي دفع الخلال إلى الانحراف هو

طموحه السياسي ورغبته في الاحتفاظ بموقع قوي في الدولة الجديدة فخطط لترشيح خليفة علوي ضعيف يختاره بنفسه فيكون أبو سلمة المدبر الحقيقي للدولة وليس للخليفة غير الاسم فقط . لقد قبل الخليفة أبو العباس اعتذار الخلال ورضي عنه في البداية إلا أنه قتله بعد فترة وجيزة بسبب خيانته هذه .

الوضع القلق في خراسان

الراوندية:

لقد واجهت الدولة العباسية وهي لا تزال في بدء تأسيسها حركات متطرفة في جيوب متفرقة من المشرق الإسلامي وخاصة في خراسان. وكان أول هذه الحركات المتطرفة الحركة الروانديه بزعامة عبدالله الراوندي، ورغم أن هذه الفرقة كانت تعتقد بامامة العباسيين إلا انها كانت تدين باراء متطرفة بعيدة عن الإسلام الصحيح كما اعتنقت آراء مجوسية حول تناسخ الأرواح واستحلال الحرمات الإسلامية. وقد ساء هذه الفرقة المتطرفة أن يعلن العباسيون انهم سيسيرون على هدي كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) فثارت معلنة تمردها . إلا إن تمردها لم يستمر فقد سحقتها السلطة العباسية وتخلصت من خطرها في خراسان[18] .

بهافريد:

ثم جابهت السلطة العباسية في خراسان حركة بهافريد (الزرادشتية) المجوسية . فقد تمرد بهافريد في نيسابور معلناً مذهباً زرادشتياً معدلاً وادعى أن حركته لاصلاح الدين الزرادشتي ونشره بين الناس، متحدياً السلطة العباسية والدين الإسلامي[19]، ورغم أن بهافريد قد تستر ببعض المبادئ الإسلامية وحاول إضافتها إلى حركته الجديدة إلا أن العباسيين كشفوا حقيقة مبادئه وقتلوه وسنتكلم عن البهافريدين لاحقاً بتفصيل أكثر .

بوادر تمردية لأبي مسلم

لقد حاول أبو مسلم الخراساني الذي اصبح والياً على خراسان خلال عهد الخليفة أبو العباس أن يوسع نفوذه وسلطته مظهراً بوادر تمردية في تلك الفترة المبكرة من العصر العباسي. فقد قتل عديداً من الدعاة العباسيين العرب وكون نواة جديدة لجيش يدين له بالولاء كما تمرد على أوامر الخليفة العباسي وأرسل ولاة إلى بعض الأقاليم في المشرق دون علم السلطة المركزية أو موافقتها[20].

وهكاذ ادرك العباسيون ومنذ فترة مبكرة أن الاضطرابات في المشرق بدأت تنذر بالخطر.

الموقف من الأمويين[21]:

لقد وقفت معظم القبائل في بلاد الشام موقف المعارض من حكم مروان آخر خلفاء الأمويين، ولكن ما ان سيطر العباسيون على زمام الحكم حتى ادرك أهل الشام خطأهم حيث فقدوا امتيازاتهم واصبحت بلادهم اقليما من أقاليم الدولة بعد أن كانت مركزا لها تدر عليها الواردات من كل حدب وصوب، ورغم عدم تقبلهم للوضع الجديد فقد ظلوا برهة من الزمن دون أن يحركوا ساكنا ثم ما فتئوا أن أظهروا غضبهم فقاموا بعدة حركات قابلها العباسيون بالشدة حينا وباللين والمساومة حيناً آخر. وقد اشار عدد من المؤرخين إلى قسوة العباسيين تجاه الأمويين وأتباعهم وأنهم دبروا المجازر والقتل الجماعي في سبيل الانتقام منهم أو الثأر لانفسهم، وكأن هذه المجازر، حسب ما ترويها مصادرنا، خطط لها لتكون عنيفة ومثيرة لتبقى رمزاً تاريخياً للثأر وأخذ الحيف. وهذه الروايات الغامضة والمتضاربة تختلف في تصويرها لموقف الخلفاء العباسيين من الأمويين ومواليهم. ولعل احد أسباب هذا الغموض ميول الراوي نحو العباسيين أو العلويين أو الأمويين تلك الميول التي أثرت في الرواية في تلك الفترة الانتقالية. فمثلاً الروايات العباسية وحتى العلوية تعزو موقف الخليفة الشديد من الأمويين إلى الرغبة في الانتقام منهم لما قاموا به من أعمال تجاه الهاشميين (أهل البيت) مثل زيد ويحيى وإبراهيم الامام والحسين وغيرهم. وتظهر بعض الروايات

العلوية، خاصة بعد التصدع الذي وقع بين العباسيين والعلويين، تظهر العباسيين بمظهر المشفق على الأمويين المتعنت مع العلويين. اما الروايات الأموية فهي تبالغ في اظهار تصرفات الخلفاء والولاة تجاه الأمويين الذين عانوا الأمرين من العباسيين في حين تظهر روايات متفرقة أخرى الموقف المتزن والمتعقل للخلفاء العباسيين تجاه الأمويين مما يدل على سياستهم الرزينة أن صحت هذه الروايات، كل ذلك يشير إلى الموقف الصعب الذي يجابه الباحث في تاريخ هذه الحوادث في تلك الفترة الانتقالية.

ومما يزيد في صعوبة البحث التعميم والغموض والتكرار الذي تتصف به هذه الروايات، فهناك روايات تعزو حادثة واحدة إلى أكثر من شخص واحد. وهناك روايات تصف المسرح الذي وقعت عليه المجازر في نهر أبي فطرس أو في الحيرة بالوصف نفسه مما يدعو إلى الحذر في تقبل هذه الروايات التي ربما كانت تصف حادثة واحدة لاحادثتين. كما أننا لا نعرف على وجه التحديد أعداد ولا اسماء القتلى، ولدينا روايات متضاربة تظهر أبا العباس وداود بن علي والي الحجاز وسليمان بن علي والي البصرة بوجهين مختلفين. الأول يظهرهم بمظهر الرحماء الحماة للأمويين المتشردين والثاني يظهرهم بمظهر القساة المطالبين بالثأر. وفي هذا الاتجاه تظهر ميول الكوفي الموالية للعلويين حيث يؤكد أن العباسيين انما دفعهم إلى قتل الأمويين هو الثأر للعلويين. على أن روايات الكوفي في هذا الخصوص تتميز بالسطحية وضعف الاسناد والتعميم. وبكلمة موجزة يمكننا القول بإن الرواة الأوائل اتفقوا على ألا يتفقوا في هذا الباب أما المؤرخون المتأخرون فإنهم يبالغون في تصوير (المجازر) والتعذيب الذي لاقاه الأمويون.

مجزرة نهر أبي فطرس[22]

وبالنسبة إلى هذه الحادثة التي وقعت سنة 132هـ -750م، يقول البلاذري بإن عبدالله بن علي والي الشام منح الامان للأمويين ودعاهم إلى وليمة في احدى القلاع الرومانية على مقربة من نهر أبي فطرس بفلسطين. وبعد أن اعطاهم الجوائز أمر الخراسانية فقتلوهم عن آخرهم. ويقول الطبري أن 72 أموياً قتلوا في هذه الحادثة دون أن يفصل ذلك. وهناك رواية طويلة عن الحادثة في كتاب (الامامة والسياسة) وتاريخ

اليعقوبي والمسعودي. وتقول هذه الرواية الاخيرة بإن عددهم كان 80 شخصا حيث حرض الشاعر العبدي عبدالله بن علي على قتل الأمويين فقتلهم الخراسانية ثم غطاهم الوالي العباسي بغطاء وجلس على جثثهم وتناول طعامة مع أصحابه. وكان من بين المدعويين شخصيات أموية بارزة مثل عبدالواحد بن سليمان بن عبدالملك وعبد الرحمن بن معاوية بن هشام. على أن هذا الاخير كان قد حذر واستطاع الإفلات.

يتفق كل المؤرخين بأن هذه الحادثة قد وقعت فعلاً ولكنهم يختلفون في عدد الضحايا. فأنساب الاشراف والاغاني لا يعطيان أي رقم. اما الطبري ويتبعه ابن عساكر الذي يشير إليه العيني فيذكر أن عدد الضحايا هو 72شخصا. بينما يقدره خليفة بن خياط وابن حبيب وابن قتيبة واليعقوبي واخرون نحو 80 شخصا. ولكن الشيء الذي يلفت النظر أن عدداً قليلاً من الضحايا قد ذكروا باسمائهم في مصادرنا. أما كتب النسب فتعطي عددا من الاسماء لضحايا نهر أبي فطرس دون أن يصل عددها الكلي إلى نصف العدد الذي يقرره المؤرخون. على ان النسابة يذكرون اسماء أخرى لضحايا عبدالله بن علي دون ان يشيروا بالتحديد إلى أنهم من ضحايا نهر أبي فطرس. وفي كل الحالات لايصل العدد الكلي إلى الثمانين.

أما بالنسبة إلى اسم المدبر أو المخطط لهذه الحادثة فأن كل المصادر تؤكد إنه عبدالله بن علي العباسي والي الشام وقائد القوات العباسية التي قضت على مروان الاخير على أن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو هل نفذ عبدالله الخطة بأمر من الخليفة أم على مسؤوليته الخاصة؟ يقول الكوفي واليعقوبي وكتاب العيون والحدائق إن العباس أمر عبدالله بأن يقتل كل أموي يقبض عليه. ورغم أن هذه السياسة كانت مناسبة لدولة جديدة تحاول أن تثبت نفسها فإنه يصعب علينا أن نتصور بإن الخليفة أبا العباس المعروف بمرونته ورغبته في التوفيق قد اصدر أمراً كهذا. والظاهر ان هذه الروايات ذات صبغة علوية وهي على الاغلب روايات موضوعة. ولعل الأمر الأكثر احتمالا هو أن عبدالله بن علي خطط لهذه المجزرة بنفسه دون استشارة الخليفة ومما يعزز هذا الرأي أن الخليفة لما سمع بالحادثة كتب إلى عبدالله بن علي يأمره بأن لا يقتل أمويا إلا بإذن منه.

نهب دمشق والعبث بقبور الأمويين [23]

وفي دمشق قام عبدالله بن علي بعمل رمزي مثير للثأر لبني هاشم من جثث الخلفاء الأمويين. لا يذكر الطبري شيئا عن هذا الحادث. ويتفق البلاذري والكوفي واليعقوبي بأن عبدالله بن علي نبش قبور الخلفاء عدا قبر الخليفة عمر بن عبدالعزيز، و لم يجد شيئا في القبور غير العظام القليلة في ما عدا هشام الذي كان جسده لا يزال كاملا فضربه بالسياط واحرقه ثأراً لابيه علي العباسي الذي كان قد قاسى من سياط هاشم في حياته. ثم احرق عبدالله بقايا الخلفاء الأمويين وذر الرماد في الهواء. ولم يكن هذا العمل الرمزي إلا عملاً سياسيا قصد به الثأر لشهداء آل البيت ولكنه دون شك اثار انصار الأمويين الذين ظهر امتعاضهم على لسان امرأة خاطبت عبدالله قائلة: «يا عبدالله أن الشاة لا يضرها السلخ بعد الذبح».

لقد أعقب سقوط دمشق على يد العباسيين عمليات من النهب والسلب دامت ثلاثة أيام. ويعزو الدنيوري ذلك إلى أوامر اصدرها القائد أبو عون عبدالملك الأزدي بينما يقول ابن حبيب واليعقوبي والمسعودي أن عبدالله بن علي هو الذي أمر بذلك.

وأكثر من ذلك فأن اليعقوبي والمسعودي لا يتفقان على الوقت الذين نهبت فيه دمشق فيؤكد الأول على أنها حدثت قبل مجزرة أبي فطرس بينما يقول الثاني أنها حدثت بعد المجزرة، ولعل اليعقوبي اصح من المسعودي في هذا الشأن ذلك لإن الجيش إحتل الشام قبل فلسطين حين كان يتعقب مروان الثاني بعد اندحاره في معركة الزاب. والجدير بالذكر أن أهل الشام يتحملون قسطاً من المسؤولية لحوادث الاضطرابات والسلب التي حدثت حيث يشير الكوفي والأزدي بأن الفتنة والقتال بدأت بين سكان دمشق من اليمانية والقيسية قبل دخول الجيش العباسي إلى المدينة.

ضحايا الأمويين في الحجاز[24].

ويروى أن داود بن علي العباسي والي الحجاز قتل عدداً من الأمويين بأمر الخليفة أبي العباس، ولا يفوتنا أن نقول بإن هذه الرواية تتنافي تماما مع السياسة الودية والمرنة التي اعلنها داود بن علي حين وصل إلى الحجاز ليتسلم منصبه الجديد. فمن

غير المعقول أن يتصرف هذا الوالي تصرفاً يدل على الشدة والعنف فيأمر بقتل عدد من الأمويين في بطن مر. ومما يزيد في غموض الحادثة أن الروايات لا تذكر أسباب قتلهم ولا عددهم أو اسماءهم. يقول اليعقوبي أن داود وعد بالأمان لكل أهل الحجاز ثم قتل عدداً من الأمويين في مكة. وأرسل عدداً آخر منهم إلى الطائف حيث قتل بعضهم وسجن البعض الآخر.

وقام داود بالعمل نفسه في المدينة. كما أنه ارسل حمادا الأبرص إلى اليمامة لقتل المثنى بن يزيد بن هبيرة. ومما يجعل مجازر مكة والمدينة أكثر غموضاً هي أنها تشترك مع حادثة نهر أبي فطرس في احداثها المسرحية التي تناقلتها الروايات ومنها دعوة الأمويين إلى الاجتماع ودخول احد الشعراء والقائه القصيدة ثم صدور الأمر بقتل الأمويين. رغم أن اسم الشاعر هنا يختلف عن اسمه في حادثة نهر أبي فطرس.

إن غموض الروايات وتداخل حوادثها مع حوادث نهر أبي فطرس يثير كثيراً من الشكوك بصدد مجازر الحجاز التي ان صح أنها حدثت فعلاً فلا بد أن تكون قد حدثت على نطاق اضيق مما تصوره لنا المصادر المتيسرة. ومما يؤكد وجهة نظرنا هذه أن النسابة لا يذكرون إلا أسماء قليلة جداً لضحايا داود بن علي في الحجاز

اضطهاد الأمويين في البلاط العباسي[25]

يقول الكوفي إن بعض الأمويين التجأوا إلى العراق وطلبوا حماية الخليفة أبي العباس وكان سليمان بن هشام بن عبدالله الملك يتزعم هذه الفئة من الأمويين الذي اعلنوا ولاءهم للنظام الجديد، وذكروا الخليفة بالصلة القريبة بين بني أمية وهاشم. وقد رحب بهم الخليفة وسمح لهم بزيارة دار الخلافة. ولم تمض فترة طويلة حتى زار الشاعر سديف بن ميمون مولى بني هاشم الخليفة فاغتاظ لوجود الأمويين وحرضه العلويون على اثارة الخليفة بقصيدة مؤثرة فقال:

لا يغرنك ما ترى من رجال
إن تحت الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع السوط حتى

لا ترى فوق ظهرها أمويا

وقد أدت هذه القصيدة إلى المزيد من الضحايا بين الأمويين. ويذكر الكوفي بأن عددهم كان نفس عدد ضحايا مجزرة نهر أبي فطرس أي 80 شخصا، ويستمر الكوفي ليصف الصورة نفسها التي وقعت في مجزرة نهر أبي فطرس من وضع الاغطية على الجثث وتناول الخليفة الطعام فوق تلك الجثث. وهذا دون شك خلط واضح من المؤرخ بين الحادثتين. ويروي الاصفهاني الرواية نفسها لمجزرة نهر أبي فطرس وكأنها حدثت في بلاط الخليفة أبي العباس مع بعض الإضافات حيث يشير إلى الاجابة الجريئة لاحد الأمويين الحاضرين في البلاط. ويشير الكوفي إلى أن جميع الحاضرين من الأمويين قد قتلوا ما عدا سليمان بن هشام وابنيه، اما الاصفهاني فيذكر عبدالعزيز بن عمر بن عبدالعزيز على أنه الشخص الوحيد الذي سلم من المجزرة، وينقل المؤرخون المتأخرون هذه الحادثة دون مناقشة، على أنه من الطريف أن نذكر بأن أبن الأثير يذكر استغرابه للغموض ويشير إلى أن مجزرة الثمانين أموياً تنسب إلى عبدالله بن علي لا إلى الخليفة كما يقول البعض من الرواة.

ونحن هنا أمام موقفين لا ثالث لهما: فإما أن ننفي أصلاً حدوث مجزرة في البلاط العباسي أو أن نقر بإن هناك حادثتين مختلفتين. والواقع فإن الاحتمال الثاني أكثر قبولاً. وذلك أولا لإن راويها هو الهيثم بن عدي وثانياً لإن الاسماء المذكورة مثل الشاعر سديف بن ميمون وسليمان بن هشام في هذه الرواية لا تتكرر في روايات اخرى عن حوادث اخرى. وثالثا أن المسرح الذي وقعت فيه الحادثة يتميز عن غيره وهو الحيرة حيث كانت مقر الخلافة العباسية. وعلى ذلك فيظهر أن حادثة البلاط قد إضيف إليها خطأ بعض العناصر المستعارة من حادثة نهر أبي فطرس. إن الغموض والخلط بين هاتين الحادثتين لا يعود إلى نسبة حادثة واحدة إلى اشخاص عديدين في اماكن مختلفة بقدر ما يعود إلى استعارة عدة مظاهر من حادثة معينة ونسبتها بسبب خطأ من الرواية إلى حادثة اخرى. وأغلب الظن أن السبب في ذلك يعود إلى التشابه بين اسمي الخليفة ووالي الشام العباسي وإلى أن المؤرخين نسبوا إلى كل منهما لقب

(السفاح) كذلك. وهناك مظاهر اخرى تشترك فيها الحادثتان مثل وجود الشعراء والقاء القصائد.

ومع ذلك كله فإن حادثة البلاط العباسي في الحيرة تظل متميزة عن غيرها لإنها تحتفظ بعناصرها الخاصة بها: وجود الخليفة شخصيا. الشاعر سديف بن ميمون. والضحايا سليمان بن هشام وجماعته الأموية.

مصير سليمان بن هشام الأموي[26]

لقد أعطى العباسيون أول الأمر الأمان إلى سليمان بن هشام نظرا لثورته ضد مروان بن محمد، وفي بداية عهد أبي العباس اعلن العفو عن سليمان وابنيه وبعض أفراد حاشيته ومواليه. والمعروف عن سليمان بن هشام أنه وقف ضد مروان الاخير وأنه قدم العون للعباسيين في الفترة الحرجة أثناء ثورتهم ولكن ذلك لم يشفع له كثيرا فقد اعتبر خطرا على الدولة لكونه أمويا وذا نفوذ بين اعوانه وربما دفعه ذلك إلى طلب الخلافة.

يشير الكوفي إلى أنه بعد أن القى الشاعر سديف قصيدته وقعت مناقشة بين الخليفة وسليمان حيث أمر الخليفة أبا الجهم صاحب شرطته وعبدالجبار بن عبدالرحمن الأزدي صاحب حرسه بقتل سليمان وابنيه. أما البلاذري فينسب قتلهم إلى أبي مسلم الذي كتب كتاباً طويلاً إلى الخليفة ذكر فيه قائلاً: (إذا أنت عاملت صديقك وعدوك سواء فكيف يرجوك الصديق وكيف يخافك العدو). ويؤكد ابن تغرى برذي رواية البلاذري فيقول: بإن أبا مسلم ذكر الخليفة بأن فرعا من شجرة السوء (الأمويين) قد بقي ويجب قطعه قاصداً بذلك سليمان بن هشام بطبيعة الحال، ولما امتنع الخليفة عن قتل سليمان اقنع أبو مسلم سديف أن يقول شعرا يحرض الخليفة على قتل هذا الاموي ففعل. ولعل المؤرخ الحديث يتساءل في هذا الموقف عن حقيقة دور ابي مسلم. وهل أن هذه الرواية هي احدى الروايات الموضوعة التي نسبت إلى ابي مسلم تدخله في كل صغيرة وكبيرة في البلاط العباسي أم أن هذه الرواية صحيحة خاصة وأن أبا الجهم وهو من اعوان أبي مسلم البارزين هو الذي نفذ امر القتل بنفسه.

ويحق لنا أن نتساءل كذلك من كان يدير شؤون الدولة العباسية؟ أهو الخليفة في العراق أم أبو مسلم في خراسان؟. وهل كان نفوذ أبي مسلم إلى هذه الدرجة من الفاعلية، والمعروف أن أبا مسلم في هذه الفترة بالذات كان له نفوذ كبير في تسيير السياسة العباسية. ومن الممكن أن يكون قد حرض الخليفة أو نبه بضرورة التخلص من سليمان بن هشام ومواليه.

حركة السفياني المنتظر في بلاد الشام[27]

لقد كانت بلاد الشام تتمتع بامتيازات كثيرة خلال العصر الأموي تلك الامتيازات التي زالت بزوال الدولة الأموية ومجيئ العباسيين. والواقع فقد كان ارتباط بلاد الشام بالأمويين يرجع إلى عهد الجاهلية حيث كان بنو أمية يتاجرون مع الشام تجارة رابحة كونت لهم صلات وثيقة بأهل الشام. والذي يتمعن في الفتح الإسلامي لبلاد الشام يرى أن كثيراً من الأمويين اشتركوا فيه. وبعد فترة قصيرة عين معاوية بن أبي سفيان والياً للشام ثم صار خليفة للدولة الإسلامية سنة 41 هـ-661م.

لقد كانت الدولة الأموية دولة أهل الشام الذين تمتعوا بامتيازات اقتصادية وسياسية. كما كان الاقليم السوري يقع في المحل الأول في نظر خلفاء بني أمية الذين فضلوا مصالح أهل الشام على مصالح غيرهم. وكان لوجهة نظر أهل الشام أهمية وتأثير بالنسبة إلى وجهات نظر الأقاليم الأخرى. ولذلك فقد كان طبيعياً أن يشعر أهل الشام بخيبة أمل كبيرة نتيجة سقوط الأمويين فقد اصبحت بلاد الشام أقليماً ثانويا بعد أن كانت اقليما رئيسا بل الاقليم الأول في الدولة. واصبح أهل الشام موضع شك وريبة باعتبارهم انصاراً للعهد البائد. وانتقلت السلطة إلى العراق. إن هذا التغيير كانت له عدة نتائج مهمة وخاصة من الناحية الاقتصادية.

والمعروف أن المدن الشامية والجزرية كان عليها أن تعلن ولاءها للجيش الخراساني المنتصر دفعاً للشر. ولكن اغلبها ارتد واغلق الأبواب في وجه الولاة العباسيين الجدد أمثال أبي جعفر وعبدالله بن علي ضد الأمويين بل كانوا ضد مروان الثاني الذي كان بسبب شعوره العميق بإن الطريقة التي وصل بها إلى الخلافة لم تكن طريقة تقليدية شرعية بل طريقة كثرت بشأنها التساؤلات، فضلا عن انه قد اتبع

سياسة الملاحقة والتضييق والاضطهاد ضد الأمراء الأمويين الذين اعتبرهم خطراً على مركزه. كما طبق سياسة العصبية القبلية فرمى نفسه في احضان القيسية وابعد اليمانية. إن القبائل الكلبية اليمانية التي كانت حجر الاساس في تأسيس الدولة الأموية جرحت في الصميم بسبب سياسة مروان هذه ولذلك رفضت مساعدة مروان في احلك ساعاته.

وما أن زال حكم مروان الأخير حتى ظهرت آمال جديدة لدى أهل الشام الموالين للأمويين لاستعادة امتيازاتهم المفقودة وتنصيب خليفة أموي جديد. وكانت هذه الآمال على شكل تنبؤات تتعلق بظهور السفياني المنتظر منقذ أهل الشام من الجور العباسي. إن الاساطير المتعلقة بالسفياني ربما ظهرت لأول مرة بعد وفاة معاوية الثاني حيث سيطر على زمام الحكم الفرع المرواني بدلا من السفياني سنة 64هـ / 687م. ثم عادت وظهرت الان بين القبائل الكلبية السورية.

على أن انتفاضات القبائل الشامية لم تكن كلها ذات صبغة دينية تتعلق بالسفياني المنتظر وإنما كان بعضها سياسيا صرفاً. ولكن العوامل السياسية اختلطت بالاساطير الدينية والتنبؤات في عدد غير قليل من الحركات.

ومن هذه الحركات: حركة حبيب المري وأبي الورد الكلابي والعباس السفياني وأبان المرواني وسنفصل في حركة واحدة منها:

حركة أبي الورد مجزأة بين كوثر الكلابي وأبي محمد السفياني[28]

حدثت هذه الثورة السياسية - الدينية في قنسرين وحلب. وكان أبو الورد من خاصة مروان وصنائعه حيث لعب دوراً بارزاً في اخماد الثورات ضد مروان الاخير في حمص ودمشق. استطاع أبو الورد من حرق المزة احدى القرى اليمانية في الغوطة وقتل يزيد بن خالد القسري قائد الثورة. ثم شخص أبو الورد بعد ذلك للقضاء على الفتنة في فلسطين فهزمهم وبهذا استقرت لمروان الشام كلها ما خلا تدمر وهي المقر الرئيس لكلب.

وحين قتل مروان على يد العباسيين بيض أبو الورد معلنا معارضته للدولة

العباسية. وحين يحاول الاخباريون أن يجدوا سبباً لهذه الثورة فإنهم يعزون ذلك إلى محاولة احد القواد الخرسانيين التزوج من ابنة مسلمة بن عبدالملك واساءته التصرف معهم. وتستطرد الرواية فتشير بإن هذه الحادثة اثارت نخوة أبي الورد الذي رفع الاعلام البيض داعيا كل المدن السورية لمعاضدته في الثورة وقد ايدته كل من حمص وتدمر. وسواء كانت هذه الرواية صحيحة أم لا فإنها إتخذت تبريراً لثورة هذا الشيخ المتنفذ الذي شعر بخيبة أمل كبيرة بزوال سلطان الدولة التي رعته وأحبته.

وفي تدمر التفت الكلبية حول أبي محمد زياد بن عبدالله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان. واعلنوا أنه السفياني المنتظر الذي سينقذ السوريين من محنتهم هذه. وكان عددهم نحو 40 الفا. ويعزو المستشرق لامنس إختيار أبي محمد لقيادة الحركة لا إلى قابلياته الشخصية بل إلى عدم وجود شخصية مروانية اخرى قادرة على قيادة الحركة حيث ان العباسيين قتلوا العديد منهم ولم يبق إلا صغار السن. على أن جهة النظر هذه يصعب قبولها لإن بعض المروانيين ظهر على المسرح السياسي وقاد حركات ثورية بعد فترة قصيرة من ثورة أبي محمد.

وأكثر من ذلك فإن أبا محمد رغم تلقيبه (بالبيطار) كان شخصية سياسية فعالة في العهد الأموي المتأخر. ومما يذكر عنه أنه كان من أوائل الذين ادركوا من الأمويين الحالة المتردية للدولة وحاول جهده استعادة النظام في بلاد الشام. خاصة بعد الاضطرابات التي اعقبت مقتل الوليد الثاني 126 هـ - 744م حيث أدرك أن أحسن مرشح للخلافة هو مروان الثاني واخذ على عاتقه زمام المبادرة وبايع لمروان بالخلافة وتبعه بقية الأمراء والناس. ولكن علاقته بمروان اخذت تسوء شيئا فشيئا بسبب شكوك مروان بالأمراء. وقد سجن مروان أبا محمد السفياني مع الأمراء الأمويين، وحين اندحر مروان في معركة الزاب كان باستطاعة أبي محمد أن يهرب من السجن حيث سنحت له الفرصة ولكنه لم يفعل ذلك. وقد اطلق مروان سراحه أثناء انسحابه من الشام نحو فلسطين. وعندئذ انسحب أبو محمد من المسرح السياسي بذكاء ولباقة واختفى في تدمر لمدة من الزمن ليتجنب فترة الاضطرابات التي اعقبت سقوط الأمويين. ولذلك فإن انتخابة لقيادة الحركة كان لأسباب تتعلق بتجربته السياسة

وقدرته الشخصية وليس لعدم وجود شخصية أموية مروانية اخرى. ثم إن اسطورة السفياني كانت مقتصرة على الفرع الأموي السفياني وشائعة بين القبائل الكلبية بصورة خاصة الذين تعلقوا بيزيد بن معاوية ونسله من بعده لأن هذا الاخير كانت أمه كلبية.

في منتصف سنة 132هـ - 751م كان مستقبل الثورة براقاً حيث انتفضت بلاد الشام في وجه العباسيين فثارت دمشق والبلقاء وقنسرين وحمص وحلب وتدمر وغيرها من مدن الجزيرة. فقد اتفق أبو محمد وأبو الورد على تكوين جبهة واحدة. وقد أمر الخليفة أبو العباس واليه عبدالله بن علي بقمع الحركة ولما كانت الفرق الخراسانية منتشرة في مدن عديدة في بلاد الشام والجزيرة ومصر. ارسل الخليفة تعزيزات جديدة من العراق بقيادة عبدالصمد ابن علي وذؤيب بن الاشعث. وكان السوريون عازمين على تحدي هذه القوات الخراسانية العراقية. وكنت المعركة الأولى في صالح السوريين ولكن وصول عبدالله بن علي ومقاتل بن حكيم العكي عزز من قوة الجيش العباسي حيث انتصر العباسيون في معركة (مرج الاخرم) في آخر سنة 132هـ -تموز-751م. وكان الجيش العباسي يضم ابرز القادة العرب من أمثال حميد الطائي وبسام بن إبراهيم وخفاف المازني.

وكانت نتيجة المعركة مقتل أبي الورد حيث (ثبت في 500 من أهل بيته وقومه فقتلوا جميعاً)، اما أبو محمد فقد انسحب إلى تدمر حيث التجأ إلى الكلبية وبقي متغيبا هناك فترة من الزمن ثم هرب إلى الحجاز ولكنه ادرك وقتل.

ورغم أن الحركة ظهرت وكأنها ستحقق انتصارات كبيرة من الناحية العسكرية إلا إن مظاهر ضعفها كانت واضحة منذ البداية. فقد كانت هناك:

أولاً: المنافسة بين أبي الورد وأبي محمد السفياني. فالأول قيسي وكان يهدف إلى زعامة الثورة مع محاولة استغلال اسم أبي محمد باعتباره أمويا سفيانيا لجمع الانصار للثورة. وفي الواقع أن أبا الورد اراد الاحتفاظ بأبي محمد كرئيس صوري Figure head ولكن أبا محمد كان أبرع من أن يسمح لأبي الورد أن ينفذ خططه،

فما أن وصل إلى قنسرين من تدمر حتى سيطر على زمام الحركة جاعلا أبا الورد قائدا للجيش (المتولي لأمر العسكر والمدبر له وصاحب القتال والوقائع) ويسميه أبن النديم (مدبر الجيش) أما أبو محمد السفياني فتطلق عليه الروايات (الرئيس) و (مقدم الجيش وصاحبه).

وكانت هناك الانقسامات القبلية بين الـ 40000 مقاتل من أنصار الأمويين الذين جابهوا جيشا عباسياً متحداً. فقد كان الجناح الايسر من جيش أبي محمد مكونا من الكلبيين بزعامة الاصبغ الكلبي أما الجناح الايمن فكان مكونا من القيسية بقيادة أبي الورد. والمعروف أن القبائل القيسية في قنسرين كانوا حجر الأساس أثناء حكم مروان الثاني. وإنهم قد ارتكبوا في سبيل تثبيت حكمه كثيراً من عمليات القمع تجاه القبائل اليمانية لدرجة أنه يصعب التغاضي عنها والموادعة بينهما وكان هذا واضحا حتى بعد الاندحار، حيث انسحب أبو محمد مع الكلبية إلى تدمر وترك القيسية مضرجين بدمائهم. ومهما يكن من أمر فإن كلا المعسكرين قد خسر كثيراً من الضحايا ولم يعاقب عبدالله بن علي المدن الثائرة التي استسلمت في الحال.

وكان لثورة أبي محمد السفياني وأبي الورد الكلابي نتائج سياسية بعيدة المدى في الشام والجزيرة. أما في الشام فقد ثارت دمشق على واليها العباسي كما ذكرنا ذلك سابقاً بقيادة عثمان بن عبدالله علي الأزدي.

أما في الجزيرة الفراتية فحين بلغهم نبأ خروج أبي الورد وثورة المدن السورية، امتدت إليهم حساسية الثورة فبيضوا ونقضوا في الرقة و قرقيسيا والرها وسميساط ودارا. وقد تجمع انصار الأمويين حول إسحق بن مسلم العقيلي وهو احد الشيوخ المتنفذين في الجزيرة وكان مروان قد عينه والياً على أرمينية. وإتخذ إسحق العقيلي سميساط مقراً له وانضم إليه اخو بكار العقيلي وأحد شيوخ قبائل ربيعة المعروفة بتحديها المستمر للسلطة. كما انضم إليه البدو المستعدون للانضمام إلى أية ثورة مهما كانت صفتها، وهكذا تزايد عدد اتباع إسحق العقيلي بسرعة. وقد اصبح الوالي العباسي أبو جعفر في حالة حرجة. حيث استطاع الثوار أن يحاصروا حران وبها يومئذ موسى بن كعب التميمي في ثلاثة الاف من الجند الذين اعتصموا بالمدينة.

واستطاع الثوار ان يضموا إليهم احد الأمراء الأمويين وهو محمد بن مسلمة بن عبدالملك مما ساعد على تزايد الاتباع الموالين لبني أمية. فاضطر الخليفة إلى ارسال نجدات جديدة من الجند الذي كان يحاصر ابن هبيرة في واسط. وكتب الخليفة إلى عبدالله بن علي بالمسير بجنوده إلى إسحق بسميساط. على أن الثورات الموالية للامويين في الجزيرة كانت غير منتظمة (وأمرهم مشتت ليس عليهم رأس يجمعهم). كما أنها كانت لا تقاوم طويلاً حيث لا تلبث أن تخفت وتهفو. ويصفهم الطبري قائلا بإن الثوار مبعثرون لا نظام لهم ولاقائد يجمعهم. فقد قاوم إسحق العقيلي الحصار في سميساط لمدة سبعة اشهر مع 60 الفا من اتباعه ولم يطلب الأمان والصلح حتى أيقن من قتل مروان. فأجابه أبو جعفر وتم الصلح بينهما. وقد ادرك أبو جعفر أنه من السياسة أن يصطنع إسحق العقيلي ذلك الشيخ المتنفذ بدلا من قتله. واصبح إسحق العقيلي من صحابة أبي جعفر المقربين وبقي معه في البلاط حين اصبح خليفة.

كذلك كان منصور بن جعونة بن الحارث العامري من قيس على أهل الرها حين امتنعوا على الدولة العباسية وينسب إليه حصن منصور إذ تولى بناءه ورممته وقد أمنه المنصور ثم قتله سنة 141هـ بتهمة التواطؤ مع اعداء الدولة وتعريضه بالعباسيين.

وهكذا انتهت ثورة الكلابي والسفياني. ويعلق ولهاوزن على ذلك فيقول: (ولم يختف شأن أبي محمد السفياني بموته بل هو زاد. فكان يعتبر في أول الأمر عند أهل الشام المهدي المنتظر. وكان أهل الشام يعلقون آمالهم السياسية على عودته، وفي آخر الأمر لما آلت الرياسة إلى أعداء الشام صار يقال: إن السفياني هو الرجل الذي سيظهر قبل ظهور المسيح الدجال وعلى هذا فإن شبح بيت الأمويين قد بقي بعد سقوطهم أحد مظاهر اقتراب الدنيا). ويشير كرد على إلى ذلك فيقول: (والغالب أن انصار الأمويين وضعوا بعد سقوط دولتهم ملحمة من الملاحم زعموا فيها أنهم يعرفون ما يحدث في المستقبل في الوادي اليابس من أرض الشام في غسان وقضاعة ولخم وجذام وغاراتهم وحروبهم ومسير الأمويين من بلاد الاندلس إلى الشام وانهم أصحاب الخيل الشهباء والرايات الصفر.

ورغم أن الرواة يصفون الثورات ضد العباسيين (بالتبيض) أي رفع الاعلام

البيض ضد (المسودة) العباسية، فلم يكن هذا الاصطلاح مقتصرا على الأمويين وحدهم. والمعروف أن بعض الثوار الأمويين رفع الشعار الأحمر أثناء ثوراتهم مثل أبي محمد السفياني الذي اتخذ الحمرة شعاراً له سنة 132هـ بينما إتخذ أبو الورد الكلابي البياض شعاراً له ولعل اختلاف الشعارات هنا دليل آخر على اختلاف وجهات النظر بين زعيمي الثورة.

الموقف من العلويين

في النصف الأول من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي حينما بدأ الانحلال السياسي يدب في جسم الدولة الأموية، اظهر عدد من الهاشميين طموحا سياسياً وبدأ كل منهم ينظم حركة معارضة مستقلة ضد الأمويين. وليس من اختصاص هذه الدراسة أن تتعقب الطموح السياسي الهاشمي والثورات الهاشمية خلال العصر الأموي. إلا أننا نود أن نقرر أن الفكرة الشائعة في تلك الفترة هي أن خليفة الرسول (ﷺ) لم يكن بالضرورة فردًا معينًا بذاته أو فرعاً هاشمياً بعينه، بل كان من حق كل هاشمي علويا أو عباسياً أو جعفريا (نسبة إلى جعفر بن أبي طالب) أن يدعي الخلافة ويعمل لها ويثور باسم أهل البيت. ولذلك إتخذت حركة المعارضة اشكالاً مختلفة وارتبطت بشخصيات هاشمية مختلفة:

أ- المتطرفون الذين اتبعوا محمد بن الحنفية ثم ابنه أبا هاشم من بعده، وقد اسند أبو هاشم قيادة اتباعه إلى محمد بن علي العباسي من بعده.

ب - المتطرفون اتباع عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب. وكانوا يعرفوا غالبا بالجناحية.

جـ - المعتدلون أتباع زيد بن علي (زين العابدين) الذين دعوا إلى شهر السلاح ضد الأمويين.

د- واخيراً اتباع الامام جعفر الصادق الحسني الذين تبنوا موقفاً سلميا حيث لم يدع الصادق إلى شهر السلاح ضد الأمويين.

هـ - وحين بدأ محمد بن علي العباسي دعوته كان حذراً وأسند ادعاءه بالخلافة إلى

وصية أبي هاشم عبدالله إليه، كما وانه دعى إلى (الرضا من أهل البيت). ولكن ما أن ثبت العباسيون مركزهم وقبضوا على زمام الخلافة حتى بدأوا ينظرون إلى العلويين نظرة شك على أنهم منافسوهم ومصدر خطر على سلطتهم، أما العلويون فقط نظروا إلى العباسيين على أنهم مغتصبون مبتزون للسلطة من أصحابها الشرعيين. وهكذا دخل النزاع حول الخلافة مرحلة جديدة حيث اصبح نزاعا بين الهاشميين انفسهم: العباسيين والعلويين.

تشتت الجبهة العلوية

ولم يكن العلويون انفسهم متحدين او متفقين على زعامة واحدة. فأغلب الحسينيين انكروا أن يكون للحسنيين أي حق في الخلافة التي حصروها في آل الحسين دون غيره من أولاد علي. وحجتهم في ذلك أن الحسن بن علي وهو الأخ الأكبر للحسين كان قد تنازل عن حقوقه إلى أخيه الحسين. وادعى بعضهم أن العلويين من نسل فاطمة لهم وحدهم أن يرثوا الرسول (ﷺ) على حين ادعى اخرون بأن هذا الحق يشمل أولاد علي من غير فاطمة مثل محمد بن الحنفية ونسله وحتى أولاد جعفر بن أبي طالب مثل عبدالله بن معاوية الجعفري الذي ثار وكاد أن ينجح في اقامة دولة ذات كيان في فارس والاهواز قبل الثورة العباسية بقليل(127هـ).

إن تشتت القيادة العلوية يعني بالتالي بأن ولاء الشيعة العلوية في تلك الفترة لم يكن باتجاه نحو فرع علوي معين. وتدل الاحداث التاريخية أن هؤلاء الاتباع كانوا على العموم يغيرون ولاءهم من فرع إلى آخر وبكل سهولة حسب الظروف(30).

وبعد وفاة زيد بن علي سنة 122هـ -740م وابنه يحيى سنة 125هـ -743م، لم تبق بين العلويين إلا شخصيتان رئيستان هما الامام جعفر الصادق من الفرع الحسيني وعبدالله بن الحسن المحض من الفرع الحسني. وكان الصادق مسالما لا يؤمن بشهر السلاح ضد السلطة وقد اعطى هذا الموقف من الامام الصادق الفرصة لعبدالله بن الحسن ليجمع حوله الشيعة العلوية الفعاليين الذين يؤمنون بوجوب مناهضة الحكم.

وكان عبدالله المحض فخورا بنسبه النقي الذي يعود إلى فاطمة من جهة الأم والاب ولذلك سمي (المحض). ولكن شهرة الحسنيين ومركزهم كان قد تضعضع بسبب ما اشيع من أن الحسن جدهم كان قد تنازل إلى معاوية عن الخلافة مقابل مقدار من المال وحياة مترفة يقضيها في الحجاز. أما مركز الحسينيين فقد بقي كبيراً وشعبياً بين الناس بسبب الذكرى التي خلفتها مأساة كربلاء وزادت هذه الشهرة ثورة زيد ومقتله ثم مقتل ابنه في خراسان على يد والي الأمويين.

تطور الطموح السياسي لآل الحسن

تظهر بعض الروايات أن عبدالله المحض كان ذا نفوذ كبير في الحجاز وخاصة في المدينة. وكان مشهوراً بلباقته وقوة بيانه وسحر لسانه. ولكن طموح عبدالله المحض لم يكن شخصيا بل كان يهدف إلى طلب الخلافة إلى ابنه محمد النفس الزكية. فمنذ عهد الخليفة الأموي هشام (105هـ -724م- 125هـ / 742م) بدأ المحض بنشر الفكرة القائلة بأن ابنه محمداً هو (المهدي المنتظر). وقد ظهرت احاديث منسوبة إلى الرسول(ﷺ) فحواها (إن المهدي منا أهل البيت وأمه منا، اسمه يشابه اسمي واسم ابيه يشابه اسم ابي يملؤها عدلاً كما ملئت جورا).

وكان ادعاء محمد النفس الزكية بإنه المنقذ المنتظر خطوة مهمة جداً لإنها جذبت إليه اعداداً متزايدة من الاتباع من بينهم المتطرفون اتباع «المغيرة بن سعيد البجلي» و«بيان بن سمعان النهدي» وكذلك انجذب إليه كثير من المتذمرين الذين لم يكن لديهم أي ولاء أو عطف نحو الدعوة العلوية ولكنهم آملوا في المنقذ الجديد أن ينقذهم ويوفر لهم حياة أفضل.

اجتماع الأبواء[31]:

عقد بنو هاشم اجتماعاً في الابواء قرب مكة سنة 127هـ -744م حينما كانت كل البوادر تنبئ بتدهور دولة الأمويين بعد مقتل الخليفة الوليد بن يزيد سنة 126هـ. وتذكر بعض الروايات بأن عبدالله المحض هو الذي دعا إلى هذا الاجتماع ليوحد الهاشميين تحت زعامة ابنه محمد وليبايعوا له بالخلافة.

ويختلف المؤرخون في ظروف الاجتماع ومجرياته. ويتفق البلاذري والأصفهاني والأزدي والطبري بأن الاجتماع وقع فعلاً. ولكنهم لا يتفقون على شخصية المشتركين أو آرائهم. ومن الواضح أن هذا الاجتماع قد حدث لإن كيان الأمويين اصبح من الهزالة بحيث زادت الشكوك بشأن إمكانية صموده طويلا وهذا بطبيعة الحال زاد من آمال الهاشميين وطموحهم.

وقد دعا المحض الحاضرين إلى البيعة لابنه المهدي ولكن هذا الاقتراح ادى إلى الانشقاق في صفوف المجتمعين وانحل الاجتماع دون اتخاذ قرار معين.

ولكن الحسنيين ابتدعوا رواية فحواها أن المجتمعين بايعوا للنفس الزكية وقد قابلهم العباسيون بابتداع رواية تقول بإن العباسيين الذين حضروا الاجتماع امثال أبي العباس وأبي جعفر وعبدالله بن علي انسحبوا منه بعد أن جاءهم رسول من خراسان ينبئهم بأن دعوتهم قد آن لها أن تؤتي ثمارها. كما أنهم ادعوا أن عبدالله بن الحسن المحض اعترف بأفضلية محمد بن علي العباسي حينما قابل وفداً من الخراسانيين مشيراً إلى أنه أقدر بني هاشم وأفضل أهل البيت طرا.

إن النقد الداخلي والنقد الخارجي لروايات اجتماع الابواء يؤكد حقيقة ظاهرة وهي بأن الرواة ذوي الميول المختلفة قد جعلوا من هذا الاجتماع مسرحا لتلفيقاتهم ليعزز كل منهم وجهة نظره. والظاهر أن بني هاشم اجتمعوا فعلا في الابواء لبحث الوضع المتدهور في أواخر عهد الأمويين، وحضر الاجتماع عبدالله بن الحسن المحض وابنه محمد وكذلك جعفر الصادق وأبو العباس وأبو جعفر كما حضره بعض انصار الهاشميين ومواليهم. وحينما تطرق عبدالله المحض إلى مصير الخلافة بعد زوال الأمويين ورشح ابنه محمد إليها لم يتفق المجتمعون على ذلك حيث عارض ذلك جعفر الصادق بشدة إلى درجة أنه، على حد تعبير بعض الروايات ذات الصبغة العباسية، مال إلى العباسيين وتنبأ لهم بالخلافة.

ثم أن من غير المعقول أن يبايع العباسيون أية شخصية هاشمية وهم يدركون بأن الحركة الهاشمية في خراسان تعمل من أجل اقامة دولة عباسية منذ سنة 98هـ/ 716م.

ولو أن العباسيين بايعوا محمداً في هذا الاجتماع لما سكت محمد من الاشارة

إلى هذه البيعة في رسالته المشهورة التي أرسلها إلى الخليفة أبي جعفر سنة 145هـ ولذلك فالاغلب أن المجتمعين لم يتفقوا على شيء ولم يبايعوا احداً منهم.

أبو العباس والحسنيين[32]:

وحين تسلم العباسيون السلطة حاولوا أن يتجنبوا أية صلة بالمتطرفين من العلويين(المنظمة الهاشمية) ووجدوا من الأنسب اسناد حقهم على أسس غير وصية أبي هاشم إلى محمد العباسي. وهكذا أصبحت الوصية في خبر كان وحل محلها حق القرابة. وقد أدى هذا الاتجاه الجديد إلى حركات واضطرابات قام بها المتطرفون ابتداء من عهد الخليفة العباسي الأول.

من هذا المنطلق يمكن تفسير محاولة أبي العباس خلق جو من الوفاق الودي الهاشمي (العباسي العلوي) في فترة حكمه القصيرة (132-136هـ)، محاولا أن يجعل من خلافته رمزاً للطموح الهاشمي. ويظهر هذا فعلاً في محاولته التقرب من الشخصيات العلوية ومن قصائد شعراء البلاط في تلك الفترة. ورغم إدراكه بوجود تحركات موالية للعلويين في العراق وخراسان ومعرفته باتصالات يزيد بن عمر بن هبيرة مع محمد النفس الزكية ومراسلات أبي سلمة الخلال مع العلويين وثورة شريك بن شيخ المهري باسم العلويين في خراسان فأنه حاول ترضية العلويين ليعطي الدولة الجديدة فرصة لتثبيت نفسها.

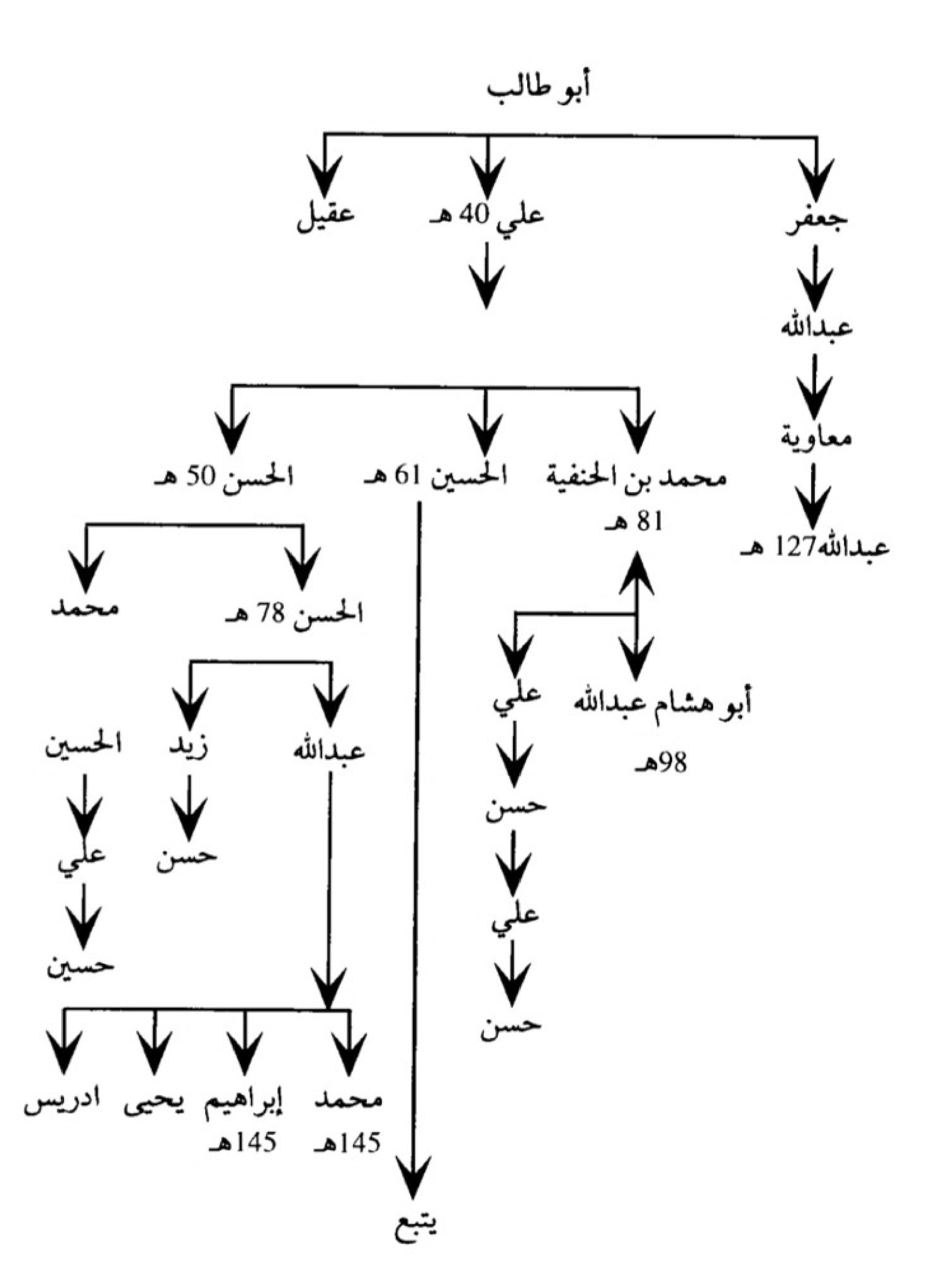
كما أن العلويين انفسهم شعروا، بعد نجاح الثورة وابراز صفتها العباسية، بخيبة أمل مؤقتة. وكانوا في الوقت نفسه بحاجة إلى مزيد من الوقت ليجمعوا قواهم ويوجهوها بعد ما طرأ من ظروف جديدة على الوضع السياسي بمجيئ العباسيين.

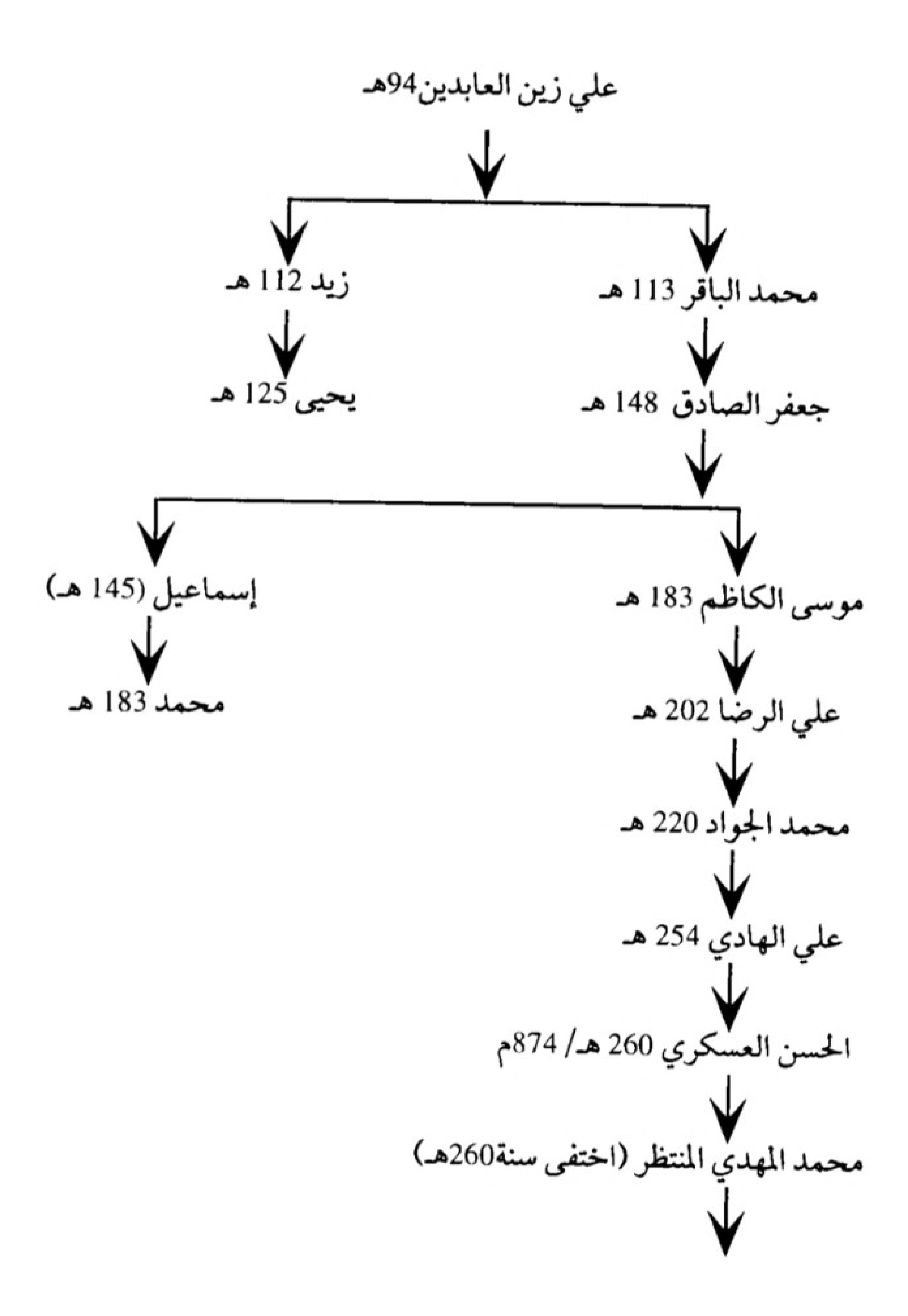
ولكن أبا العباس اعلنها بوضوح لايقبل الشك بأن الخلافة عباسية وستبقى عباسية وانكر أن يكون العلويون أحق بها وأكد المفاهيم نفسها داود بن علي عم الخليفة خطبته في الكوفة ومكة. ففي خطبة الكوفة اعترف بأن الامام علي بن أبي طالب أول خليفة شرعي للمسلمين أما ثانيهما فهو أبو العباس عبدالله بن محمد العباسي واكد أن الخلافة ستبقى في ايديهم حتى يسلموها إلى عيسى بن مريم. أما خطبة مكة فكانت خليطا من المرونة والشدة حيث ذكر الناس ما فضل الله به العباسيين

وقال: (والله ما قمنا إلا لاحياء الكتاب والسنة والعمل بالحق والعدل ورب هذه البنية ووضع يده على الكعبة لانهيج منكم احدا إلا أن يحدث بعد يومه هذا حدثاً أمن الأسود والأبيض...) كما وردت هذه الدعوة على لسان مولى بني هاشم سديف بن ميمون الذي قال: (اتزعم الضلال أن غير آل رسول الله أولى بتراثه لم وبم معاشر الناس؟ الكم الفضل بالصحابة دون ذوي القرابة الشركاء في النسب. لم ير مثل العباس بن عبدالمطلب اجتمعت له الأمة بواجب حق الحرمة (أبو رسول الله بعد أبيه).

وكانت هذه الخطب من أولى المناسبات التي أكد فيها العباسيون على أن حقهم في الخلافة يستند إلى (حق القرابة) من رسول الله (ﷺ) أولا وعلى (حق الحرمة) أي مركزهم الديني كمسؤولين عن سقاية الحجيج ورفادتهم في البيت الحرام في مكة.

على أن نبرة العباسيين في عهد أبي العباس ظلت تؤكد على المهادنة والوفاق ففيها وعد ووعيد وفيها تحذير وترغيب. رغم أن موقف عبدالله المحض من أبي العباس كان ينبىء بتصميمه على مواصلة الكفاح حتى النهاية أو الفوز بالخلافة. فلقد انتهز كل فرصة ليظهر للخليفةامتعاضه من الوضع الجديد كما أن ابنيه محمد وإبراهيم لم يبايعا وبقيا مختفيين. ولكن الخليفة دفع بالتي هي أحسن ظل غاضا النظر عن موقف آل الحسن. وكلما حذره أخوه أبو جعفر من مغبة التهاون أجاب قائلا: التغافل من سجايا الكرام.


أبو طالب
جعفر
علي 40 هـ
عقيل
عبدالله
معاوية
عبدالله127 هـ
محمد بن الحنفية
81 هـ
الحسين 61 هـ
الحسن 50 هـ
الحسن 78 هـ
محمد
أبو هشام عبدالله
98هـ
علي
حسن
علي
حسن
عبدالله
زيد
الحسين
حسن
علي
حسين
محمد
145هـ
إبراهيم
145هـ
يحيى
ادريس
يتبع



علي زين العابدين94هـ
محمد الباقر 113 هـ
زيد 112 هـ
جعفر الصادق 148 هـ
يحيى 125 هـ
موسى الكاظم 183 هـ
إسماعيل (145 هـ)
علي الرضا 202 هـ
محمد 183 هـ
محمد الجواد 220 هـ
علي الهادي 254 هـ
الحسن العسكري 260 هـ/ 874م
محمد المهدي المنتظر (اختفى سنة260هـ)

الموقف من الخوارج

إن الرأي السائد لدى جمهرة من المؤرخين المحدثين أن الحركة الخارجية قد ماتت أو ضعفت وتفتت بدرجة كبيرة في نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي الأول. وهذا الرأي غير صحيح ومبالغ فيه على أن له ما يبرره وهذه المبررات هي:

أ- قلة المعلومات التاريخية عن الخوارج بصورة عامة.

ب - إن الموجود من هذه المعلومات القليلة والمبعثرة بين طيات كتب منوعة لاتعطيهم حقهم ولا تظهر آراءهم وأنها كتبت من وجهة نظر واحدة غالبا وهي وجهة نظر معادية لهم.

جـ - لا توجد مصادر اصلية قديمة كتبها مؤرخون رواد ذو نزعة خارجية. وكل ما لدينا من مصادر خارجية متأخرة جداً تعود إلى بداية العصور الحديثة.

د - لقد تركزت الحركة الخارجية في العصر الأموي في اقاليم مركزية أوشبه مركزية كالسواد والموصل والحجاز. وعلى العكس في العصر العباسي الأول فقد انحصرت في اقاليم بعيدة نوعا ما مثل افريقية، عمان، سجستان، الجزيرة الفراتية واليمن واطراف خراسان وربما كان هذا هو السبب وراء عدم ذكر الحوليات لثورات الخوارج مثل كتاب الطبري الذي يهتم بالاقاليم المركزية بينما نجد تفصيلا لهذه الثورات في كتب التاريخ المحلي مثل تاريخ الموصل وتاريخ سجستان وتاريخ بخاري وتاريخ عمان والمغرب... إلخ كما أن بعض المؤرخين المتأخرين كابن الاثير وابن خلدون والنويري يهتم بذكر اخبار الخوارج ويرسم لنا الخطر الخارجي على الدولة العباسية بصورة أكثر وضوحاً من الطبري. ولعل البلاذري يختلف عن المؤرخين الرواد من حيث اهتمامه بأخبار الخوارج فقد خصص صفحات عديدة من (أنسابه) للكلام عن الخوارج في عهد المنصور ويؤكد ابن الطقطقي هذه الحقيقة مشيرا إلى كثرة الثورات الخارجية التي ازعجت المنصور واقلقته.

هـ - ومما يزيد في تعقيد الأمر وغموضه هو مرونة المؤرخين في استعمالهم اصطلاح الخوارج. فقد يستعملونه للدلالة على كلمة الثائر أو للدلالة على خارجي في العقيدة. وقد انتقلت هذه المرونة إلى كتاب الفرق كذلك. يقول الشهرستاني (إن

اسم خارجي يطلق على كل من خرج على الامام الحق الذي اتفقت عليه الجماعة، سواء أكان الخروج في أيام الصحابة على الائمة الراشدين أو كان بعدهم على التابعين باحسان والأئمة في كل زمان)[4].

و- وكان البدو ينضمون إلى ثورات الخوارج بسرعة خاصة حين شجعهم زعماء الخوارج على الانضمام لتقوية جانبهم وهكذا فقد غدت كلمتا (الاعراب) (والشراة) متلازمتين كما أنه يصعب الفصل بين الحركات الخارجية العقائدية وبين ثورات البدو القبلية المدفوعة بدوافع غير عقائدية. فالبلاذري مثلا يتكلم عن (أهل الفتنة والفساد من الأعراب والشراة). كما أن الخوارج يوصفون غالباً بصفات حادة مثل (جلف جافي) (أعرابي) أو (شباب) للدلالة على قلة خبرتهم وندرة تجاربهم. وهذا دون شك يعود إلى خاصية البداوة الغالبة على اتباع الخوارج منذ نشأتهم.

ومهما يكن من أمر فأننا سنستعرض في هذا الفصل حركات ذات صفة خارجية بحتة سواء من حيث عقيدتها أو من حيث خصائصها وقادتها والرسائل المتبادلة بينهم وبين السلطان. كل ذلك يشير بوضوح على أنها ثورات (الخوارج) ضد العباسيين وليست ثورات بدوية أو سياسية بحتة.

لقد ذكرنا سابقاً أن الخوارج حققوا نجاحات لا بأس بها في أواخر العصر الأموي وخاصة في عهد مروان الأخير حيث سيطروا على اقسام كبيرة من الجزيرة والعراق العربي (السواد) واليمن. وقد كرس مروان كل جهوده لقهرهم حيث اضطروا إلى الانسحاب نحو عمان واليمن أو نحو فارس حيث انضم بعضهم إلى عبدالله بن معاوية. وبعد فشل الاخير انسحبوا إلى سجستان وخراسان حيث ساعدوا العباسيين في تحقيق النصر الاخير ضد الأمويين. ولكن العقيدة العباسية شيء والعقيدة الخارجية شيء آخر ولهذا اصطدم أبو مسلم الخراساني مع شيبان الصغير زعيم الخوارج. فقد طلب كل منهما أن يقسم يمين الولاء للاخر. واستطاع الشيعة العباسية من تدبير هجوم خاطف على اتباع شيبان الذين كانوا في غالبيتهم من بني ربيعة. وقتل منهم من قتل وهرب الباقون.

لقد نظر الخوارج إلى العباسيين النظرة العدائية نفسها التي كانوا ينظرون بها إلى الأمويين، فالعباسيون بنظرهم مغتصبون للخلافة التي يجب أن تكون ذات صفة انتخابية وشورى بين المسلمين كافة ويتقلدها اجدرهم بغض النظر عن نسبه أو قبيلته أو جنسه.

ولم تكد تنقضي سنة واحدة على عهد الخليفة ابي العباس حتى ثار الخوارج في اقاليم مختلفة[33].

1- ففي الجزيرة الفراتية- ثار بريكة بن حميد الشيباني (6)ضد الوالي ابي جعفر عبدالله. وقد انضم إليه أمراء أمويون مثل محمد بن سعيد بن عبدالعزيز. وبعد اندحار بريكة الشيباني في موقعة مع الخراسانية تحصن في جبل دار حيث حاصره مقاتل العكي وقتله.

لقد ظل حال الموصل وربوع الجزيرة من حيث الاضطرابات والثورات كما كان في العهد الأموي ويقرر المستشرق متز هذه الحقيقة «كانت الجزيرة أكبر مركز يحتشد إليه الثوار على اختلاف اصنافهم حيث يكونون على استعداد دائم لاتباع قائد يسير بهم إلى أراضي الفلاحين الخصبة يقتلون وينهبون. ويرجع ذلك إلى عاملين:

أولهما: وجود بعض القبائل العربية المسلحة قوية الشكيمة مثل بكر وتغلب وغيرها.

وثانيهما: موقع هذه المنطقة الجغرافية بين شعوب وعناصر مختلفة من العرب والكرد والأرمن والروم والفرس.

فكان طبيعياً أن يخلق فيها جو مضطرب النزعات والعقائد والاتجاهات يتقبل كل فكرة تدعو إلى التمرد والعصيان والانتفاض على نظام الحكم ايا كان. وأكثر ما يلاحظ في تاريخ هذه البقعة من الأرض انتشار المذهب الخارجي الداعي إلى الثورة على كل سلطان لايدين به. وكان أكثر القبائل البدوية المخيمة حول الموصل عدداً وقوة بنو شيبان الذين انتشروا في اطرافها وخاصة في شرقها»[7].

2- وفي أرمينية وأذربيجان ثار مسافر بن كثير الشيباني[8] الذي كان قد عينه الضحاك الشيباني الخارجي والياً على هذين الاقليمين في أواخر عهد الأمويين. وقد ارسل

أبو العباس القائد محمد بن صول الذي استطاع أن يقتل مسافراً مع عدد من اتباعه وفر الباقون إلى جهات سجستان .

3- وكان اندحار الخوارج في الحجاز في سنة 129هـ/ 746م هو الدافع الذي حفزهم على لم الشمل وتأسيس الإمارة الاباضية في عمان . والمعروف أن طبيعة عمان الجبلية تؤهلها أن تكون معقلاً حصينا للخوارج ثم أن امتداد الصحراء على حدودها الغربية جعل سكانها البدو يعتصمون بالصحراء فينسحبون إليها في حالة الخطر أو الهجوم وجعل الخليج العربي من العمانيين بحارة ممتازين غامروا في رحلات تجارية إلى الهند وجنوبي شرقي آسيا .

لقد اظهرت الدولة العباسية أهتماماً كبيراً بالاقاليم الشرقية كما إنها خططت لفتوحات جديدة في الهند وترانسكسونيا حيث اعطت قوة دفع جديدة للجهاد على الحدود الشرقية ضد ما يسميه المؤرخون المسلمون (بالترك) لقد كان لهذا السبب من الضرورة بمكان أن يسيطر العباسيون على النقاط الحساسة والاستراتيجية التي يمر بها الطريق البحري بين البصرة وجنوبي شرقي آسيا مثل عمان وذلك لتأمين سلامة المواصلات العسكرية والتجارية . ولذلك اضطر العباسيون إلى محاولة تطهير عمان من الخوارج . ولسنا نعدو الصواب إذا ذكرنا أن سلطة الوالي الإسلامي على عمان لم تكن تشمل الاقليم كله بل ربما شملت المدن الرئيسة والقلاع الحصينة في المنطقة . وكان أول وال عباسي على عمان جناح بن عبادة الهنائي الذي عامل الاباضية بمرونة واعترف بنفوذهم لدرجة أنهم كانوا سادة عمان في عهده .

وفي سنة 132هـ/ 749م انتخب الاباضية الجلندي بن مسعود الأزدي إماماً لهم . وتشير المصادر إلى أنه كان عادلاً استقر في العاصمة (نزوة) ولعب دوراً كبيراً في نشر المبادئ الخارجية[34] .

والمعروف أن الصفرية بقيادة شيبان بن عبدالعزيز اليشكري كانوا قد استقروا منذ أوائل عهد العباسيين في جزيرة أبن كاوان قرب شواطئ عمان . وفي عهد أبي العباس قاد خازم التميمي الخراساني حملة سنة134هـ/ 751-752م ضد الخوارج وكان معه 700مقاتل إضافة إلى ما اصطحبه من افراد قبيلته تميم كمتطوعة وكذلك

انضم إليه جماعة من أهل مرو الروذ. وتروي المصادر أن انتخاب خازم التميمي لقيادة الحملة ضد خوارج عمان كان في الواقع بمثابة عقاب له وابعاد عن مركز الخلافة بسبب قتله افراداً من بني الحارث اخوال الخليفة أبي العباس لاشتباهه بايوائهم احد المتمردين على الدولة.

وقد استعملت الحملة السفن للوصول إلى مناطق الخوارج ولم تستعمل الطرق البرية لوعورتها وصعوبتها بالنسبة للمقاتلة. وقد جهزهم سليمان بن علي والي البصرة بالسفن- المطلوبة. واستطاع نضلة بن نعيم النهشلي احد قواد العباسيين ان يدحر شيبان اليشكري في جزيرة ابن كاوان واضطره إلى الانسحاب إلى ساحل عمان. وهناك اشتبك الاباضية والصفرية في قتال بينهما بعد أن فشلت جهودهما للاتفاق ضد الجيش العباسي. وانتهت المعركة باندحار الصفرية ومقتل شيبان اليشكري.

وحين ذاك تحرك خازم التميمي ونزل على شاطئ عمان واخبر الجلندي الأزدي بأنه لا ينوي قتاله وإنما كان هدفه شيبان اليشكري وطلب منه ان يعلن ولاءه للعباسيين ولكن الجلندي الازدي رفض بشدة فما كان من خازم التميمي إلا أن هاجمه في معركة ضارية تسمى (معركة جفار) انتصر فيها خازم واباد معظم جيش الجلندي الازدي الذي قتل في المعركة. على أن المعركة لم تعط نتائج ايجابية بالنسبة للعباسيين فقد استمر ولاء الناس للامامة الاباضية في عمان التي مرت بفترة عدم استقرار وقتية تميزت بالنزاع الداخلي بين القبائل لأسباب قبلية صرفة أو طلباً للثأر. وقد خلع خوارج عمان امامهم محمد بن عبدالله بن عثمان الذي تميز بالتعسف وضعف الشخصية التي ابعدت الناس عنه وانتخبوا اماما جديداً هو عبد الوراث بن كعب الازدي الذي لقب نفسه (بالامام الشاري) أي الذي يضحى بنفسه من أجل العقيدة الخارجية وينذر نفسه لتوسيع نفوذ الخوارج السياسي. وإنه يفضل الموت على الخضوع لسلطة اخرى أو الهرب امامها. ويعتبر كتاب كشف الغمة أن من ابرز مزايا الامام بل من واجباته الرئيسة أن ينشر العقيدة الخارجية. وهذا بطبيعة الحال عكس (الامام الدافعي) الذي يحاول أن يحافظ على سلطان الخوارج في منطقة نفوذهم ولا يحاول أن يهاجم خارج حدود سلطانه.

وعلى هذا فرغم أن عمان كانت اسمياً تحت السلطة العباسية إلا إنها بقيت محتفظة بحكمها الخارجي الذاتي في هذه الفترة .

الموقف من الحركات الفارسية:

يقول المقريزي : «واعلم أن السبب في خروج أكثر الطوائف عن ديانة الإسلام، أن الفرس كان من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر في نفسها بحيث أنهم كانوا يسمون أنفسهم الاحرار والاسياد وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب، وكانت العرب عند الفرس أقل الأمم خطرا، تعاظم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة وراموا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات شتى وكان من قائميهم سنباذ واشنيس والمقنع وبابك وغيرهم وقبل هؤلاء رام ذلك عمار الملقب خداشا وأبو مسلم . . . فرأوا أن كيده على الحيلة انجح فأظهر قوم منهم الإسلام»[35] .

وقد اشار إلى الفكرة نفسها مؤرخون آخرون ولعل أول ظاهرة تجلب انتباه الباحث في تاريخ هذه الفترة المبكرة من العصر العباسي هي كثرة الصعوبات التي واجهت العباسيين في الاقاليم الشرقية، ومهما كانت الظروف في الاقاليم الغربية فإن الخطر الحقيقي الذي هدد العباسيين في أيامهم الأولى كان متأتياً من جهة المشرق لا من المغرب .

إن السكان المحليين في المشرق كانوا منقسمين من موقفهم من الثورة العباسية، لقد حارب الإيرانيون جنباً إلى جنب مع القبائل العربية الخراسانية الثائرة، كما ساندت جماعات اخرى من الفرس الجيش الأموي في كفاحه ضد الثورة، ووقف اخرون سلبيين ولم ينتهزوا فرصة الثورة ليشتركوا في اسقاط الدولة الأموية، على أن المهم هو ان حدوث الثورة العباسية في خراسان وهي جزء من إيران قد عمل على ايقاظ نفوس العامة من الناس، وبعثت فيهم آمال التطلع فانفسح المجال لانطلاق الكثير من الاراء- المتطرفة من المبادئ القديمة التي كانت متأصلة في إيران قبل الفتح الإسلامي فحدث العديد من الحركات، ويمكننا أن ندرك قاعدة عامة في هذا المجال هي مساعدةبعض العناصر في بلاد فارس لكل والٍ يثور ضد السلطة المركزية في إيران،

وقد انضم الإيرانيون إلى كل الثورات السياسية والدينية بشرط أن يكون هدف هذه الثورات القضاء على سلطة بغداد ونفوذها وهذا لايعني بالضرورة أن هذه العناصر الإيرانية تبنت المبادئ التي ثار من أجلها زعماء هذه الحركات، فكثير ممن انضم إلى هذه الحركة أو تلك لم ينضم إليها إيمانا بمبادئها بل اعتبرها متنفسا للتعبير عن تذمرهم ووسيلة للقضاء على السلطان.

على أننا سوف لا نفصل هنا في طبيعة تلك الحركات، وسنترك ذلك حين نتكلم عن كل حركة على حدة وانما نود أن نؤكد على خصائص نراها مشتركة في هذه الحركات.

1- لقد امتازت هذه الحركات بنزعة التوفيق فجمعت آراء إسلامية وإيرانية قديمة حاولت أن توفق بينها في سبيل جمع أكبر عدد ممكن من الاتباع. فكان زعماء هذه الحركات يظهرون لكل جماعة بثوب جديد ويلوحون لكل كتلة بشعارات تستهويها.

2- وهناك صفة ثانية اشتركت فيها هذه الحركات وهي تبشيرها بمجيء المنقذ المنتظر.

3- لقد تعلقت معظم هذه الحركات بذكرى أبي مسلم، ذلك لأن موت أبي مسلم قد زاد من شهرته بين الفرس خاصة وأخذت الملاحم والنبوءات تحاك بشأنه كشخص ذي طبيعة غير عادية وكمنقذ منتظر وأصبح رمزاً للثورات الفارسية ضد العباسيين. أما أهم الحركات التي حدثت في عهد أبي العباسي فهي:

حركة بهافريد

لقد تمتعت خراسان بحكم شبه ذاتي خلال ولاية أبي مسلم الخرساني (132-137هـ) الذي ضم إلى نفوذه كثيراً من الاقاليم الشرقية الاخرى وقد واجه أبو مسلم حركة بهافريد التي بدأت في أواخر عهد الأمويين وكان عليه أن يقضي عليها ذلك لإنها لم تكن في مصلحة العباسيين ولا في مصلحة الدهاقين أو رجال الدين الفرس المجوس ولا من مصلحته الذاتية كوال على خراسان.

ولقد كان بهافريد بن فرفار دنان من مواطني زوزان وهي مدينة تقع بين نيسابور وهيرات وكانت معروفة بكونها مركزاً للثقافة ومحلا لاجتماع العلماء وأهل الادب، وقد جال بهافريد البلدان فزار ما وراء النهر ووصل إلى الصين فزاد من سعة اطلاعه ووسع من افق تفكيره بهذا التجوال، كما أن انتشار الإسلام في إيران قد مكن بهافريد من ان يعرف عن مبادئ الإسلام شيئا كثيراً، إضافة إلى معرفته بتقاليد ديانته المجوسية القديمة[36].

وحينما بدأ دعوته في نيسابور اختار وقتاً مناسباً جداً حيث الاضطرابات القبلية في خراسان في ولاية نصر بن سيار وانقسام العرب الخراسانية على أنفسهم كتلة مع الأمويين وكتلة مع جديع بن علي الكرماني الأزدي، ثم هناك فعاليات الدعوة السرية العباسية بقيادة النقباء الإثنى عشر ورئيسهم سليمان الخزاعي وممثل إبراهيم الإمام أبي مسلم الخراساني، وقد ثار بهافريد قبل إعلان الثورة العباسية في رمضان سنة 129هـ/ 747م ولم يقف أبو مسلم ضده بل على العكس استفاد منه أول الأمر باعتباره عاملاً جديداً يزيد في ضعف الأمويين في خراسان.

وتقول الروايات التاريخية إنه قبل أن يعلن عن نفسه ذهب إلى الصين وبقى فيها عدة سنوات وحين رجوعه جلب معه قميصاً أخضر مع رداء ثم اختفى بعد أن تظاهر بالموت لمدة سنة كاملة ثم ظهر وادعى (إن الله أماتني منذ سنة كما رأيتم وسمعتم وقد أحياني الان وخلع علي ما ترون من خلع الجنة التي لا يوجد مثلها في الدنيا وأوصى إلي ما سأخبركم به».

ويقول البيروني في روايته بأن بهافريد بعد عودته من الصين جلب معه ثوباً رقيقا دقيق الصنع وعند وصوله إلى بلدة في خراسان صعد ليلاً إلى قبة أحد المعابد دون أن يراه احد فرآه في الفجر احد الفلاحين ثم تجمع الناس حوله فزعم بهافريد أنه قدم من السماء حيث شاهد الجنة والنار، وأن الله قد منحه هذه القميص الغريب الذي كان في الجنة ولعل هذه الرواية أكثر الروايات قبولاً.

وتشير المصادر إلى كثرة أتباع بهافريد فتقول رواية أن تعدادهم بلغ 30 الفا وتؤكد رواية اخرى «فتبعه خلق كثير من المجوس لما تنبأ» وتشير رواية ثالثة إلى أنه

«استجاب له خلق كثير» . ولعل ذلك يعود كما قلنا سابقاً إلى اليأس والتذمر من الاوضاع كما أن قابليته الشخصية على الاقناع والمحاججة لعبت دوراً كبيراً في نجاحه ، هذا ونستطيع إضافة عامل ثالث لعب دوراً في اتساع حركته في خراسان وهو عدم مواجهة السلطات الأموية له كما أن أبا مسلم فسح المجال له لكي يدق مسماراً جديداً في نعش الدولة الأموية .

تعاليمه: لقد ادعى بهافريد النبوة كما أظهر كتابا باللغة الفارسية زعم أنه اوحي به إليه وبشر بأنه خليفة زرادشت الذي اعترف به كنبي إلا أن بهافريد من جهة اخرى رفض بعض تعاليم الزرادشتية وعدل فيها ، ولعل اعترافه بزرادشت ورفضه تعاليم الزرادشتية هو الذي اوقعه في الخلاف مع رجال الدين المجوس لإنه اعتبرهم محرفين لتعاليم زرادشت ، ومن تعاليمه الجديدة ترك الزمزمة عند الطعام ، الامتناع عن شرب الخمور وأكل الميتة ، ونبذ عادة الزواج بالأمهات والأخوات والبنات وبنات الأخ والخالات والعمات وكانت هذه عادة متبعة لدى اتباع الديانة الزرادشتية ولم تكن مستحسنة فقط بل أنها كانت مفضلة لديهم ، وأمر بهافريد اتباعه بالصلاة سبع مرات يومياً يتوجهون فيها إلى الشمس ويركنون على رجل واحدة ، يقول البيروني بأنه أمرهم سبع صلوات أولها صلاة في توحيد الله وثانيها في خلق السموات والأرض وثالثها في خلق الحيوان وأسباب عيشه ورابعها للموت وخامسها للبعث والحساب وسادسها لموطن الجنة والنار وسابعها لتمجيد أهل الجنة .

ومن تعاليمة الاخرى إلا يتجاوز مهر المرأة أثناء الزواج أكثر من 40 درهماً كما أنه حث اتباعه على ارسال شعورهم وامرهم بالامتناع عن ذبح الحيوان حتى يبلغوا سنا معينة ، وفرض على اتباعه أن يعطي كل منهم سبع ما لديه من مال لتصرف على الأعمال العامة ولخير الجماعة .

كما أن بهافريد كان من الداعين إلى (مذهب الرجعة) ومغزاها أن الإنسان لا يموت وانما يختفي في مكان ما ، أو أنه إذا مات سيعود إلى هذه الدنيا قبل يوم البعث ، وكان هذا المبدأ شائعاً لدى بعض الفرق المتطرفة (الغلاة) في العراق ، ولعل بهافريد اقتبس هذا المبدأ من هذه الفرق الإسلامية المتطرفة أو أنه ربما نقلها عن اراء إيرانية دينية قديمة .

اخماد حركته:

وحين احتل أبو مسلم نيسابور سنة 131هـ / كان لابد له أن يقضي على بهافريد. فخراسان لا تتسع لأكثر من دعوة واحدة وهذه الدعوة من وجهة نظر أبي مسلم يجب أن تكون الدعوة العباسية، كما أن أبا مسلم وجد تشجيعاً من الموباذ المجوسي ورجال الدين، وربما كان أبو مسلم هو الذي حرضهم ضده، وقد ارسل أبو مسلم شبيب بن واج من مرو الروذ، وهنا تختلف الروايات فمنها ما تنص على أنه استسلم ولكنه ظل يدعي النبوة فقتل، ومنها ما تقول بإنه وقع في الاسر في منطقة جبال باذغيس وحمل إلى نيسابور حيث صلب قرب باب الجامع، وقد وقع الكثير من اتباعه اسرى بيد الجيش العباسي.

على أن ابن النديم يشير إلى استمرار مذهب بهافريد في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي وقبل ابن النديم يشير الصولي (ت 243هـ) إلى وجود البهافريدية وكذلك يفعل المقدسي (نحو سنة 355هـ) حيث يخبرنا عن مناقشات دينية بينه وبين احد اتباع البهافريدية ومن هذا ندرك بأن مذهب بهافريد انتشر في حياته وبعد مماته كما أن اتباعه كانوا يجادلون اتباع الديانات الاخرى في صحة معتقداتهم.

ولعل ثبات البهافريدية على معتقداتهم يعود بعضه إلى اعتقادهم بحتمية رجوع بهافريد فيقول البيروني والشهرستاني أن اتباعه أكدوا على أن بهافريد صعد إلى السماء على حصان وسوف يعود إلى هذه الأرض ليثأر من اعدائه.

لقد حاول بهافريد أن يعارض الإسلام بتعاليم جديدة عدل فيها المذهب الزرادشتي واقتبس بعض التعاليم الإسلامية فحاول ان يخلق مذهباً جديداً يوفق فيه بين مذاهب مختلفة ظنا منه أن ذلك سيكون أكثر قبولاً لدى الناس على أن محاولته باءت بالفشل، ومما يؤكد محاولة بهافريد (التوفيق بين المذاهب) ما ذكرة البغدادي حين عقد مقارنة بين الزرادشتية والبهافريدية حيث اشار إلى أن تعاليم البهافريدية- على ضلالتها- احسن من تعاليم الزرادشتية، وهذا الحكم له أهميته إذا صدر من البغدادي لأنه يعني بأن بعض تعاليم البهافريدية كانت تشبه إلى حد ما تعاليم الإسلام.

اما الدافع الذي دفع بهافريد إلى محاولة التوفيق فربما كان سياسياً أكثر منه دينياً

حيث أنه يأمل أن يضم إلى حركته المجوس إضافة إلى الموالي من الإيرانيين الذين لم يكن قد مضى على إسلامهم وقت طويل[37].

الراوندية الرزامية و المسلمية[38]:

المعروف أن الراوندية هم شيعة بني العباس المتطرفون على أنهم اختلفوا مع العباسيين أو بتعبير اصح اختلفت أجنحة وفرق منهم مع العباسيين بعد تأسيس الدولة العباسية لإن العباسيين آثروا اتباع «كتاب الله وسنة نبيه» ضاربين عرض الحائط كل الشعارات أو الفرق المتطرفة التي استغلوها في فترة الدعوة. لقد انقسمت الراوندية إلى شيع فمنهم من استمر في ولائه للعباسيين وهؤلاء هم «العباسية» ومنهم من ثار عليهم ونقل ولاءه إلى غيرهم ومن هؤلاء المنشقين، فرقة ظهرت في خراسان في أوائل عهد الخليفة أبي العباس وثاروا ضد أبي مسلم وقد استطاع أبو مسلم أن يقضي على حركتهم هناك، كما أنهم حاولوا أن يقضوا على أبي مسلم بالسم إلا إنهم فشلوا، وهناك فرقة ثانية تسمى (بالرزامية) نسبة إلى رزام زعيمهم وهؤلاء يعتقدون بإن الامامة انتقلت على النحو التالي: علي- محمد بن الحنفية- أبي هاشم - محمد العباسي- إبراهيم الامام ومن ثم إلى أبي مسلم الخراساني وقد اعتقدوا بقدسية أبي مسلم ونسبوا له الخوارق وكانوا يعتقدون كذلك بتناسخ الأرواح، والرزامية فرقتان الأولى تعتقد بإن أبا مسلم مات ونقلوا ولاءهم إلى حفيده من ابنته فاطمة والثانية تنتظر رجوعه، على أن الفرقتين لا تعترفان بالمنصور خليفة. وفرقة ثالثة تزعمها عبدالله الراوندي اعتقدت بامامة المنصور ونسبت إليه الخوارق وادعت أنه إله وأن أبا مسلم نبيه، اما الفرقة الرابعة فهي (الأبو مسلمية) التي ادعت بأن الامامة انتقلت من أبي العباس إلى أبي مسلم مباشرة وانه لم يمت وأنما حلت فيه روح الهية وانه سيعود على هذه الدنيا ووصفته في درجة أعلى من درجة الملائكة.

لقد سادت هذه الاعتقادات المتطرفة بين القوى الموالية لأبي مسلم بعد مقتل الاخير على يد المنصور ولذلك كانت ذكراه قوية عندهم حتى أن (العباسية) وهي فرقة راوندية موالية للعباسيين كانت تبجل ذكرى أبي مسلم وتحترمه وقد يكون ذلك بسبب ادعائه النسب العباسي من سليط بن عبدالله.

هوامش الفصل الثاني

1- الطبري تاريخ، القسم الثاني، ص 2000- اليعقوبي، تاريخ، ج2، 410.
2- مجهول اخبار العباس وولده، 240
3- المصدر السابق، 245 فمابعد.
4- خليفة بن خياط، تاريخ، ص 276- الطبري، القسم الثالث، ص 12 فما بعد... انساب الاشراف782.
5- الطبري، تاريخ، القسم 3 ، ص 29فما بعد، المسعودي، مروج، ج 6ص98.
6- امندروز، ص 663 - الدوري، العصر العباسي الأول- حسن الباشا، الالقاب ص 60.
7- المسعودي، التنبيه 292.
8- ابن أعثم الكوفي، الفتوح، 231، راجع تعليق امندروز على كلام دي خويه، المرجع السابق.
9- ابن قتيبة الامامة والسياسية، 182، الزبدي، نسب قريش، ص29، اليعقوبي، تاريخ، ج2ص 32 المقدسي، ج6ص 73 فما بعد.
10- القلقشندي مآثر الانافه، 170.
11- هلال الصابي، 129، مجهول، اخبار الدول المنقطعة256.
12- انظر أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج3، ص 240
.M. Cohn, The Parsuit of the Millenium, London, 1962 p. 20 – 13
. F. Imar, The Compostition of Abbasid Suppoit B. C. A, Baghdad, 1968-14
15- الامامة والسياسة 2242
16- الازدي تاريخ الموصل، 136.
17- الجهشياري، الوزراء والكتاب، 86- اليعقوبي تاريخ، ج2ص 418.
18- النوبختي، فرق الشيعة، 28 ,46 ,43، الطبري تاريخ، القسم الثالث، 129، ابن النديم، الفهرست، ج2 ص204.
19- البيروني، الاثار الباقية، طبعة ليبزك، 210- ابن النديم الفهرست،
Sadigli, les Mouvements...,pp.121 ff.، 344
20- الطبري ، القسم الثالث61-85.
. F. Omar, The Abbasid Caliphate,Baghdad, 1969, pp. 259 ff -21
22- البلاذري، أنساب الاشرف، الطبري القسم الثالث، ص 51، اليعقوبي تاريخ، ج 2، ص25
23- البلاذري، المصدر السابق، اليعقوبي، تاريخ، ج 2ص، 427، المسعودي، مروج، ج 5، ص

47 فما بعد الدنيوري الاخبار الطوال، ص 364.

24- البلاذري، أنساب الاشراف، الطبري، القسم الثالث، 73، اليعقوبي، تاريخ، ج2، ص421.

25- ابن اعثم الكوفي، الفتوح، الاصفهاني، الاغاني، ج4، ص93، ابن الاثير، الكامل، ج5 ص 175.

26- خليفة بن خياط، تاريخ، 351، الامامة والسياسية، 230، ابن عسكر، تاريخ دمشق، ج 6 ص286.

27- الطبري، القسم الثالث، ص 55 فما بعد. Lammens, le Sofiani, B. I.F.A.D.,21,1923

28- الطبري، القسم الثالث، 52 فما بعد F. Omar. op cit., pp. 271 ff .

29- راجع: فاروق عمر، حول مصطلح أهل البيت، مجلة الزهراء، جامعة آل البيت، العدد، السنة.

30- الطبري، تاريخ، القسم الثالث، 213 فما بعد. Jafri, The Early Development... ph. D. Thesis, Londan, 1966.

31- الأصفهاني، مقاتل، 176، مجهول، العيون والحدائق، 169 فما بعد.

23- الطبري، القسم الثالث، 39، المسعودي، مروج، ج 6، ص 116. F. Omar, op. cit., 217-219.

33- F. Omar, op, cit., pp 289 ff.

34- الازكوي، كشف الغمة، 15، الطبوي، تاريخ، القسم الثالث، 78. V. Vaglieri, L'imamto Ibadita., A. L,O.N., 1949.

35- المقريزي، الخطط، ج4 181-190.

36- البيروني، الاثار الباقية، ص 210، ابن النديم، الفهرست، 344، الشهرستاني، الملل والنحل، 521.

37- راجع: Sadighi, Les Mouvement...p . 121 ff

Houtsma, Bihafcid, WZKM., 3, 1889, p. 31

38- النونجتي، فرق الشيعة، 41، الأشعري، مقالات، 22، المسعودي، مروج، ج 6، ص، 54.

الفصل الثالث

الدولة العباسية في عصر القوة

المنصور يقيم أسس دولة قوية (136هـ/ 754م -158هـ/ 775م)

يتفق المؤرخون بأن الخليفة أبا جعفر المنصور يعتبر مؤسس الخلافة العباسية الحقيقي وباني عزهاومجدها وقوتها. يقول عنه ابن طباطبا: «إن المنصور هو الذي اصل الدولة وضبط المملكة ورتب القواعد واقام الناموس واخترع أشياء. . . »[1] ويقول عنه يزيد بن عمر بن هبيرة آخر ولاة الأمويين على العراق «ما رأيت رجلاً في حرب أو سلم أمكر وانكر ولا اشد تيقظا من المنصور. . . »(2).

لقد استطاع المنصور ان يقضي على كل الاخطار المحدقة بالدولة الجديدة وأن يصفي المتمردين الواحد بعد الآخر فبعد أن قضى على منافسه عمه عبدالله بن علي العباسي في الشام تخلص من خطر أبي مسلم الخراساني ثم قضى على حركات العلويين والخوارج ومؤامرات الفرس التخريبية.

ثم تفرغ المنصور لبناء الدولة واعمار البلاد ولقد شهد عهده تحولا نوعيا في الإدارة والنظم. فقد تبلورت الدواوين المركزية بتطبيق المنصور لسياسة المركزية الإدارية كعلاج للانحلال الإداري في أواخر العصر الأموي. كماوضع المنصور اللبنة الأولى لبناء جيش نظامي يرتبط برباط الولاء للدولة.

بناء بغداد: وكان لاستحداث عاصمة جديدة للعهد الجديد ببناء بغداد (المدينة

المدورة) مدينة السلام نتائجه المهمة ولاسيما وأن موقعها كان في اقليم عربي هو العراق. وقد لعبت دون شك الاعتبارات السياسية والمناخية والاقتصادية دورها في اختيار المنصور لموقع بغداد ولكن الواجب الأول لمدينة السلام هو أن تكون معسكرا للجند العباسي ومركزاً لدواوين الدولة الجديدة. واستمر بناء بغداد منذ سنة 145هـ/ 762م حتى سنة 149هـ/ 766م مع فترة انقطاع. ثم بنى المنصور الرصافة على الضفة الغربية لدجلة سنة 151هـ/ سنة 769م وأمر ولي عهده المهدي بالانتقال إليها. ولعل أهتمام الخليفة المنصور بتخطيط بغداد والرصافة يعكس النشاط البشري والزراعي والتجاري الذي تمثل في تلك الفترة[3].

تثبيت السلطة والقضاء على المنشقين والمعارضين:

أن الأخطار التي واجهت الخلافة العباسية في عهد الخليفة المؤسس أبي جعفر المنصور عديدة في أنواعها متنوعة في طبيعتها ومختلفة في أهدافها ولكن المنصور بدهائه وحكمته وبعد نظره وتدابيره البارعة استطاع أن يتخلص منها الواحدة بعد الأخرى ولعلنا نستطيع أن يجملها في ما يأتي:

أولاً: تمرد الراوندية في الهاشمية[4]:

اشرنا سابقاً إلى أن هذه الفرقة تمردت في خراسان بعد تأسيس الدولة العباسية مباشرة وقد قضى العباسيون عليها هناك بسرعة وسهولة. ولكن السلطة العباسية كما يظهر لم تكن شديدة على الراوندية بدرجة كافية بحيث تجتث جذورها ولهذا ظهرت الراوندية ثانية في العراق وفي عاصمة العباسيين هاشمية الكوفة ونادت بآراء ومتطرفة غالية بعيدة عن الإسلام فألهت المنصور ونادت بقدسيته ونشرت آراء مجوسية بعيدة عن مذهب الدولة. ولم تكتف بذلك بل انتهزت أول فرصة فثارت على المنصور ولما اعتقل جماعة منهم كسروا أبواب السجن وهاجموا قصر الخليفة مما اضطر الخليفة إلى مجابهتهم بقوة السلاح واجهز عليهم بعد أن كادوا يجهزون عليه لولا تواجد معن بن زائدة الشيباني إلى جانبه في تلك اللحظة الحرجة. وهكذا تخلص المنصور من خطرهم على الدين والدولة.

ثانيا: تمرد عبدالله بن علي العباسي في بلاد الشام:

تمرد على المنصور عبدالله بن علي العباسي قائد الجيش العباسي في معركة الزاب ووالي بلاد الشام وادعى أنه احق بالخلافة من المنصور. فأرسل المنصور أبا مسلم الخراساني مع عدد من القواد العرب من أهل خراسان لحرب عبدالله العباسي.

والواقع فأن إرسل المنصور لأبي مسلم الخراساني إلى الشام كان كسبا للخليفة ذلك لإنه استطاع ان يثنيه عن السفر إلى خراسان مقر ولايته ومصدر قوته وموطن مخططاته التآمرية. ثم أنه إيهما ربح المعركة عبدالله العباسي أم أبو مسلم الخراساني فهو كسب للخليفة لإنه سيتخلص حينئذ من احد اعدائه.

وكانت نتيجة المعركة خسارة عبدالله بن علي وأهل الشام من انصاره. وكان على عبدالله العباسي أن يدرك بأن الاعتماد على أهل الشام لايجدي نفعا ذلك لإنهم لا يمكن أن يخلصوا لشخصية عباسية خاصة بعد الذي فعله بهم هذا الوالي العباسي. وقد هرب عبدالله العباسي واختفي عند اخيه سليمان في البصرة ولكن المنصور لاحقه واعطاه الأمان ثم سجنه ومات في السجن سنة 147هـ/ 765 م في ظروف غامضة.

لقد حاول عبدالله بن علي العباسي أن يستغل أهل الشام في تنفيذ مخططاته ضد المنصور ولكن يبدو أن أهل الشام أيضاً حاولوا استغلاله ليعبروا عن سخطهم من الدولة الجديدة وأسفهم على زوال دولتهم الدولة الأموية. ومهما يكن من أمر فأن كلا الفريقين لم يحقق ماهدف إليه.

ثالثا: تمرد أبي مسلم الخراساني[5]:

لقد اصاب كتاب الفخري، كبد الحقيقة حين صور العلاقة بين الخليفة المنصور وأبي مسلم فقال «وكأن المخترع للدولة (أي أبا مسلم) يكون عنده من الدالة والتبسط ما تأنف منه نفوس الملوك (أي المنصور) فكلما زاد تبسطه زادت الانفة عندهم حتى يوقعوا فيه».

فقد ادعى أبو مسلم بإنه صانع الدولة العباسية ولولاه لما قامت لها قائمة كما أنه

غدا اقوى شخصية في خراسان بعد تخلصه من كبار رجالات الدعوة العباسية وكان تعيين الخليفة أبو العباس له واليا على خراسان بمثابة اعتراف بأمر واقع فعلا. واستطاع أبو مسلم الخراساني خلال فترة قصيرة أن يتخلص من منافسيه فقتل شيبان بن سلمة الحروري وشيخ الازد علي بن جديع الكرماني. وفي الوقت الذي زار فيه الأمير أبو جعفر خراسان في خلافة اخيه ابي العباس قتل أبو مسلم نقيب النقباء سليمان بن كثير الخزاعي وابنه دون الحصول عل« موافقة أبي جعفر أو أخذ موافقة الخليفة. كما أن أبا مسلم تخلص من دعاة آخرين لهم سجل حافل في الثورة العباسية. وهكذا توطدت سلطته في خراسان بعد ان صفى كافة الشخصيات القوية أو الطموحة في خراسان واقاليم المشرق الإسلامي.

لقد كان رأي أبي جعفر في أبي مسلم يتمثل في قوله لاخيه الخليفة: «لست خليفة ولا أمرك بشيء أن تركت أبا مسلم ولم تقتله». لقد اقترح أبو جعفر على اخيه الخليفة أبي العباس عدة مرات ضرورة التخلص من أبي مسلم بسبب ظهور طموحاته الخطرة وتآمره على سلامة الخلافة العباسية. وكان آخر هذه الاقتراحات حين زار أبو مسلم الخراساني البلاط العباسي في العراق سنة 136هـ/ سنة754م ومعه الأموال والرجال والخزائن وطلب امارة الحج ولكن الخليفة اعتذر لأبي مسلم بحجة أن اخاه أبا جعفر سيكون أميراً للحج.

وفي طريق الذهاب للحج والعودة منه زادت شقة الخلاف بين أبي جعفر وأبي مسلم خاصة بعد وصول نبأ وفاة الخليفة أبي العباس حيث تأخر أبو مسلم الخراساني في البيعة لأبي جعفر خليفة جديداً. كما تؤكد روايات اخرى أنه حرض ولي العهد عيسى بن موسى على التمرد على الخليفة الجديد ووعد بمساعدته. ولكن المنصور مع علمه بمؤامرات أبي مسلم وخططه التخريبية امهل أبا مسلم الخراساني ولم يهمله حتى تم القضاء على عبدالله ابن علي العباسي في الشام.

وبعد القضاء على تمرد عبدالله بن علي نوى أبو مسلم الرحيل إلى خراسان، ولكن الخليفة عاجله بإرسال عدة وفود تحثه على مقابلة الخليفة قبل السفر كما أنه ارسل جوائز سخية إلى قادة الجيش بمناسبة الانتصار وطلب من أبي مسلم مقابلته لأمر هام لم يذكره. وهنا كتب أبو مسلم للخليفة رسالة قال فيها:

«إنه لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه الله عدو إلا أمكنه الله منه وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء. فنحن نافرون عن قربك حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد تقارنها السلامة. فإن أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك وأن ابيت إلا أن تعطي النفس إرادتها نقضت ما ابرمت من عهدك ضنا بنفسي».

إن هذه اللحظة الحاسمة من العلاقة بين الخليفة وأبي مسلم الخراساني شهدت سلسلة جديدة من المناورات السياسية التي ضمتها رسائل متبادلة بينهما. ويلفت النظر هنا رسالة جديدة ارسلها أبو مسلم الخراساني إلى الخليفة وهي رسالة غريبة في نصها ولكنها قوية السند. وفيها يهاجم أبو مسلم إبراهيم الامام اخا الخليفة ومفجر الدعوة العباسية ويصفه بالتطرف والانحراف عن الإسلام طمعا في الدنيا ومكاسبها!! وأنه أباح القتل بالشك في سبيل انجاح الدعوة العباسية.

إنه لمن الصعب تصور أبي مسلم الخراساني وهو يكتب مثل هذه الرسالة مخاطباً المنصور ثم يسمح لنفسه بعدها بمقابلة الخليفة. ولعل هذه الرسالة من صنع اليد الشعوبية الفارسية أو اعداء العباسيين الاخرين الذين عبثوا بالتاريخ العباسي وشوهوه ولكن إذا كانت هذه الرسالة صحيحة استناداً إلى قوة اسنادها (روايتها) فهي تظهر أبا مسلم في حالة نفسية وعصبية لايحسد عليها خاصة و أنه كان معتزا بنفسه وبأعماله ولذلك اندفع إلى كتابة هذه الرسالة وهو في حالة شديدة من الغضب.

ولكن الخليفة ظل رابط الجأش مسيطرا على أعصابه حذراً في اتخاذ المواقف- كعهدنا به دائماً- لئلاً يجعل أبا مسلم يفلت من قبضته، وقد استطاع في نهاية المطاف، باستغلاله عيسى بن موسى ولي العهد واحد أصدقاء أبي مسلم أن يقنع هذا الاخير بضرورة مقابلة الخليفة.

ولم يجد أبو مسلم الخراساني طريقا آخر إلا الطريق الذي يوصله إلى الخليفة خاصة بعد أن سد الخليفة في وجهة طريق خراسان بتعيينه واليا جديداً عليها هو خالد بن إبراهيم الذهلي الشيباني واحد الدعاة العباسيين الذين لهم سجل حافل أثناء الثورة الذي ارسل رسالة إلى أبي مسلم الخراساني يذكره بإن الطاعة خير من المعصية ويحذره من العودة إلى خراسان دون موافقة الخليفة.

وهكذا كان لابد لأبي مسلم الخراساني أن يقابل الخليفة في المدائن. لقد كانت المقابلة الأولى بين الخليفة وأبي مسلم ودية وقصيرة. اما في المقابلة الثانية فكان الخليفة قد هيأ رئيس الحرس عثمان بن نهيك مع جماعة من الحرس لقتل أبي مسلم بعد أن يأمرهم بذلك. أما ما حدث في المقابلة الاخيرة فيختلف المؤرخون فيه. ونود أن نشير إلى أن المصادر تزخر بالروايات الموضوعة حباً في عنصر الاثارة. ولعلنا نستطيع الجزم بإن المقابلة لم تدم طويلاً وان القليل من المواضيع التي ذكرها الرواة كانت موضع مناقشة بين الخليفة وابي مسلم. إن التهمة الرئيسة التي وجهت لأبي مسلم الخراساني هي قتله الدعاة العباسيين في خراسان امثال سليمان بن كثير الخزاعي والعرب الموالين للثورة امثال افلح بن مالك الفزاري وعلي بن جديع الكرماني حيث قال له المنصور «لقد قتلت نظراء قحطبة الطائي». كما أنه جابهه بالسؤال المحرج الذي يرقى إلى درجة التمرد على السلطة وهو «لماذا قررت السير إلى خراسان دون استئذاننا بذلك».

ولم يكن هناك جواب لأبي مسلم الخراساني سوى أن يذكر الخليفة بخدماته فأجابه الخليفة بأن العباسيين بما لهم من مكانة وكفاءة اوصلوا الثورة إلى النجاح وليس لأبي مسلم شيء ولو ذهبت مكانه أمه (جارية) لقامت بما قام به في خراسان.

وهكذا يظهر بإن قتل أبي مسلم الخراساني كان بسبب تعاظم نفوذه وطموحاته الخطرة في خراسان والمشرق الإسلامي وتمرده على أوامر الخليفة العباسي بالبقاء في الشام ولذلك قال له الخليفة «لقد ارتقيت مرتقيا صعباً».

وحين اعتورت السيوف أبا مسلم الخراساني قال للخليفة «استبقني لعدوك» فقال لهم المنصور «وأي عدو أعدى لي منك»!! وبموت أبي مسلم الخراساني قطع الخليفة رأس الخيانة ويدها التي لو استطالت لهددت كيان الخلافة وسلطتها وخاصة في الاقاليم الشرقية وقد عبر الخليفة عن رأيه هذا حين أجاب عيسى بن موسى الذي فوجئ بقتل أبي مسلم بقوله: «وهل كان لك سلطان مع أبي مسلم».

كما أن المنصور خطب في الناس[7] بعد مقتل أبي مسلم موضحاً خطره والأسباب التي دعت إلى التخلص منه فقال: «إيها الناس لا تخرجوا من أنس الطاعة

إلى وحشة المعصية، ولا تسروا غش الائمة فإنه لم يسر احد قط منكرة إلا ظهرت في اثار يده أو فلتات لسانه، أنا لن نبخسكم حقوقكم، أن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على أنه من نكث بنا فقد اباح دمه، ثم نكث بنا فحكمنا عليه حكمه على غيره لنا. ولم تمنعنا رعاية الحق له من اقامة الحق عليه».

المنصور والعلويون من آل الحسن

إن حالة الوفاق التي يشوبها جو التأزم والحرج لم تدم طويلاً فلم تكن هذه السياسة توافق المنصور الخليفة الثاني الذي اظهر بوضوح اثر تسلمه السلطة بأنه سيضرب بيد من حديد على كل المعارضين للدولة علويين كانوا أم غير علويين ذلك لأن هدفه كان تثبيت جذور الخلافة العباسية مهما كان الثمن.

ولم يخف المنصور شكوكه وامتعاضه من آل الحسن[8] للأسباب التالية:

1- استمرار محمد النفس الزكية واخيه إبراهيم رفض البيعة للعباسيين واختفاؤهم عن الانظار.

2- أدراك الخليفة المنصوربإن الحركة العلوية اصبحت رمزاً للمعارضة ضد العباسيين ذلك لإن الكتل المستاءة التي اخفق العباسيون في كسبها نقلت ولاءها إلى العلويين وأخذت تدعو لهم سواء كان ذلك باخلاص أو بمجرد التظاهر بولائهم واتخاذهم واجهة سياسية. فكان هناك شيعة للعلويين في الكوفة في العراق وكذلك في الحجاز وفي خراسان حيث نبه أبو عون عبدالملك الأزدى وإلي خراسان الخليفة إلى تصاعد الدعوة العلوية باسم محمد النفس الزكية في خراسان. ورفع ثوار في خراسان أمثال عبدالجبار الازدي شعار الدعوة إلى العلويين وخاصة إلى الحسن.

3- إن إدعاء محمد بن عبدالله (النفس الزكية) بأنه المهدي المنتظر شكل خطراً كبيراً على العباسيين ذلك لإنه جذب إليه كثيراً من الجماهير المعدمة والضعيفة سواء كانت علوية أو غير علوية في ميولها وأهوائها. باعتبار أن المنقذ هذا سينقذها من وضعها السيئ وحالتها التعسة.

ولقد كانت هذه المناورة من محمد النفس الزكية بارعة ذلك لإن الطبقات الفقيرة أو الضعفاء من الناس كانت قد فقدت رجاءها في الثورة العباسية والخلفاء العباسيين باعتبارهم منقذين، واخذت تهفو إلى حركة جديدة ومنقذ جديد. وكان العلويون هم البديل الطبيعي للعباسيين، وأصبح محمد النفس الزكية بديلا للمنقذ العباسي.

وهكذا فأن خيبة أمل الضعفاء من الناس بالعباسيين جعلهم ينخرطون في صفوف المنقذ الجديد النفس الزكية لا باعتباره علويا احق من العباسيين بالحكم ولكن باعتباره مهديا ينتظرون منه أن يشبع آمالهم ويحققها بعد فشل العباسيين في تحقيقها.

وعلى ذلك فإننا نعتقد بأن الموجة الجديدة الموالية للعلويين في بداية الحكم العباسي كان المحفز لها الآمال والأماني التي يعلقها الناس على المنقذ المنتظر أكثر من الاعتقاد بحق العلويين الشرعي بالخلافة.

لقد زار الخليفة الحجاز مرتين سنة 136هـ وسنة 140هـ للحج وللوقوف عن كثب على الجو السياسي وطلب من عبدالله المحض أن يخرج أولاده ولكن المحض والهاشميين لم يعطوا أية اشارة إلى مكان وجود محمد وإبراهيم ولا عن فعالياتهما عدا الحسن بن زيد بن الحسن الذي حذر المنصور من نيات محمد النفس الزكية.

والظاهر أن تحدي محمد النفس الزكية كان شغل الخليفة الشاغل (فلم تكن له همة إلا طلب محمد والمسألة عنه وما يريد). ومن (أجل أن يستخرج الثعلب من جحره) على حد قوله، ادرك المنصور أن اجراءات جديدة وقوية يجب تبنيها. فارسل عيونا وجواسيس على هيئة تجار أو اعراب أو مغامرين تظاهروا بالولاء للعلويين ليفتشوا عن محمد في إحياء المدينة وبين قبائلها. يقول البلاذري أن أبا جعفر أرسل عقبة بن سلم متظاهراً بأنه بائع عطر وقد استخدم هذا العبيد في انحاء الحجاز. ومهما يكن من أمر فإن الحالة في الحجاز كانت إلى جانب العلويين وكان الوالي زياد بن عبدالله الحارثي مرنا غير شديد ولعله كان يمثل سياسة أبي العباس الودية ولذلك اقصي عن منصبه. وحل محله في جمادي الثاني سنة 141هـ - 758م محمد بن خالد القسري الذي جهز بالأموال الكثيرة ليستخدمها في بحثه عن محمد النفس الزكية.

ولكن كل اجراءات محمد القسري باءت بالفشل ولذلك استبدل برياح بن عثمان المري في 23 رمضان 144هـ/ 761-762م.

إن تعيين رياح المري كان بداية النهاية لتحديات محمد النفس الزكية ذلك أن الإجراءات والتحريات التي أتخذها كانت من الشدة بحيث أجبرت النفس الزكية على الظهور والثورة.

لقد كانت هذه الاجراءات الشديدة نتيجة ادراك الخليفة لفاعلية الدعوة العلوية في المدينة ثم توسعها إلى اقاليم اخرى مثل خراسان. وفي رواية للبلاذري يظهر الموقف الصعب حيث شاور بذلك ولي عهده عيسى بن موسى مقترحاً أن يسجن أبا محمد النفس الزكية وعمومته واقرباءه ليستثير بذلك محمد نفسه. وقد تمخض هذا الموقف كذلك عن تعيين رياح المري والياً على المدينة. وكان رياح المري مناسباً للمركز الجديد لإنه كان سوريا وقيسيا من أصل مغمور. أما كونه سوريا فلابد أن يكون معادياً للعلويين. أما أنه قيسي فهو ينتمي إلى نفس قبيلة مسلم بن عقبة المري الذي حاصر المدينة وقضى على ثورتها سنة 64هـ/ 683م بشدة وعنف. ثم ان القيسية كانوا في تلك الفترة محرومين بصورة عامة من الوظائف والامتيازات إذا قورنوا باليمانية عصب الدولة العباسية وشيعتها في خراسان والعراق بينما كان القيسية يشكلون أغلب جيش مروان الاخير. أما كونه من أصل مغمور فإن تعيينه والياً في ظروف اعتيادية أمر غير متوقع الحدوث ولذلك فإن الخليفة سيمني عليه بهذا المنصب الذي سيجعله خاضعاً لنفوذ الخليفة مطيعاً لكل تعليماته منفذاً لها دون خشية للعواقب أو حرمة للناس ولذلك فإن المنصور كان صائباً عند بحثه عن رجل تتوفر فيه هذه الصفات حيث قال: (دلوني على رجل من قيس أغنيه واشرفه).

وحين وصل رياح المري إلى المدينة حذر عبدالله المحض قائلا: «أيها الشيخ إن أمير المؤمنين والله ما استعملني لرحم قريبة ولا يد سلفت إليه والله لا لعبت بي كما لعبت بزياد وابن القسري والله لأزهقن نفسك أو لتأتيني بابنيك محمد وإبراهيم). أما لأهل المدينة فقال لهم (يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا. أنا ابن عم مسلم بن عقبة الشديد الوطأة عليكم الوبن الوقعة بكم الخبيث السيرة فيكم. ثم انتم اليوم عقب

الذين حصدهم السيف وايم الله لاحصدن منكم عقب الذين حصده ولا لبسن الذل عقب من ألبس). ثم سجن بأمر من الخليفة عدداً من العلويين والطالبيين المشكوك فيهم وكان عددهم على اصدق الروايات 13شخصاً.

وحين جاء الخليفة للحج سنة144 هـ قرر جلبهم معه إلى الهاشمية حيث سجنوا. أما عن مصيرهم فالاساطير والروايات المصطنعة والحقيقية كثيرة متشابكة بحيث يتعذر التفريق بينهم على أن المؤكد هو مقتل ثلاثة منهم عبدالله بن الحسن المحض ومحمد بن عبدالله العثماني ومحمد بن إبراهيم بن الحسن بأمر من الخليفة. اما الباقون فماتوا في السجن بسبب سوء معاملتهم ولم يطلق سراح إلا غير الخطرين سياسياً بعد فشل حركة محمد النفس الزكية.

ومن أجل أن يبرر سياسته تجاه العلويين ومن أجل أن يرضي أهل خراسان ويضمن ولاءهم ذلك لأن الخراسانية كانوا يكنون شعوراً بموالاة أهل البيت عامة عباسيين وعلويين ولذلك خطب بهم خطبة طويلة اظهر فيها الخليفة وجهة نظر العباسيين القائلة بأن أهل البيت جمعياً (الهاشميين) لهم الحق نفسه ويتمتعون بالامتيازات بنفسها. وقد اكد العباسيون حقهم بالنجاح أي أنهم أوصلوا كفاحهم ضد الأمويين إلى الانتصار فإن من حقهم أن يتسلموا الخلافة دون العلويين. فهي تقرر وجهة النظر العباسية أن القوة والنصر هما اللذان يقرران أي فرع من الهاشميين أو آل البيت يحق له أن يحكم، وهذا هو الشيء الذي اخفق العلويون في تحقيقه في صراعهم مع الأمويين.

ولكن العلويين لم يقفوا مكتوفي الأيدي تجاه دعاوى العباسيين بل أكدوا بأن حقهم بالخلافة لا يستند فقط إلى كونهم علويين هاشميين بل أنهم ينتسبون إلى الرسول كذلك عن طريق مباشر وهو ابنته فاطمة. ويظهر هذا الادعاء في الرسائل المتبادلة بين المنصور ومحمد النفس الزكية كما سترى. وعلى أن هذه الدعوة العلوية الجديدة لم تكن بعد متبلورة واضحة في رسالة محمد النفس الزكية ولكنها كانت لا تزال في دور التكوين. ذلك لأن ادعاء محمد النفس الزكية كان يستند بالدرجة الأولى إلى الفخر بالنسب والحسب، أي أنه ذو صفة ارستقراطية أكثر من كونه ذا صفة دينية أو وراثية شرعية.

حركة محمد النفس الزكية

إن حركة محمد في المدينة التي تبعتها حركة أخيه إبراهيم في البصرة تعتبر ذروة الكفاح العلوي ضد العباسيين الأوائل.

لقد ترعرع محمد النفس الزكية وأبوه يلقنه بأنه المهدي المنتظر لال البيت ولقبه بالنفس الزكية. وقد ظهرت عدة احاديث منسوبة إلى الرسول (ﷺ) بأن المهدي سيكون من أهل البيت واسمه محمد واسم ابيه عبدالله. ومن أجل إلا يلتبس الناس بشأن شخصية المهدي ظهرت احاديث اخرى تقول: بإن المهدي سيكون من نسل فاطمة رضي الله عنها، وهكذا فقد دحضت الاحاديث ذات الصبغة العباسية التي تدعي بأن (المهدي منا محمد بن عبدالله وأمه من غيرنا يملؤها عدلا كما ملئت جورا).

على أن طموح محمد بدأ منذ عهد مروان الاخير الذي كان مشغولا بحركات الخوارج في الجزيرة والحجاز وبالثورات في الشام ولم يعر أهمية إلى فعاليات آل الحسن. ولما جاء العباسيون إلى الحكم بقى محمد وإبراهيم يتجولان في البوادي يختفيان في هذه القبيلة أو تلك دون أن يبايعا المنصور. وحين سجن الخليفة العلويين، اتصل محمد بوالده في السجن وسأله عن نصيحته مبديا رغبته في التسليم بعد أن تعذب والده واقرباؤه ولكن أباه على عكس بقية الحسنيين سأل ابنه أن يستمر في دعوته وتحديه للعباسيين.

استمر محمد في دعوته حتى الأول من رجب سنة 145هـ/ أيلول سنة 762م حيث أعلن حركته ويختلف المؤرخون في الأسباب التي دفعت محمداً إلى الثورة بصورة مفاجئة وبدون اعداد كامل لها:

يقول البلاذري والمسعودي بأن اعتقال اقرباء محمد وما شاع من اخبار مقتل ابيه عبدالله المحض هي التي عجلت في ظهوره وثورته المفاجئة. أما الطبري والأصفهاني فيذكر بأن السبب المباشر للثورة هو اعتقال اخيه موسى بن عبدالله من قبل رياح المري ذلك لأن موسى فشل في العثور على اخويه كما وعد. وقد ارسل المري موسى معتقلاً إلى الهاشمية وعندئذ ظهر محمد وانقذ اخاه قبل وصوله إلى

العراق. ومهما يكن من أمر فهناك روايات تؤكد أن محمد النفس الزكية اعتقد أن الوقت مناسب لأن أغلب الأقاليم قد أيدته كما ظن هو. فحين كان يحاول جمع اشراف الناس وشيوخ القبائل كان يقول لهم (قد بيض أهل الشام وأهل العراق وخراسان). وقال في خطبة له (والله ما جئت هذه وفي الأرض مصر يعبد الله فيه إلا وقد اخذ لي فيه البيعة). والواقع أن الخليفة في محاولته اخراج محمد أمر ولاة الاقاليم وقواد الجيش بمراسلة محمد ووعده بالوقوف إلى جانبه إذا ثار. حتى أن الخليفة نفسه زور رسائل على لسان بعض الاقاليم يعبرون عن بيعتهم إلى محمد. ثم إن اجراءات رياح المري التعسفية في المدينة وتحرياته المستمرة لمحمد سببت القلق والملل لسكان المدينة الذين سئموا الحالة وطلبوا من محمد اما الثورة أو الاستسلام. يقول الاصفهاني أن احدهم قال لمحمد (ما تنتظر بالخروج والله ما تجد هذه الأمة احدا اشام منك إليها). وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تضرر سكان المدينة من استمرار الموقف السياسي بالشكل السلبي الذي كان عليه بسبب اجراءات العباسيين الشديدة.

ظهر محمد النفس الزكية أول ما ظهر ومعه250 رجلا ثم سيطروا على السجن وخلصوا المسجونين ثم سيطروا على بيت المال واعتقلوا رياح المري ثم خطب خطبة يندد بها بالمنصور.

إن الرسائل[9] التي تبودلت بين محمد النفس الزكية وأبي جعفر المنصور ربما كانت أهم واطرف وجه للعلاقات العباسية العلوية في العصر العباسي الأول لأنها:

أ- عكست آراء زعيمين متنافسين بشأن مسألة شائكة هي الخلافة.

ب - لقد كانت الرسائل ذات أهمية دعائية كبيرة لكلا الطرفين المتنازعين حيث بينت وجهة نظرهما ودافعت عنها بشدة.

جـ - اعتبرت الرسائل بمثابة اعلان للحرب وتبرير للنزاع المسلح بين فرعي بني هاشم. فلقد كان واضحا منذ البداية أن الطرفين لم يتوقعا الخضوع أو الصلح كنتيجة لهذه المراسلات. والحقيقة أن الرسالة الأولى لأبي جعفر تدل على استحالة الصلح لأنها تهدد وتتوعد قبل أن تمني أو تعفو. وقد كان محمد النفس الزكية يدرك ذلك حيث كتب إلى عيسى بن موسى القائد العباسي بأن العباسيين لو ظنوا بإن سيقبل بالوعود والامتيازات التي قدموها له لما ذكروها.

ولعلنا نعيد إلى الاذهان القول بإن محمداً النفس الزكية أجبر على الخروج من محل اختفائه على حد قول بعض الروايات حيث تذكر أن الخليفة قال ما معناه بأنه استطاع ان يخرج الثعلب من مخبئه. ولذلك فالخطوة التالية بالنسبة للخليفة كانت على حد قول الروايات نفسها (انذره قبل قتاله). وعبر الخليفة في رسالته عما كان يجول في خاطره من أفكار وقد منع الخليفة وزيره أبا أيوب المورياني من أن يرد عليه وفضل أن يرد عليه بنفسه قائلاً (إذا تقارعنا على الاحساب فدعني له).

ولعلنا نذكر كذلك أن الخليفة كان دؤوباً في التفتيش عن محمد. يقول عمر بن شبة عن الخليفة (لم تكن له همة إلا طلب محمد والمسألة عنه). وتقول رواية أخرى أنه (جد في طلب محمد والح في طلبه). أو (لم تكن له همة إلاطلبه). أما اجراءات الخليفة الذي كان يعرف أنه ينازع شخصا (لا يؤمن وثوبه عليه فإنه للذي لا ينام عنه) فتتلخص بالآتي:

1- ارسال العبيد- للتجسس على محمد النفس الزكية في الحجاز على هيئة تجار وبياعي عطر وغيره.

2- محاولة اقناع عبدالله بن الحسن المحض باظهار ابنه محمد الذي اجاب دون وجل (لو كان تحت قدمي ما رفعتهما عنه).

3- حبس الحسنيين والطالبيين من أقرباء محمد وخاصة أبيه.

4- اقصاء الولاة الذين لم يجدوا في طلب محمد وتعيين ولاة جدد.

5- ولم يتورع الخليفة عن استخدام السحر لمعرفة مكان اختفاء محمد كما تذكر بعض الروايات.

6- ارسال كتب على لسان الولاة والقواد والاقاليم يدعون محمداً إلى الظهور.

ولعل هذه الاجراءات تعكس مقدرة الخليفة في استغلال الموقف ضد محمد الثائر. كل ذلك يوضح لنا الموقف السياسي المتأزم والحالة النفسية الحرجة لكلا الزعيمين.

لقد أظهرت الرسائل والخطب التي تبادلها الخليفة ومحمد النفس الزكية شخصية الطرفين ولقد أظهرت الروايات ما يتصف به محمد النفس الزكية من صفات الشهامة والنبل والشجاعة ولعلنا نستطيع أن نختصرها (بالفروسية). ثم أن تربيته ورعاية والده له بحيث سماه ذا النفس الزكية (التي تدل على المثالية في الخلق) والمهدي (التي تظهره المنقذ السياسي) جعلته شخصاً ذا كرامة يعتبر الموت بعز أفضل من النجاح إذا لم يستطع تحقيقه.

ولكن هذه الصفات التي جعلت من محمد شخصا مثاليا وكذلك تلك الانفعالية الملتهبة التي تعكسها رسائله وخطبه في اتباعه في الحجاز التي امتزجت فيها العاطفة الدينية بالمثالية الاخلاقية مرة ثانية، نقول إن تلك الانفعالية السريعة الآثر في خلق الاعداء وتنفير الاتباع هي التي ادت في النهاية إلى فشله.

وعلى العكس فقد كان الخليفة أبو جعفر يتكلم بلغة الواقعي العملي الواثق من نفسه وكانت نبرته أكثر دقة واتزانا وتأثيراً، لا بسبب أن دعواه أفضل من دعوى محمد، بل لأنه كان أقل انفعالية وأكثر هدوءاً كما أنه سمح لنفسه بهجوم أكثر عنفا وأقل احتراماً من هجوم محمد عليه، هذا بالإضافة إلى استعماله اسلوباً تهكميا استهزائيا في مقارعته لمحمد، حتى لكأنه ظهر أو لعله تظاهر ببراعة على حبه واستهوائه لهذه الفرصة التي سنحت له ليجادل بها العلويين في الحسب والنسب والاولوية بالأمر والوفاء بالعهد. فكانت هذه النقاط الحساسة بالنسبة للمنصور كالاحجار في لعبة الشطرنج حيث أخذ يسقط النقاط المعادية واحدة واحدة ببراعة يتحسس فيها بالتلذذ والانبساط.

تطور حركة محمد النفس الزكية[10]:

لقد استطاع محمد أن يجمع له اتباعاً في المدينة ولكن المصادر تختلف في تقدير نوعية العضد الذي حصل عليه. ويقول الطبري بأن أشراف المدينة، مع بعض الاستثناءات، ساعدوه جميعاً وبايعوه. أما المسعودي فيذكر بأن العلويين والجعفريين والعقيليين وأبناء عمر بن الخطاب وابناء الزبير بن العوام وكل قريش والانصار صاروا

معه. ويؤيد البلاذري بأن أهل المدينة سارعوا لتأييده وهم يقولون (هذا الذي كان نسمع به العجب كل العجب بين جمادى ورجب).

أهل الحجاز ممن انضم إلى محمد لا بسبب ميولهم العلوية ولكن بسبب معاداتهم للدولة العباسية دولة أهل العراق وخراسان.

ولا ننسى كذلك إدعاء محمد النفس الزكية بكونه مهدي هذه الأمة جلبت إليه الاتباع وخاصة من الضعفاء والفقراء من الناس الذين كانوا يعانون الكثير من المساوئ وينتظرون حلا لها.

وقد نصر الحركة معنويا العضد الذي لاقته من الفقهاء واصحاب الحديث انطلاقا من تدينهم وحبهم لآل محمد ﷺ فإن اعلان مالك بن انس (بأن ليس على مكره يمين) كان يعني من الناحية السياسية أن يمين الولاء للعباسيين.

وقد انضمت إليه جهينة ومزينة وسليم وبنو بكر وأسلم وغفار. وانضم إليه أغلب العلويين خاصة أبناء زيد بن علي ومعاوية بن عبدالله والحسن بن زيد والحسن بن علي بن زيد. أما آل الحسين فإن الامام جعفر الصادق لم يشترك بأية فعاليات سياسية خلال الثورة. واستمر يحذر أقرباءه واتباعه من الاشتراك بثورة غير محكمة الاعداد وغير ناضجة. ولم يكن خفياً أن الصادق كان يعارض خطط آل الحسن السياسية واعتبرهم منافسين له في الرئاسة الروحية. وقد رفض الصادق أن يبايع محمداً ذا النفس الزكية بعد ثورته ونشر حديثاً يتنبأ فيه بأن ثورة محمد فاشلة وأن محمد سيقتل.

ولعل نظرة سطحية إلى الروايات التاريخية تعطي القارئ الانطباع بأن أتباع محمد في المدينة كانوا كثيري العدد. ولكن الفكرة القائلة بأن القبائل أسرعت في عضد الثورة العلوية فكرة خداعة. وهي قد تكون صحيحة عن بعض الافخاذ لقبائل معينة وليس القبائل كلها. ولذلك فإن المصادر التي تقول (وبيضت القبائل) اشارة إلى معاضدتها لمحمد تعطينا انطباعا خاطئاً وقد يكون اقرب إلى الصواب إذا تصورنا مجموعات قبلية من قبائل مختلفة انضمت إليه ثم أن الحجاز الذي فقد مكانته كمركز

للدولة الإسلامية إلى سوريا ثم العراق كان بصورة عامة ضد السلطة معبراً بذلك عن سخطه وهكذا فإن الكثير من القبائل كانت تشعر بأنها غير ملزمة لإنها أخذت بالاجبار وهذا مما زاد من انصار محمد النفس الزكية . كما أيد الثورة أبو حنيفة ومحمد بن هرمز ومحمد بن عجلان وأبو بكر بن أبي سبرة . لقد كان هؤلاء الفقهاء وأصحاب الحديث ذوي ميول علوية معتدلة في هذه الفترة المبكرة . ولا بد أنهم قد ادركوا بأن وجهة النظر العباسية السياسية لم تكن أقل دنيوية من وجهة نظر الخلفاء الأمويين ولذلك ايدوا ثورة محمد انطلاقاً من دوافع دينية .

وانضم إلى محمد أو ايده الزيدية والمعتزلة في البصرة الذين كان من مبادئهم حمل السلاح ضد الظلم مع امام عادل وعدم اتخاذ مواقف سلبية .

اما الكوفة فرغم كونها مركزاً للدعوة العلوية إلا أن ميولها كانت اقرب إلى التطرف منها إلى الاعتدال ولذلك فإن عبدالله المحض لم يعط أية قيمة لمساعدتها ويقول اليعقوبي بأن إبراهيم بن عبدالله الحسني ذهب إلى الكوفة ليجمع الانصار ولكنه فشل ولم يجد تجاوبا يذكر وهنا علينا أن نفرق بين المساعدة الفعلية التي تتضمن الاستعداد للتضحية والفداء وبين الانفعالية والحماسة الشديدة . ولذلك فإن الروايات التي تقول بإن 100.000 مقاتل كان مستعداً للثورة تحت راية العلويين في الكوفة هي في الحقيقة روايات لا أساس لها من الصحة ومبالغ فيها لدرجة كبيرة . ومهما يكن من أمر فإن المغيرية اتباع المغيرة بن سعيد العجلي انضموا إلى محمد حيث جذبهم الاعتقاد بأنه المهدي المنتظر ذلك الاعتقاد الذي ينسجم مع المبادئ التي كانوا يدينون بها .

لقد حاول محمد أن يظهر العباسيين بمظهر الخارجين عن الدين ، الطغاة المغتصبين ، المهملين لواجباتهم التي يفرضها عليهم منصبهم والمنغمسين في الترف والملذات وفي رواية في ابن خلكان أن محمداً ذا النفس الزكية شبه العباسيين وكأنهم يقضوا أيامهم مرفلين بالسعادة والأمن الكاذب ويتمادون في ذلك والنار تشتعل من حولهم حتى تلمسهم فيهبون لينقذوا ما يمكن انقاذه ولكن هيهات فلقد فات الأوان .

وقد أرسل محمد النفس الزكية ابنه عليا إلى مصر ظنا منه أن واليها حميد بن قحطبة الطائي ذو ميول علوية . وذهب علي مع خالد بن سعيد السدفي إلى يزيد بن حاتم المهلبي الذي اتبع سياسة شديدة ضد مؤيدي العلوية الذي اختفوا لفترة من الزمن كمااعتقل المهلبي بعضا منهم . وفي العاشر من شوال اعلن من انصار العلويين .

ومما زاد في هدوء الحالة في مصر هو وصول رأس إبراهيم بن الحسن في ذي الحجة145هـ/ شباط 763م حيث فقد الشيعة الأمل بعد مقتل محمد واخيه إبراهيم . أما بالنسبة إلى مصير علي فالظاهر أنه اعتقل وارسل إلى العراق مع افراد عائلته .

وقد لاقت دعوة محمد النفس الزكية قبولاً أحسن في خراسان حيث كانت الحالة لا تزال غير مستقرة منذ اندلاع الثورة العباسية ففي سنة141هـ/ 757 -758م ، عين أبو جعفر عبدالجبار الازدي والياً هناك وامره أن يراقب التحركات الشيعية العلوية ولكن العلاقة بين الوالي والخليفة تردت إلى درجة انقلب فيها عبد الجبار الأزدي نفسه إلى ثائر باسم العلويين ومع ان ثورته فشلت إلا إن خراسان بقيت في حالة من الاضطراب حيث عزاها الوالي الجديد ابو عون الازدي إلى فعاليات محمد النفس الزكية ودعوته في خراسان. ومن أجل أن يخيف الناس ويسكن فيهم روح الثورة عمل أبو جعفر على قتل محمد بن عبدالله العثماني وارسل برأسه إلى خراسان حيث اعلن بأنه رأس محمد بن عبدالله (ذي النفس الزكية) وقد أمل الخليفة أن يعتقد الناس بأن الرأس هو رأس محمد النفس الزكية بسبب تشابه الاسمين وبذلك ينتهي كل أمل لهم بالثورة. وكان محمد العثماني قد اعتقل من قبل الخليفة مع من اعتقلهم من الحسنيين وكان الخليفة يشك فيه ويحذره ولعل سبب ذلك يعود إلى صلة النسب التي تربطه بإبراهيم بن عبدالله المحض الذي تزوج ابنة العثماني ثم ان الخليفة سأله عن مكان اختفاء إبراهيم فامتنع عن الاجابة. وكان العثماني ابن عبدالله بن عمر بن عثمان بن عفان وكانت أمة فاطمة بنت الحسين. ولذلك فأن الدم العلوي والعثماني يمتزجان فيه . كما ان اسمه (العثماني) قد يضفي إلى شخصه صفة المنقذ أو المهدي من قبل الجماعات المتذمرة فتدفعه للثورة. ولعل السبب الاخير الذي نستطيع أن نورده هنا هو علاقته الودية القوية مع عبدالله المحض كل ذلك عمل من العثماني شخصاً

خطراً غير مرغوب فيه. وقد جلبه الخليفة إلى العراق وضربه بالسياط ثم سجنه وقتله.

ورغم رغبة الخليفة الملحة وعمله الدائب على دفع محمد على الظهور والثورة فإن شعور الخليفة عند سماعه بنبأ خروج محمد لابد أن يكون الدهشة. وقد بقي الخليفة غير منفعل وهادئاً حيث كان حينذاك قرب المدائن يحاول تخطيط مدينته المدورة (بغداد) وقد عجل بالذهاب إلى الكوفة ذات الميول العلوية معلنا فيها حالة الطوارئ محدداً التجول لساعات معلومات من النهار وكانت هدف الخليفة من ذلك كما قال (أطأ اصمختهم واقطعهم عن امداد محمد فأنهم سراع إلى أهل هذا البيت).
وقد اختار ابن أخيه وولي عهده عيسى بن موسى قائدا للجيش الخراساني الذي ارسله إلى الحجاز وذلك:

1- كان عيسى عسكريا من الطراز الأول وذا قبليات إدارية كبيرة.

2- كان من المناسب في أزمة من هذا النوع أن يرسل الخليفة هاشمياً ليقود الجيش وبذلك يوجه هاشمياً بهاشمي مثله. إن هذا الاجراء من شأنه أن يخفف من الأثر الذي ستتركه قيادة محمد لجيشه ذلك لأن قائد الجيش المقابل سيكون هاشمياً كذلك.

3- لقد كانت ثورة محمد فرصة مناسبة للخليفة لكي يضرب عصفورين بحجر فسواء قتل محمد أم عيسى فإن ذلك نصر للخليفة لإن هذا الاخير كان عازماً على عزل عيسى من ولاية العهد وتعيين ابنه محمد المهدي بدلا عنه.

وحين وصل خبر قدوم الجيش الخراساني المكون من حوالي 4.000 جندي بدأ انصار محمد بالتسلل والهرب مع ان جيش العباسيين كان قليل العدد إلا أنه كان مدربا تدريبا حسنا وذا تجربة في القتال ويقوده اكفاء مثل حميد الطائي وكثير بن حسين.

وكان محمد النفس الزكية شجاعاً إلا أن الذي ينقصه هو بعد النظر والخبرة العسكرية والقدرة على المناورة. فقد أرسل قوة من جنده للسيطرة على مكة وبذلك

ابعدها عنه في وقت كان في اشد الحاجة إليها . اما خطبته على انصاره فلم تكن مناسبه حيث أفقدتهم معنوياتهم وفرقتهم عنه حيث قال : (يا أيها الناس إنا قد جمعناكم للقتال واخذنا عليكم المناقب وان هذا العدو منكم قريب وهو في عدد كثير والنصر من الله والأمر بيده وأنه قد بدأ لي أن آنذ لكم وافرج عنكم المناقب فمن أحب أن يقيم أقام ومن أحب أن يظعن ظعن) . ولعل الذي نستنتجه من هذه الخطبة وخاصة ما يتعلق منهابفكرة البداء (أي نسخ الرأي السابق وتغييره) أنها أول اشارة من محمد إلى توقعه فشل الثورة قبل وقوع القتال ولذلك أراد أن يبررها على أسس دينية . وقد يكون أكثر احتمالا أن الرواية كلها موضوعة لتبرير فشل محمد النفس الزكية والواقع أن المدينة كانت محلا غير مناسب للثورة فقد كانت تعتمد اقتصاديا على مصر سوريا وقد أمر الخليفة بضرب الحصار الاقتصادي على الحجاز من البر والبحر . وحين ادرك شيعة محمد استحالة المقاومة نصحوا محمداً بالهرب إلى مصر أو مكة أو البصرة ولكن الخليفة بمناوراته ا لذكية نجح إلى جر محمد إلى الاعتقاد بأن اعلان ثورة في المدينة سيعقبه انضمام الأقاليم إليه .

مذهولاً بمثاليته ومحاطاً بمجموعة من الاتباع الاخرين الذين (ما شيء اثقل عليهم من لقاء الجيش العباسي) ، أمر محمد أن يحفر الخندق حول المدينة اسوة برسول الله(ﷺ) ولكن ذلك حدد من نشاط اتباعه وحصرهم كما أنه شدد من نطاق الحصار الاقتصادي على المدينة .

وصل عيسى بن موسى والجيش العباسي في 12رمضان سنة 145هـ/ تشرين الثاني سنة 762م وعسكر بالجرف ودخل في مراسلات سرية مع كثير من المتنفذين في المدينة ومنهم علويون . وقد ترك كثير منهم المدينة مع عائلاتهم وحتى ان بعضهم انضم إلى معسكر عيسى بن موسى . وقد ادى ذلك إلى حساسية قوية بعدم الطمأنينة بين سكان المدينة الذين اخذوا يغادرونها زرافات ووحدانا . وحين حدث القتال كان مع محمد القليل جداً من الانصار اغلبهم من جهينة وبنو شجاع . ورغم أنهم قاتلوا ببسالة شهد بها الخليفة نفسه بعدئذ حين امتدح ولاءهم لمحمد وتفانيهم في سبيله (والفضل ما شهدت به الاعداء) ولكن لم يستطع محمد أن ينتصر على جيش

مدرب تدريباً جيداً وله تجارب عسكرية كثيرة كالجيش الخراساني كما ان عدد الجيش الخراساني كان يفوق اتباع محمد عدة مرات .

وفي المدينة كان اتباع العباسيين يعملون ضد محمد. فقد استطاعت قبيلة بني غفار أن تسهل دخول الخراسانية إلى المدينة . وقد رفع العلم الأسود عل منارة مسجد المدينة قبل أن تستسلم مما ادى إلى الفوضى والاضطراب وهرب بعض اتباع محمد . وقد بقي محمد يقاتل مع شلة من اتباعه حتى قتل في 14 رمضان سنة 145هـ/ تشرين 762م .

وقد أرسل الخليفة رأسه إلى الأقاليم حيث عرض في اسواقها معلناً إنتهاء الثورة ، كما إن ممتلكات الثوار صودرت .

إن فشل ثورة محمد يعود إلى الأسباب التي نجملها بالآتي :

1-لم يكن الحجاز علوياً في ميوله السياسية .

2- لم يكن الحجاز اقليماً مناسباً للثورة من الناحية الاقتصادية .

3-إن حفر الخندق احكم الحصار وكانت له نتائجه السلبية .

4- تشتيت قوة محمد العسكرية بارساله بعض الجند للسيطرة على مكة .

5- خطبته زعزعت من معنويات اتباعه المخلصين له .

6- كفاءة عيسى ودخوله في مراسلات سرية مع زعماء المدينة .

7- الخطأ في التوقيت حيث أن ثورة محمد كان عليها أن تحدث في الوقت نفسه الذي يثور فيه إبراهيم في البصرة . ويقال بإن محمداً عجل في الثورة أو أن إبراهيم تأخر في اعلانها في البصرة بسبب مرضه أو فشله في جمع الاتباع .

حركة إبراهيم بن عبدالله المحض العلوي[11]:

تجول إبراهيم في الامصار والمدن حتى وجد له ملجأ في البصرة حيث استقر منذ سنة 143هـ/ 760-761م هناك وأخذ يبث الدعاية العلوية. وقد تحول من قبيلة إلى أخرى فأستقر أولاً مع فخذ من بني تميم ثم إلى بني راسب ثم اضطر إلى تغييرهم. وقد علق على ذلك الخليفة قائلاً: (لقد غمض علي أمر إبراهيم لما اشتملت عليه طفوف البصرة).

لقد كان مركز البصرة مرموقاً كما أن موقعها الاستراتيجي مناسب. اما اتجاهها السياسي فهي لم تكن علوية ولا عباسية في ميولها. ووصفت بأنها عثمانية[12] تدين بالكف وهذا الاصطلاح لا يعني بالضرورة أن البصرة ميالة للأمويين ولا أنها ضد العلويين. ولعل الذي يمثل موقف البصرة هو الرد الذي صدر عن أحد المتنفذين من شيوخها حين دعاه إبراهيم إلى الثورة معه فقال: (إني لاأرى القتال ولا أدين به).

وصفة اخرى في البصرة وهي طابعها العسكري حيث ضمت في الاصل عناصر بدوية هم المقاتلة العرب وهذه الصفة جعلتها تجذب جماهير من عناصر متنوعة، وقد زاد هذا التمازج من فعاليتها الدينية والفكرية. فهناك العثمانية والخوارج والمرجئة والدهريون والمعتزلة والزنادقة والنصارى واليهود يتبادلون الحديث في المشاكل الدينية السياسية التي شغلت اذهان الناس يومئذ ويقارنون بين مذاهبهم.

والواقع أن البصرة كانت منذ العصر الأموي تختلف عن الكوفة. ففي الوقت الذي كانت المقاومة العلوية تتبلور في الكوفة كانت البصرة ذات السلوك السياسي الأكثر تلونا تناهض، وذلك بتحريض من بني تميم، كل سلطة ولم يقاوموا سيطرة الأمويون فحسب بل كل سيطرة.

على أن طابع البصرة بصورة عامة كان التلون والتحدي وهو الطابع الذي اتخذه بنو تميم. ثم أن وصية محمد بن علي العباسي تصف البصرة بأنها عثمانية محايدة وهذا يؤيد عدم وجود حركة موالية لبني هاشم (أهل البيت) في البصرة، ولكن الضرورات السياسية الانية والامزجة الشخصية للمتنفذين وزعماء العشائر هي

التي دفعت بعض الافخاذ والقبائل إلى الوقوف إلى جانب إبراهيم الحسني. ولم تكن مؤازرة البصرة لإبراهيم بسبب تشيع البصرة للعلويين بل بسبب معارضتها للعباسيين.

لم يعلن إبراهيم حركته إلا بعد شهرين تقريباً من ثورة اخيه محمد، وتختلف الروايات التاريخية في سبب هذا التأخير فتقول بعضها أنه كان مريضاً بالجدري وتقول مصادر أخرى أنه لم يكن مستعداً بعد ولا مطمئنا إلى ولاء شيوخ القبائل وكان إبراهيم دون شك قلقا واعتبر أية ثورة عملية ليست في محلها في ذلك الوقت. ولعلنا نقدر موقفه ونعطيه الحق إذا أخذنا بنظر الاعتبار موقف أهل البصرة المتقلب وكثير التردد. ولكن إبراهيم أدرك بعد مدة أن أي تأخير ستكون له نتائجه الخطيرة لإن الخليفة الذي كان على علم بوجود إبراهيم في البصرة بدأ يتربص به الفرص ويعزز قواته في البصرة.

ثار إبراهيم في رمضان 145هـ/ تشرين 762م وكان معه عشرون رجلاً من اتباعه إلا إنه سرعان ما انضم إليه عدد من الشيوخ مع قبائلهم حتى بلغ عدد ديوانه4.000 من العرب البصريين. وقد توصل إلى نوع من التفاهم مع والي البصرة سفيان بن معاوية المهلبي الذي تخلى له عن دار الامارة وبيت المال حيث قسم إبراهيم ما وجده فيه بين اتباعه مانحا لهم 50 درهما لكل واحد. ثم سيطر على البصرة بسهولة واخرج منها محمداً وجعفر ابني سليمان بن علي العباسي.

تعتبر ثورة البصرة اخطر ثورة جابهت الخليفة أبا جعفر حيث استطاع إبراهيم أن يسيطر على البصرة ويمد نفوذه إلى الاقاليم المجاورة مثل الاهواز، فارس، كرمان، كسكر وواسط. ومما يدل على خطورة الثورة إن الخليفة أبا جعفر اراد أن يرسل رسولاً إلى إبراهيم ليتشاور معه حول المهادنة والاتفاق ومنع الحرب فاقترح عليه ارسال موسى بن عيسى فرفض ثم اقترح عليه ارسال عبدالله بن علي فقال: «لقد سمعتكم تذكرون أن له 4000مولى يموتون تحت ركابه فأي رأي هذا والله لو دخل علي إبراهيم بسيف مسلول لكان آمن عندي من عبدالله بن علي» (انساب 576) وقد ظن إبراهيم أن سيطرته على هذه الاقاليم ستعزز مركزه بانضمام اتباع جدد إلى حركته. وفي الكوفة كان ابن معز الاسدي وابن الفرافصة العجلي يبثون الدعاية لإبراهيم

ويحضرون لثورة فيها ولكن اجراءات الخليفة حالت دون ذلك، فلقد أعلن الخليفة منع التجول وقسم جنده البالغ عددهم 1300 فقط إلى ثلاث كتائب تقوم بأعمال الدورية في المدينة. وفي الليل كان الخليفة يشعل ناراً في مناطق مختلفة من المعسكر ليوهم الكوفيين بكثرة عدد جيشه. وفي الصباح الباكر كان يأمر كتائب من جنده أن تدخل المدينة وكأنها تعزيزات جديدة قد قدمت إليه من الخارج. والواقع أن عدد جيش الخليفة كان صغيراً جداً حيث كان قد فرق لقمع بعض الاضطرابات في ارمينية والري، وافريقيا والحجاز وهذا جعله في موقف حرج جداً. ولكن تردد إبراهيم في الانقضاض على الكوفة اعطى الخليفة الفرصة ليجمع قواته المتفرقة ويعمل بسرعة. حيث أمر الخليفة عيسى بن موسى بالتعجيل بالرجوع إلى العراق بعض قضائه على ثورة محمد ذي النفس الزكية بمحاولته التوجه نحو مكة، وكذلك أرسل مسلم بن قتيبة الباهلي من الري ليعزز مركز جعفر بن سليمان في البصرة. وقد استطاع مسلم الباهلي بما له من نفوذ في البصرة أن يكسب قبيلة باهلة إلى جانب العباسيين. كما استطاع حازم بن حزيمة بماعنده من 4.000 جندي أن يسيطر على الاهواز ويطرد منها الوالي الذي نصبه إبراهيم.

وقد تأثر إبراهيم حين سمع بمقتل اخيه محمد ولكنه أعلن نفسه أمير المؤمنين وصمم على التوجه نحو الكوفية. ولم يتبعه إلا 10.000من انصاره. وقد نصحه بعض اتباعه ممن لهم حنكة وتجربة بالحرب وممن كانون يعرفون اقصر الطرق غير المطروقة إلى الكوفة بمباغتة الخليفة والقضاء عليه ولكن إبراهيم متأثراً بمثاليته الدينية وببعض الشخصيات الدينية التي حوله مثل بشير الرحال رفض مباغتة الخليفة والقضاء عليه لإن ذلك ربما أدى إلى مجارة في الكوفة يذهب ضحيتها النساء والأطفال وصمم على مواجهة الجيش العباسي وجها لوجه. وقد علق احد اتباعه على ذلك قائلاً: «أخرجت لقتال أبي جعفر واصحابه وانت تتوقى قتل الضعيف والصغير والمرأة والرجل».

وفي باخمري قابل إبراهيم عيسى بن موسى ومعه 15.000 جندي، حيث اندحر الجيش العباسي في الجولة الأولى إلا أن صمود عيسى بن موسى وكتيبة معه والتفاف جعفر ومحمد ابني سليمان من الخلف على جيش إبراهيم بحيث اضطروه إلى التراجع لحربهم كل ذلك أعطى المجال للمقاتلة العباسيين إلى التجمع ثانية بقيادة حميد بن قحطبة الطائي. ولذلك كان على إبراهيم أن يحارب في جبهتين وبدأ اتباعه بالهرب ولم يبق معه إلا 500 من الزيدية وهكذا اندحر إبراهيم في الجولة الثانية وقتلت بسهم طائش في 25 ذي القعدة سنة 145هـ/ 763م. وقد ارسل رأسه إلى أبي جعفر حيث عرضه في سوق الكوفة ثم ارسله إلى مصر والاقاليم الاخرى. واعلن عيسى الأمان بعد انتهاء المعركة حالا ولكن الأمان لم يطبق ذلك لان بعض اتباع إبراهيم الذي سلموا انفسهم بعد الأمان قتلوا.

ويروى أن الخليفة كان قد أعد كل شيء للهرب من الكوفة مما يدل على خطورة الثورة. وكانت خطة الخليفة أن يلتحق بابنه المهدي في الري حيث يعسكر هناك جيش عباسي كبير. و لعل فشل الثورة يرجع إلى الأسباب التالية:

1- العناصر المتباينة التي ايدت الثورة وانخرطت تحت لوائها. فكان موقف إبراهيم متحيرا بين رأي هذه الكتلة أو تلك الجماعة. إن عدم وجود التناسق والانسجام بين القبائل العربية التي عاضدته حيث أن أغلبها كان مستاء من العباسيين دون أن تكون لهم ميول علوية حقيقة وقد ادرك إبراهيم ذلك ولهذا نراه يحاول عدة مرات الخروج من البصرة للتخلص من هذا الوضع المحرج واتخاذ مدينة اخرى كواسط مثلا مركزاً له. ومن الطبيعي أن يكون هذا الشك المتبادل مضعضعا من زخم الثورة.

2- إن علائم الانتعاش الاقتصادي بدأت تظهر في البصرة منذ تلك الفترة ولذلك فإن أهلها كتجار كانوا يحبذون الاستقرار ويتجنبون كل ما من شأنه أن يثير مشاكل سياسية ويدعو إلى الحرب التي تذهب بتجارتهم بارباحهم.

3- عدم اخذه بنصائح أعوانه من رجال الحرب بالانقضاض المباغت على الكوفة.

4- تأخره في الثورة وعدم استطاعته توقيتها مع ثورة محمد اخيه.

5-النبذة والتنافر بين اتباعه حيث يقول البلاذري (غير أن إبراهيم خاف غدر أهل البصرة واختلافهم وعصبيتهم). وهذا ادى به إلى التردد والبطء في اتخاذ قرارات كان يجب أن تكون حاسمة وسريعة إذا اريد لثورته النجاح.

إن الاجراءات المرنة غير الشديدة التي اتبعها والي البصرة في معاملته للمشتركين في ثورة إبراهيم تدل دلالة واضحة بأن المنصور كان مقتنعا بأن البصريين ليسوا علويين في ميولهم السياسية. وقد اقتصرت هذه الاجراءات على هدم دور بعض المتنفذين والشيوخ وقطع بعض نخيلهم.

وبعد ان قضى الخليفة على الثورات العلوية الخطرة اتخذ لقب (المنصور) حيث ثبت سلطة بني العباس واعتبر بحق مؤسس الدولة العباسية.

لقب المنصور ودلالته:

لقد اتخذ الخليفة أبو جعفر لقب المنصور بعد اندحار محمد وإبراهيم ذلك الانتصار الذي كان يعني نهاية الجهود العلوية النشطة للحصول على الخلافة ولم يتخذ الخليفة هذا اللقب إلا بعد أن قضى على أخطر ثورتين علويتين في الحجاز بقيادة محمد النفس الزكية (المهدي العلوي) وفي البصرة بقيادة إبراهيم بن عبدالله المحض.

ولا يعني هذا اللقب ما يذكره فأن فلوتن «الشخص المنتصر دوما» فحسب بل أن له دلالات وسياسية مهدوية وتنبؤية والقصد منه بالضبط «الشخص الذي اعانه الله تعالى على احراز النصر» ولذلك فهو على نفس نمط الالقاب المهدوية الاخرى كالسفاح والامام المهدي والهادي.

وقد اعتبر الخليفة المنصور دون شك المؤسس الحقيقي للدولة العباسية واصبح بعض الرواة يشيرون إلى بني المنصور بدلاً من بني العباس وكان من الامتيازات المهمة للخليفة أن ينحدر من حسبه ونسبه من المنصور الباني[13]. ويوصف المنصور بأنه أوجد أشياء كثيرة في الدولة لم تكن موجودة قبله[14]. ويشير ابن دحية في النبراس «المنصور أول خليفة لقب نفسه وهو أبو الخلفاء إلى اليوم»[15]. ويؤيد الاستاذ حسن

الباشا طبيعة هذا اللقب آنفة الذكر فيقول: «إنه ورد ضمن القاب المنصور في نص تشييد قرب اذربيجان وهو يشير إلى ان صاحبه مؤيد من الله لإن النصر من عند الله»[16].

وللقب المنصور أهمية كبيرة كما وأن له جذوراً تاريخية عريقة تعود إلى صدر الإسلام والجاهلية. ذلك لإن هذا اللقب كان معروفاً في جنوبي الجزيرة العربية منذ القدم وتذكره الروايات والملاحم بإنه المنقذ الاسطوري الذي ينتظره الناس والمسمى «القائم المنتظر»، الذي سيخرج لينشر العدل. ويستطرد نشوان الحميري[17] في كلامه عن المنقذ فيقول بأن لكل جماعة مهديها فلليهود منقذها من آل داود وللمسيحيين منقذهم وهو عيسى بن مريم وللمجوس منقذها من أبناء بهرام كور الذي سيعيد الدين الفارسي القديم وللشيعة فرق متعددة كل يدعي أن له مهدياً خاصة به. وللحميريين منقذهم الحميري الذي «سيعيد مملكة حمير بالعدل» ويذكر الهمداني[18]، بأن «منصور حمير» يسكن في جبل دامغ وسيخرج في وقته المناسب له.

ورغم أن هذه المصادر متأخرة إلا أنها تعتمد على روايات قديمة وملاحم شعبية شائعة ومنها يتبين بأن لقب المنصور ذو دلالات دينية تنبؤية تشير إلى المنقذ المنتظر في الاساطير العربية القديمة وهذا المنقذ يظهر باسماء مختلفة مثل: منصور اليمن - منصور حمير - والقحطاني المنتظر الذي سيعيد مجد جنوب اليمن المندثر.

اما في الفترة الإسلامية فقد استعمل هذا اللقب في ثورات كثيرة ضد الأمويين ففى ثورة المختار الثقفي في الكوفة سنة 66هـ/ سنة 685 م كان شعار الاتباع أثناء القتال «يا منصور أمت» أي اقتل. وفي ثورة عبدالرحمن بن الاشعث81هـ/ 700م الذي كان من القابه الشائعة «القحطاني» و «المنصور عبدالرحمن».

وفي سنة 121هـ/ سنة 739م حث شيعة العلويين زيد بن علي على الثورة قائلين له أنهم يأملون أن يكون (المنصور) وأن الوقت قد حان لتكون على يديه نهاية الأمويين[19].

وأهم من هذا كله فإن أحد شعارات ثورة رمضان العباسية129هـ/ 747م كانت «يا محمد يا منصور». ومحمد هذا هو محمد بن علي بن عبدالله بن العباس[20].

وهكذا فإن اتخاذ الخليفة أبي جعفر اللقب المنصور كان في محله من حيث طبيعته التنبؤية المهدوية التي تمس احاسيس الجماهير وخاصة القبائل اليمانية وتجعلها تتوهم بأنه هو المنصور حقا الذي سينشر العدل ويعيد الأمن والرفاهية وأن ما ادعاه محمد النفس الزكية من أنه المهدي باطل من اساسه وإلا لما استطاع المنصور أن يقضي على المهدي[21].

هذا من جهة ومن جهة اخرى فإن ادعاء أبي جعفر بأنه المنصور أو أتخاذه هذا اللقب يعطي برهاناً مهماً على الطبيعة العربية للثورة العباسية وعلى اعتماد الدعاة العباسيين على القبائل العربية وخاصة اليمانية من أهل خراسان. فلو أن الدعاة العباسيين لم يدركون أهمية العرب الخراسانية لما استعملوا شعار يا محمد يا منصور الذي له علاقة كبيرة بالقبائل اليمانية[22]، كما وإن اختيار الخليفة لهذا اللقب بالذات يدل على ادراك خلفاء العصر العباسي الأول لأهمية العرب وخاصة اليمانيين منهم واعتمادهم عليهم وربما تفضيلهم على القيسية في احيان كثيرة كما تدل على ذلك رواية فريدة في تاريخ الموصل[23]. وليس من شك فإن هذا يدحض آراء بعض المؤرخين القائلة بإن العصر العباسي الأول كان عصر النفوذ الفارسي الذي زال فيه تأثير العرب.

واخيراً فإن شعر أبي دلامة في المنصور حيث يقول[24]:

وقدموا القائم المنصور رأسكم   فالعين والانف والآذان في الرأس

وكذلك شعر الحميري في المنصور حيث يشير إليه قائلاً[25]:

يا أمين الله يا منصور يا خير الولاة   إن سوار بن عبدالله من شر القضاة

هذه الاشعار تؤكد الصبغة الدينية المهدوية للقب المنصور ولا تترك مجالا للشك فيها.

كما ظهرت أحاديث منسوبة إلى الرسول (ﷺ) تشير إلى المنصور منها : «منا القائم ومنا المنصور ومنا السفاح . . . أما المنصور فلا ترد له رايه . . .»[26].

المنصور والخوارج:

وفي عهد الخليفة المنصور لم تخل الجزيرة الفراتية من اضطرابات كان مصدرها الخوارج وخاصة من بني شيبان. ورغم أن مدينة الموصل فقدت بعضا من حيويتها كمركز للخوارج إلا أن حركات الخوارج كانت غالباً ما تظهر في اطرافها ولما كان أهالي الموصل غير ميالين للدولة فكانوا ينضمون إلى الخوارج أو يساعدونهم أو يحمونهم ضد السلطة العباسية. ولاقرار الأمن في هذه المنطقة المضطربة اقيم حرب بن عبدالله الراوندي بالموصل مع رابطة تضم الفين من الجند لتأديب الاضطرابات الخارجية. ولم يأمن العباسيون الموصل فقد حاولوا قتل عدد من شخصياتها المتنفذة ودبروا أو خططوا لابادة جماعية ولكن الفقهاء كانوا يحولون بينهم وبين خططهم. كما أن اسوار الموصل هدمت في العصر العباسي الأول كيلا يتمكن الأهالي من الاعتصام بالمدينة.

ففي سنة 137هـ/ 755م ثار الملبد بن حرملة الشيباني(27)مع ربيعة التي كانت منبع الثورات الخارجية منذ عهد الأمويين. وهزم روابط الجزيرة وروابط الموصل وانتصر على قادة كثيرين من أمثال يزيد المهلبي والمهلهل بن صفوان ونزار قائد من أهل خراسان وزياد بن مشكان وصالح بن صبيح وحميد الطائي. وكانت ثورة الملبد تحمل كل خصائص الثورات الخارجية فما أن اعلن الملبد ثورته حتى انضم إليه البدو الذين لم يكن لديهم ولاء لمذهب سياسي معين. كما انضم إليها الخوارج من اقسام اخرى من الدولة فزادوا من حجمها.

ولم تستطع السلطات العباسية حصر الملبد الذي جاب منطقة الجزيرة خلال عام 137هـ. وحاول حميد الطائي أن يغريه بالمال وشرط عليه ان يعطيه 100.000 درهم إن فك الحصار عنه فقبل الملبد. كما احتل الملبد الموصل وطرد واليها العباسي ثم اتجه جنوباً واحتل تكريت وارسل بعض اصحابه فخندقوا في بلد. وقد غدت حركة الملبد

خطرة بحيث شلت السلطة العباسية التي لم يبق لها نفوذ كبير في مناطق الجزيرة وارمينية واذربيجان كما أن أربطة كثيرة قد هوجمت وذبحت عن آخرها . وارسل الخليفة المنصور سنة 138هـ حملة جديدة بقيادة عبدالعزيز بن عبدالرحمن الازدي الذي اندحر هو الاخر . فاعقبه بخازم التميمي ونظلة النهشلي الذين ميزا انفسهما في معارك عمان ، على رأس 8000 مقاتل . وقد اتخذ خازم الموصل قاعدة انطلاق لقواته . وبعد ان تعقب خازم المبلد ومسايرته لعدة أيام (فتظاهر المبلد بالهرب فاقتفى اثره خازم واصحابه وتركوا خندقهم فكر عليهم الملبد واصحابه . ثم نزلوا وقاتلوا على الأرض بالسيوف فلما ثار الغبار رمي جند خازم بالنشاب فقتل الملبد وكثير من اصحابه وهرب الباقون) .

ومن الموصل بدأ عطية بن بعثر التغلبي[28] ثورته الخارجية مع 100من اتباعه وخرج من الموصل باتجاه الجنوب حيث يروي أنه قصد السوس ليهاجم قافلة عباسية محملة بالأموال ولكنه لم يلحق بها فصطدم بوالي السوس وقتل 200من أهل السوس . وفي طريقه إلى الموصل وقع في كمين وضعه له أبو حميد المروزي فقتل مع اتباعه . ومن قرية بضواحي الموصل . خرج حسان بن مجاهد بن يحيى بن مالك الوادعي الهمداني[29] وهو من أهالي مدينة الموصل وهزم رابطة الموصل ثم سار نحو الرقة . ولقد ادهش المنصور خروج حسان الهمداني ذلك لأن قبيلة همدان غير معروفة بميولها الخارجية ولكن الخليفة غاب عنه ان حسان هذا كان يتصل بصلة قرابة مع حفص بن أشيم الفقيه الخارجي المشهور .

وكان ثورة حسان الهمداني سنة 148هـ/ 765م دليلا آخر على الطبيعة البدوية للخوارج فقد نهبوا اسواق الموصل ودمروا وعاثوا فساداً رغبة منهم في الغنيمة أولا ولاظهار تذمرهم من السلطة العباسية ثانياً . ويظهر أن العصبية القبلية كانت لاتزال تعمل عملها . ورغم أن العقيدة الخارجية ترفض القبلية ، فقد عفا حسان عن الاسرى الهمدانيين الذين اسرهم من الجيش العباسي بينما قتل الاسرى القيسية . وقد امتعض من ذلك فقهاء الخوارج في جيشه ونتج عن ذلك انشقاق في صفوف اتباعه . واضمحلت حركته حيث تركه الكثير بسبب عصبيته القبلية . ويذكر هنا كذلك بأن

حسان الهمداني حاول الاتصال بخوارج عمان حين كان في طريقه إلى السند عارضاً الاتفاق بين الطرفين ولكن عرضه هذا رفض من قبل الامام الاباضي. وفي حركة حسان الهمداني تظهر خاصية اخرى من خصائص الحركات الخارجية وهي أن الحركة تلتف حول شخصية الزعيم وما أن يقتل الزعيم حتى يتشتت اتباعه إلى أن يظهر زعيم خارجي جديد.

لقد دفعت هذه الاضطرابات في الموصل وضواحيها، وكذلك سلسلة اخرى من الثورات الخارجية قصيرة العمر، الخليفة المنصور إلى دعوة الفقهاء مثل ابي حنيفة وابن ابي ليلى وابن شبرمة وشاورهم لتأييده بقتل أهل الاضطرابات في الموصل، ولكن أبا حنيفة استطاع اقناعه بالعدول عن هذا الرأي. وبدلاً من ذلك استعمل المنصور خالد بن برمك على الموصل بعد أن بلغه انتشار الاكراد هناك وافسادهم. فأحسن خالد إلى الناس وقهر المفسدين الاكراد وكفهم وهابه أهل البلد هيبة شديدة مع إحسانه إليهم. وقد رغب المنصور أن يزور الموصل سنة 149هـ إلا إنه غير رأيه وتوقف عند حديثة الموصل التي كانت انئذ بمثابة مصيف يهجع إليه الخلفاء والأمراء.

- وقد واجه عهد المنصور حركات خارجية في صعيد مصر إلا إنها لم تكن ذات بال حيث لم تمتد خطورتها إلى الشمال ولم تهدد السلطة.

- وفي اليمن بقيت بقية من الخوارج من اتباع أبي حمزة الشاري وطالب الحق، وحين أحس المنصور بتحركها عين معن بن زائدة الشيباني الربعي والياً على اليمن سنة 141هـ/ 758م، واوصاه باتباع سياسة شديدة ضد الخوارج. وقد قتل معن عدداً كبيراً من أهل اليمن بتهمة الخارجية. وعندئذ عين المنصور سنة 151هـ/ 767م عقبة بن سلم الازدي اليماني واليا على اليمامة والبحرين. وقد قام عقبة بمجازر فظيعة في هذه الاقاليم الاهلة ببني ربيعة ثاراً لأهل اليمن وانتقاماً من معين الشيباني.

إن استعمال العصبية القبلية من قبل المنصور حقق له هدفين: الأول القضاء على ما تبقى من الخوارج في اليمن والثاني كسر شوكة القبائل اليمانية والربيعية المعروفة بتحالفها التقليدي. فقد حل المنصور بعمله هذا التحالف اليماني الربيعي

الذي لو حدث فربما هدد كيان الدولة العباسية (وعلى أقل تقدير اصبح قوة يخشى بأسها ويحسب حسابها وهذا شيء لا يريده الخليفة). لقد حقق الخليفة هدفه باستعماله سلاح العصبية القبلية وسيلة لذلك ولكن الواليين معن الشيباني وعقبة الازدي دفعا ثمن سياستهما غالياً حيث اغتيل معن من قبل الخوارج في بست عاصمة سجستان واغتيل عقبة في بغداد.

- اما في افريقيا[30] فقد جابهت الحركة الخارجية مقاومة أقل من قبل السلطات العباسية وذلك لبعد الاقليم عن المركز من جهة واضطراب الحالة الداخلية فيه من جهة اخرى وفي سنة 132هـ / 749-750م اعلن والي افريقية عبد الرحمن بن حبيب الفهري ولاءه للعباسيين. ورغم ان العباسيين اقروه على عمله فقد ساءت علاقته بهم لإنه رفض نفوذهم السياسي المباشر ولم يوافق على مطالبهم المالية. ونظراً لذلك فقد وضع الخليفة أبو العباس افريقية تحت إدارة والي مصر صالح بن علي العباسي سنة 136هـ / 753-754. وقد اتبع العباسيون وسائل الدعاية السرية لحث الناس في افريقيا على التمرد ضد عبد الرحمن الفهري وتأييد العباسيين حيث أرسلت عدة بعثات- تبشيرية سرية إلى الاقليم. وقد اعقب هذه الحملة الدعائية حملة عسكرية بقيادة أبي عون الأزدي الذي كان على مقدمته عامر بن إسماعيل المسلي. كما أرسلت كذلك حملة بحرية إلى افريقية.

ولكن هذه الحملة العسكرية لم تتعد الاقليم المصري بعد حين توفي الخليفة أبو العباس واعقبه المنصور الذي أوقف الحملة لإنه كان بحاجة إلى الجند لقمع الاخطار التي تهدد الخلافة في العراق ولحاجته كذلك إلى المال والنفقات لمواجهة الثورات في الشام الحجاز.

وقد حاول والي مصر محمد بن الأشعث الخزاعي السيطرة على إفريقية ولكن محاولته فشلت وفقد محمد الخزاعي منصبه نتيجة لذلك.

على أن النزاع نشب بين الرؤوس المتنفذة في عائلة الفهري- ربما بتحريض غير مباشر من العباسيين- أدى إلى فقدان هذه العائلة للسلطة على افريقية. على أن

العباسيين لم يحلوا محل آل الفهري في السيطرة على الاقليم بل حل محلهم الخوارج الذي قبضوا على السلطة بقوة في مراكز عديدة هناك .

ويشير گب[31] إلى اضطراب الأوضاع في المغرب الإسلامي فيقول : (إن مبدأ الإسلام ذي الرسالة الأممية ربما- على ما يظهر- اثمر بعد تأسيس الامبراطورية الأممية العباسية ، ولكن التطورات الاقتصادية والاجتماعية السريعة في العراق وإيران لم تكن موازية للحالة في سوريا والاقاليم الافريقية حيث بقي التركيب الاجتماعي القبلي العربي على حالة مع تغير بسيط ولذلك فإن الحلول التي تصلح للمشرق الإسلامي وربما كانت غير عملية بالنسبة للمغرب الإسلامي .

فلقد انتخب أبو الخطاب عبدالأعلى بن السمح المعافري اماماً للخوارج في المنطقة الواقعة غربي طرابلس سنة 139هـ/ 757-758م ، وعلنا ثورته بمساعدة العناصر البربرية وامتد نفوذه إلى كل إفريقية حتى أنه احتل القيروان وعين واليا جديداً لها هو عبدالرحمن بن رستم الذي أسس فيما بعد الدولة الرسمية في تاهرت .

وفي الوقت نفسه اعلن أبو قرة الصفري نفسه اماما في تلمسان . وهكذا ظهرت فئتان من الخوارج في افريقية الاباضية والصفرية .

وكان على المنصور ان يضع حداً للوضع المتفاقم فأرسل 143هـ/ 760- 761م ، محمد بن الاشعث الخزاعي مع 4000 مقاتل إلى افريقية . وفي المعركة اندحر الاباضية وقتل زعيمهم أبو الخطاب سنة 144هـ . وقد بنى الوالي العباسي الجديد القيروان وانشأ معسكراً جديداً فيها . وقد اتبع سياسة شديدة ضد السكان حتى أنه أمر بقتل كل من يحمل اسماء اموية مثل سفيان ومروان حين احس باضطرابات ذات ميول أموية أو لعله اراد التخلص من بعض الشخصيات الخطرة تحت ستار (الميول الأموية) .

ولم تستطع الحكومة المركزية ان تسيطر على افريقية بسبب استمرار عدم الاستقرار فيها نتيجة النزاع بين القادة المتنفذين في الجيش العباسي هناك . وقد استمر استبدال الولاة حتى أن العباسيين اضطروا في سنة 150هـ/ 767م ، إلى تعيين الحسن بن حبيب الكندي قائد التمرد والياً على افريقية .

إن الحالة السياسية العصبية أدت إلى اختيار القائد المحنك عمر بن حفص العتكي المهلبي المعروف (بهزارمرد) والياً على افريقية سنة 151هـ/ 768م. ولما كان عمر العتكي لا يستطيع ان يثق بالقواد الخراسانية الموجودين في افريقية ولا بالقبائل المستوطنة هناك فقد جلب معه جيشاً جديداً. ورغم تغلغل الجيش العباسي الجديد في افريقية فإن الخوارج ظلوا يتمتعون بسمعة طيبة وشعبية كبيرة وتأييد من قبل العرب والبربر وبقي الجيش العباسي يرابط في قلاع وحصون دون أن يستطيع الاندماج بالسكان فقد تمركز في العباسية وطنبة وغيرها من القلاع العباسية.

وقد انفجر الخوارج في ثورة عارمة خلال حكم عمر العتكي الذي تغيب عن العاصمة في مهمة خاصة، استطاع الخوارج بقيادة أبي حاتم يعقوب بن تميم الكندي وأبي عاد أن يحتلوا العاصمة ويقتلوا نائب الوالي حبيب المهلبي. وفي طنبة اتحد الاباضية والصفرية تحت زعامة أبي قرة الصفري الذي اعلن نفسه اماما وقاتلوا الجيش العباسي بقيادة عمرالعتكي الذي استطاع ان يكسر حصارهم وينفذ بحياته عائداً إلى القيروان. حيث فرق الحشود الخارجية وقتياً ثم أرسل كتيبة للقضاء على عبدالرحمن بن رستم الذي انسحب نحو المغرب وتمركز في تاهرت حيث اعلن نفسه سنة 160هـ/ 771م أول إمام اباضي.

وقد كتب عمر العتكي إلى المنصور يطلب نجدات جديدة ولكنه قتل قبل أن تصله التعزيزات الجديدة سنة 154هـ/ 700م واحتل أبو حاتم القيروان سنة 155هـ/ 771-772م، وهكذا تمكن الخوارج من السيطرة على افريقية واصبح تعداد انصارهم ما يقرب من 400.000 مقاتل.

ولم يبق للمنصور إلا أن يثير الحماسة الدينية ضد الخوارج باسم الجهاد، واختار لقيادة جيشة يزيد بن حاتم المهلبي مقدراً دور آل المهلب في الكفاح ضد الخوارج في عصر الأمويين. واعد جيشاً من 50 الف مقاتل، إضافة إلى المقاتلة من الشام والجزيرة، كما صرف بسخاء على اعداد الجيش حيث أنفق عليه 63 مليون درهم. وللتأكيد على أهمية الحملة رافق المنصور الجيش حتى وصل إلى مدينة القدس في فلسطين سنة 154هـ/ 771م. وحين وصل يزيد المهلبي كان أبو حاتم مسيطره على

افريقية ما يقرب السنة ، وبعد عدة معارك استطاع يزيد المهلبي أن يقضي على الخوارج ويقتل أبا حاتم في معركة (طرابلس) سنة 155هـ/ 771-772م. بينما انسحبت بقية اصحابه إلى مناطق الجبال التي يسكنها البربر.

قرر يزيد المهلبي أن يتعقب الثوار في الجبال فأرسل جيشاً إلى البربر من قبيلة كتامة. لقد وجد مبدأ الخوارج تربة خصبة بين البربر الذين صمدوا امام الفاتحين العرب وتبعوا المبدأ الخارجي للتعبير عن تحديهم للعباسيين عن طريق اعتناقهم لعقيدة إسلامية معادية لعقيدة العباسيين(السنية). على أن الصدام المسلح كان ينبعث من عامل آخر هو تحدي البربر وهم سكان البلاد المفتوحة للفاتحين. وقد عبر عن هذا الشعور احد القادة العرب سليمان بن حميد الغافقي حيث قال يندد بالبربر.

وما أن صددنا عنهم خوف بأسهم وحاشا لنا أن نتقي بأس بربرا
ولكن أردنا ذل قوم تطاولوا علينا وأبدوا نخوة وتكبرا

على أن القلق وعدم الاستقرار لم ينته وكان مصدره كما ذكرنا سابقاً القادة والجند المرابطون في افريقية حيث كان مبعث الاضطرابات مشكلة العطاء والارزاق. وقد فشل المقاتلة السيطرة على الاقاليم خاصة المنطقة الجبلية وبعض المناطق الساحلية المنعزلة المأهولة بالمسيحيين.

- الخوارج في بلاد فارس[32] : وقد شهد أواخر عصر المنصور حركات خارجية ملحوظة في الجناح الشرقي من الدولة وخاصة في سجستان وفارس وكرمان وتخوم خراسان. والجدير بالملاحظة أن خوارج فارس وسجستان خلال عهد نهاية الأمويين كانوا في غالبيتهم من العرب الذين طردوا من العراق والجزيرة الفراتية. ولذلك فقد كانوا غرباء على المشرق الإسلامي أي أنهم لم يكونوا من سكانه المحليين. من أمر فإن الحركة الخارجية بسبب مذهبها في الخلافة المبنية على الانتخاب والشورى أولا وبسبب كونها حركة معارضة للعباسيين ثانيا كسبت كثيراً من الموالي الإيرانيين إليها حيث اعطتهم الفرصة لاعلان استيائهم من سياسة العباسيين أو للتنفيس عما يختلج في نفوسهم من آمال والام مكبوتة ، أو صعبة التحقيق لسبب أو لآخر.

وحين عين معن بن زائدة الشيباني والياً على سجستان سنة 151هـ/ 768م كان هدفه أن يضع الأمور في نصابها في هذا الاقليم المضطرب ويقضي على ما فيه من الخوارج. واستطاع معن الشيباني في اشهر قليلة أن يعيد النظام إلى المنطقة ويحمل الحرب إلى تخوم سجستان الشرقية التي تتمتع بالاستقلال الذاتي ويخضع اميرها رتبيل. ولكن معن الشيباني اغتيل ولم يمض على وجوده سنة من قبل الخوارج. وينسب صاحب كتاب تاريخي سجستان اغتيال معن الشيباني إلى تعسفه الإداري والمالي وطغيانه. اما الخزرجي فيقول إن اثنين من الحضارمة تعقبوا معن الشيباني وحين واتتهم الفرصة قتلوه ثأراً لابائهما واقربائهما الذين قتلهم معن في المجزرة التي خطط لها في اليمن. على أن هذه الرواية الاخيرة ليس لدينا ما يثبتها.

وفي سجستان قاد عامر الشيباني الخارجي ثورة مع الف من اتباعه في عهد المنصور. والمعروف عن سجستان أنها منطقة جيدة لترعرع الافكار الخارجية فيها فإضافة إلى كونها إيرانية، فإنها كانت احدى المناطق التي كانت سكانها لا يزالون يحتفظون بديانتهم الزرداشتية وهكذا فقد وجدت فيها عناصر محافظة عارضت التغلغل الإسلامي والفتح العربي ورأت في الانضمام إلى الخوارج، وهي حركة معارضة للعباسية وسيلة فعالة لمقاومة النفوذ السياسي العباسي. وهكذا فقد ضمت الحركة الخارجية في سجستان العرب الغرباء بالإضافة إلى السكان المحليين الإيرانيين. ورغم أن عامراً الشيباني قتل بعد فترة وجيزة من ثورته، فإن الحركة الخارجية استفحلت وباتت خطرة في عهد الرشيد(170هـ 786-809م) حيث امتد نفوذها إلى باذغيس وهيرات وبوشاغ.

المنصور والحركات الفارسية(33)

حركة اشناس:

وهي حركة قامت سنة 150هـ/ 767م في منطقة باذغيس وكانت فارسية في مبادئها وتهدف إلى تحقيق المبادئ التي فشل بهافريد في تحقيقها على أن نصيبها كان الفشل كذلك[34].

حركة سنباذ

كان سنباذ في قرية أهن احدى قرى نيسابور، وفي رواية الطبري(35) أنه كان من أتباع أبي مسلم وصنائعه، ولذلك كانت ثورته غضباً لقتل ابي مسلم وطلباً بثأره «فادعي كذلك بأن أبا مسلم لم يمت بل انقلب إلى حمامة بيضاء وهرب وأنه عائدلاً محالة، ويقول البلعمي[36] بأن سنباذ ثار بعد شهرين من مقتل أبي مسلم، والظاهر أنه كان يرتبط بعلاقة ودية مع أبي مسلم حيث كان احد قواد جيشه وكان- حسب رواية نظام الملك[37] برتبة (رئيس) في نيسابور ثم رقاه أبو مسلم إلى رتبة (سيباه سلار).

ولقد كان سنباذ في جيش أبي مسلم الذي استقدمه معه حين اراد الحج سنة 136هـ، ، وقد ترك أبو مسلم قسماً من جيشه في الري ومعه بعض خزائنه وربما كان في هذا الجيش المعسكر في الري سنباذ أو ربما بقي سنباذ مقيما في نيسابور، وحين سمع سنباذ باغتيال أبي مسلم أثار طالباً الثأر له وسمى نفسه أو أعطي لقب (بيروز اصبهبذ) القائد المنتصر.

وقد بدأت حركة سنباذ في بلدته نيسابور والمناطق التي حولها وقد احسن اختيار المكان نظراً لأهميته الاستراتيجية والسياسية باعتباره محل اقامة الوالي العباسي، ومما يجلب النظر كثرة اتباع سنباذل (حيث تذكر المصادر التاريخية نحو 90 الفا ولعله عدد مبالغ فيه) وقتل واليها أبا عبيد الحنفي ثم سيطر على الخزائن والمتاع الذي تركه أبو مسلم في الري في طريق ذهابه إلى الحج سنة 130هـ [38].

وهنا فكر سنباذ بأن يلعب لعبة سياسية حكيمة وهي ارسال جزء من خزائن أبي مسلم إلى الأمير خورشيد (اصبهبذ طبرستان) طالباً تأييده بارسال مقاتلة يقاتلون في صفوفه وقد انضم إليه فعلاً كثير من سكان طبرستان والديلم والجبال ويقول الطبري بان اغلبية اتباع سنباذ كانوا من مقاطعة الجبال عش الخرمية، ويقول المسعودي «بإن أكثر الخرمية من القرى والضياع»[39].

مبادئ سنباذ: لقد اختلف المؤرخون في وصف سنباذ فاعتبره المسعودي خرمياً أما الطبري فيقول إنه كان مجوسياً على حين يصفه نظام الملك بإنه كان مزدكياً، على أننا إذا تمعنا في الشعارات التي رفعها سنباذ فإننا نلاحظ محاولة هذا الثائر للتوفيق بين مبادئ إسلامية غالية وخرمية ومزدكية[40]، وهذا يدل على ان سنباذ بث دعايته بين عناصر إسلامية وغير إسلامية ومن أجل أن يضمهم إلى حركته رفع شعارات مختلفة تلائم كل هذه الفئات، ولهذا كانت شعاراته سياسية ودينية في آن واحد، فكان يبشر الفرس والمجوس بإن حكم العرب المسلمين صائر إلى الزوال لا محالة وأن دولة المجوس آتية لا ريب فيها، كما أنه وعد اتباعه بالذهاب إلى الحجاز وهدم الكعبة، ودعى الخرمية إلى التحالف مع (الغلاة) فلا فرق في رأيه، بين تعاليم الغلاة وتعاليم مزدك، ويقول نظام الملك بأن تعاليم سنباذ اثرت كثيراً على الرافضة (ربما يعني بهم الشيعة الغلاة) وكذلك اتباع مزدك[41].

إن ما يظهر من تعاليم سنباذ للمؤرخ هو صفة التنوع وربما احياناً التناقض، على أن هذا ليس بالغريب في حركة دينية سياسية من هذا النوع حيث استعمل سنباذ مع كل جماعة انضمت إليه اللغة التي تفهمها تلك الجماعة وضرب على الوتر الحساس الذي يشفي غليل هذه الجماعة أو تلك وهكذا، وقد اشرنا إلى بعض الأمثلة على ذلك ونضيف هنا إن سنباذ حاول مثلاً ترضية العناصر المجوسية باستبدال الكعبة بالشمس قبلة في أثناء الصلاة والعبادة والمعروف أن الشمس لعبت دوراً رئيسياً في العبادات الفارسية القديمة وقد حاول بهافريد أن يمجدها في تعاليمه وجاء سنباذ ليؤكد هذا المبدأ.

توسع الحركة ثم إخمادها:

لقد كان هدف سنباذ كما كرر ذلك مرات عديدة القضاء على الخلافة العربية وهدم رمز الدين الإسلامي وقبلته الكعبة[42] ولما كثر عدد اتباعه واصبحوا يعدون بالاف تحرك من نيسابور إلى الري يريد العراق، وحين احتل الري اسر عدداً كبيراً من المسلمين وخاصة النساء منهم، إلا أنه عامل التجار واصحاب الاصناف معاملة طيبة ربما لإنه كان يأمل منهم أن يهيئوا المؤونة والغذاء لاتباعه كثيري العدد.

وحين تحرك سنباذ همدان اضطر الخليفة المنصور إلى تجهيز حملة مستعجلة بقيادة جهور بن مرار العجلي، وكان تعددا المقاتلة 10 الاف رجل ثم تبعتها تعزيزات جديدة وقد انضم إلى الجيش العباسي العرب المسلمون الذي كانوا مستقرين في منطقة الجبال بقيادة عمر بن العلاء، وربما انضم إلى هؤلاء المتطوعة بعض الموالي من سكان الجبال والري، والتقى الجيشان في (موقعة جرجنبان) بين الري وهمدان، وقد اظهر عمر بن العلاء شجاعة فائقة في المعركة مما ادى إلى هرب سنباذ والتجائه إلى اصبهبذ طبرستا، وتروي المصادر التاريخية بأن عدد القتلي أربى على الـ 60 الفا وسبي كثير من النساء والأطفال[43].

وقد رحب أمير طبرستان بسنباذ أول الأمر حيث ارسل احد الأمراء ليستقبله إلا إن أمير طبرستان لم يكن راغباً في تكدير علاقته بالخليفة العباسي وقد رأى التجاء سنباذ له مبعثا لاثارة مشاكل مع السلطة العباسية ولذلك دبر مؤامرة قتله بعد مدة قصيرة.

وهكذا اخذت حركة سنباذ بعد مدة قصيرة من اعلانها تخمد حيث لم تستمر أكثر من شهرين ونصف تقريباً.

إن تأكيد سنباذ على شعارات مجوسية يدل على قلة انتشار الإسلام في مناطق إيران الشمالية الوعرة وكذلك بعض أقسامها الجنوبية وهذا بدوره يفسر محاولة الخلفاء العباسيين على اخضاع طبرستان والري والجبال وارمينية وسجستان كما حدث في أيام المنصور وحفيده الرشيد، وهناك ظاهرة اخرى، تؤكد ملاحظة أوردناها في أول هذا الفصل وهي أنه من الصعب اعتبار هذه الثورات (ثورات قومية) ذلك لأن الإيرانيين انضموا بعد فشل هذه الثورة مباشرة إلى القائد العربي جهور العجلي الذي اختلف مع المنصور على تقسيم الغنائم وتسليم خزائن أبي مسلم فالمصلحة لعبت دوراً لا بأس به في هذه الحركات حيث انضم المتذمرون إلى كل ثائر يرفع شعار الثورة ضد العباسيين.

ولقد بقي عدد من اتباع سنباذ موالين له حتى القرن الخامس الهجري[44] في الري وقزوين وكان يطلق عليهم (سنباذية).

حركة إسحق الترك:

ويشير الدوري إلى أن إسحق كان احد دعاة أبي مسلم ارسله للدعوة باسمه إلى بلاد الترك[47].

بدأ إسحق بنشر دعوته بعد موت أبي مسلم سنة 137هـ، وقد استمرت حركته حتى سنة140هـ، وكانت خراسان تمر بفترة اضطرابات شديدة حيث تختلف الروايات بشأن أصل إسحق هذا فمنها ما تقول إنه احد أولاد يحيى بن زيد العلوي الذي قتل في الجوزجان سنة 125هـ، في ولاية نصر بن سيار، وقد هرب إسحق هذا إلى تركستان وهناك بدأ يدعو إلى مذهبه الجديد، وفي رواية اخرى أن إسحق هذا كان تركياً يعيش في تركستان وكان امياً ولكنه ادعى أن هناك روحاً ترشده وتقدم له النصيحة عند الحاجة[46].

تختلف الروايات حول أصل إسحق هذا فمنها ما تقول إنه احد أولاد يهود.

استفاد إسحق من سوء العلاقة وقلة الثقة بين والي خراسان الجديد خالد بن إبراهيم الشيباني وبين المنصور ووجد حرية لنشر أفكاره في بلاد ما وراء النهر.

تعاليمه: إن ما نشره إسحق التركي من مبادئ تشابه إلى حد بعيد مبادئ سنباذ، فلقد ادعى بأن أبا مسلم لم يقتل وانه ما زال يعيش في جبال الري وأنه سوف يعود وينقذ الناس من حالتهم السيئة.

وتشير بعض الروايات[48] إن إسحق ادعى بأن أبا مسلم نبي ارسله زرادشت الذي لايزال على قيدة الحياة وسيعود ليصير دينه الزرادشي، فإذا كانت هذه الرواية صحيحة فإن في تعاليم إسحق التركي بعض أفكار من سبقه[49] خاصة في ما يتعلق بالتأكيد على حياة زرادشت وبعثة أبي مسلم ونبوته كما أن الظاهرة الجديدة الاخرى في هذه الحركة هي انتشارها في ترانسكسونيا وهي منطقة تسكنها شعوب إيرانية وتركية، حيث كون لهم حزبا هناك وجمع حوله (المبيضة) وهم حزب أبي مسلم.

نهاية حركته: تشير الروايات إلى أن خالداً الذهلي والي خراسان استطاع القضاء

على حركة إسحق وقتله، ولكن رواية اخرى تقول بأن اتباع إسحق التركي هم الذين قتلوا خالداً الذهلي وأنهم انضموا إلى خليفته عبدالجبار الأزدي في تمرده على السلطة العباسية، وكان اتباع إسحق هؤلاء بقيادة زعيمهم الجديد (براز).

مهما يكن من أمر فإن حركة إسحق التركي انتهت بمقتله على يد خالد الذهلي ولكن أتباعه من (المبيضة) انتشروا في مناطق مختلفة في ضواحي بلخ وغيرها، واستعان بهم عبدالجبار الازدي في تمرده الفاشل ضد العباسيين، ولعله كانت لهم بقايا في خراسان حتى القرن 12الميلادي على حد قول بارتولد[50].

حركة أستاذ سيس: لم تستطع السلطة العباسية تهدئة الحالة في خراسان بعد القضاء على حركة سنباذ، فقد استغل عبدالجبار الازدي عواطف الناس نحو العلويين باعتبارهم يمثلون احدى جبهات المعارضة للحكم القائم فرفع. شعار المطالبة بتنصيب خليفة علوي، وقد عرفت خراسان منذ نهاية العهد الأموي بوجود كتلة كبيرة مؤيدة لابناء علي بن أبي طالب.

على أن الحالة لم تهدأ فإن الفرس الذين لم يتيسر لهم الانخراط تحت شعار العلويين سواء كان ذلك عن ايمان بحق العلويين بالحكم أو كان ذلك باعتبار أن الحركة العلوية حركة معارضة للعباسيين، فإن هؤلاء الإيرانيين وجدوا لهم متنفسا اخر في حركة جديدة سنة 150هـ/ 767م، بقيادة استاذ سيس في باذغيس[51].

مبادئه:

لقد دعى استاذ سيس إلى مبادئ بهافريد نفسها ويؤكد الشهر ستاني ذلك فيقول بإن كلا الفرقتين السيانية (نسبة إلى استاذ سيس) والبهافريدية تعود في الاصل إلى فرقة مجوسية واحدة، وهذا القول يؤكد توافق تعاليم بهافريد واستاذ سيس بحيث يمكن اعتبار تعاليم الثاني استمراراً لتعاليم الأول[52].

استفحال الحركة: تشير الروايات التاريخية إلى خطورة هذه الحركة فتقول «وفي سنة مائة وخمسين خرجت الجيوش الخراسانية عن الطاعة مع الأمير استاذ سيس،

واستولى على أكثر مدن خراسان وعظم الخطب واستفحل الشر واشتد على المنصور الأمر»[53]، ولعل ما تذكره المصادر من أن عدد اتباعه بلغ حوالي 30 الف رجل يدل على قوة الحركة حيث انضم إليه أهل باذغيس وهيراث ومنطقة سجستان واقاليم مختلفة من خراسان[54].

واحتل استاذ سيس اغلب مدن خراسان ثم اتجه نحو مرو الروذ، وقد قتل القائد العربي الذي حاول التصدي له مع عدد كبير من اتباعه، كما قتل كثير من القواد الذين ارسلهم الخليفة المنصور.

ومما زاد في الازمة سوءاً حدوث اضطرابات عنيفة في مدينة (بست) عاصمة سجستان[55]، واشتراك في هذه الاضطرابات الزرادشتية باعداد كبيرة و هذا مما يدل على أن مناطق عديدة من سجستان لم تزل محافظة على ديانتها وتقاليدها الإيرانية القديمة وأن الإسلام لم يتغلغل حتى ذلك الحين «منتصف القرن الثاني الهجري» إلى هذه الاقاليم الإيرانية، وبعد معارك طاحنة هرب والي سجستان يزيد بن منصور(خال المهدي العباسي) إلى نيسابور حيث ارسل من هناك جيشاً بقيادة عبدالله بن العلاء الذي استطاع ان يدخل بست سنة 151هـ، بعد أن خمدت الاضطرابات.

اما موقف السلطة المركزية فقد ارسل المنصور جيشاً بقيادة خازم بن خزيمة التميمي الخراساني وأمر القائد بأن يلتحق بقوات المهدي الذي كان معسكراً في الري آنذاك، على أن كثرة القيادة وعدم انتظامها في الجيش العباسي ادت إلى خسارة عدد من المعارك، وحينئذ طلب التميمي من المهدي أن يعطيه القيادة العامة للقوات وأن يأمر كل القواد باطاعة أوامره، فكان له ما اراد، ولكن مقاومة استاذ سيس ومساعدة الحريش، وهو من أبناء سجستان، كانت لا تزال قوية فطلب خازم التميمي العون من المهدي الذي أمر بدوره القوات الإسلامية في طخارستان بالتوجه إلى خازم التميمي لاسناده[56].

وكان خازم التميمي قد خندق على نفسه وتحصن في مكان منيع، وحينما هاجمه الحريش محاولا عبور الخندق استطاع خازم التميمي أن يصده، ثم أمر خازم

التميمي ميمنة جيشه بالانسحاب إلى الخطوط الخلفية تم الالتفاف على مؤخرة جيش أستاذ سيس الذي استطاع خازم ان يشاغله في تلك الأثناء بمناوشات مستمرة ، وحين هاجمت ميمنة الجيش العباسي مؤخرة جيش استاذ سيس وقتل منه نحو 70 الفا كما أن 14 الفا اسروا وقتل بعضهم بعد الاسر ، وعفا المهدي عن 30 الفا من جنود استاذ سيس بعدئذ .

مقتله: اما استاذ سيس نفسه فقد هرب مع جماعة من اتباعه والتجأ إلى الجبال ولكن خازم لحق به وحاصره فاقترح استاذ سيس التسليم فقبل خازم التميمي ذلك وكبله بالحديد وارسله للأمير محمد المهدي الذي ارسله بدوره إلى الخليفة المنصور فقتله . وحين عاد الأمير المهدي إلى العراق سنة 151هـ ، استقبل استقبالا حافلاً تكريماً له ولقواده لقضائهم على حركة استاذ سيس .

الديلم والعباسيون: ولم يكن النجاح العسكري الذي حققه العباسيون في الديلم ذا فائدة عملية ، فقد استمر المتمردون يهاجمون المناطق الجنوبية التي تمركزت فيها الحاميات العباسية ، مما دعا المنصور إلى اعلان الجهاد سنة 143هـ وارسل الرسل إلى البصرة ، والكوفة لشحذ الناس ودعوتهم لتعزيز الجيش[57] وقد قاد الحملة محمد بن أبي العباس وحين وصولها إلى الموصل انضمت إليها المقاتلة من الموصل والجزيرة الفراتية عامة .

على أن هذه الحملة وغيرها لم تحقق شيئاً في منطقة الديلم ما عدا بعض الغنائم السبي الذي استطاع الجند الحصول عليه أثناء مناوشاتهم مع السكان المحليين .

هوامش الفصل الثالث

1- ابن طباطبا (الطقطقي)، الفخري، 147 .

2- المصدر السابق، 136-137 .

3- اليعقوبي، البلدان، - المؤلف نفسه التاريخ، ج 2 ، ص456، الطبري ، القسم الثالث، ص 72فما بعد E.i(2) Baghdad .

4- الطبري، تاريخ القسم الثالث، 129-132 .

5- اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص، 433، العيون والحدائق، 215، الطبري تاريخ، القسم الثالث، 59-85، 99 فما بعد .

6- ابن طباطبا، الفخري، 148-149 .

7-فاروق عمر، العباسيون الأوائل، ج1، بيروت 1971 .

8- F. Imar, The Abbasid Caliphate, pp. 211-257

9- الطبري، القسام الثالث، 209 ابن الأثير، الكامل ، ج5، 115 .

10- الطبري، القسم الثالث، 201 فما بعد، الاصفهاني، مقاتل، F. Omar, op.cit.,pp. 236 ff185 .

11- الطبري، القسم الثالث، 189 فما بعد F. Omar, op. cit., pp. 245 ff

12- Ch. pellat, le Milieu Basrieu., p. 281 .

13- ابن عبدربه، العقد الفريد، ج3ص، 327، دينوري، الاخبار الطوال، ص 389.

14 -اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم ، ص 54-55.

15- ابن دحية، ص 24.

16- حسن الباشا، ص 512، Repertoin 1.43 .

17- نشوان الحمير، شمس العلوم- ليدن 1916 ص 103 فما بعد.

18- الهمداني، الاكليل، بغداد 1931، ص 71 فما بعد.

19- B. Lewis, op. cit.,p.7

20- انظر الدكتور فاروق عمر، الخلافة العباسية 132-170(بالانجليزية)، الفصل الثاني، بغداد 1969 ولنفس المؤلف، طبيعة الدعوة العباسية، الفصل الثاني والثالث. بيروت1970 ولنفس المؤلف. إبراهيم الامام (دائرة المعارف الإسلامية بالانجليزية والفرنسية) الطبعة الجديدة.

21-لقد اتخذ بعض الثوار لقب المنصور بعد اعلانهم الثورة على السلطان حتى فترة متأخرة من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي ومنهم الداعي ابن حوشب الذي اتخذ لقب «منصور اليمن» حين ارسل من قبل الاسماعيلية إلى اليمن في سنة 268هـ. انظر B, Lewis op. cit.p 8.

22- انظر الدكتور فاروق عمر تقييم جديد للدعوة العباسية، مجلة العرب 1970لنفس المؤلف The Composition of the early Abbasid suppprt B. C. A., 1968.

23- انظر الازدي، تاريخ الموصل، القاهرة 1968 ص، 214.

24- الاصفهاني، الاغاني، ج9، ص 123.

25- op. cit، ج 7، ص 17.

26- أحمد أمين، ضحى الإسلام، 2، ص 125-126.

27- البلاذري، انساب، 559، خليكة بن ضياط، تاريخ، 290، الطبري، القسم الثالث، 120 فاروق عمر، العباسيون الأوائل، ج 1ص 254 فما بعد.

28- البلاذري، المصدر السابق، 561 F. Omar, op. cit, 292 ff

29- البلاذري، المصدر السابق، 561، ابن الأثير، الكامل، ج 5ص، 447.

30- ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1ص 64، الكندي الولا، 102-103، Marcais, Berberie... p. 45.

31- كب، دراسات (بالانجليزية)، 11.

Lewicki, Le Ibadites.. pp. 4f

F. Omar, op. cit., pp. 292-300

32- البلاذري، فتوح، ج 1ص 227، الطبري، القسم الثالث، 368، اليعقوبي، تاريخ، ج2ص462، مجهول تاريخي سستان 146 F. Omar, op. cit., p 300

33- حول تفاصيل هذه الحركات راجع:

Sadighi, Le mauvemeuts...., paris, 1938. pp. 121 ff

34-انظر: بارتولد، تركستان، ص 198، الدوري، العصر العباسي الأول، ص 91.

35- الطبري، طبعة القاهرة1949، ج 6، ص 140.

36 البلعمي، ترجماي تاريخي طبري (مخطوطة المتحف البريطاني)، ص406 فما بعد.

37- نظام الملك، سياسة نامه، ص 257.

38- الطبري، ليدن ، III ص 86، المسعودي، مروج الذهب، ج6، ص 188-189، البلعمي، المصدر السابق.

39- الطبري، III، ص 119 فما بعد، المسعودي، المصدر السابق، ج6ص 188.

Sadighi, op. cit., pp. 137 ff. -40

41- نظام الملك، سياسة نامه، 267-268.

42- نظام الملك، .op. cit– ابن الاثير، الكامل، ج5، ص368 فما بعد، ابن الطقطقي الفخري، ص 202-203.

43- يعقوبي ، تاريخ ، ج2، ص362، البلعمي، المصدر السابق، المقدسي، البدء والتاريخ، ج 6، ص 82، المسعودي، مروج الذهب، ج6 ص 189، ابن اصفنديار، تاريخي طبرستان، ص 112.

. Sadihi, op. cit., p. 149 -44

45- صديقي، المصدر السابق، ص 151.

46- ابن النديم، ص344- 345.

47- صديقي، ص 152، الدوري، المصدر السابق، ص87.

48- ابن النديم، ص 344 فما بعد، الكرديزي، زين الاخبار (مخطوطة، كمبردج)، ص 73أ.

49- في حركة سنباذ تظهر علاقة أبي مسلم بمزدك أما في حركة إسحق فعلاقة أبي مسلم ترتبط بزاردشت. انظر صديقي، المصدر السابق، ص 153.

50- ابن النديم، المصدر السابق، الطبري III، ص 128، انظر كذلك الاشعري، ص 98، البغدادي، ص 81، صديقي، ص 153 فما بعد، الدوري، ص 87-88، الليثي، ص 114– بارتولد تركستان، ص 198 فما بعد.

51- الطبري II، ص 1501، ص1713، المسعودي، مروج الذهب ،ج 6، ص 3، انظر كذلك الطبري، III، ص 183-184.

52- الشهر ستاني، الملل والنحل، ص 187.

53- السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 262.

54- قارن بين الطبري III، ص 773، المقدسي، ج 6، ص 76، ابن الاثير، الكامل، ج 5 ص، 452-454، ابن خلدون، العبر، ج3ص، 198.

55- المؤلف مجهول، تاريخ سجستان، ص 142.

56- تاريخي سسيتان، 143، القسم الثالث، 773 اليعقوبي، ج 2 ، 457 فما بعد، المقدسي ، ج 6 ص 76.

57- الطبري، القسم الثالث، 941.

الفصل الرابع

الدولة العباسية في عصر الاستقرار والرخاء

عهد الخليفة محمد المهدي 158هـ/ 775م - 169هـ/ 785م

بيعته:

توفي المنصور في طريقه إلى الحج على مقربة من مكة وبويع المهدي بمكة البيعة الخاصة، اما البيعة العامة فكانت ببغداد في 18 ذي الحجة سنة 158هـ وخطب المهدي ومما قال:

«. . . ولقد فارقتُ عظيما وقلدت جسيما وعندالله احتسب أمير المؤمنين وبه استعين عزوجل على خلافة المسلمين. . . »[1].

والواقع أن بيعة المنصور لابنه المهدي لم تكن بالأمر السهل بل جابهت عقبات كبيرة بسبب أن «الشرعية» كانت مع عيسى بن موسى بن محمد ولي العهد الثاني الذي اختاره أبو العباس السفاح ليكون خليفة بعد المنصور[2].

إلا أن الخليفة المنصور وبعد أن قضى على الاخطار ووضع أسس الدولة الجديدة ثابتة رصينة لم يعد يخشى طموح طامع أو تآمر أمير ولكنه مع ذلك ظل يراقب الهاشميين عامة. فسجن إسحق بن الفضل الهاشمي وهو من نسل الحارث بن عبدالمطلب العم الأكبر للرسول (ﷺ). و تشير بعض الروايات إلى أن إسحق الهاشمي ادعى بأن حقه في الخلافة أفضل من غيره باعتباره يمثل الفرع الأكبر من بني

هاشم. كما وأن شكوك المنصور حامت حول صالح بن علي العباسي والي قنسرين والعواصم. فقد أمره الخليفة بالعودة إلى العراق وترك منصبه حين سمع بازدياد قوته وكثرة مواليه[3]. كما عمد المنصور إلى التقليل من شأن محمد ابن أبي العباس[4] واظهار عدم كفاءته الإدارية والسياسية والظاهر أن محمداً هذا لم يكن نفسه يطمع في الخلافة وانما نحو الشعر والغناء والناس، كما تظهره بعض الروايات التي بالغ بعضها في ذلك حتى أننا نظن أنها مدسوسة من قبل الخليفة وأعوانه للحط من شأن محمد.

لقد كانت خطة المنصور أن يحفظ الملك في نسله من بعده وكان محمد وجعفر من أبنائه المفضلين لديه. وتشير كل الدلائل إلى أن الخليفة كان يعد أولاده لولاية العهد. فقد عين عدداً من المربين والصحابة لكل من ابنيه محمد وجعفر. فكان مع محمد كل من أبي عبيدالله معاوية ويحيى بن برمك وأبي سعيد بن محمد بن مسلم وسفيان بن حسين والحجاج ابن أرطأة. وطلب من الشرقي بن القطامي أن يعلمه أيام العرب وأخبارها وتاريخها وشعرها. أما جعفر فكان له الفضل بن عمران مربيا. ثم عين والياً على الموصل سنة 145هـ، أما محمد الذي كان لايزال في العقد الثاني من عمره فقد عينه أبوه واليا على خراسان وصاحبه أبو عبيدالله معاوية وخازم بن خزيمة التميمي قائداً للجيش[5]. ولا بد أن يكون الأخوان قد أدركا رغبة أبيهما ولذلك فإن المنافسة ظهرت بينهما، إلا أن كفة الميزان كانت تميل بمرور الزمن إلى جانب محمد الذي كان أكثر حزماً وجدية إذا قورن باخيه جعفر. كما أن وفاة جعفر المبكرة سنة 150هـ، حسمت الأزمة المرتقبة في صالح محمد الذي تركزت حوله الانظار.

وقد بث المنصور دعاية واسعة هدفها إقناع الناس بأن محمداً هو المهدي المنتظر ليجابه بذلك دعايات العلويين حول المهدية سواء الحسينيين والحسنيين أو الحنفية. فاستغل قابلية الشاعر مطيع بن اياس على وضع الحديث واشاعته بين الناس وفحواه أن محمداً بن المنصور هو المهدي الذي سيملا الأرض عدلاً. ولم تقتصر هذه الدعاية للمهدي في بغداد بل شملت الاقاليم كلها كالموصل والحجاز. حيث أشار إسماعيل القسري والي الموصل إلى محمد قائلا حين سأله المنصور متى يظهر قحطانيكم يا إسماعيل؟ فقال: «قد ظهر فهو المهدي ولي عهد المسلمين ابن أمير المؤمنين ابن

اختنا». . . وأشار الاعلم الهمداني في الحجاز إلى محمد المهدي قائلا: «جاءت به الروايات وظهرت فيه العلامات»[6].

موقف عيسى بن موسى:

ولم يبق على المنصور إلا أن يقنع عيسى بن موسى ولي العهد حسب أوامر أبي العباس. وكان عيسى هذا من أقدر الأمراء العباسيين وأكفأهم إداريا وعسكريا ويشير إليه الجاحظ[7] قائلا بأنه أحد الرجال الذين أشادوا دولة المنصور وسندوا الخلافة بعد اضطرابها. فقد قضى على ثورات العلويين في الحجاز والبصرة وضبط الكوفة لمدة 13 سنة. والواقع أن المنصور نفسه اعترف بقابليات عيسى بن موسى وقدرها حق تقديرها على ان غريزة الابوة حالت بين المنصور وبين الاعتراف بحق عيسى.

لقد فشلت خطة المنصور الأولى في القضاء على عيسى حين أرسله لقمع ثورة الحجاز فقد خرج عيسى من المعركة منتصراً، فحاول المنصور محاولة جديدة وذلك بأن أقنع عيسى بقتل عبدالله بن علي الذي كان مسجوناً في الهاشمية، باعتبار أن عبدالله بن علي يعتبر خطراً على عيسى نفسه لطموحه في الخلافة. ولكن كاتب عيسى حذره من مغبة العمل هذا حيث أن فيه خدعة ومكيدة يدبرها المنصور لأن أخوة عبدالله سيطلبون بثأر أخيهم ويقتلون عيسى[8]. وقد بانت المكيدة حين عاد المنصور من الحج وسأل عن عبدالله فتظاهر عيسى بأنه قتله فأثار المنصور أعمامه الذين هموا بقتل عيسى لولا أن تدارك الأمر وأخرجه معلنا دون جدوى أن المنصور هو الذي أمر بقتله إلا إنه لم يفعل وهكذا فشلت خطة المنصور الثانية.

وبقي عيسى بن موسى شوكة في جنب المنصور وحائلا دون تحقيق رغباته، فقرر أن يتخذ أسلوب الحذر والاقناع دون جدوى. وفي سنة 147هـ تبودلت رسائل مهمة[9] بين الخليفة وولي عهده بين كل منهما وجهة نظره بصراحة ووضوح حول مشكلة ولاية العهد. كتب المنصور إلى ولي عهده:

«. . . ثم أنك قد علمت الحال التي كنا عليها في ولاية الظلمة كيف كانت قوتنا وحيلتنا لما اجترا عليه أهل بيت اللعنة علينا. . . حتى إذا بلغ الكتاب أجله وانتهى

الأمر إلى مدته واذن الله في هلاك عدوه. . . فابتعث الله انصاراً يطلبون بثأرهم ويجاهدون عدوهم وينصرون دولتهم. . . ثم لم نزل من ذلك في نعمة الله وفضله حتى نشأ هذا الغلام فقذف الله له في قلوب أنصار الدين الذين ابتعثهم لنا مثل ابتدائه لنا أول أمرنا وأشرب قلوبهم مودته وقسم في صدورهم محبته فصاروا لايذكرون إلا فضله ولا ينوهون إلا باسمه ولا يعرفون إلا حقه.

فلما رأى أمير المؤمنين ما قذف الله في قلوبهم من مودته وأجرى على ألسنتهم من ذكره ومعرفتهم اياه بعلاماته واسمه ودعاء العامة إلى طاعته أيقنت نفس أمير المؤمنين أن ذلك أمراً تولاه الله وصنعه لم يكن للعباد فيه أمر ولا قدرة ولا مؤامرة ولا مذاكرة للذي رأى أمير المؤمنين من اجتماع الكلمة وتتابع العامة حتى ظن أمير المؤمنين انه لولا معرفة المهدي بحق الأبوة لافضت الأمور إليه وكان أمير المؤمنين لا يمنع مما اجتمعت عليه العامة ولا يجد مناصاً عن خلاص ما دعوا إليه.

وكان أشد الناس على أمير المؤمنين الاقرب فالاقرب من خاصته وثقاته من حرس وشرطة فلم يجد أمير المؤمنين بدا من استصلاحهم ومتابعتهم وكان أمير المؤمنين وأهل بيته أحق من سارع إلى ذلك وحرص عليه ورغب فيه ورجا بركته. . . فوهب الله لأمير المؤمنين ولياً ثم جعلها تقيا مباركاً مهدياً وللنبي (ﷺ) سميا وسلب من انتحل هذا الاسم ودعا إلى تلك الشبهة التي تحير فيها أهل تلك النية وأفتتن بها أهل تلك الشقوة فانتزع ذلك منهم وجعل دائرة السوء عليهم وأقر الحق قراره وأعلن للمهدي مناره وللدين أنصاره. فأحب أمير المؤمنين أن يعلمك الذي اجتمع عليه رأي رعيته وكنت في نفسه بمنزلة ولده يحب من سترك ورشدك وزينك ما يحب لنفسه وولده ويرى لك إذا بلغك من حال ابن عمك ما ترى من اجتماع الناس عليه أن يكون ابتداء ذلك من قبلك ليعلم أنصارنا من أهل خراسان وغيرهم انك أسرع إلي ما أحبوا مما عليه رأيهم في صلاحهم منهم إلى ذلك من أنفسهم وأن ما كان عليه من فضل عرفوه للمهدي أن أملوه فيه كنت أحظى الناس بذلك وأسرهم به لمكانه وقرابته فأقبل نصح أمير المؤمنين لك تصلح وترشد والسلام عليكم ورحمة الله».

وقد أجاب عيسى على رسالة الخليفة مؤكداً حقه مذكرا إياه أن في ذلك نقضا

لميثاق الله وما أقسمت عليه الأمة محذرا الخليفة أن من ينقض البيعة من الرعية سيتعود إلى نقضها ثانية وثالثة وفي هذا ترخيص للناس في ترك الوفاء. ولم يتراجع عيسى عن حقه في الرسالة بل أثبت أن الميثاق والعهد لا يمكن تغييره أو تبدله. وذكر الخليفة بإن الأمر بعد ذلك لله وحده وأن المنصور يجب أن ينفذ ما جاء في عهد أبي العباس.

ولعل أهم ما يلاحظ في رسالة الخليفة آنفة الذكر أنها أكدت:

أولاً: إن خلافة المهدي هي تقرير من الله تعالى وتعبير عن إرادته الذي رفع من شأن المهدي وأدخل حبه في نفوس الرعية.

وثانياً: إنها تعبير عن رغبة أهل خراسان أنصار الدولة وسائر بني هاشم والناس.

وثالثاً: لم يترك الخليفة هذه الفرصة تمر إلا ويؤكد على مهدية ابنه محمد وأنه لولا كونه المهدي الحقيقي لما نصره الله على الاخرين الذين ادعوا المهدية في ذلك الوقت. وحين أصر عيسى بن موسى على موقفه عمد الخليفة إلى اتباع أساليب أكثر شدة وأهانة فحرض الجند والقادة فكانوا يسمعون عيسى ما يكرهه ومن هؤلاء القادة الموالين للمهدي أسد بن المرزبان وعقبة بن سلم ونصر بن حرب بن عبدالله الراوندي.

وأرسل المنصور أبا عبيدالله معاوية وخالد البرمكي مع ثلاثين آخرين إلى عيسى لإقناعة بالتنازل إلى محمد المهدي وحين حاول هؤلاء دون جدوى إقناع عيسى شهد خالد البرمكي زوراً أن عيسى قد وافق على التنازل[10].

وحرض الخليفة الشاعر أبا نخيلة إلى التعريض بعيسى بن موسى ومدح المهدي ومنحه عشرة آلاف درهم ولكنه قتل من قبل أنصار عيسى قبل أن يستلم منحته.

ولم تبق لعيسى امتيازاته السابقة حين يحضر مجلس البلاط فقلت منزلته بين الناس الذين ما لبثوا أن قللوا من زياراتهم لعيسى على حساب تزايد زياراتهم للمهدي.

وعزل الخليفة عيسى من ولاية الكوفة سنة 147-764 متعذراً بحاجته إليه لكي

يكون بقربه في البلاد. فما بقي عيسى في الكوفة حرض الوالي الجديد على التقليل من شأنه في المناسبات.

وتشير روايات اخرى[11]، إلى أن المنصور حاول أن يسمه ولكن المحاولة فشلت.

وقد تحمل عيسى بن موسى كل ذلك ولكن حين تعرضت حياته وحياة أحد أولاده موسى بن عيسى لخطر الموت فإنه بدأ يضعف ويتخاذل. وتشير احدى الروايات إلى أن المنصور حاول قتل أحد أبناء عيسى أمام عينيه فقال عيسى:

«يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الأمر يبلغ منك هذا كله فمر بالكف عنه فإني لم أكن لارجع إلى أهلي وقد قتل بسبب هذا الأمر عبد من عبيدي فكيف بابني. فها أنا أشهدك أن نسائي طوالق ومماليكي أحرار وما أملك في سبيل الله تصرف ذلك فيمن رأيت يا أمير المؤمنين وهذه يدي بالبيعة للمهدي». على أننا يجب أن نلاحظ بأن تنازل عيسى بن موسى نفسه يناقض ميثاق البيعة ويعتبر نكثاً له ويجعل جميع نساء عيسى طوالق وعبيده أحراراً وأملاكه ليست له.

وقد تنازل عيسى إلى المهدي على أن يكون ولياً للعهد من بعده. ومقابل ذلك منحه الخليفة المال والقطائع ونفذ ما كان قد كتبه في آخر رسالة عيسى «أسل عنها تنل منها عوضا في الدنيا وتأمن تبعتها في الآخرة». ويشير الطبري إلى أن عيسى حين أعلن عن تنازله قال: «إني قد سلمت ولاية العهد محمد بن أمير المؤمنين وقدمته على نفسي. فقال أبو عبيد الله ليس هكذا أعز الله الأمير ولكن قل ذلك بحقه وصدقه وأخبر بما رغبت فيه فأعطيت قال نعم قد بعت نصيبي من تقدمة ولاية العهد من عبدالله أمير المؤمنين لابنه محمد المهدي بعشرة الاف درهم وثلاثمائة الف بين ولدي وسبعمائة الف لفلانة امرأة من نسائه بطيب نفس عني وحب لتصييرها إليه لإنه أولى بها وأحق وأقوى عليها وعلى القيام بها... وختم الميثاق وشهد عليه الشهود[12].
وفي سنة 768/151 عاد المهدي من خراسان فجدد المنصور البيعة له ولابنه المهدي ولعيسى بن موسى من بعده. وكان الناس يقبلون يدي المنصور وابنه ويمسحون على يدعيسى فقط[13].

ومع ذلك فلم ييأس عيسى بن موسى ويظهر أن له أنصاراً يؤيدون حقه في الخلافة. فقد سجن المنصور سنة /770هـ / 153م عدداً منهم متهماً أياهم بنشاطات تآمرية وكان الخليفة ينبه أهل بيته الهاشميين وأهل خراسان في كل مناسبة أن يقفوا إلى جانب المهدي يؤازروه ويشدون من عضده. كما وأنه ترك له وصايا ترشده في حكم الأمة قبل مغادرته للحج سنة 158هـ/ 775م حيث توفي في الطريق إلى مكة(14).

وتشير الروايات(15)، أن الربيع بن يونس طالب الهاشميين بإن يبايعوا للمهدي وأظهر بعضهم بعد التحدي أو النفور حين علموا بوفاة المنصور. ولعب الربيع دوراً كبيراً في ضمان بيعتهم للخليفة الجديد. وكان أول المبايعيين الحسن بن زيد العلوي وتبعه الاخرون. أما عيسى بن موسى فرفض وكاد ذلك أن يؤدي إلى نزاع وتصدع في الصف العباسي خاصة وأن بعض القادة ترددوا في البيعة أسوة بعيسى بن موسى. ولكن عيسى اضطر إلى البيعة بعد أن هدده عيسى بن هامات صاحب حرس موسى بن المهدي الذي كان مع القافلة، كما وأن عيسى بن علي لعب دوراً في اقناع عيسى بن موسى بالبيعة للمهدي كما تشير إلى ذلك رواية البلاذري.

ومهما يكن من أمر فإن هذه الروايات تشير إلى التأزم الذي ظهر بمجرد سماع الهاشميين والقادة بإن الخليفة قد اقترب إلى نهايته أو تحسسوا أنه قد مات فعلاً مما يؤكد أن لعيسى أنصاراً ما يزالوا يعترفون بحقه. وقد سافر منارة مولى المنصور مسرعاً إلى بغداد ومعه مرسوم الخلافة وشاراتها ليسلمها إلى المهدي(16).

الرفاه الاقتصادي والرخاء المعيشي:

كان العهد الجديد عهد انتقال من شدة المنصور إلى تسامح واعتدال المهدي فقد هادن المعارضة السياسية واطلق السجناء وأدر العطاء والرزق والهبات ورد الأموال المصادرة وقام بضروب من الاصلاحات فأصلح طريق مكة وأكثر من بناء الاحواض فيه، وزاد من المسجد الحرام، وحصن المدن وبنى دار للمجذومين وعين «الامناء» على الولايات ليكتبوا له بالاخبار وسن كسوة الكعبة السنوية التي تستبدل في كل عام. يقول المسعودي:

«كان المهدي محبباً إلى الخاص والعام، لأنه افتتح عهده بالنظر إلى المظالم والكف عن القتل وأمن الخائف وأنصف المظلوم وبسط يده في الاعطاء فأذهب جميع ماخلفه المنصور...»[17].

وقد نتج عن هذه الإجراءات انتشار العدل وكثرة الرخاء حيث تتوفر الغلال الزراعية وتكثر الأموال في خزينة الدولة من جباية الضرائب. ورخصت الاسعار حتى قال الخطيب البغدادي في رواية عن عهد العباسيين الأوائل:

«رأيت زمن أبي جعفر كبشاً بدرهم: وحملاً بأربعة دوانق، والتمر ستين رطلاً بدرهم، والزيت ستة عشر رطلاً بدرهم، والسمن ثمانية ارطال بدرهم. ولحم البقر تسعين رطلا بدرهم ولحم الغنم ستين رطلاً بدرهم...»[18].

وقد خفف المهدي الضرائب على الفلاحين وتوسع في تطبيق نظام «المقاسمة» حيث جعل جباية الضرائب نوعاً لا نقداً وبنسبة خاصة من المحصول[19].

وبسبب الاستقرار والأمن توسعت التجارة ونشطت فكانت البضائع تستورد من شتى البقاع وتشمل كل ما يحتاجه المجتمع من حاجات ضرورية أو ترفيهية. كما كان التجار يصدرون من العراق إلى البلاد المجاورة البضائع الزراعية والمصنعة فنشطت حركة التبادل التجاري وكثرت الأموال وعم الرخاء.

لقب المهدي

وهو اللقب الذي أتخذه محمد بن عبدالله الخليفة العباسي الثالث. وقد لقبه بهذا اللقب أبوه الخليفة المنصور. وكان اطلاق هذا اللقب على محمد أحد الأساليب التي اتبعها المنصور لاعلاء شأن ابنه كولي للعهد.

وقد لعب لقب المهدي دوراً كبيراً في تاريخ الإسلام الديني- السياسي[20]، منذ بداياته الأولى فقد اطلقه حسان بن ثابت على الرسول (ﷺ) حين رثاه قائلا:

مــا بال عــينك لا تنام كــأنما كـحلت مآقيـهـا بكحل الأرمـد

جزعا على المهدي أصبح ثاوياً ياخيـر من وطئ الحصى لا تبعـد

كما أطلق على الامام علي بن أبي طالب لقب «الهادي المهدي»[21] وحين مدح الفرزدق سليمان الأموي قال:

سليمان المبارك قد علمتم هو المهدي قد وضح السبيل

وكان عمر بن عبدالعزيز يلقب «بالمهدي». كما نعت هشام الأموي بهذا اللقب في الشعر:

فقلت له الخليفة غير شك هو المهدي والحكم الرشيد

وليس هنا محل بحث تطور المهدية تاريخياً وعقائدياً على أننا نود القول بإن المهدية بمعناها الديني التنبؤي ظهرت لأول مرة عند الشيعة العلوية في ثورة المختار الثقفي الذي ادعى أن محمد بن الحنفية هو المهدي وأنه لم يمت بل اختفى في جبل رضوي في الحجاز وسيعود ليقضي على أعدائه ويملأ الأرض عدلاً كما ملئت جورا ولذلك سمي «بالمهدي المنتظر» وفي هذا يقول كثير عزة عن ابن الحنفية:

وســبط لا يذوق الموت حــتى يقــود الخـيل يقــدمــهــا اللواء

تغـيب لا يرى فــيــهم زمــاناً برضـوى عنده عـسل ومــاء

وهذه هي عقيدة الكيسانية من فرق الشيعة. على أن المهدية لم تكن مقتصرة على فرق الشيعة العلوية الحسينية والحسنية والكيسانية الهاشمية بل شملت كثيراً من الكتل السياسية والجماعات في المجتمع الإسلامي فكان للعباسيين والأمويين والطالبيين والفاطميين والفرس منقذهم الذي سيعيد مجدهم ويقر الحق وينشر العدل[22].

أما أصل كلمة المهدي فهي تعني الشخص الذي هداه الله إلى الطريق الحق. أو هداه الله إلى الإيمان هدى. ويقول ابن الأثير وابن منظور «المهدي الذي هداه الله إلى الحق وقد استعمل في الاسماء حتى صار كالاسماء الغالبة وبه سمي المهدي الذي بشر

به رسول الله (ﷺ) أنه يجيء آخر الزمان»[23]. وهذا يدل دلالة واضحة على مغزاها الديني التنبؤي.

ويشير الدكتور الوردي إلى أن كلمة المهدي هي في الواقع تقريب للفظة المسيح الموجودة في التوراة. فالمسيح معناه الممسوح أي أنه ذلك البطل المنقذ الذي يمسحه الاله، والمسح في التوراة معناها الهداية والارسال والتأييد الرباني. وتشير التوراة إلى أن النبي الياس الذي رفع إلى السماء والذي لابد أن يعود إلى الأرض في آخر الزمان لاقامة دعائم الحق. وهذا القول يشبه إلى حد كبير فكرة المهدية في الإسلام[24]. ويتفق اغلب المؤرخين المحدثين مع هذه النظرة في أصل المهدية.

ومما يتصل بفكرة المهدية أو المنقذ المنتظر هو تطلعها نحو المستقبل وتظهر رواياتنا التاريخية عن الشرق الإسلامي أو أوروبا في العصور الوسطى أن بدايات القرون أو الحقب كان لها دائما سحر خاص يغري بالتطلع وينبئ بحدوث تبدل. فكان الناس يحاولون في هذه الفترات أن يتنبوءوا أو يتصوروا تغير الأحوال إلى الطريق الاحسن الذي يجب أن تكون عليه وكان هناك دوماً من يستغل هذه المشاعر لدى الناس فيكسب ولاءهم، إلى حين يحقق أغراضه سواء كان هذا المستغل الطموح حاكماً أم ثائراً على الحكم أو رجل دين أو مغامرا أو مصلحاً. والمثل الذي سنبحثه في دراستنا هذه هي محاولة الخليفة المنصور ضمان ولاء الرعية إلى ابنه وولي عهده محمد بعد أن تصير الخلافة إليه وكان هذا هو السبب الحقيقي وراء تلقيبه «بالمهدي» ذلك اللقب الديني الذي يجذب الناس ويغريهم بالتطلع إلى خلافة المهدي باعتبارها الأمل المنشود والحكم الأفضل[25].

ولم يكن لقب المهدي هذا جديداً حتى بالنسبة للعباسيين فقد كان، كما رأينا، أحد القاب أبي العباس وكذلك أشار أحد الشعراء إلى أبي جعفر المنصور على أنه المهدي حين هجا أبا مسلم قائلاً[26]:

أفي دولة المهدي حاولت غدره   إلا أن أهل الغدر أباؤك الكرد

على أن هذا اللقب لم يكن شائعاً بين القاب كلا الخليفتين السابقين. وتشير

احاديث كثيرة أن توقع ظهور المهدي ازداد بعد انتصار الخراسانية اصحاب الرايات السود حيث سيخرج ليملأ الأرض عدلاً بعد كثرة الظلم والجور. ولا شك فإن هذه الاحاديث كانت من وضع العباسيين أنفسهم. على أن عهد أبي العباس كان قصيراً بحيث لم يكن بالأمكان انجاز الكثير، كما وأن الرعية لم تر في الخليفة . . . المنصور بسياسته الحازمة العنيفة وبعهده الحافل بالثورات ذلك المهدي المنتظر بل على العكس فإن جماعات كثيرة انضمت إلى محمد النفس الزكية أملاً منها في أن يكون المنقذ الذي طال انتظاره وانخرط قسم آخر في الحركات الدينية -ا لسياسية الفارسية التي رفعت شعار المنقذ نفسه في شخص أبي مسلم الخراساني أو غيره.

ولعل الخليفة المنصور ادرك ذلك فنظم حملة دعائية واسعة النطاق تدعو إلى أن ابنه محمد هو المهدي المنتظر. ويشير الاصفهاني إلى أن المنصور حث مطيع بن اياس على أن يبتدع حديثا في مهدية ابنه وحين جلس المنصور ليأخذ البيعة لابنه قال مطيع «حدثنا فلان عن النبي (ﷺ) قال المهدي منا محمد بن عبدالله وأمة من غيرنا يملؤها عدلا كما ملئت جوراً. ثم اقبل مطيع على العباس بن محمد فقال له انشدك الله هل سمعت هذا؟ فقال نعم مخافة المنصور». وقابل العلويون هذه الادعاءات بمثلها وحين سمع المنصور بأن محمد النفس الزكية يدعي المهدية قال «كذب عدوالله بل هو ابني»[27] ويظهر أن المنصور كان يعلم في قرارة نفسه بإن ما ادعاه لابنه هو سلاح سياسي ففي رواية للأصفهاني «إنه ارسل المنصور إلى سلم بن قتيبة وقال له خرج محمد بن عبدالله وتسمى بالمهدي والله ما هو به واخرى اقولها لك لم أقلها لاحد قبلك ولا أقولها لاحد بعدك وابني والله ما هو بالمهدي الذي جاءت به الرواية ولكنني تيمنت به وتفاءلت به»[28]، هذا إذا اعتقدنا بصحة هذه الرواية ولعل هذه الرواية من وضع الشيعة العلوية.

وقد استمرت دعاية المنصور لابنه المهدي وقد وضعت احدى الروايات في فم احد اعضاء وفد الروم الذي قدم بغداد حيث قال:

«إنا نجد في كتبنا أن الثالث من أهل بيت النبي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جورا»[29] وتشير احاديث كثيرة يوردها السيوطي والترمذي وأبي داود وابن خلدون إلى أن المهدي هذا سيكون عباسياً[30].

وفي رواية للطبري[31] إن المنصور لما أحكم أمر العهد كتب إلى عيسى بن موسى يطلب منه التنازل عن ولاية العهد إلى محمد المهدي بن الخليفة وقد استعمل نفس التكتيك وأكد على النغمة نفسها فقال عن ابنه :

«فوهب الله أمير المؤمنين ولياً ثم جعله تقياً مباركاً مهدياً وللنبي سمياً وسلب من انتحل هذا الاسم ودعا إلى تلك الشبهة . . . » وطالبه أن يقر بالأمر الواقع ويتنازل للمهدي وحذره بأهل خراسان (انصار الدولة) إذا هو لم يذعن .

ولقد كانت سني المهدي سني خصب[32] وخاصة السنة الأولى منها استبشر الناس خيراً وقالوا ابن عم رسول الله (ﷺ) ونظير اسمه . والظاهر أن المهدي حاول جاهداً أن يبين للرعية بإنه المنقذ المنتظر فأعاد الأموال التي صادرها المنصور واعفى السجناء السياسين وزاد من العطاء والأرزاق لأهل الحجاز والمرضى وعمر الحرمين الشريفين وطارد الزنادقة وأهتم بأمر الجهاد ضد الروم ، وقصم ما كان من علاقة بين زياد بن ابيه وبين الأمويين واتخذ 500 شخص من الانصار كحرس خاص له .

ولم تدخر الروايات التاريخية وخاصة العباسية منها وكذلك شعراء البلاط في اظهار مهدية الخليفة العباسي الثالث . ففي رواية للازدي[33] أن احد صحابة المنصور سأل إسماعيل بن عبدالله القسري البجلي قائلا) : متى يظهر قحطانيكم يا إسماعيل؟ فقال له : «قد ظهر واني لانتظر أن يركب عنقك وأعناق نظرائك غدا فهو المهدي ولي عهد المسلمين ابن أمير المؤمنين ابن اختنا وقد قال رسول آلله(ﷺ) بأن أخت القوم منهم» وقد بلغ هذا المنصور فاعجبه جوابه وعينه على الموصل . وفي الشعر أبيات كثيرة في حق محمد المهدي . فقد قال الشاعر بشار بن برد[34] :

الله اصلح بالمهدي فاسدا ... سرنا إليه وكان الناس قد فسدوا

ويقول :

يا أيها القائم المهدي ملككمو ... لا يشركنكمو في حلوه أحد

ويقول :

فـرج المهـدي من كـرب الضيـ ـق خناقـا قـاسـيتـه حـقـبـاً

مـهـدي آل الصـلاة يقـرؤه القـ س كـتــابـاً دثرا جــلا ريبـا

إذا أتيت المهـــدي تســـأله لاقـيت جـوداً ومـحـتـسـبـا

ترى عليـه سـيـمـا النبي وأن حـارب قـومـاً اذكى لهم لـهـبـا

وقال فيه الشاعر ابن المولى :[35]

أغنى قريشاً وأنصار النبي ومن بالمسـجـدين باسـعـاد وأحـفـاد

كانت منافعه في الأرض شائعة تـتـرا وسيـرته كـالماء المصـادي

خليــفــة الله عــبـدالله والده وأمــه حــرة تنمى بأمــجــاد

من خير ذي يمن في خير رابية من القـبـول إليـهـا مـعـقل الناد

وقال أبو العتاهية :[36]

أتتـــه الخـــلافـــة منقـــادة إليــــه تجــــرر اذيالـهـــــا

ولـم تـك تـصـلـح إلا لــه ولـم يك يـصـلـح إلا لـهـــــا

ولو رامــهـــا احــد غــيــره لـزلـزلـت الأرض زلـزالـهـــــا

ولو لـم تطعـــه بنات القلوب لما قـــبل الله أعـــمـــالهـــا

وقال بشار أيضاً :[37]

قــد سطع الأمن في ولايتـــه وقــال فـيــه من يقـرأ الكتـبـا

وقال :

شركت لمهدي الانام وصالها وراعيت عهدا بيننا ليس بالخذ[38]

وقال سلم الخاسر[39] :

ومـــهـــدي أمـــتنا والذي حـــمــــاها وأدرك أوتـارها

وقال مروان بن أبي حفصه[40] :

احيا أمير المؤمنين محمد   سنن النبي حرامها وحلالها

ملك تفرع نبعة من هاشم   مد الاله على الانام ظلالها

وقد هجا السيد الحميري المهدي العباسي فقال[41] :

تظنا أنه المهدي حقا   ولا تقع الأمور كما تظنا

ولا والله ما المهدي إلا   اماما فضله أعلى واسنى

وقد تلقب ثالثاً الخلفاء العباسيين بالقاب اخرى ، لم تكن شائعة منا «السفاح» فقد ظهرت احاديث تشير إلى ذلك منها عن الرسول (ﷺ) «منا القائم ومنا المنصور ومن السفاح . . . اما السفاح فهو يسفح المال والدم . . . »[42]، وعن الرسول (ﷺ) «يخرج رجل من أهل بيتي عند انقطاع من الزمان وظهور من الفتين يقال له السفاح يكون عطاؤه حسيباً»[43] ولعل هذه الاحاديث ظهرت في عهد المهدي بالذات أو بعده بقليل وهي دون شك انعكاس لطبيعة المهدي الكريمة المعطاءة ولشدته على الزنادقة والشكاك وقتله أياهم فهو سفاح للمال والدم . ويصفه اليعقوبي قائلا :

«كان المهدي سمحا سخياً كريماً جواداً بالأموال وكان الناس في عصره على مذهبه واتسع الناس في أيام المهدي في معايشهم وكان إذا ركب حملت معه البدر فلا يسأله احد إلا اعطاه بيده فتشبه الناس به . فكان قصده قتل الزنادقة وذلك أنهم كانوا قد كثروا . . . كثرت الزنادقة وتفشت كتبهم بين الناس . وكان الخليفة قد أمر المتكلمين أن يضعوا الكتب على أهل الالحاد»[44] .

وفي رواية للمسعودي[45] أن المهدي صرف كل ما ترك له والده المنصور ومقداره حوالى120 مليونا من الدراهم . ويشير الجهشياري أن رئيس بيت المال اشتكي له عجز الخزينة لكثرة النفقات دون مبرر .

ويعطي الثعالبي[46] لقبا آخر لثالث الخلفاء العباسيين وهو (المصطفى المهدي) ولم نعثر على هذا اللقب في رواية أخرى في مصدر آخر

سياسة الوفاق القصيرة مع العلويين[47]:

كان عهد الخليفة أبي العباس الفترة الأولى من الوفاق الودي العباسي - العلوي اعقبتها فترة عنف شديدة في عهد المنصور. اما عهد المهدي محمد بن عبدالله العباسي فكانت الفترة الثانية من الوفاق الودي. ولكنها كانت فترة قصيرة.

كان المهدي العباسي يتميز بالهدوء والمرونة بعد شدة المنصور وقوته، وحاول المهدي أن يكسب العلويين ويرضي عناصر المعارضة المختلفة، رغم أن اباه اوصاه بضرورة البحث عن عيسى بن زيد بن علي زين العابدين الذي كان قد خلف إبراهيم في زعامة حركة المعارضة العلوية المسلحة. ولعل الخليفة المنصور كان يتوقع أن ابنه يختلف عنه لأنه نشأ في جيل غير جيله، كما أن الظروف السياسية اختلفت. وفي رواية أن المنصور أشار على المهدي بأن يعدل من سياسته ويتبع سياسة جديدة. ومن جملة ما أوصاه به أنه قال له: لقد تركت لك ثلاثة أنواع من الناس الفقير الذي يتوقع أن تغنيه والخائف الذي يتوقع أن تحميه والسجين الذي يتوقع أن تطلقه، فاوسع لهم دون اسراف.

اما عيسى بن زيد فكان قد اختفى بعد أن شارك في ثورتي محمد وإبراهيم وقد حاول المنصور في حينه أن يستغل الخلاف بين عيسى وإبراهيم حيث أن عيسى ادعى الخلافة بعد موت محمد ذي النفس الزكية بينما كان إبراهيم قد أعلن نفسه أمير المؤمنين في البصرة ولكن المنصور فشل في محاولته هذه لأن العلويين إتفقوا على ترك خلافهما جانباً ومجابهة المنصور. وعلى ذلك اشتركت الزيدية وعيسى في جيش إبراهيم في معركة اخرى. ثم اختفى عيسى في الكوفة.

إن من أهم البوادر التي تدل على رغبة المهدي في التودد إلى العلويين: توزيعه الهدايا والاعطيات على العلويين خاصة وأهل الحجاز عامة حين حج سنة 160هـ وأعاد ممتلكاتهم التي صادرها الخليفة المنصور وأمر بفك الحصار الاقتصادي عن الحجاز الذي كان قد ضربه المنصور عقب ثورة محمد فعادت الحنطة تصدر من مصر وغيرها إلى الحجاز. كما أن استيزار المهدي ليعقوب بن داود المعروف بميوله العلوية

كانت بادرة اخرى للتقرب من العلويين. وكان هذا قد اشترك في الثورة الحسنية وسجن من قبل المنصور ثم شمله الأمان سنة159هـ -775م، واطلق سراحه. وقد استطاع يعقوب أن يحصل على ثقة المهدي بطرق ملتوية منها فضحه محاولة الحسن بن إبراهيم العلوي الهروب من السجن حيث احبطت هذه المحاولة. وكان المهدي تواقاً إلى خدمات رجل مثل يعقوب بن داود الذي كانت ارتباطاته بالعلويين تساعد على تعقب تحركاتهم وفعالياتهم من جهة وعلى اقامة علاقات ودية معهم من جهة ثانية. وهكذا اختار المهدي الوزير يعقوب لأسباب سياسة واضحة. وقد ضوعفت الجهود للتفتيش عن عيسى بن زيد والحسن بن إبراهيم الذي استطاع اخيرا أن يهرب من سجنه بمساعدة الزيدية. واستطاع يعقوب بأن يظهر الحسن بن إبراهيم حيث ذهب مع الخليفة سنة 160هـ/ 777م، إلى الحج. واستمر الخليفة في تشجيع يعقوب بن داود ومنحه سلطات سياسية كبيرة واصدر مرسوماً بتعيينه وزيرا سنة 163هـ/ 779م، مشيرا إليه (الاخ في الله). وهذا اللقب إضافة إلى ما يعكسه من دلائل الشرف والرفعة فإن له دلائل سياسية حيث أن مصدره جاء من الآية القرآنية ﴿أنما المؤمنون اخوة﴾ ولهذا فهو يدل على سياسة التوفيق الودية التي اتبعها المهدي تجاه اعداء الدولة السياسيين وخاصة العلويين. وبمعنى آخر فهو بمثابة اعلان العفو عن اعداء الدولة جميعهم. وربما كان العلويون هم المقصودين بصورة خاصة. ثم إن اغداق المناصب والالقاب على يعقوب بن داود كانت خطوة القصد منها أن يظهر المهدي للعلويين الامتيازات الكبيرة التي ينالها الافراد الذين يرغبون في التحالف مع الدولة العباسية والولاء لها.

على أن العلويين لم يستسيغوا سياسة التوفيق، كما أنهم لم يثقوا بيعقوب الذي اعتبروه شخصاً انتهازياً ووصولياً لأنه استفاد من ولائه للعلويين ليصل إلى السلطة. ولم يسلم عيسى بن زيد نفسه رغم التأكيدات والجوائز والضمانات التي حصل عليها من الخليفة عن طريق يعقوب. وهكذا بدأت علاقة الخليفة تتبدل شيئاً فشيئاً بعد فشل سياسته حتى أتهمه باطلاق سراح أحد العلويين، وعزل عن الوزارة وسجن: كما اقصى جميع عماله وولاته.

كان عزل يعقوب بن داود عن الوزارة بداية سياسة شديدة تجاه العلويين حيث بدأ الخليفة يشك في تحركات العلويين حتى أن شكوكه شملت موسى الكاظم الذي لم يكن مهتما بالسياسة كما أنه وضع اخرين مثل علي بن العباس الحسني تحت مراقبة شديدة. ومهما يكن من أمر فإن المهدي لم يعش طويلاً لكي ينفذ سياسته الجديدة تجاه العلويين حيث توفي سنة 169هـ/ 875م.

ولا بأس أن نكرر هنا بأن من ظواهر التغير الجذري في سياسة الود تجاه العلويين التبدل الذي حصل في الادعاء العباسي بحق الخلافة حيث اصدر المهدي منشوراً قال فيه بإن حق العباسيين بالخلافة جاءهم عن طريق العباس عم الرسول (ﷺ) وورثه الشرعي لا عن طريق وصية أبي هاشم والصحيفة الصفراء.

الخليفة المهدي والخوارج[48]:

شهد عهد المهدي حركات خارجية أيضاً حيث ثار يوسف بن إبراهيم سنة 160هـ / 7761وقد أمر المهدي واليه على سجستان يزيد بن مزيد الشيباني، الذي كان يقاتل ثورة خارجية أخرى بزعامة يحيى الشاري، بالتوجه إلى خراسان لقمع حركة البرم. وتختلف مصادرنا الأولية حين تتكلم عن طبيعة الثورة. فيصفها اليعقوبي وابن الاثير بإنها ثورة خارجية. أما الطبري فلا يلزم نفسه بشيء بل يقول بإن يوسف البرم احتج على سياسة المهدي. ولكنه في رواية اخرى يشير إلى أن يوسف البرم كان يعد كافراً عند بعض المسلمين.

ونتيجة لذلك فقد انقسم المؤرخون المحدثون في آرائهم بصدد يوسف البرم. فاعتبره صديقي وموسكتي خارجياً، ويمثل سيولر حركته بكونها ثورة مبعثها ديني وعنصرها الجماهير المتذمرة من العباسيين. إن يوسف البرم كان على أصدق الروايات خارجياً. ورغم قلق الروايات عن حركته فإن هجماته المتسمة بالتزمت والجدية نحو السياسة العباسية التي وصفها بالجور وكذلك شعاراته التي رفعها تشير إلى صفته الخارجية، فمن شعاراته (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) مثلا.

أحتل يوسف البرم بوشنج ومرو الروذ والطالقان وجرجان، وقد ضربت

حركته اعداداً كبيرة وكانت من القوة بحيث انتصرت على عدد كبير من القوات الخراسانية التي أرسلت لسحقها. وقد قتل في هذه المعارك اخو القائد هرثمة بن اعين من مشاهير قادة العباسيين. ثم أرسل إليه يزيد بن مزيد الشيباني الذي استطاع أن ينهك الخوارج ويوجه لهم ضربات مميتة وحين شاهد انسحابهم رفع علماً أحمر وناداهم بالانضمام تحت اللواء الأحمر ووعدهم بالأمان. وكانت خطة ناجحة حيث ترك كثيراً من الخوارج يوسف البرم الذي اسر وارسل إلى بغداد. وحين وصل النهروان وضع هو واصحابه على جمال ووجوهم إلى الوراء تحقيرا لهم إن هذا المعاملة من قبل السلطات العباسية ليوسف البرم التي بدأت في النهروان تثير الملاحظة وتشير إلى طبيعة حركته الخارجية. ذلك لإن النهروان كانت المركز الذي ابتدأت منه الحركة الخارجية كحركة معارضة للسلطات وقاست أول اندحار سنة 38هـ/ 658-659م. إن انتصار يزيد الشيباني خلده الشاعر صريع الغواني قائلا:

يوسف البرم قد صبحت عسكره   بعسكر يلفظ الأقدار ذي زجل

وقد حاول بعض الخوارج المغامرين أن يثأروا لقتلاهم من يزيد الشيباني فتسللوا إلى بغداد وهاجموا يزيداً على الجسر وجرت معركة عنيفة. وقد سقط عدد من القتلى بين الطرفين ولكن يزيدا افلت من الموت باعجوبة. ويشير اليعقوبي إلى هذه الحادثة قائلا بإنها المرة الأولى التي دخل فيها الخوارج إلى بغداد وقتلوا عددا من سكانها.

- وفي الجزيرة الفراتية وشمالي سوريا خرج عبدالسلام بن هاشم اليشكري سنة 160هـ/ 776م، متخذاً مقره في قنسرين وحلب (وكثر أتباعه واشتدت شوكته فنكب غير واحد من القواد) واستمر في تحديه هذا لمدة سنتين. ويشير خليفة بن خياط والأزدي إلى رسالة يقال بإن المهدي أرسلها لليشكري وفيها يقول: (إن الله اختص بالسعادة جنده وأيد بالهدي جنده واسكن من اجاب جنته واسبغ على من خشيه نعمته وأهدف من عصاه نقمته. إني قد عجبت من احداثك وبغيك حيث أسألك ما نقمت إذ حكمت، تكلمت بكلمة حق يراد بها باطل.

(... فأقسم لأ غزينك أجنادا مطيعة وقواداً منيعة هم الذين يفضون جمعك ويهتكون بناك فأعمل لنفسك أو دع).

ولا يذكر إلا خليفة بن خياط جواب عبدالسلام اليشكري للمهدي حيث قال : «من عبد السلام بن هاشم إلى محمد بن عبدالله . . . (انظر بداية الرسالة في الصفحة الأولى من هذا الفصل) . . . ثم يستطرد اليشكري قائلاً :

. . . أنت إذا خطبت كذبت وإذا عاهدت نكثت . وقد زعمت في كتابك انك ستغزيني اجناداً مطيعة وقواداً منيعة ، والله يفض جمعك ويهزم جندك ويقتل قوادك ، فإذا شئت فنحن متوقعون هذا منك ومتمنوه وقد زادني غيظاً أنك تسميت المهدي وابعد من سماك . فنعم المهدي أنت إذا بعت الناس بيعاً واوسعت غياً ، خدعك يعقوب بن داود اخا اخيت وخدنا صافيت ، دعاك فأجبت وخدعك فطاوعت ففي أي دين يسعك وفي أي كتاب إذ تعدو وظيفة أو تنقص مسامه أو تصطفي بستان أو تبذخ في مركب أو ترمي به في النزهة . أو تفاوض عن جنداً أو تحبس عطاء أو تنسى من غزا أو تعاقب بالسوط ، سافكا للدم . . .

وإنما السافك يقاد والزاني يقام حده واللص تقطع يده ولا تعاهد السجون بنفسك ولا تزعجها بعينك فهذا نسيت وعن هذا سهوت .

أيها الطاغية افمن بعد هذا حياة فانظر لنفسك فما عيني عنك بنائمة تصادف عمن يصدقك وتلقي من يقتلك وما أنا بالغارم .

الفتح بيد الله يحكم بما أحب أنما أنا عبد من عباده لا استطيع منه امتناعاً ولا عن نفسي دفاعاً ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وقد خرج شبيب بن واج المرور وذي الذي اصطحب معه الفرسان ودفع لهم 1000 درهم زيادة في العطاء وتعقب عبدالسلام اليشكري حتى أدركه في قنسرين حيث قتل اليشكري سنة162هـ .

- وفي الموصل خرج ياسين الموصلي التميمي وهزم عسكر الموصل ومد نفوذه إلى منطقة واسعة من الجزيرة . وقد اتبع ياسين مذهب صالح بن مسرح التميمي الخارجي الذي كان قد قتل سنة 76هـ/ 695-696م . فوجه إليه المهدي محمد بن فروخ وهرثمة بن اعين فحارباه حتى قتل وتفرق اتباعه .

- وفي الجزيرة خرج حمزة بن مالك الخزاعي سنة169هـ/ 785-786م وقد ساعده أهل الموصل المتذمرون من السياسة التي تهدف إلى ابتزاز الأموال دون النظر في انتعاش المنطقة أو اصلاح أحوالها. وكانت جهوده الأولى ناجحة نسبياً حيث هزم الجيش العباسي في ضواحي الموصل. وأدى ذلك إلى إتباع العباسيين سياسة المكيدة والغدر تجاهه بعد أن فشلت سياسة القوة. فقد ارسل إثنان من موالي العباسيين وانضموا إليه معلنين ولاءهم إليه ثم انتهزا الفرصة واغتالاه.

ومثل هذه الحركة الاخيرة مثل كل الحركات الخارجية تقريباً حيث اعتمدت في قوتها وتماسكها على شخصية زعيمها وما أن يقتل الزعيم حتى يتفرق الاتباع حتى يظهر زعيم آخر يجمع شملهم في ثورة جديدة. ولعل من مظاهر الضعف في الحركة الخارجية وخاصة في منطقة الجزيرة الفراتية أنها رغم تعددها كانت قصيرة الامد. فما أن تستفحل الحركة ويشتد ساعدها حتى تخمد وتتهاوى وتموت. وقد اتخذت الحركات الخارجية في الجزيرة المراحل نفسها تقريباً فما أن يظهر الزعيم الخارجي في اطراف الموصل حتى يهاجم المدينة ويحتلها ثم يعتصم فيها ليجمع الاتباع حوله بعد أن يطرد الوالي العباسي على الموصل. ثم يجبي الضريبة من السكان ليقوي بها حركته. وبعد ذلك يتحرك الخوارج لاحتلال مناطق اخرى وتهديد النفوذ العباسي فيها. على أن حركة الوليد بن طريف الشاري التغلبي الخارجي يمكن استثناؤها حيث كانت حركة قوية في أمكاناتها البشرية وفي امدها وخطورتها على الدولة العباسية.

إن الحركات الخارجية آنفة الذكر تظهر دون شك كثيراً من المظاهر:

1- تشير بوضوح إلى صبغة زعماء الحركات على أنهم خوارج في العقيدة وأحياناً تصنفهم وفقاً لفرقهم صفرية أو اباضية أو ازارقة... إلخ.

2- وبعض هذه الحركات تعلن تبعيتها لبعض فقهاء الخوارج المعروفين في فترة صدر الإسلام والامويين مثل صالح بن مسرح. كما أن بعض الزعماء مثل أبي الخطاب كان معروفاً في حلقات الخوارج قبل قيادته لحركة مسلمة ضد السلطان.

3- ويلاحظ وجود بعض الفقهاء الخوارج في صفوف هذه الحركات وكانت أحيانا تحدث منازعات ومناقشات جدلية بين الفئات الخارجية بسبب إهمال هذا المبدأ الخارجي أو ذلك أو بسبب الاختلاف في تفسيره.

4- وهناك ظاهرة تثير الانتباه وهي أن الخوارج من مناطق متعددة وخاصة الجزيرة والموصل يسرعون للانضمام إلى الثورات الخارجية ومساعدة اخوانهم في المذهب إذا ما ثاروا في اقاليم اخرى وهذا مما كان له أثره في زيادة قوة الثورة الخارجية في هذه الاقاليم.

الخليفة المهدي والحركات الفارسية:

- حركة المقنع الخراساني:

إن من يمعن النظر في تاريخ القرنين الأول والثاني الهجريين يلاحظ كثرة الفرق الدينية السياسة، فمنذ أن ظهرت (السبأية)[49] على مسرح التاريخ الإسلامي تعاقبت الفرق والكتل كل يبث تعاليمه ويجرب حظه في المعترك الديني السياسي فكان هناك المختارية (الكيسانية)[50] والهاشمية والعباسية[51]، والبيانية والجناحية والحارثية والمغيرية والخطابية والمنصورية والزيدية.

وفي إيران احدثت الدعوة العباسية رجة فجرت لدى الإيرانيين تحسساً جديداً كان من نتائجه ظهور حركات إيرانية متعددة تدعو إلى اعادة مجد إيران القديم بتقاليده، ودياناته الموروثة والقضاء على العروبة والإسلام فكانت ثورات بهافريد وسنباذ وإسحق الترك وأستاذ سيس والمقنع مظهراً من مظاهرها[52].

والملاحظ أن هذه الفرق الدينية - السياسية بصورة عامة ربما تشابهت في جوهر تعاليمها وأهدافها ولكنها تختلف في بعض النقاط الثانوية أو في بعض التفاصيل ومن هنا جاءت الآراء المتناقضة التي ادلى بها المؤرخون الرواد وكتاب الفرق الإسلامية بصدد هذه الفرق العديدة فكان طبيعياً كذلك أن تختلف آراء المؤرخين المحدثين عن هذه الفرق والحركات تبعاً لاختلاف آراء المؤرخين الرواد.

ومما زاد في غموض الأمر وتعقده قلة مصادرنا التاريخية الموثوقة عن هذه الفرق وندرة المعلومات واقتضابها في المصادر التي تتكلم عن هذه الحركات.

على أن الأمر ربما يختلف بعض الشيء في ما يخص حركة المقنع الخراساني لكثرة المعلومات التاريخية[53] بالمقارنة مع الحركات التي سبقتها وخاصة في ما يتعلق بتاريخ المقنعية السياسي، اما بخصوص المبادئ والتعاليم التي بثها المقنع فإننا نعود فنجابه مشكلة قلة الروايات وتناقضها.

بدء الحركة: تتناقض الروايات حين تشير إلى بدء حركة المقنع فيذ الترشخي[54] إن الثورة بدأت سنة 159هـ ويؤيد ذلك ابن الاثير وابن خلدون ولعل هذه الرواية هي قحطبة الطائي، وكان هذا والياً على خراسان حتى سنة 159 حيث توفي واعقبه في ولاية خراسان أبو عون الأزدي.

اما الروايات الاخرى التي تعطي تاريخاً مغلوطاً في بدء الحركة فهي: تاريخ اليعقوبي حيث يقول أنها بدأت سنة 160هـ ويضعها الطبري وابن تغري بردي في حوادث سنة 161-162هـ وهذه التواريخ مخالفة لسير الحوادث السياسية في هذه الفترة[55].

سيرة المقنع الأولى:

إن المؤرخين لا يتفقون حتى على اسم المقنع ويمكن القول بإن أغلبية الروايات[56] تشير إلى أن اسمه كان (هاشماً) بينما تعطيه روايات اخرى اسم (حكيم)[57] أو (عطاء)[58] ويظهر أن هاشماً هذا عاش في احدى القرى القريبة من مرو عاصمة خراسان، وكان في أول أمره يعمل في تنظيف الصوف وغسله، ولكن احواله تحسنت بتحسن ظروف ابيه المعاشية بعد الثورة العباسية حيث اصبح من موظفي والي خراسان، فاهتم بتثقيف ابنه الذي استطاع بمثابرته أن يحصل على ثقافة لا بأس بها متنقلاً بين مدينتي بلخ ومرو.

وفي ولاية أبي مسلم الخراساني أصبح هاشم أحد الرؤساء في الجيش ومن اتباع

أبي مسلم المخلصين حيث قيل أنه كان من بين «الرزامية» وفي ولاية عبد الجبار الازدي استمر هاشم في خدمة الوالي الجديد، ووافقه على الثورة ضد السلطة العباسية، وقد اسر عبدالجبار الازدي وهاشم مع اتباع آخرين وأرسلوا إلى بغداد، حيث قتل عبدالجبار وسجن هاشم مدة في بغداد ثم اطلق سراحه فعاد إلى مرو[59].

أما مظهر المقنع ومميزات شخصيته فالواقع انها لم تكن على ما يرام حيث تصفه الروايات[60] بالقبح فكان اعوراً، قصيراً، اصلعاً، ويذكر أنه كان يتلجلج في كلامه، ولعل سبب اتخاذه القناع الذي لبسه على وجهه كان لتغطية هذا النقص الذي كان يشعر به تقول بعض الروايات أن القناع الذي اتخذه المقنع كان من الذهب بينما تشير روايات اخرى غير مؤكدة أنه كان من الحرير الاخضر[61] ومن هنا جاءت تسمية هاشم «المقنع» أو بالنبي المقنع[62].

وحين بدأ المقنع تعاليمه بين الناس أكد على أن يسبغ على شخصيته صفة الغموض والقدسية وقد حقق ذلك بالخطوات التالية:

1- اتخاذه القناع لباساً للوجه: تقول رواياتنا الإسلامية[63] إن المقنع اتخذ القناع ليغطي به عيوبه ولعل ذلك صحيح إلى حد بعيد ولكن المقنع كان يهدف من وراء اتخاذه القناع إلى اسباغ الغموض والسرية على نفسه تلك الصفة التي ستزيد دون شك من اعجاب اتباعه به.

2- اما الوسيلة الثانية فهي لجوءه إلى استعمال السحر، حيث انتشرت شائعات بين الناس إلى أن المقنع استطاع أن يظهر بدراً في السماء وقد تغنى الناس بهذا البدر (بدر المقنع) وأشاروا إليه في قصائدهم الشعرية فقال المعري[64].

أفق أنما البدر المقنع رأسه ضلال وغي مثل بدر المقنع

يقول القزويني[65] «بإن هذه البئر يصعد منها قمراً يراه الناس مثل القمر واشتهر في الآفاق، وعوام الناس يحسبونه سحراً. وما كان إلا بطريق الهندسة وانعكاس شعاع القمر لإنهم وجدوا في قعر البئر طاساً كبيراً مملوءاً زيبقاً» فإذا صحت هذه الرواية فإن المقنع استطاع أن يجذب إليه قلوب العامة واعجابهم بهذه الحيلة الطريفة.

3- ولعل مما يؤكد أهتمامه باضفاء صفات الالوهية على نفسه هو تخديره بعض اتباعه الذين رغبوا في مشاهده وجهه وطلعته مدعياً أن النور الذي ينتشر من وجهه سيحرقهم لا محالة لإنهم لا يستطيعون تحمله ولما أصروا على ذلك مبدين استعدادهم للموت أمر المقنع عدداً من النساء بإن يرفعن المرايا التي تعكس اشعة الشمس المشرقة وسلطها على هؤلاء الاتباع منادياً بأن هذا هو نور المقنع فخروا كلهم ساجدين[66].

4- وحين أراد رسول قائد الجيش العباسي مقابلته لم يظهر له وانما ناداه من وراء الستائر مؤكداً صفته الالهية[67].

تعاليم المقنع:

إن أول ما يلفت انتباهنا هو أن المقنع من فرقة الرزامية، وهي فرقة راوندية قدست أبا مسلم وقالت بامامته واعتقدوا بحلول روح الاله فيه، ويرى الشهرستاني بأن «المقنع» الذي ادعى الألوهية لنفسه على مخاريق اخرجها كان في الأول على هذا المذهب»[68] ونحن نعرف كذلك أن الرزامية فرقة من فرق الخرمية، (نادوا بترك الفرائض وقالوا: الدين معرفة الامام فقط)[69] و لما كانت الخرمية ذات صلة وثيقة بالمزدكية، بل أن كل أصناف الخرمية تعتبر تطورات لمبادئ مزدك كما يؤكد ذلك الشهرستاني والبيروني وابن النديم ونظام الملك الوزير[70]، لذلك فإن المقنعية تبنت كثيراً من مبادئ مزدك، يقول البيروني بإن المقنع اباح لاتباعه الأموال والنساء وكل ما جاء به مزدك، ويقول البغدادي بإن المقنع اسقط عن اتباعه الصلاة والصيام وسائر العبادات واباح لهم المحرمات[71] اما ابن خلكان فيقول إن المقنع اسقط الفرائض وطالب اتباعه بالسجود له واباح لهم النساء كيفما شاءوا[72].

وقد اختلفت آراء المؤرخين المحدثين[73] في خطورة هذه التعاليم وطبيعتها، يقول الدكتور عبدالعزيز الدوري (اذن كانت مبادئ المقنع في أساسها خرمية فارسية وصبغتها قومية، لإن الرزامية لا تعترف بامامة العباسيين أو بسلطتهم). بينما تعتبر الاستاذة سميرة الليثي حركة المقنع موجهة ضد الإسلام والعروبة في وقت واحد،

ويضع الدكتور حسن إبراهيم حسن حركة المقنع ضمن حركات الموالي الذين ثاروا ضد السلطة العباسية، وهو بذلك يجعلها من حيث الأهداف والمبادئ في صف واحد مع الخرمية التي تعمل على النيل من الإسلام والعباسيين معاً، ويعتبرها الدكتور أحمد شلبي من الحركات الفارسية الموجهة ضد الخلافة العباسية تعبيراً عن سخط فرس ضد العباسيين، ومحاولة للاخذ بثأر أبي مسلم، أما الدكتور حسن أحمد محمود فيعتبرها من الحركات الهدامة التي تمسكت بالروح الإيرانية تمسكاً كاملاً، ويصفها الدكتور محمد حلمي أحمد بأنها حركة ثورية عنصرية تدعو بدعاوى هدامة لمبادئ الإسلام وتستند إلى أسس من الثنويه القديمة أما الدكتور صديق فيلاحظ وجود مبدأ التوفيق في هذه الحركة بين تعاليم فارسية قديمة وتعاليم إسلامية متطرفة، ويبرر دراسته. لها كحركات إيرانية لإن المقنع نفسه إيراني ولان الحركة ظهرت في إيران، ولإن اتباعه كانوا في الاعم الاغلب إيرانيين، ولان أهدافها السياسية والدينية كانت تشابه إلى حد ما المبادئ التي نادى بها آخرون في إيران بينما يؤكد البروفسور لويس على طبيعتها الإيرانية الواضحة، اما البروفسور موسكتي فيتبنى فكرة التوفيق ويؤكد على العنصر الديني، وكذلك العنصر الإيراني في هذه الحركة فيقول: «لقد اختلطت في حركة المقنع التقاليد الإيرانية ومبادئ الغلو الشيعية» وقد استطاع المقنع أن يثير جواً من الحماسة الدينية لدى اتباعه لم تخمد حتى بعد وفاته، كما أن حركته كانت من جهة ثانية تعبيراً عن مقاومة إيران للسلطة العباسية «العربية».

إن المقنع بشر بتعاليم ورفع شعارات مختلفة ولعلنا نستطيع أن نجملها كالاتي[74]:

1- ادعى المقنع الألوهية ولذلك فإن اطلاق اسم نبي عليه يعتبر خطأً من الناحية التاريخية.

2- نادى المقنع بالحلول والتناسخ فقال: «إن الله خلق آدم في صورته ثم في صورة نوح ثم صورة إبراهيم ثم موسى وعيسى ومحمد ﷺ إلى أبي مسلم الخراساني ثم إليه» ولذلك طلب من اتباعه السجود له.

3- ادعى المقنع بإنه بعد وفاته سيعود إلى هذه الأرض لينشر العدل وليحكم أتباعه هذا العالم ولقد ظل المقنع مخلصا لهذا المبدأ حتى وفاته فانه رمى بنفسه في النار حين

حاصره الجيش العباسي ولم يترك اثراً له ولذلك اعتقد اتباعه بأنه اختفى وسيعود حتماً.

4- قدس المقنع أبا مسلم الخراساني ونادى بافضيلته حتى على الرسل، فيؤكد النوبختي والشهرستاني أن الرزامية ادعوا حلول روح الاله في أبي مسلم وأنكروا وفاته.

5- طالب المقنع بالثأر لمقتل يحيى بن زيد بن علي بن الحسين.

6- اسقط الفرائض من صوم وصلاة وزكاة وحرم على أتباعه القول بأن هناك حراماً وحلالاً.

7- طبق المقنع تعاليم مزدك على اتباعه وخاصة ما يخص منها اباحة النساء والأموال في ما بينهم.

8- اعطى المقنع الحق لاتباعه بقتل كل من يخالفهم في المعتقد وأن يسبوا نساءهم وأطفالهم ويسلبوا ممتلكاتهم، على أن هذه الفكرة ليست جديدة فلقد ظهرت فرق غالية تبنت هذه الفكرة قبل المقنع منها المنصورية (نسبة إلى أبي منصور العجلي).

ومهما يقال بشأن تطرف هذه المبادئ ومخالفتها للإسلام نقول بانه ربما كان هناك بعض المبالغة من قبل المؤرخين العباسيين والسنة وحتى كتاب الفرق الشيعة المعتدلية كالنوبختي مثلاً خاصة في ما يتعلق باباحة النساء والتمتع فيهن والاشتراك في الأموال، وربما كان هناك بعض التساهل في ما يتعلق بالعلاقات الجنسية، ولكن ليس إلى الحد الذي يصوره لنا مؤرخونا، ولم تكن هذه بدعة أوجدها المقنع وانما كانت معروفة لدى بعض الجماعات المزدكية في مناطق إيرانية مختلفة، كما أن النوبختي والاشعري وغيرهما يؤكدون أن الجناحية وهي من الفرق الغالية (الغلاة) كانت تتساهل في الفرائض الدينية[75].

تحالف المبيضة مع المقنعية:

وكانت المبيضة في خراسان وبلاد ما وراء النهر من الفرق الخرمية المتطرفة التي تدين بالولاء لأبي مسلم «وتدعوا إلى الفرائض وتقول بإن الدين معرفة الامام فقط»(76)، وقد اختارت اللون الأبيض شعاراً لها ضد المسودة العباسيين، الذين قتلوا أبا مسلم، وعلى ذلك فإن (التبييض) كان يعني بصورة عامة العداء للعباسيين، ولكنه كان يقصد به في خراسان بصورة خاصة اتباع أبي مسلم من الخرمية فيقول الشهرستاني تابع المقنع، مبيضة ما وراء النهر، ويقول البيروني «واجتمع إليه المبيضة» ويقول ابن الاثير «وظهرت المبيضة ببخارى والصفد معاونين له» اما البغدادي فيعتبر المبيضة هي المقنعية فيقول: «واما المقنعية فهم المبيضة في ما وراء النهر (نهر جيحون)(77).

موقف السلطة من المقنع

حين دعا المقنع الناس إلى الانضمام إليه كان معظم اتباعه من الإيرانيين ولكن بعض العرب المتذمرين انضموا إليه فقد انضم إليه عبدالله بن عمر احد العرب من أهالي مرو وزوجه ابنته، كما ذهب عبدالله هذا إلى بلاد ما وراء النهر يدعو الناس للانضمام إلى المقنع.

وقد انتشرت حركة المقنع في منطقة كش، كما أن (بونيات بن تفشادة) أمير بخارى تقبل تعاليم المقنع وحالفه بعد أن ترك الإسلام، وقد بدأ المقنع يهاجم القرى والقوافل الإسلامية وزاد خطره على السلطة مما حداً بحميد الطائي والي خراسان إلى الأمر باعتقاله(78).

وعندئذ هرب المقنع مع اتباع له إلى بلاد ما وراء النهر واستقر في كش في (حصن سنام) وقد باءت جميع الحملات الإسلامية التي أرسلت للقضاء عليه بالفشل، وقد استطاع المقنع أن يتحالف مع الأتراك تاركاً لهم حرية الهجوم على القرى الإسلامية ونهبها وسبي نسائها، وقد حالفه أمير بخارى وخاقان الترك وخاصة الاتراك الخلجية منهم.

وحين احس المهدي العباسي بخطورة الموقف اعطى القيادة إلى جبريل بن يحيى الذي اصطحب اخاه يزيد معه واصطدم الطرفان قرب بخارى وبعد . اربعة شهور من السجال المتواصل انكسر المقنعية وتراجعوا .

ولكن ثورة يوسف البرم الخارجي سنة 160هـ[79] شتتت قوة الجيش العباسي وشغلته لاسيما وأنها حدثت في بخارى ولكن الثورة لم تستمر حيث قضي عليها بسرعة وعادت الجيوش العباسية تركز هجومها على المقنع وهنا حدثت تبدلات سريعة في و لاية خراسان حيث توفي حميد الطائي فأعقبه ابنه عبدالله الذي استبدل بأبي عون عبدالله الملك الازدي الذي أستبدل بدوره بمعاذ بن مسلم[80] .

وقد باشر معاذ بن مسلم سنة 161هـ بتنظيم هجمات مركزة على المقنعية انهكت قواهم واضطرتهم إلى الانسحاب إلى حصن سنام ، وهنا حدث نزاع بين معاذ بن مسلم وبين سعيد الحرشي قائد المقدمة وقد حسم المهدي النزاع بتعيين الحرشي قائداً عاماً للجيوش العباسية .

واستمر الحصار زمناً طويلاً وفشلت كل المحاولات لاقناع المقنع بالتسليم وكانت المقنعية قد استعدت لحصار طويل الامد ، وبينما كان الحرشي يحاول ملء الخندق بجلود الجاموس المملوءة بالتراب حتى يمكنه العبور إذا بقائد من قواد المقنع مع عدد كبير من اتباعه ينضمون إلى الجيش العباسي وقد قدر عدد الذين استسلموا 30 الفا ولم يبق مع المقنع إلا 2000 شخص ، على أن المقنع بقي يدافع عن نفسه حتى النهاية .

موته:

وحين بدأ الجيش العباسي يسيطر على منافذ القلعة جمع المقنع نساءه واتباعه المخلصين واخبرهم بأنه سيختفي وأنه عائد بعد مدة وأنه سيملكهم الأرض وما فيها ، ثم سقى أصحابه شراباً مسموماً فماتوا جميعاً فألقى بنسائه وأطفاله في التنور واحرقهم ، ثم أذاب النحاس والقطران في التنور والقى بنفسه فيه حتى لا يظفر العباسيون بجثته وبجثث عائلته ، وقد سمع المهدي بنبأ موت المقنع وكان قد صلب .

وهكذا أنتهت حركة المقنع سنة 163هـ على أوثق الروايات التاريخية[81].

تشير بعض المصادر إلى وجود بعض جيوب المقنعية التي استمرت تدين بمبادئ المقنع وتترقب عودته، يقول البغدادي «. . . واتباعه اليوم في جبل الاق الآن أكثر أهلها لهم في كل قرية من قراهم مسجد لا يصلون فيه . . . وهم يستحلون الميتة والخنزير وكل واحد منهم يستمتع بامرأة غيره وأن ظفروا بمسلم لم يره المؤذن الذي في مسجدهم، قلتوه وأخفوه، غير أنهم مقهورون بعادة المسلمين في ناحيتهم، ويقول المقدسي «وبرسانيق هيكل أقوام لهم بيض الثياب مذاهبهم تقارب مذاهب الزندقة» ويشير البيروني «أنهم يدينون بدين المقنع مستخفين منتحلين في الظاهر للإسلام» والظاهر أنهم كان موجودين في ما وراء النهر حتى القرن 13 الميلاد ولم يفقدوا الأمل بعودة المقنع[82].

ثورة المحمرة الخرمية:

يقول ابن النديم[83] إن المحمرة (نسبة إلى اللون الأحمر الذي اتسموا به على حد قول بعض الروايات) كانت احدى فرق الخرمية القديمة، وقد ثاروا سنة 162هـ في جرجان على عهد الوالي المهلهل بن صفوان، وكان زعيمهم عبدالقهار الذي استطاع أن يسيطر على الاقليم، ونحن لا نعرف شيئاً عن هذا الزعيم كما أن اسمه العربي لا يعني بالضرورة أنه كان مسلماً، وحتى إذا كان عربياً فإنه ربما رفع شعار المحمرة ليحقق مآرب سياسية.

وقد انضم المحمرة إلى الخرمية وأعلنوا أن أبا مسلم لايزال حياً وأنهم سيستولون على السلطة بقيادة أبي غرة الذي ادعى بأنه ابن أبي مسلم، ولقد تقدم المحمرة والخرامية إلى الري، ولكن المهدي أمر ابن العلاء أن يتحرك من طبرستان ليقضي على الثورة وقد استطاع عمر أن يشتت الثوار ويقتل زعيمهم[84].

وفي سنة 167هـ ثارت الخرمية في اصفهان[85] ولكن حركتها لم يكتب لها النجاح مرة اخرى حيث أنها لم تنتشر إلا بين المعدمين من الإيرانيين الذين لا يملكون القيادة ولا السلاح ولا حتى القوت الذي يديم حياتهم.

ولقد استمرت هذه الثورات الخرمية سلسلة متصلة في العصر العباسي الأول وظهرت باسماء مختلفة على أن معظم كتاب الفرق الإسلامية قد ادرك العلاقة بينها فاعتبروا المزدكية والخرمية والمحمرة والمبيضة (في بلاد ما وراء النهر) والمسلمية شيئاً واحداً، وليس هنا محل التفصيل في بقية الحركات الخرمية وسوف يكون لذلك مكان آخر في فترة تاريخية اخرى وهي النصف الثاني من العصر العباسي الأول (عصر الرشيد وبنيه).

اما المظهر الثاني للاضطرابات في إيران في عهد العباسيين الأوائل فيتمثل كما ذكرنا سابقاً بمقاومة الامراء الإيرانيين المستقلين أو شبه المستقلين لتغلغل النفوذ العربي الإسلامي في اقاليمهم وسنتحدث هنا عن:

علاقة اصبهبذ طبرستان بالعباسيين:

المعروف تاريخياً أن السيطرة العربية الإسلامية على اقاليم بحر قزوين لم تكن فعلية ولا محكمة في أي وقت من الأوقات خلال القرن الأول الهجري وقد ادى ذلك بطبيعة الحال إلى ضعف النفوذ الإسلامي والثقافة العربية، حتى أن اللغة العربية كانت نادرة الاستعمال بل غير معروفة في مناطق كثيرة ولقد ادرك العرب الفاتحون صعوبة السيطرة على هذه المناطق فمنحوا تسهيلات كبيرة إلى السكان المحليين ولعل احسن شاهد على ذلك المعاهدة التي وقعها حذيقة بن اليمان مع بعض أمراء اذربيجان ومناطق بحر قزوين سنة22 هـ/ 624 م حيث تعهد لهم بايقاف القتل واعادة الاسرى وحمايتهم من هجمات الاكراد عليهم، واعطائهم الحرية الدينية في ممارستهم لطقوسهم الزرادشتية خاصة في منطقة (شيز) وكان على الأراء مقابل ذلك أن يدفعوا مبلغ 800 الف درهم في حال وأن يدفعوا الخراج سنوياً وتسمى هذه المعاهدة (بمعاهدة اردبيل)[86] ومع كل هذاالتسامح فإن مصادرنا تشير إلى استمرار التمرد ضد العرب وإلى خطورة وضع الحاميات العربية في هذه المنطقة وربما استطعنا تحديد أسباب ضعف السيطرة العربية بالعوامل الآتية:

1- العامل الجغرافي:

إن طبيعة المنطقة الوعرة واشتباك الهضاب المرتفعة بالجبال الشاهقة جعلت الطرق الموصلة بين العراق وشمال إيران صعبة جداً ونادرة، وحتى الطرق التجارية القديمة كانت طرقاً ضيقة بين جبال وعرة، وهذا بلا شك جعل التغلغل العربي شاقاً لإن طرقاً كهذه بالإضافة إلى صعوبة مسلكها لا تحتمل اعداداً كبيرة من الجيوش.

2- العامل البشري:

لم يكن لدى السلطة العربية الإسلامية اعداد كافية من المقاتلة تستطيع توزيعهم على المناطق المهمة في هذه المنطقة الوعرة الواسعة التي تضيع فيها عشرات الالوف من الجند ولاشك فإن الحاميات العربية لم تكن إلا نسبة ضئيلة جداً إذا قورنت بالسكان المحليين.

ولقد كانت طبرستان احدى الاقاليم التي استطاعت ان تحتفظ باستقلالها لمدة طويلة فقد كانت محاطة بالجبال وتحكمها عائلة الاصبهبذ حكماً وراثياً يتمتع بنفوذ شعبي كبير، وقد فشلت الهجمات العربية الإسلامية أن تحقق هدفها في عهد خلفاء القرن الأول الهجري، فحين اراد معاوية بن أبي سفيان غزوها فشل ولما كرر المحاولة سليمان بن عبدالملك استطاع قائد الجيش العربي أن يعقد معاهدة تعهد فيها الاصبهبذ بدفع مقدار من المال سنوياً ولم تغير هذه المعاهدة من وضع طبرستان السياسي.

اما العباسيون فقد حاولوا وكتب لمحاولتهم النجاح في السيطرة على طبرستان بعد سلسلة من الحملات على عهد الخليفة المنصور[87].

إن وجود المهدي ولي العهد في الري أميراً على الاقاليم الشرقية وقامته الطويلة هناك (140هـ - 151هـ) لدليل واضح على الأهمية التي كان يعلقها الخليفة المنصور على الاستقرار السياسي في هذه الاقاليم وعلى عزمه على توسيع نفوذه السياسي في المناطق التي لا تزال تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي

يقول الطبري[88] «ولما ظفر المهدي بعبد الجبار بغير تعب ولا مباشرة تنال كره

المنصور أن تتبطل تلك النفقات التي انفق على المهدي فكتب إليه أن يغزو طبرستان»
وهكذا فإن المنصور اراد أن يجد منفذاً آخر للمقاتلة وليبرر الأموال الطائلة التي صرفها على تجهيزهم لحرب عبدالجبار الأزدي، فلما قضى على ثورة عبدالجبار في خراسان لم يكن هناك منفذ احسن من طبرستان.

على أن العلاقات بين أمير طبرستان والعباسيين تعود إلى زمن ابعد من هذا فحين كان الجيش الخراساني، صانع الثورة العباسية يتقدم في طريقه إلى العراق بقيادة قحطبة الطائي أتصل خالد بن يحيى البرمكي بالاصبهبذ واتفقا أن يدفع الثاني ضريبة مالية سنوية للعباسيين رمزاً لاعترافه بهم، وحين ثار سنباذ بعد قتل أبي مسلم الخراستاني دفع بعض خزائن أبي مسلم إلى الاصبهبذ فطلبها منه المنصور[89] عدة مرات دون جدوى، وقد سأل المهدي اباه ألا يلح على الاصبهبذ خوفاً من ثورته وعندئذ تظاهر بتغيير سياسته وارسل الهدايا ومعها تاج ملكي للاصبهبذ فرد الاخير بإرسال الضريبة التي كان يدفعها للملوك الساسانيين.

ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد فقد كان للمنصور ثلاث نيات في طبرستان ينتهز الفرصة لتحقيقها وهي: ضم طبرستان فعلياً إلى رقعة الدولة الإسلامية لموقعها المهم ومواردها ثم اشغال الجيش العباسي بعد أن انهى مهمته في خراسان وأخيراً تلقين الاصبهبذ درساً قاسياً نتيجة احتفاظه ببعض خزائن أبي مسلم وكان الاصبهبذ حذراً لأنه نظر إلي أي تدخل من قبل العباسيين بمثابة تركيز للسلطة العربية في منطقته الأمر الذي يحد من نفوذه السياسي دون شك، وقد لجأ المنصور إلى حيلة سياسية، فطلب من المهدي أن يحصل على موافقة الاصبهبذ السماح لقوات عباسية بالدخول إلى طبرستان حيث تسلك الطريق الشمالي إلى خراسان بحجة أن طريقاً واحدة لا تكفي لاعداد كبيرة من المقاتلة أن تسير فيها، ولم يشك الاصبهبذ بالطلب بل وافق لتوه عليه فدخلت القوات العباسية بقيادة أبي الخضيب مرزوق مولى المنصور وعمر بن العلاء وأبي عون عبدالله وتوغلت عميقا في طبرستان واحتلتها وقد هرب الاصبهبذ إلى جيلان ولكنه حين سمع بان حصن الطاق وهو آخر معقل في طبرستان قد سقط بأيدي العرب المسلمين تجرع السم ومات[90].

لقد اصبحت طبرستان للمرة الأولى ضمن السيطرة العربية الإسلامية بجهود عمر بن العلاء بالدرجة الأولى ولكن الاضطرابات استمرت ولم يستطع الولاة العباسيون السيطرة إلا على المدن استناداً إلى الحاميات العسكرية، وقد حاول أبو الخصي مرزوق أول وال عباسي أن يشجع الناس لاعتناق الإسلام ولكنه واجه صعوبة كبيرة لتعلق الناس بتقاليدهم ودياناتهم القديمة إضافة إلى تعلقهم بأمرائهم الإيرانيين[91].

وفي عهد الخليفة المهدي ثار سكان طبرستان بقيادة الأمير ونداد هرمز سنة 164هـ/ 780-781 نتيجة سياسة عبد الحميد مضروب المالية التعسفية، والمعروف أن ونداد هرمز قبل قيادة الثورة بعد أن ضمن تعاون الأمراء المحليين الاخرين مثل الاصبهبذ شروين والمصحفان واش، وقتل في المجزرة عدد كبير من العرب، ويؤكد ابن اصفنديار أن النساء الإيرانيات اللواتي تزوجن من العرب المسلمين قد قتلن أيضاً، وكان الوالي عبد الحميد مضروب من بين الضحايا[92].

وبين سنة 164-166هـ/ 780-782م استمر التمرد وكانت الحرب بين ونداد هرمز والجيش العباسي سجالا اندحر خلالها المسلمون عدة مرات وقتل قائدهم سلم الفرغاني، كما أن النجدة التي جاءتهم بقيادة فراشة مولى الخليفة باءت بالفشل وقتل قائدها.

والظاهر أن معظم الولاة العباسيين على طبرستان استعملوا سياسة القوة التي لم تنجح بل على العكس ادت إلى حركة جديدة سنة 167هـ/ 783-784م مما دعا الخليفة إلى ارسال ولي عهده موسى (الهادي) والقائد يزيد بن فريد الشيباني[93].

وقد استطاع يزيد الشيباني أن يدحر ونداد هرمز في معركة فاصلة جرح على اثرها ونداد هرمز نفسه وقد دعا كثرة الجيوش العباسية وقدرة يزيد الشيباني العسكرية الثائر إلى الاستسلام للهادي بشرط إلا يمس نفوذه في طبرستان بشيء ويتعهد مقابل ذلك بالكف عن اثارة الاضطرابات ومهاجمة الحاميات العباسية، وقد اخذ الهادي ونداد هرمز معه إلى بغداد، ولكن الهادي أخر رجوعه إلى العراق بعد أن سمع

بالمؤامرت التي تحاك ضده من أجل اقصائه عن ولاية العهد وتحويلها إلى آخيه هارون الرشيد، ولم يرجع الهادي إلى بغداد إلا بعد أن سمع بوفاة ابيه المهدي، حيث بويع خليفة للمسلمين.

وقد بقي ونداد هرمز في بغداد حتى سمع الخليفة الهادي بنبأ مقتل (بهرام بن فيروز) وهو احد الإيرانيين الذين اسلموا على يد الهادي، وكان قاتل بهرام هو (ونداد سفران) واخو الأمير ونداد هرمز وقد طلب الهادي قتل ونداد هرمز مقابل قتل بهرام ولكن الأمير ونداد هرمز استطاع أن يقنع الهادي بأن هذه خطة مدبرة من أخيه سفران لقتله ورجاه أن يرسله إلى طبرستان ليأسر أخاه القاتل ويرسل رأسه إلى الخليفة[94].

وما أن وصل الأمير ونداد هرمز إلى طبرستان حتى اشار إلى اخيه بالهرب والاختفاء عن الانظار وبقي هو في طبرستان مدعياً أنه يحاول العثور عليه حتى توفي الخليفة الهادي، وهكذا بقيت هذه الاقاليم مضطربة تحت الحكم الإسلامي، واسلم بعض الأمراء الإيرانيين في هذه المناطق ظاهريا فقط لأن إسلامهم كان يساعدهم على الاحتفاظ بالنفوذ والسلطة في مناطقهم، وبينما اظهرت أعمالهم غالباً تعلقهم بدياناتهم القديمة و تقاليدهم الموروثة، وكان يطلقون على دينهم (بالدين الأبيض)[95] ليميزوه عن الدين الإسلامي الذي يسانده (المسودة) اتباع الدولة العباسية.

الخليفة المهدي يجابه حركة الزندقة:

الزندقة ومفهومها:

تختلف مصادرنا التاريخية في تعريف الزندقة، حتى يأت هذا الاصطلاح مرناً يتسع إلى التفسيرات والتخريجات الدينية -السياسية كافة. فيعرف المسعودي الزنديق بإنه الشخص الذي ترك الافستا- الكتاب المقدس في الزرادشتية - واتبع (الزند) وهي شروح وتفسيرات جديدة للافستا. ويضيف المسعودي[96].

«وفي أيام ماني هذا ظهر اسم الزندقة الذي إليه أضيف الزنادقة . . . الذين انحرفوا عن الظواهر من المنزل إلى تأويل هو بخلاف التنزيل، وما أن جاءت العرب

أخذت هذا المعنى من الفرس وقالوا: زنديق وعربوه، والثنوية هم الزنادقة. . .».
ويرى الطبري أن الزنادقة هم اتباع ماني[97].

أما ابن قتيبة فيشير بإن الزندقة انتشرت بين نفر من قريش قبل الإسلام ومصدرها الحيرة بالعراق:

«وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الحيرة»[98]. ورواية ابن قتيبة تتفق مع رواية المسعودي والطبري في أن الزندقة هي المانوية التي كانت منتشرة في العراق في العهد الساساني.

ولكننا حين نتفحص تحليل الجاحظ لمفهوم الزندقة نجد تفسيراً أعمق لهذه الحركة الفكرية- الاجتماعية، ذلك أن الجاحظ يربط الزندقة بالشعوبية من حيث طبيعتهما وأهدافهما المعادية للتراث العربي والإسلام فيقول:

«فإنما عامة من ارتاب بالإسلام انما جاءه هذا عن طريق الشعوبية، فإذا أبغض شيئا أبغض أهله، وأن أبغض تلك اللغة ابغض تلك الجزيرة فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام إذ كانت العرب هي التي جاءت به وكانوا السلف»[98].

فالجاحظ يربط العداء للإسلام بالعداء للعرب ويستنتج بأن هذا العداء يؤدي إلى الانحراف عن الدين والطعن فيه ويوضح ذلك أكثر بقوله[99].

«إنك لم تر قوماً اشقى من هؤلاء الشعوبية ولا اعدى على دينه».

ويجعل ابن النديم في (الفهرست) الزنادقة ضمن المانوية ومن معتنقي الثنوية ويوافقه الخياط في (الانتصار) حين يفرق بين المجوس والزنادقة ولا يعتبرهم فرقة واحدة[100].

بينما يتفق كل من الصولي والثعالبي[101]بإن الزنديق لم يكن أكثر من ماجن ظريف. . . وفي حين يرى الشريف المرتضى وياقوت الحموي[102] بان الزنادقة هم«من يبطنون الكفر ويتظاهرون بالإسلام» وهذا المعنى الاخير متأخر نجده في العصور العباسية المتأخرة حيث يقول المقدسي في معنى الزندقة.

«إظهار الحق واعتقاد خلافه، وهو النفاق الذي كان على عهد الرسول (ﷺ) وتسمى اليوم الزندقة[103].

ثم اتسع إطار الزندقة ليضم اعداداً جديدة من الناس، حيث نجد التوحيدي يؤكد أن «من طلب الدين بالكلام الحد»[104] وبذلك اصبح المتكلمون ضمن الزنادقة!! بينما يشير ابن الجوزي والمعري إلى أن الزنادقة هم الدهريون الذي قالوا «بإن لا صانع للعالم»، و«وإن ليس لاحد أن يثبت لنفسه ربا لأن الاثبات لا يكون إلا بعد ادراك الحواس وما يدرك فليس باله وما لا يدرك لا يثبت»، ومعنى ذلك أن الجنس البشري باق على هذا الكوكب ولا نهاية له. ولهذا يصف المعري الزندقة بأنها القول بالدهر وانكار النبوءات والكتب السماوية[105]. ويرد في (لسان العرب):

«الزنديق القائل ببقاء الدهر فارسي معرب من (زندكر) أي يقول ببقاء الدهر، . . . وليس في كلام العرب زنديق فإذا أرادت العرب معنى ما تقوله العامة قالوا ملحد ودهري»[106].

ولعلنا بعد هذا الاستعراض لأقوال جمهرة من المؤرخين واللغويين العرب، ندرك بأن الاصطلاح لم يكن محددا تحديداً دقيقاً حيث اطلق للدلالة على الثنوية من اصحاب ماني واستخدمته السلطة ضد خصومها واستخدمه الفقهاء للدلالة على الملحدين ويمكننا أن نحصر الدلالات الرئيسة لهذا الاصطلاح خلال العصر العباسي بما يأتي:

أولا: كان المعنى الرسمي الذي استخدمته السلطة العباسية يدل على أن الزنديق هو من يعتنق المذهب المانوي وهو من المذاهب الثنوية المجوسية الإيرانية.

ثانياً: أتسع هذا اللفظ ليدل. كما في أقوال الجاحظ والاصفهاني وغيرهما، على الشعوبية باعتبار أن العروبة والإسلام مفهومان مترادفان في القرنين الأول والثاني الهجريين ولذلك فإن الشعوبية والزندقة لابد أن يكونا مترادفين أيضاً فإن من يكره العرب يكره الإسلام كذلك والعكس صحيح.

ثالثا: أصبح لهذا الاصطلاح دلالات دينية - سياسية عامة حين استخدمته السلطة العباسية لضرب خصومها السياسيين أو الدينيين ولذلك أتهم عديد من الاشخاص من أتباع الأحزاب الأخرى بالزندقة. كما شمل هذا الاصطلاح بعض الذميين وخاصة من النصارى[107].

رابعاً: شمل الاصطلاح بعض الخلعاء والمجان والظرفاء.

خامساً: كما شمل المشككين والدهريين ومستقلي التفكير وأهل الكلام (المتكلمين) وغيرهم ممن اتهموا بكونهم «يبطنون الكفر ويتظاهرون بالإيمان» وهدفهم العبث الفكري والتشكيك بالعقيدة أو تفسيرها تفسيراً مغايراً لجمهور الفقهاء والعلماء.

الجذور التاريخية للزندقة:

بعد سقوط الدولة العباسية على يد العرب المسلمين، تمتع اتباع المانوية، مثلهم مثل باقي الديانات الأخرى، بحرية التعبير عن عقيدتهم، وتشير بعض رواياتنا التاريخية[108] إن عديد من المانويين عادوا من المنفى إلى مناطقهم ونشطوا في الدعاية ثانية لتعاليمهم. وقد شهد العراق الجنوبي وخاصة منطقة بابل نشاطاً دينياً ملحوظاً للمانوية بعد تخليص العراق من الساسانيين.

ومن المعلوم أن المانوية كانت تحمل اسم «الزندقة» في العهد الساساني[109]. ثم شمل هذا الاصطلاح المزدكية إضافة إلى المانوية. وقد استعمله العرب بعد تأسيس الدولة العربية الإسلامية، حيث وجدوه مستعملاً باللغتين الفارسية والآرامية في العراق، للدلالة على الديانات الإيرانية المنشقة عن الزرادشتية وخاصة المانوية.

إلا إن هذا الاصطلاح اتسع معناه منذ النصف الثاني من القرن الثاني الهجري فشمل إضافة لاتباع الديانة الثنوية الإيرانية كل مسلم منشق أو ملحد أو متكلم أو متحرر شكاك أو معارض للسلطة العباسية.

ولعل هذا التعميم كان السبب الذي جعل العديد من المؤرخين يتخبطون في تعريف الزندقة أو التفريق بين الزنادقة الحقيقين (أي المانوية) وبين غيرهم من حملة الأفكار الأخرى.

طبيعة الزندقة وأهدافها:

من الواضح الآن بأن الزندقة هي الحركة المانوية الجديدة والمنظمة التي عادت فانتعشت في الفترة العربية في العراق والأقاليم الإيرانية. اما ما عدا ذلك فقد اطلق هذا الاصطلاح مجازاً ولا يدخل ضمن مفهوم الزندقة التاريخي.

والمعروف عن ماني أنه في الوقت الذي كان يدعو الناس إلى تعاليمه، كان يؤلف عديداً من الكتب يشرح فيها آراءه ومعتقداته. وقد دأب مفكرو المانوية على تأليف الكتب للدعاية لمذهبهم حتى غدت أدبيات المانوية كثيرة ومنتشرة بين الناس بلغات عديدة سريانية وفارسية ثم عربية[110].

لقد اعتبرت المانوية الثنوية[111]، إن العالم يسيره إلهان إله الشر وهو اله قديم واله الخير محدث وحثت الناس على الزهد والتقشف من أجل أن يسود السلام بين البشر وأن تسود تعاليم المانوية العالم. وقد هاجم ماني الأنبياء واعتبرهم كذابين لأن الشياطين استحوذت عليهم وتكلمت على السنتهم. ويعتبر يزدان بخت، وهو احد رؤساء المانوية في العصر العباسي، أن ماني خاتم الانبياء وهو بذلك لا يعترف بنبوة الرسول محمد (ﷺ) ولا برسالته الإسلام.

فالزنادقة اذن روجوا لمذهب المانوية وسعوا لنشره داخل المجتمع العربي الإسلامي منكرين الديانات الاخرى ومنها الإسلام دين الدولة العباسية الرسمي. بل أنهم لم يعترفوا بنبوة محمد (ﷺ) النبي العربي. وليس هذا فحسب بل أن ما احيوه من تراث مانوي فارسي قديم وما نشروه من كتب قديمة ترجموها من الفارسية إلى العربية استهدفوا من خلاله مقارعة التراث العربي والتفاخر به ومحاولة احلاله محل الثقافة والفكر العربي الإسلامي. ومن هذا المنطق كانت جهودهم متفقة ومتكاتفة مع جهود الشعوبية وأهدافها.

التصدي الفكري للزندقة:

ولعلنا نتفق الآن – بعد كل ما قدمنا اعلاه حول طبيعة الزندقة وأهدافها– بأن هذه الحركة كانت تنظيماً فكرياً صلباً ذا منهج دقيق تمركز في العراق والاقاليم الشرقية وتستر بالإسلام ولكنه استهدف تقويض السياسة العربية بنسف الإسلام عن طريق التشكيك والتأويل أو السخرية بالارث العربي– الإسلامي.

إن الرفاهية الاقتصادية والاستقرار السياسي النسبي وأثر الثقافات الاجنبية وتساهل السلطة العربية مع العقائد المختلفة أدى إلى نوع من التحليل الحضاري واصطراع الأفكار والآراء في المجتمع فكان أن ظهرت جماعات أو حلقات من الكتاب والشعراء والمفكرين المعجبين بالحضارة الساسانية ومثلها، الداعين إلى اتخاذها مثالاً يحتذى به في المجتمع. وكان من أهداف هذه الحلقات ومذاهبها، ومنها المانوية، تطبيق هذه النظم والقيم في المجتمع والإدارة والبلاط باعتبارها بديلا للارث العربي– الإسلامي. ولم تكن هذه الحلقات مشتتة بل كانت متماسكة تتكون من أفراد ذوي آراء مشتركة وأهداف متماثلة وكان يطلق عليها «إخوان الصدق»[112] الذين يعملون من خلال الكتابة والنشر على ترويج آرائهم والدعاية لها.

لقد حاول الزنادقة ضمن مخططهم الفكري وضع كتاب يشبه القرآن الكريم في اسلوبه وبلاغته وطعنوا بالرسالة فقد ذهب ابن الراوندي[113]. إلى أن معجزات الانبياء ما هي إلا تخاريف ومن عمل السحرة، وتعرض إلى القرآن من حيث الاسلوب والمحتوى وتعارض الافكار على حد زعمه، وحاول عبدالكريم بن أبي العوجاء أن يضع كتابا يعارض فيه القرآن الكريم أيضاً إضافة إلى وضعه أحاديث كاذبة نسبها إلى الرسول (ﷺ). وكتب يونس بن أبي فروة رسالة في مثالب العرب وعيوب الإسلام. وفي رواية للمسعودي أن حماد عجرد كتب رسائل عديدة في المذهب المانوي. وألف يحيى بن زيادة الحارثي ومطيع بن أياس الليثي رسائل واشعارا في المانوية. واعترفت ابنة مطيع بن أياس بمذهبها المانوي امام الرشيد[114].

ويذكر المسعودي وابن النديم وغيرهما العديد من الكتاب الذين الفوا في الدفاع

عن المانوية (الزندقة) ومنهم: ابن طالوت وابو شاكر الديصاني وابن السعدي ونعمان وعبدالكريم بن أبي العوجا وصالح بن عبدالقدوس وحماد عجرد ويحيى بن زيادة ومطيع بن أياس ويزدان بخت احد رؤساء المانوية . . . وغيرهم[115].

وانتشرت الكتب والرسائل المانوية بسرعة وقرأها كثير من مثقفي العصر فقد كانت ذات ورق صقيل وحبر عميق صافٍ وغلاف مزركش بديع وذوق في الاخراج والنشر . وقد أشار الجاحظ إلى ذلك إلا أنه هاجم محتواها قائلاً:

«لا تفيد علماً ولا حكمة وليس فيها مثلاً سائراً ولا خبراً ظريفاً ولا صفة أدب ولا حكمة غريبة ولا فلسفة ولا مسألة كلامية».

ولكن الذي روج سوقها واشاعها بين الناس على حد قول الجاحظ أنها:

«أجود ما تكون ورقاً يكتب عليه بالحبر الأسود البراق ويستجاد له الخط»[116].

ولذلك فقد كانت تطلب حتى من غير المانوية للاطلاع عليها والتعرف على محتواها! ولا شك فإن الاطلاع على رسائل المانوية لا يعود فقط إلى هذا الاخراج البديع والزركشة الدقيقة، ذلك أن أهل الفرق الاخرى المعارضة للخلافة العباسية اطلعوا عليها للاستفادة من وسائل احتجاجها وأساليب دعايتها وطرق مناقشتها ومناظراتها. كما أن الفقهاء المسلمين «وأهل الكلام»، وخاصة على عهد المأمون عمدوا إلى قراءة هذه الكتب والاطلاع عليها لغرض دحض آرائها والرد على هجومها بهجوم أعنف منه وأشد. ويصور لنا (كتاب الاحتجاج) للخياط المعتزلي صوراً ومقتبسات من المناقشات التي كانت تطرح في القرنين الثالث والرابع الهجريين[117].

لقد شعرت السلطة العباسية بخطورة حركة الزندقة بمضامينها الدينية والسياسية والاجتماعية وبضرورة ضبطها وتقييدها فدعوا إلى شن حملة نشطة وقوية تدعمها الدولة لمجابهة الزندقة. والواقع أن هذه الحملة بدأت فردية في العهد الأموي حيث لم تكن قد تبلورت الزندقة بعد . . . فقد كتب واصل بن عطاء الغزال كتابا بعنوان (الف مسألة للرد على الزنادقة» . . . ولكن الحملة غدت أكثر نشاطا وتنظيما حين رعتها الدولة

العباسية وخاصة في عهد الخليفة العباسي الثالث المهدي حيث كتب الفقهاء والمحدثون رسائل عديدة لا نعرف إلا القليل منها لدحض آراء المانوية (الزندقة) وكتب الجاحظ كتاباً (في فضائل القرآن ومعانية الجميلة) رداً على محاولات الزنادقة التشكيكية. ولم يؤلف إبراهيم بن النظام رسائل ضد المانوية ولكنه اشتهر بمناقشاته العنيفة معهم في المجالس. وكان لابي الهذيل العلاف وجعفر بن حرب مشادات ومناقشات حامية مع يزدان بخت من رؤوس الزنادقة[118].

ومن جملة من تصدى لحركة الزندقة في هذه الفترة:

أبو محمد هشام بن الحكم في كتابه (الرد على الزنادقة والرد على أصحاب الاثنين) ومحمد بن عبدالوهاب الجبالي كتابه (الرد على اصحاب التناسخ والخرمية)، وأبو محمد الحسن بن موسى النوبختي في كتابه (الرد على اصحاب التناسخ)، أحمد بن محمد بن حنبل (كتاب الرد على الزنادقة والجهمية)، أبو الربيع محمد بن الليث الخطيب (كتاب الرد على الزنادقة)، وأبو بكر محمد بن زكريا الرازي (في الرد على المانوية)، والمسعودي في كتابه (الابانة في اصول الديانة). وأبو عثمان الرقي في رسالته (الرد على الملحدين واصحاب الاثنين).

وكان للمانوية مناقشات ومشادات مع سائر الفرق الإسلامية وغير الإسلامية في القرن الثالث والرابع الهجريين[119].

موقف السلطة العباسية من الزندقة[120]:

من المعروف أن الذين اتهموا بالزندقة في العهد الأموي كانوا قلة، ثم أننا لسنا متأكدين من زندقتهم بمعنى ما نويتهم حيث لا توجد ادلة كافية تؤكد ذلك. وتشير مصادرنا بإن الجعد بن درهم ومعبد الجهني تكلما في القدر واعتقدا بحرية الارادة وليس في ذلك «زندقة». كما نسبت إلى عبدالصمد بن عبدالأعلى مربي الوليد الثاني تهمة التحلل من الفرائض الدينية ونسبت إلى غيلان الدمشقي تهمة الانحراف عن الدين ولكننا لا نستطيع التدليل على كونهما من المانوية.

وفي العصر العباسي احكمت القبضة على أهل البدع والزندقة وخاصة المانوية، واظهر رجال الدين الزرادشت قلقا بالغا من تهديد المانوية لمذهبهم وتعاونوا مع السلطة العباسية لمطاردة الزنادقة. اما بالنسبة للعباسيين فقد ايقنوا أن المانوية (الزندقة) خطر على قيم المجتمع ومثله وعقيدته الإسلامية إضافة إلى كونها تهديداً لكيان الدولة السياسي.

ولكن الحملة ضد الزنادقة لم تكن منظمة في البداية... فلم يعرف عن المنصور تشديده على الزنادقة وربما كانت نشاطاتهم قليلة ومتسترة وفردية في هذه الفترة. ومع ذلك فقد قتل المنصور البقلي الذي انكر وجود القيامة والبعث والحياة بعد الموت وكان يقول: «الإنسان كالبقلة إذا مات لم يرجع». كما اتهم عبدالكريم بن أبي العوجاء بمعارضته للقرآن واختلاقه الاحاديث النبوية واعترافه بالاثنين النور والظلمة واعتقاده بالحلول والتناسخ وقتل بالزندقة.

والمهم أن نذكر بأن المنصور أوصى ابنه وولي عهده المهدي بإن يتقرب إلى الفقهاء ويجعلهم عضده ولا يفرق الجماعة، ويحارب المنحرفين والمنشقين.

لقد كان الخليفة المهدي أول من بدأ حملة منظمة وعلى الصعيد الرسمي في محاربة أهل البدع والزندقة سياسيا وفكريا. يقول اليعقوبي عنه:

«كان قصد قتل الزنادقة وذلك أنهم كانوا قد كثروا ومما كان أبن المقفع ترجمه من كتب ماني الثنوي وكتب ابن ديصان الثنوي وغيرهما. وما وصفه ابن أبي العوجاء وحماد عجرد ويحيى بن زيادة ومطيع بن أياس وملأوا به الأرض من كتب الملحدين. وكثرت الزنادقة وفشت كتبهم في الناس. وكان أول خليفة أمر المتكلمين أن يضعوا الكتب على أهل الالحاد».

ويؤيد المسعودي ذلك حين يقول:

«أمعن المهدي في قتل الملحدين والمداهنين عن الدين لظهورهم في أيامه واعلانهم باعتقادتهم في خلافته... وكان المهدي أول من أمر أهل البحث من

المتكلمين بتصنيف الكتب في الرد على الملحدين . . . فأقاموا البراهيين على المعانديين واوضحوا الحق للشاكرين» .

على أن بعض المؤرخين المتاخرين اعطى صورة مبالغ فيها ، فصوروا (القتل على التهمة) وسموا الخليفة (قصاب الزنادقة) ، وفي مخطوط بعنوان (ارجوزة لطيفة في التاريخ) يقول مؤلفها عن المهدي :

وانتصب المهدي لما أن مضى

والده وكان سيفاً منتضى

أباد كل كافر زنديق

وكان مهدياً على التحقيق

ولا شك فإن الخليفة محمد المهدي اراد في حملته الشعواء ضد الزندقة أن يثبت أمام جماهير الناس أنه أهلاً للقب المهدي (المنقذ) الذي اضفاه عليه والده الخليفة المنصور وأنه شديد على الزنادقة والمنحرفين وأنه «سيملؤها عدلاً كما ملئت جوراً» ! !

يقول الطبري :

«اجتهد المهدي في طلب الزنادقة والبحث في الآفاق عنهم وقتلهم» .

وقد انشأ من أجل ذلك (ديوان الزنادقة) يرأسه صاحب الديوان عبد الجبار ثم رأس الديوان الكلواذي ثم محمد عيسى بن حمدويه . وبلغت عملية المطاردة ذروتها سنة 166هـ- 782م واستمرت هذه العملية بصورة منتظمة حتى أيام المأمون .

وقد اشترك المهدي بنفسه في التحري عن فعاليات الزنادقة ، ففي رحلته إلى الثغور البيزنطية علم بوجود زنادقة في حلب فأمر بالقبض عليهم ومحاكمتهم ثم اعدمهم وقطعت كتبهم كالسكاكين إرباً ارباً .

نستنتج من ذلك كله أن عمليات محاربة الزندقة والتصدي للزنادقة المانوية على عهد المهدي كانت عمليات منظمة تنظيماً مركزياً دقيقاً اشرف عليها الخليفة بنفسه ،

ويعتبر صاحب الزنادقة أو عريف الزنادقة المسؤول المباشر عن هذه العمليات في العاصمة وهو رئيس ديوان الزنادقة. اما الطريقة التي يحاكم بها الزنديق بعد القبض عليه فكانت مثوله امام الخليفة أو القاضي، ويطلب إليهم أن يرجعوا عن الزندقة إذا اعترفوا بها وهذه هي (الاستتابة) فإذا رجعوا اطلق سراحهم. وتشير رواية تاريخية أن القاضي كان يطلب من المتهم أن يبصق على صورة لماني وأن يذبح طائراً ذلك لإن المانوية تحرم ذبح الحيوان.

على أننا يجب أن نشير بأن عمليات المطاردة اتسعت في عهد المهدي لتشمل جماعات اخرى ليست مانوية، وأن اسبابا اخرى دفعت السلطة العباسية إلى إتهام هؤلاء بالزندقة ومطاردتهم. تشير رواية تاريخية إلى أن الخليفة:

أمر بتصنيف قائمة موثوق بها عن اسماء الفرق المنحرفة عن الدين «اصحاب الأهواء» ليعرفوا بين الناس ويراقبوا ويصطادوا من كل حدب وصوب.

وهنا لعبت العداوات الشخصية والتنازع على السلطة والجاه والأسباب السياسية أو محاولة القضاء على المعارضة الدينية- السياسية دورها في اتهام البعض بالزندقة. فقد كان من السهولة على الفقيه أو الوزير أو صاحب الديوان أن يألب السلطة على خصمه أو من يحمل رأيا يخالفه أو تفسيرا يناقض تفسيره. ولذلك نلاحظ بإن العديد من المعارضين السياسيين أمروا اتباعهم بتجميد فعالياتهم الفكرية وذلك لإن «الأمر شديد!». وإلى ذلك يشير أحد المؤرخين حين يقول:

«إن الزندقة غدت اصطلاحاً إدارياً وسياسياً وليس اصطلاحاً كلامياً أو نظرياً. وبمعنى آخر فإن تهمة الزندقة تؤدي بصاحبها إلى السجن والتحري على احسن تقدير بل ربما انتهت بالمتهم إلى القتل».

ولعل مقتل عبدالله بن معاوية بن يسار يعتبر مثالا للدور الذي لعبته العوامل السياسية والعداوات الشخصية في استغلال سياسة الدولة لضرب الاعداء الشخصيين. فتشير رواية تاريخية إلى أن المهدي اخبر بأن عبدالله بن معاوية يدين بالزندقة فاستحضره وسأله عما يحفظ من القرآن فعجز عن ذكر بعض الآيات فأمر

المهدي أباه بقتله، ولكن الاب لم يستطع تنفيذ الأمر ثم أمر المهدي غيره بقتل عبدالله. وسواء كان عبدالله هذا زنديقا يدين بالمانوية أو أنه كان من إبناء الوزراء والمترفين الذين افسدهم المال فأغرق نفسه في المجون واللذة فأصبح شخصا غير متزن فكريا ومتحلل خلقيا فإن مقتله كان لسبب غير هذا ولا ذاك. إن السبب الحقيقي وراء مقتله يعود للعداوة الشخصية بين معاوية بن يسار والربيع بن يونس. وقد عمل هذا الاخير على اقصاء معاوية بن يسار من الوزارة، ولما لم يستطع أن يجد نصا واحدا في سيرة معاوية وسلوكه أو إدارته التفت نحو ولده عبدالله فوجد في سلوكه ما يبرر اتهامه بالزندقة وكانت النتيجة تنحية الوزير وقتل ابنه!! على أن المهدي ادرك بعد فوات الآوان الخطة التي حبكها الربيع بن يونس.

وقد حوكم الشاعر صالح بن عبدالقدوس امام المهدي بتهمة مفادها أن شعره يظهر الحكمة والفضيلة ويبطن الثنوية ويدس معاني الزندقة ورغم أن الشاعر طلب العفو فقد قتل.

وكان هناك من اشتهر بالمجون والخلاعة فإتهم بالزندقة مثل آدم حفيد عمر بن عبدالعزيز وقد ضربه المهدي 3000 سوط دون أن يعترف بالزندقة بل كان يقول:

«والله ما اشركت بالله طرفة عين ومتى رأيت قرشيا تزندق؟ ولكنه طرب غلبني وشعر طفح على قلبي وأنا فتى من فتيان قريش اشرب النبيذ وأقول على سبيل المجون».

إن زندقة آدم كانت زندقة خلاعة ومجون لازندقة عقيدة، وهي في ذلك تشبه زندقة إبراهيم بن سيابة الذي يصفه الاصفهاني بقوله: «كان خليعاً ماجناً طيب النادرة يحب الغلمان ويحبه المجان».

وفي سنة 166هـ/ 782م اتخذ الخليفة المهدي اجراءات شديدة ضد الزندقة واصطادهم من الافاق وكان بينهم داود بن روح بن حاتم وإسماعيل بن سليمان ومحمد بن أبي أيوب المكي ومحمد بن طيفق واعترفوا بالزندقة وتابوا.

كما تعقب الهادي والرشيد الزنادقة، وفي عهد المأمون قام رجال من المعتزلة والمتكلمين وقارعوا بأساليبهم العقلية الجدلية وقارعوا ما روجه الزنادقة من أفكار وآراء.

واستمرت مطاردة الزنادقة خلال العصور العباسية المتأخرة.... ولكن الملاحظ أن الاصطلاح توسع وبات يطلق على كل ذي بدعة أو شك من غير أن يكون مانوي المذهب وهذا ما نلاحظه في تفسير أحمد بن حنبل مثلاً للزندقة، ثم وسع الغزالي اطار الزندقة حين ادخل فيه كل محاولة اجتهادية تخالف المذاهب السلفية وتنحرف عنها في التفسير. على أن هذه المظاهر المتأخرة لا تدخل في مجال بحثنا ولا تمت إلى حركة الزندقة «التقليدية» بصلة.

وبعد... إن التفسير المنبثق من الواقع التاريخي لمعنى الزندقة يؤيد أنها كانت في الأساس حركة مانوية بثوب جديد رغم أنها حاولت تطوير معتقداتها عن طريق التوفيق أو «التستر» لكي تناسب العصر الجديد والمجتمع الجديد.

إن ادعاء بعض الكتاب بإن الزندقة محاولة لتجديد عناصر الثقافة العربية الإسلامية بتطعيمها بثقافات اخرى، إنما هو ادعاء لا يتفق مع النظرة التعصبية التي تملكت الزنادقة تجاه ثقافتهم ودينهم ضد ثقافة العرب ودينهم. وهنا لابد من التنويه إلى اتفاق الزندقة مع الشعوبية في الهدف وإلى ذلك يشير البروفسور جب حين يقول:

«وكانت اخطار الشعوبية لا تكمن في دعواها الوقحة ضد العرب بقدر ما تكمن في التشكيك الذي ولدته في نفوس الطبقات المتعلمة. فإن الثقافة الآرامية- الفارسية القديمة في العراق مركز المانوية كانت لا تزال تحمل جراثيم ذلك الضرب من التفكير الحر الذي عرف بالزندقة والمعروف أن المهدي لم يقتل احدا من الهاشميين بتهمة الزندقة فلم يأمر بقتل يعقوب بن الفضل الهاشمي الذي على حد قول بعض الروايات أقر بالزندقة امام الخليفة ولكنه امتنع أن يعترف بها امام الناس علنا. كما أن المهدي لم يقتل احد ابناء داود بن علي العباسي قائلا:

«اما والله لولا أني كنت جعلت لله علي عهداً إذ ولاني هذا الأمر، ألا أقتل هاشمياً لما ناظرتك ولقتلتك».

ولكن المهدي حث ابنه وولي عهده الهادي على قتلهما. وقد مات ابن داود ابن علي في السجن وقتل الهادي يعقوب بن الفضل سرا واعلن أنه مات ميتة طبيعية.

ووجه المهدي، كما اسلفنا، الفقهاء ورجال الدين لشن حملة فكرية ضد الزنادقة الذين بدأوا يؤثرون على الجماهير ويخدعون الجهلة والضعفاء. فأمر أن تنشر الكتب للرد عليهم وأن تعلن اسماؤهم واسماء فرقهم لمعرفتهم اجتماعياً ومهاجمتهم فكريا. واعتمد بصورة خاصة على الجدليين وأهل البحث «لازالة الشبهات التي روج لها المانوية والشكاك والخلعاء» مدفوعين بعقيدة أو بتطرف.

إن شدة المهدي وصرامته في تعقيب الزنادقة تظهر واضحة في وصيته لابنه الهادي حيث يقول:

«يا بني ان صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن كأجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للاخرة ثم يخرجها إلى تحريم اللحم وحسن الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوباً، ثم تخرجها من هذا إلى عبادة اثنين احدهما النور والاخر الظلمة، ثم يتيح بعد هذا نكاح الاخوان والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الاطفال من الطريق لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور».

«فأرفع فيها الخشب وجرد فيها السيف وتقرب بأمرها إلى الله الذي لا شريك له. فإني رأيت جدك العباس في المنام قلدني سيفين وأمرني بقتل اصحاب الاثنين».

على أن الهادي لم يدم طويلاً لينفذ ما أوصاه به والده. ومع انه نصب الف جذع أعدها لصلب الزنادقة وقال «لئن عشت لاقتلن هذه الفرقة كلها حتى لا اترك منها عيناً تطرف»، فأنه لم يصلب إلا يزدان بن باذان بالزندقة.

واتبع الخليفة هارون الرشيد السياسة نفسها من سبقوه لمن العباسيين فاستثنى الزنادقة من العفو الذي اصدره سنة 170هـ 786م عن الهاربين والمختفين عن الانظار

ومنهم يزيد بن الفيض ويونس بن ابي فروة. كما القي القبض على أولاد مطيع بن اياس واعترفوا بقراءتهم لكتب الزندقة. ولم يخل عهد الرشيد من اتهام البعض بالزندقة لأسباب سياسة. بل إن تهمة الزندقة في عهد الرشيد صفة تبادلها الاعداء والخصوم ضد بعضهم. فقد اتهم أبو نؤاس مثلا كل من أبان اللاحقي وحماد عجرد باعتناق تعاليم الثنوية وان لحماد شعراً يقرأه الزنادقة في صلواتهم، ولم يقف اعداء أبي نؤاس مكتوفي الأيدي بل اتهموه بالزندقة وكانت النتيجة أن دخل السجن مع حماد عجرد!

ورغم أن الخليفة المأمون كان مرنا تجاه المذاهب والفرق، ومع أنه اعطى يزدادن- بخت احد رؤساء المانوية الأمان واستدعاه إلى البلاط ودعا الفقهاء المناظرته وطالب منه الدخول في الإسلام فرفض فلم يجبره بل اطلق سراحه وضمن حمايته مع ذلك كله فإن المأمون اعتمد أسلوب المناظرة العقلية والدعاية الفكرية ضد الزندقة.

كان لابد لحركة الزندقة أن تخفق نظراً لان عناصر الوحدة في المجتمع العربي الإسلامي كانت لا تزال اقوى واشد من عناصر التجزئة والتشتت أولا، ثم بسبب قوة من تصدوا لها سياسيا. لقد استخدم هؤلاء المفكرون الوسائل كافة لمقارعة الزندقة وأيدت السلطة العباسية مساعيهم ورعتها فأسست (بيت الحكمة مركزا لجمع الكتب التي يستفيد منها هؤلاء المفكرون في حقول المنطق والفلسفة اليونانية لكي تكون بمثابة اسلحة في الجدل مع الزنادقة.

وسواء كانت الزندقة، خلال مسيرتها الطويلة، مذهباً مانوياً أو طائفة من الشكاك والمتكلمين والدهريين أو وسيلة من وسائل المجون فإنها شغلت حيزا رئيساً في الفكر الديني- السياسي. وكان لها اثرها على المجتمع بما انتجته أثر فكري في معتقدات الناس ونظرتهم وشكلت خطرا على المثل العربية- الإسلامية.

الزندقة وعلاقتها بالشعوبية[121]:

الشعوبية حركة فكرية اجتماعية قامت بها فئات غير عربية بهدف ضرب الكيان العربي من خلال ثقافته وتراثه وذلك بالتقليل من شأن اللغة العربية ومهاجمة التراث

العربي- الإسلامي والتشكيك بدور العرب التاريخي ولما كانت العروبة والإسلام صنوين مترابطين خلال القرن الأول الهجري وحتى نحو نهاية القرن الثاني الهجري لذلك لم تهمل الشعوبية الإسلام بل هاجمته محاولة بث روح التشكيك في قيمه الجديدة ونشر روح الاستخفاف والاستهتار عموما تحت ستار الظرف والمجون ومن هنا ارتبطت الشعوبية بالزندقة.

لقد كان سلاح الشعوبية فكرياً وثقافياً وهو في تصورنا اشد خطراً من القوة المسلحة في هدم كيان الأمة والتشكيك في ذاتها سياسياً وحضارياً. وقد مرت الشعوبية بمرحلتين:

المرحلة الأولى: كانت الشعوبية نزعة غير منظمة ومتسترة باسم «أهل التسوية» وقد شملت هذه الفترة العصرين الأموي والعباسي وحتى بدايات القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. وكان لابد لهذه الحركة وهي في بداياتها غير المنظمة أن تتستر باسم الدين خاصة وان التفوق كان لايزال للعرب المسلمين بسبب الدور التاريخي النشط الذي يقومون به.

والمعروف أن شعار التسوية شعار إسلامي يهدف إلى تطبيق أفضل لمبادئ الإسلام وتحقيق مبدأ المساواة والعدالة الإسلامية لكل الفئات عربية كانت أم غير عربية في المجتمع والتي تعد نفسها محرومة. وقد رفعت هذا الشعار حركات كثيرة في القرن الأول الهجري وردحا من القرن الثاني الهجري ضد الأمويين، ونادى به فقهاء وعلماء. وكان العرب المسلمون هم أول من نظم الضعفاء من عرب وموال ضد السلطة ونادوا بالمساواة ورفعوا شعار:

﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾.

اما المرحلة الثانية: حين بدأت الحركة الشعوبية تتضح معالمها كحركة منظمة ذات خطط مدروسة وأهداف متبلورة. ولم يكن اشتداد هجماتها بسبب ضعف العرب واتجاه الخلفاء العباسيين نحو الثقافة والنظم الساسانية بل، بسبب الوعي الجديد الذي احدثته هذه الثورة في نفوس الجماهير من عربية واعجمية فباتت تتوقع

حياة أفضل وانقلاباً سريعاً في حياتها ولكن سرعان ما خاب أملها في اجراءات العباسيين وخاب أمل الجماعات الإيرانية خاصة التي توقعت أن يتوجه العباسيون وبزخم شديد نحو النظم والثقافة الساسانية الأمر الذي لم يعرف عن الخلفاء العباسيين الأوائل.

وبمعنى آخر فأن استمرار اعتماد العباسيين على العرب المسلمين رغم توسيع قاعدة اعتمادهم لتشمل غير العرب، واستمرار اتجاههم نحو الثقافة العربية والارث العربي ادى إلى رد فعل عنيف وجهد منظم لمسخ التراث العربي واستبداله بتراث اعجمي وهذا ما نسميه في هذه المرحلة «الشعوبية».

وهنا تبدو الشعوبية على طبيعتها الحقيقية ويختفي مصطلح أهل التسوية. وقد لاحظ الجاحظ ذلك فقال بإن الشعوبية تتحلى وتتستر باسم «أهل التسوية»، وفي لسان العرب «الشعوبي هو الذي يصغر شأن العرب...».

ومما هو جدير بالتنويه أن اصطلاح الشعوبية استعمل في المرحلة المتأخرة، ولذلك يلاحظ المستشرق (جب) بإن هذه التسمية لا يعرف مصدرها وهل أنها اطلقت على الشعوبيين من قبل انصارهم أم اعدائهم، ولكن المعلوم أنها اطلقت على الشعوبية بعد أن اسفرت عن وجهها المعادي للعرب وتراثهم.

ويرى البروفسور جب أن تحركات الشعوبية بدأت حين نجحت اللغة العربية في اكتساح اللغات الإيرانية المتعددة في الساحة الشرقية ولغة الغوط الغربيين والروم في أسبانيا وصقلية ولغة البربر في افريقية واللغة القبطية في مصر والارامية بلهجاتها المختلفة في الجزيرة الفراتية حيث انحصرت تلك اللغات الإقليمية داخل بيوت العبادة وفي حلقات صغيرة اخرى.

وتجاه هذا النجاح الذي حققته العربية لغة السياسة والإدارة والمالية والثقافة بدأ المثقفون الاعاجم محاولات جدية للحفاظ على لغتهم من الضياع متبعين في المرحلة الأولى وسائل عديدة نلخصها:

1- ترجمة التراث الفارسي الأدبي إلى العربية.

2- التأكيد على التاريخ والثقافة الفارسية واظهارها بمظهر المتفوق على التاريخ والارث العربي.

3- كتابة مؤلفات جديدة ملفقة ونسبتها إلى الماضي القديم تظهر أهمية العجم ودورهم الحضاري.

لقد كانت هذه الخطوات بدايات للصراع الفكري والاجتماعي بين الفئتين ما لبث أن تطور ليصبح صراعا عنيفا لتقرير مصاير الثقافة العربية الإسلامية بكل ما افرزته من قيم ومثل وإتجاهات، ويعبر البروفسور جب عن هذه المرحلة من الصراع فيقول:

«وتأصل النزاع بين التراثين العربي والفارسي حتى مس الجذور. فلم يكن جوهر النزاع مسألة سطحية تتناول الأساليب والأشكال الأدبية إنما كان جوهره يتناول الوجهة الثقافية للمجتمع الإسلامي الجديد برمتها».

وبمعنى اخر فإن الصراع كان بصدد جوهر الثقافة، هل تكون ثقافة غير عربية تبتلع الثقافة العربية الإسلامية أو تكون ثقافة عربية إسلامية يكون فيها للارث الاعجمي منزلة صغيرة؟ وقد اسفرت الشعوبية عن هدفها الذي يرمي إلى صياغة نظم الدولة الاجتماعية والسياسية والروح الداخلية للثقافة الإسلامية على مثال النظم والقيم الساسانية التي كانت تمثل عندهم ذروة الحكمة السياسية.

اما المظاهر العربية - الإسلامية التي ركزت الشعوبية الهجوم عليها فهي:

1- التراث الأدبي العربي: من شعر ونثر وأمثال وحكم فقد انتقصوا منه وشككوا فيه وانتحلوا الشعر والنثر الركيك ونسبوه للعرب يقول الانباري:

«هذا كتاب ذكر الحروف التي توقعها العرب على المعاني المتضادة ويظن أهل البدع والزيغ والازدراء بالعرب (الشعوبية) إن ذلك لنقصان حكمتهم».

بل إن الثعالبي في رده على الشعوبية عد معرفة العربية من التدين فقال: «إن الاقبال على تفهمها من الديانة». ويرد التوحيدى على هجوم الشعوبية على اللغة العربية فيصفها وصفا دقيقا في استعاراتها البديعة واختصاصاتها البليغة وغرائب تصرفها ولطف كناياتها في مقابلة تصريحاتها.

بل أن المفكرين العرب ذهبوا ابعد من ذلك فاعتبروا اللغة نسبا أهم بكثير من رابطة النسب الأبوي كما سنرى بعد قليل.

2-التاريخ العربي: ادعت الشعوبية أن ليس للعرب تاريخ قبل الإسلام حيث كانوا بدوا غير متحضرين. فأنبرى انصار العروبة يبرزون تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده مؤكدين فلسفة جديدة هي وحدة التاريخ العربي الثقافي بحيث بات كل عصر متمماً للآخر ومكملاً له كما يظهر في كتاب (عيون الاخبار) والبيان والتبيين وفي كتب المفضليات والحماسة، حيث برزت الوحدة الثقافية للعرب عبر العصور.

على أن هذا الجهد لم يقتصر على التاريخ الثقافي بل امتد إلى التاريخ السياسي حيث ابرز عديد من المؤرخين وحدة التاريخ العربي.

فقد اثبت كتاب المعارف وحدة التطور التاريخي للأمة العربية وأبان كتابا الفتوح والانساب للبلاذري دور العرب في الفتوح والإدارة والسياسة. والف أبو عبيدة والاصمعي في تاريخ العرب وملوكهم في الجاهلية. ورد يحيى بن مسعدة على ابن غرسيه مذكرا اياه بكيانات العرب السياسية قبل الإسلام حيث يقول:

«أم لك فيهم بعد الملوك العاربة والكواكب الطالعة الغاربة من الثمودية والعادية والطسمية والجديسية... ما يقرع صفاتك».

وامتدح الجاحظ عرب قبل الإسلام ووصفهم «بصحة الفطرة» وأضاف:

«ولم يفتقروا الفقر المدقع الذي يشغل عن المعرفة ولم يستغنوا الغناء الذي

يورث البلادة والثروة التي تحدث الغرة، ولم يحتملوا ذلا قط فيميت قلوبهم أو تصغر عنده انفسهم».

بل راح الجاحظ أكثر من ذلك يؤكد على الأمة لا القبلية وأن هذه القبائل العدنانية والقحطانية ما هي إلا مظهراً من مظاهر الأمة الواحدة التي لها حضارة مشتركة:

«فإن قلت فكيف كان أولادها (أي قحطان وعدنان) جميعاً عرباً مع اختلاف الأبوة قلنا: إن العرب لما كانت واحدة فاستووا في التربة وفي اللغة والشمائل والهمة وفي الانفة والحمية وفي الاخلاق والسجية فسبكوا سبكاً واحداً وافرغوا افراغا واحداً».

3- النسب العربي: وهاجمت الشعوبية انساب العرب واظهرت أنها انساب اسطورية وشككت في حقيقتها فكتب انصار العرب مجلدات ضخمة بصدد انسابهم لكي يحفظوها للاجيال ويوضحوها للمعاصرين ويردوا على الهجمة الشعوبية العنصرية.

على أن الذي يدل على سماحة العروبة ومرونتها هو اتخاذها اللغة والثقافة لا العنصر اساسا للنسب العربي والانتماء إلى العروبة وعلى ذلك يجعل الجاحظ إسماعيل وهو غير عربي عربياً لإنه تكلم «العربية على غير التلقين والترتيب»، كما وأنه أي إسماعيل اكتسب:

«اخلاقهم (أي العرب) وشمائلهم وكرمهم وانفتهم وهممهم على اكرمها واسناها» فمقدمات العروبة ليس النسب بل اللغة والثقافة والنزعة الفكرية والخلقية والنفسية والقيم والمثل! وهكذا كان رد انصار العربي الإنساني المرن في مقابل تهجمات الشعوبية العنصرية الضيقة.

الرد على الشعوبية. قام المثقفون العرب من جانبهم بتحدي الشعوبية على النطاق الفكري بجهود كبيرة في مجال الثقافة والتأليف مستخدمين كل الوسائل الممكنة وبأسلوب جدي عصري أكثر اقناعا من الجدل الشعوبي.

لقد ادرك انصار العروبة من المثقفين ميول أهل العصر الجديدة وأساليب الشعوبيين لاجتذابهم فكتبوا سلسلة من المقالات والرسائل والكتب التي تمس مظاهر محسوسة عند أهل العصر وهكذا نشأ أدب عربي إسلامي موافق لذهنية العصر ومرتكز على الأسس الموضوعية للعلوم الإنسانية العربية. وقد نجح الجاحظ وهو المثقف المعتزلي المتسلح بالمنطق واساليب الجدل اليونانية في دحض تقولات الشعوبية واثبت في مجموع كتبه ورسائله التي الفها.

1- مدى السعة والثراء في موارد التراث العربي.

2- مدى تعصب جماعة الكتاب الشعوبيين وضيق افقهم في موقفهم المعادي للعرب وحضارتهم.

3- مدى زيف وبطلان حركة التشكيك في تراث العرب ودورهم في التاريخ، وعدم جدوى الموقف الساخر السلبي الذي يقفه الكتاب من القيم العربية.

لم يكن الجاحظ إذاً، كما يحلو لبعض الأدباء المعاصرين وصفi، كاتباً مترفا غريب الاطوار متناقض الافكار بل كانت كتاباته تخفي وراءها أهدافا ثقافية واجتماعية ودينية محددة وNن كان يسوقها احيانا بطريقة غير مباشرة أو متسترة. وكان مثقفو عصره يدركون اغراضه هذه تمام الادراك. وجاء ابن قتيبة ليكمل جهود الجاحظ في هذا الميدان فزود مثقفي عصره بمقتطفات مما يحتاجون إليه من العلوم والمعارف الإنسانية استقاها من مصادرها الاصلية متبعا طريقة الجاحظ التوفيقية المرنة واسعة الافق فأدخل في مختاراته التاريخية والادبية بعض مظاهر التراث غير العربي الذي ينسجم مع التراث العربي الإسلامي ويعتبر ذا قيمة عملية في الإدارة والثقافة.

وهكذا فقدت الشعوبية فاعليتها امام مرونة انصار العروبة فاعترف الكتاب الشعوبيون بفشلهم في الصراع. يصف المستشرق جب نهاية الشعوبية وفشلها فيقول:

«وغمر الجاحظ بما كتبه من سعة افق وقوة عارضة ما كانت تصدره مدرسة الكتاب (الشعوبيين) من سقط المتاع في الأدب... وقد علم الجيل الجديد كيف يوسعون افقهم ويجربون الموضوعات والأساليب الجديدة... وكان أدب الجاحظ

موضع اقبال شديد من الجمهور ومن المشايعين للكتاب (الشعوبيين) انفسهم. وصمد الشعوبيون في موقفهم عقداً أو عقدين ولكنهم اضطروا في النهاية إلى الاعتراف بأن العلوم العربية الإنسانية قد انتصرت وأن وظائفهم تتطلب منهم في الاقل معرفة عابرة بالتراث والعربي.

هوامش الفصل الرابع

1- الطبري، تاريخ، القسم الثالث، 387-391، الخطيب البغدادي بغداد، ج 5ص392.

2- المصدر السابق، 467-469، 471-476،522-523.

3- يعقوبي ج 2ص 461.

4- مقريزي: منتخب التذكرة ورقه، 126 أ. اغاني، ج 13ص، 99.

5- طبقات ابن سعد ج، 7، ص 71، الجهشياري، ص 126-136-130- الطبري، 3، ص 355، 351، 355، 439، 440-، مروج الذهب، ج 6، ص250-251- العاملي اعيان الشيعة، ج 20، ص 108.

6-الازدي، ص 187، الانساب، ص، 566.

7- فضل بين هاشم (سندوبي) ص 116.

8- انساب ص767أ- جهشاري، ص 130، قارن يعقوبي، ج 2ص، ٤٤٣-٤٤٢.

9- انساب، ص 563 الطبري 3 ص 338-334 الازدي، ص 71.

10- الطبري، 3 ص 341 فما بعد- الازدي ص 174-175.

11- انساب، ص 563 الطبري 3 ص 337 الفخري، ص 154.

12- انساب، ص 564 الجهشياري ص ١٢٧127 - الطبري3 ص، 350- الفخري، ص 155.

13- الطبري 3. ص 367.

14- Op. cit، ص 453-455 انساب ص، 565-566.

15- انساب ص، 579-580 - الطبري3 ص ، 455،387-391.

16- المعارف ص 379- الطبري 3 ص 456.

17- المسعودي، مروج، ج 2 ص، 248.

18- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1ص ، 70.

19- أبو يوسف القاضي، الخراج، ص 37.

20- عن المهدية انظر: أحمد أمين، المهدي والمهدوية، القاهرة- محمد سعد، المهدية في الإسلام،

القاهرة، محمد بدير متولي، من أدب الحركات الفكرية في الإسلام- احسان النص، الخطابة السياسية في العصر الأموي- علي الوردي، وعاظ السلاطين- الشيبي، الصلة بين التصوف والتشيع- علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام.

21- تصف روايات عديدة معاوية بن أبي سفيان «بالمهدي» . . . انظر أبن العربي، العواصم في القواصم. 1387 جدة ص، 204-208.

22- ادب الشيعة، ص 110-118 - علي الخربوطلي، المهدي العباسي، ص 1-11 أحمد أمين، المهدية ص، 45 فما بعد- كامل الشيبي، الصلة بين التصوف والتشيع ص 110 - علي الوردي وعاظ - السلاطين ص، 387.

23- ابن الاثير، النهاية في غريب الحديث، 1311ج4 ص، 244 - ابن منظور لسان العرب بيروت 1955 (مادة المهدي) ج، 3ص 315.

24- ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، ج2: ص180 الدكتور عرفان عبدالحميد، دراسات في العقائد والفرق ص 23-31.

25- أحمد أمين المهدية، ص 6 سعد، المهدية، ص 48 - دونالدسون عقيدة الشيعة ص، 231- الشيبي، الصلة، ص 110 الوردي، وعاظ السلاطين، 387، ادب الشيعة، ص 113.

26- الاصفهان، الاغاني، ج12ص، 85.

27- الاصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص، 166.

28- Op. cit، ص 171 - انظر كذلك الجهشياري، الوزراء، ص 127، «حين اراد المنصور أن يحاسب كاتب المهدي إلى عبيد الله قال له المهدي انك ترشحن لهذا لأمر وتروي انني المهدي ثم تكشف كاتبي عما جريته على ثم تكشف كاتبي عما اجريته على يده ونفذه بأمري، فلعلك تنكر شيئا فيقول الناس أنه كشف عن خيانة» جهشياري، ص 127.

29- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ا ص، 92.

30- يقول أحمد أمين أن الاحاديث عن المهدي موضوعة بدليل اغفال البخاري ومسلم لها وانما ذكرها الترمذي وابن ماجة وابو داود وغيرهم أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج 3ص، 237.

31- الطبري، ج3 ص، 338-341.

32- الجاحظ، رسائل ص، 77- الاصفهاني، الاغاني، ج3، ص94 - اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، ص 55-56.

33- الازدي، تاريخ الموصل، ص 214.

34- الاشعار كثيرة حق محمد المهدي. فقد قال الشاعر بشار بن برد:

الله اصلح بالمهدي فاسدنا سرنا إليه وكان الناس قد فسدوا

ويقول :

ياأيها القائم المهدي ملككمو   لا يشركنكمو في حلوه احد

34- ديوان بشار ج ، 2 ، ص 286 فما بعد اشعار اخرى البشار .

35- الاصفهاني ، الاغاني ، ج 3ص ، 94-95 قصيدة لبشار .

36- Op. Cit. ج ، 3ص ، 143 قصيدة لابي العتاهيه .

37- ديوان بشار ج ، 1ص 330 وهجا بشار بن برد المهدي العلوي محمد النفس الزكية وسماه الدعي فقال :

إن الدعى يعادينا لنلحمه   بالمدعين ويلقانا بالحاد

(ديوان بشار ص 300)

38- ولكن بشار هذا نفسه نقل ولاءه إلى النفس الزكية بعدئذ وهجا المنصور فقال :

أبا جعفر ما طول عيش بدائم   ولا سالم عما قليل بسالم

على الملك الجبار يقتحم الردى   ويصرعه في المآزق المتلاحم .

ولما خاف من بطش المنصور بعد فشل ثورة النفس الزكية غير اسم «ابا جعفر» في القصيدة إلى «أبا مسلم» وغير اسم «سلامة» أم المنصور إلى «وشيكة» أم أبي مسلم .

39- Op. cit. ، ج 21 ص ، 125 .

40- أحمد فريد رفاعي ، عصر المأمون ، ص 294 .

41- العاملي ، اعيان الشيعة ، ج 12 ص ، 178 – اما أبو نؤاس فالظاهر أن الفكرة لم تكن تعجبه فقد قال :

وعلامات ستأتي قبله حمة   أولها سكر النهر

وقال :

فاتبعوه حيثما صار بكم   أيها الناس وأن طال السفر

(البيان والتبيين ، ج 2 ص ، 228) .

42- أحمد أمين ضحى الإسلام ، ج 2ص ، 125 .

43- المقريزي ، خطط ، ج 2 ص ، 15 .

44- اليعقوبي ، مشاكلة الناس ص ، 55-56 – أما القلقشندي فيقول عنه «إنه كان عادلا في خلافته حتى يقال أنه في بني العباس كعمر بن عبدالعزيز في بني أمية» . . . مآثر الاناقة ص ، 185 .

45- المسعودي ، التنبيه والاشراف ص ، 242 .

46- الثعالبي ، كاشف المعارف ، ص 72 ، اتخذ الفاطميون القابا ذات صفة مهدوية تنبئيه وكان أول خلفائهم يلقب بالمهدي .

47- الطبري، القاسم الثالث، 557 - الجهشياري، 155 F. Omar, op, cit, pp. 248-252

48- خليفة بن ضباط، تاريخ، 320 فما بعد- مجهول، تاريخ سسيتان، ص 196 فما بعد- ابن الاثير، الكامل، ج5ص، 470 F. Omar. op., pp. 301-306 Sadigli, op. cit., p.80 .

49-انظر: I. Friedlander, "Abdallah b. Saba;Z.A., 23, 1909, pp. 296 ff

50- النوبختي، فرق الشيعة، ص 20-28 - الاشعري، مقالات الإسلاميين، ج I ص، 18-23- البغدادي، الفرق بين الفرق، ص27-38- بان حزم، الفصل الملل والنحل، ج I، ص 44، 52-53,58, 77- الشهر ستاني، الملل ولنحل، 109-155 .

51- انظر: فاروق عمر، الخلافة العباسية (بالإنجليزية)، ص 192-199 .

52- عن هذه الفرق انظر: ولهاوزن، الخوارج والشيعة، القاهرة 1958، مترجم، ص 146 وما يليها- موسكتي، تاريخ الشيعه الأوائل، مجلة R.S.O، 1955، ص 251 وما بعدها (بالايطالية).

53- صديقي، الحركات الدينية السياسية، ص 164 وما يليها.

54- النرشخي، تاريخ بخاري، ص 63، ابن الاثير، ج6، ص 25. - الفخري، ص 213.

55- اليعقوبي، II ص، 478- Idem كتاب البلدان، 303-304- الطبري III، 459 ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 2، ص 38.

56- النرشخي، تاريخ بخاري، ص 63 ومايليها- البيروني كتاب الاثار الباقية، ص 211- الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص 28- البغدادي، الفرق بين الفرق، ص243- الاسفرايني، كتاب التنبيه، ص82 - الشهرستاني، الملل والنحل، ص115- المقريزي، الخطط، II، ص 354 - حمدالله مستوفي قزويني، تاريخي كزيدة، ص 298- Idem، نزهة القلوب، ليدن، ص 153.

57- اليعقوبي، II، ص 478- Idem، البلدان، 303-304- الطبري، III، ص 470-484 - ابن الاثير، الكامل، ج 6، ص 25-26 ,34-35.

58- الجاحظ، البيان، ص 70- ابن خلكان، وفيات، II، ص 136-137.

59- اليعقوبي، II478 - النرشخي، ص 63 وما يليها.

60- الطبري، III، ص، 484- ابن الاثير، ج 6، ص 25 وما بعدها. ابن خلكان، II، ص 136.

61- القزويني، تاريخي گزيدة، ص 312 - نظام الملك، سياسة نامه، ص 198 وما بعدها- Moscati, Studi Storicl..., pp.333f.

62- وهي تسمية غير صحيحة لان المقنع لم يدع النبوة بل ادعى الالوهية ولذلك فالاصح ان تسمية

المصادر بالالة المقنع .

63- البغدادي ، الفرق ، 243 - ابن حزم (ترجمة وتعليق فريد لاندر) ص ، 36 ، ص 120 وما بعد- الشهر ستاني ، ج1 ، ص 132,115 .

64- انظر عبدالعزيز الدوري ، ص 116 - حسن إبراهيم حسن ، ج 2 ، ص106 - الليثي ، ص 126-127 - أحمد العدوي ، المجتمع العربي ومناهضة الشعوبية ، ص111 .

65- القزويني ، اثار البلاد ، وستنفلد ، ص 312 .

66- النرشخي ، ص 63-74 .

67- تاريخي الفي ، ص 259- موسكتي ، المصدر السابق ، ص 336 .

68- الشهرستاني ، ج اص ، 115-132 .

69- البغدادي ، ص 243 .

70- البيروني ، ص 211- الشهرستاني ، ص 87 ، ص 147- الفهرست ، ص479 وما يليها .

71- البغدادي ، ص 244 .

72- ابن خلكان ، وفيات ، ج 2 ، ص136-137 .

73- الدوري ، المصدر السابق ، ص 117 - الليثي ، 126-127 - حسن إبراهيم حسن ، ج2 ، ص 106- أحمد شلبي ، التاريخي الإسلامي ، ج ، 3 ، ص 192 - حسن محمود ، العالم الإسلامي في العصر العباسي ، ص 81 - محمد حلمي أحمد ، الخلافة والدولة ، ص 72 - صديفي ، ص 162 وما يليها- براون ، تاريخ الأدب الفارسي (الإنجليزي) ، ج1 ، ص 318- برنارد لويس ، اصول الإسماعيلية ، (الإنجليزية) ، ص7 - موسكتي ، المصدر السابق ، ص 345 - انظر كذلك بارتولد ، تركستان ، ص 199-200 .

74- النرشخي ، ص 63-74 - الطبري ، III ، ص 484-494 - العيون والحدائق ، ص 273- البغدادي ، ص 243- الشهرستاني ، ج1 ، ص155-132 - النوبختي ، فرق الشيعة ، 28-41 ابن الاثير ، ج 6ص ، 25-26 ، ص 34- ابن الطقطقي ، الفخري ، ص244- 245 .

75- صديقي ، المصدر السابق ، ص 181 .

76- الشهرستاني ، ج اص ، 206 - يسمى يعقوبفسكي حركة المقنع بحركة اصحاب الثياب البيضاء ، انظر حركة المقنع S. I. pp. 35 .

77- البيروني ، 211 - ابن الاثير ج ، 6 ، ص13 - البغدادي ، ص 257 .

78- النرشخي ، ص 63-74 - ابن الاثير ، ج 6 ، ص 25 ، ص 34-35 .

79- انظر : Sadighi, op.,p. 174

F. Omar, The Abbasid Caliphate, pp. 301-303

80- الطبري، III، ص 476، ابن الاثير، ج 6، ص 31، قارن يعقوبي، البلدان، ص 303حيث لا يذكر أبا عون أو ابنه ولاة على خراسان.

81- النرشخي، ص 74 - البيروني، 211 - البغدادي، ص 245 - انظر صديقي، ص 178- الدوري، العصر العباسي الأول، ص 118- G. Weil, Geschichte der Calif. II,103

82- الفرق بين الفرق، ص 259 - المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 323- البروني، ص 211- ابن العبري (بارهيبروس)، مختصر تاريخ الدول، ص 218.

83- ابن النديم، الفهرست، ج1، ص342 - يعقوبي، II، ص 479 - قارن المقدسي، البدء والتاريخ (الترجمة)، ج6، ص 96- موسكتي، المصدر السابق، ص 345.

84- ابن النديم، المصدر السابق، ابن الاثير، ج 6، ص 39 - الدينوري، الاخبار الطوال، ص 382- الطبري، III، 493- براون، تاريخ الادب الفارسي، (الإنجليزية)، ج1، ص 310- 313.

85- Sadighi, op. cit., p. 226.

86- E. Wright, Baba k and al-Afshin, M.W., 1948,p 43-4

87- انظر: F. Omar, op. cit., pp. 330-34

R. Vasmer, Die Eroberung Tabarististan, ZDMG., 1899.

88- الطبري، ج 3، ص 136- ابن الاثير، ج 5، ص387.

89- ابن اصفنديار، ص 118.

90- المصدر السابق، ص 119-122، الطبري، ج3، ص 136 وما يليها.

91- كان أبو الخصيب أو وال مسلم يبني المساجد في طبرستان، (الطبري، ج 3، ص136 وما يليها).

92- ابن اصفنديار، ص 122 وما يليها- ابن الاثير، ج 6، ص50 - الدينوري، ص 382- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 2ص، 50- ابن خلدون، العبر، ج 3، ص 212.

93- Moscati, op. cit., pp. 347. ff

F. Omar, op. cit., p. 333

Vasmer. op. cit., 88-89

94- ابن اصفنديار، ص 131-132 - الطبري، ج 3، ص، 551.

95- الطبري، ج 3، ص 1311 - من أراد التوسع في الديانات الفارسية القديمة فليراجع براون، وكريستنسن وفري، على أننا نقول بإن المجوسية تشمل الديانات الثنوية الثلاث الزرادشتية

والمانوية المزدكية. الأولى نسبة إلى زرادشت الذي مات نحو سنة 583 ق.م. وكتب كتابا يسمى آفستا وشرحه يسمى (الزندافست). والاصل في تعاليمه أن هناك قوتين تحكمان العالم اله الخير أهورا واله الشر اهرفمن. والنصر للخير دائما. اما المانوية فنسبة إلى ماني الذي عاش في النصف الأول من القرن الثالث الميلادي، ومذهبة ثنوي ولكنه متشقف زاهد.

أما المزدكيه فنسبة إلى مزدك الذي دعى إلى مذهبة في فارس سنة 487 م. وكانت مغزى تعاليمه تدعو إلى الاشتراكية حيث أنه لاحظ بأن أكثر ما يقع من خلاف بسبب النساء والأموال فأحل النساء وأباح الأموال للجميع. وقد أعلن قباذ المزدكية ديانة رسمية للدولة لفترة من الزمن، أن هذه المذاهب الفارسية أثرت على بعض الفرق الإسلامية فانبرى الفقهاء والمتكلمون يحاولون الدفاع عن الإسلام تخليصه من الافكار الغريبة عنه.

96- المسعودي، مروج الذهب، ج 2ص، 168.

97- الطبري، تاريخ، ج 6 ص، 289 قاهرة.

98- ابن قتيبة، المعارف، دار الكتب 1960ص، 621.

98- أ- الجاحظ.

99- راجع: الدكتور فاروق عمر، حول زندقة بشار بن برد، مجلة المورد، العدد الخامس1976- وعلى هذا النهج يروي الاصفهاني أن حميد بن ابي داود في بعض مذهبه اغرى المعتصم بانه «شعوبي وزنديق» الاغاني ج، 1 ص، 17، سميرة الليثي، الزندقة والشعوبية، القاهرة 1968، ص 24.

100- ابن النديم، الفهرست، ص 334 فما بعد- الخياط، الانتصار ص، 35.

101- أمالي السيد المرتضى نقلا عن الصولي، ج 1 ص، 127 -الثعالبي، ثمار القلوب، ص 128.

102- امالي السيد المرتضى، ج 1ص، 127- ياقوت، معجم البلدان (مادة بغداد).

-103 موفق الدين بن قدامة المقدسي: كتاب تحريم النظر في كتب أهل الكلام، ليدن ص، 7.

104- التوحيدي، الامتاع والمؤانسة، ج 1ص، 142.

105- المعري، رسالة الغفران، ص 429- ابن الجوري، تلبيس ابليس، ص 20- عبدالله الخطيب، صالح بن عبدالقدوس، بغداد، 1967، ص 44.

106- ابن منظور، لسان العرب، بيروت 1955-1956.

107- تشير بعض المصادر التي دونت بالسريانية أن بعض من اضطهد من النصارى في الفترة العباسية الأولى اتهم بالزندقة، ولكن هذه صورة مبالغ فيها ذلك لإن يزداد بخت المانوي كتب كتابا ضد العرب فرد عليه جبريل بن نوح النصراني.

108-عن هذا الموضوع راجع فاروق عمر حول زندقة بشار بن برد مجلة المورد 1976 .

109- فيدا ، الزندقة في الإسلام . . . مجلة 1938 ، ص 173-229 .

110- ماسينيون ، (زنديق) دائرة المعارف الإسلامية .

111- عبدالرحمن بدوي ، من تاريخ الالحاد في الإسلام ، ص 26 فما بعد .

112- العباسيون الأوائل ، ج 2 (فصل السياسة الدينية) .

113- صديقي ، المصدر السابق ، ص 84 .

114- المصدر السابق 84 ,85 .

115- كرستنسن ، إيران في عهد الساسانين ، ص 20 . - صديقي ، الحركات الدينية الإيرانية في القرن الثاني والثالث الهجريين ، باريس ، 1924 ، ص 85 .

116- نفس المصدر .

117- الخياط ، الانتصار . . . ، ص2 ص173 ، ج6 ص 64 .

118- المرتضى ، المعتزلة ، ج1ص ، 98 .

119- راجع د . فاروق عمر العباسيون الأوائل الجزء الثاني ، ص 158 .

120- حول مصادر هذا الموضوع راجع : كتابنا العباسيون الأوائل الجزء الثاني ، دمشق ص 104 فما بعد .

121- انظر : فاروق عمر ، التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين : بغداد 1985 .

الفصل الخامس

عهد موسى الهادي 169هـ/ 785م - 170هـ/ 786م

بيعته:

توفي الخليفة المهدي في 22 محرم 169هـ/ 4آب 785م في طريقه إلى جرجان للالتحاق بأبنه موسى (الهادي) الذي كان يخوض حرباً ضد أمراء جرجان المناهضين للدولة. ولم تكن ثورة جرجان السبب وراء سفر الخليفة بل كان السبب الرئيس هو اقناع ابنه الأكبر موسى بالتخلي عن ولاية العهد الأولى إلى اخيه هارون. وكانت الخيزران أم الاميرين موسى وهارون وراء هذه المحاولة.

وبموت الخليفة المفاجئ أعلن هارون البيعة لاخيه موسى الهادي خليفة للمسلمين وارسلت إليه شارات الخلافة بيد نصير الوصيف. وفتح الجند المصاحبون للخليفة المتوفى عطاء إضافياً مع تعليمات مشددة بالعودة إلى بغداد بمعية هارون وعلي البرمكي. وفي بغداد عقدت الخيزران زوجة المهدي اجتماعا ضم الربيع بين يونس نائب الخليفة المهدي ويحيى البرمكي لبحث الموقف. ورغم أن يحيى البرمكي اعتذر عن الحضور، فقد تقرر في الاجتماع اعطاء الجند راتب سنتين تجنبا لشغبهم بعد سماعهم بموت الخليفة، كما تقرر في الاجتماع اعلام الولايات بموت المهدي والبيعة للهادي خليفة ولهارون ولياً للعهد. وبهذا تكون الحالة قد استقرت حين وصل الخليفة الجديد موسى الهادي إلى بغداد واختار الربيع بن يونس وزيراً له. وجعل مقره في ضاحية عيساباد في بغداد[1].

سياسة الهادي الداخلية:

تشير المصادر التاريخية إلى شخصية الهادي المتسمة بالشجاعة والكرم وحب العدل ومنذ البدء أوضح الهادي بجلاء أنه ينوي أن يحكم بنفسه دون وسيط أو تدخل من قبل الحريم (وخاصة الخيزران) أو مراكز القوى السياسية.

الخليفة موسى الهادي والعلويون

حركة الحسين بن علي الحسني:

كانت سياسة الخليفة العباسي الرابع الهادي (169هـ/ 785م - 170هـ/ 786م) تتسم بالشدة تجاه العلويين حيث أمر بايقاف العطاء عنهم، وحين وصلت الحالة إلى درجة من التأزم بسبب غضب الوالي العباسي تقدم انصار العلوية إلى الحسين بن علي الذي كان أكبر العلويين سنا وأكثرهم قدرة على زعامة الحركة الثورية وحثوه على الثورة[2].

على أن الثورة العلوية هذه لم تكن اعتباطية وفجائية كما يحاول بعض المؤرخين المحدثين اظهارها بل تؤكد روايات اليعقوبي والطبري[3] على أنها سبق أن اعد لها. ويقول الاصفهاني[4] بأن أعداداً من انصار العلوية وصلوا إلى الحجاز وقت الحج وبقوا في بيت ابن الافلح وزاروا الحسين بن علي عدة مرات مما أثار شكوك الوالي العباسي.

وحين عين عمر بن عبدالله العمري والياً على المدينة سنة 169هـ/ 785م اتبع اجراءات عنيفة ومشددة ضد العلويين وأمر كلاً منهم أن يكون كفيلاً على الاخر حتى أن هذا الاجراء شمل الحسين بن علي شيخهم وكبيرهم. وقد حاول الخليفة الهادي أن يتدخل في زواج علي بن الحسين من رقية بنت عمر وهي أرملة المهدي. ولكن علياً لم يكترث لأوامر الخليفة قائلاً بأن ليس في الإسلام ما يمنع من الزواج بأرملة أي شخص وتزوجها فعلاً. أما وجهة نظر الهادي فتقول بأن زوجة الخليفة المتوفي يجب إلا تخطب حرمة للخليفة نفسه.

وقد حدث أن سجن الوالي العباسي عدداً من العلويين من بينهم الحسن بن محمد متهما إياهم بشر ب الخمرة وهي تهمة يصعب اثباتها. ومن الطبيعي أن ينفي الاصفهاني واليعقوبي وابن الطقطقي[5] هذه التهمة بسبب ميولهم العلوية المعتدلة ويصفوا التهمة بأن المتهمين كانوا قد شربوا نوعا من النبيذ ذلك لأن الحسين قال للعمري بأن ليس من حقه أن يضرب المتهمين بالسياط لأن الفقهاء العراقيين سمحوا بشرب النبيذ. وقد اطلق سراح الحسن بن محمد بشرط أن يثبت وجوده كل يوم لدى السلطات العباسية وأن يكفله الحسين بن علي ويحيى ابن عبدالله المحض.

إن المعاملة السيئة التي عاناها العلويون في المدينة اثارت الشيعة العلوية هناك حتى أن الحسين بن علي اضطر في عهد المهدي أن يذهب إلى بغداد ليتوسط لدى الخليفة لبعض العلويين المسجونين. كل ذلك دفع الحسين للاعداد للثورة في موسم الحج. وقد اتصل بالشيعة العلوية في الكوفة الذين جاءوا بزعم اداء فريضة الحج. وقد امتنع في تلك الفترة الحسن بن محمد من اثبات موجوديته لدى السلطات العباسية لمدة ثلاثة أيام ولذلك دعا والي المدينة الكفيل لاظهاره.

وقد تبادل علي بن الحسين والوالي عبارات السخرية والغضب مما ادى إلى انفعال الحسين وتعجيله في الثورة. إن هذا التعجيل ربما ساعد على فشل الثورة.

لم يكن للثورة عضد قوي من قبل سكان المدينة، ذلك أن اتباع الحسين كانوا يشتملون على (الـ 16 علوياً الذين انضموا إليه، وكذلك الشيعة العلوية من أهل الكوفة وخاصة الزيدية الذين كانوا يتدفقوا على مكة ذلك لأن الثورة كان مقرراً لها أن تحدث في موسم الحج. ولم يكن اتباع الحسين كثيري العدد حيث يقدرهم اليعقوبي بأقل من 500 شخص بينما يقدرهم الاصفهاني بـ 300 شخص وربما كان عددهم أقل من ذلك العدد (ذلك لإن من شروط الإمام الشرعي في نظر الزيدية ألا يقل عدد اتباعه عن 300شخص).

أما الشيعة العباسية فكان عدد كبير منهم في مكة لاداء فريضة الحج بقيادة سليمان بن أبي جعفر وكانوا مسلحين كما أنهم جلبوا مع قافلة الحج كتيبة من الجند

لحمايتهم من اللصوص وهجمات البدو. كماأن الهادي حال سماعه بنبأ الثورة ارسل محمد بن سليمان ليأخذ زمام القيادة ويقضي على الثورة. ويقدر المسعودي الشيعة العباسية بنحو 4,000 شخص.

أعلن الحسين حركته في المدينة داعيا إلى المرتضى من آل محمد أو الرضا من آل محمد. وهرب والي المدينة ولكن اتباع العباسيين تجمعوا حول خالد البربري وهاجموا المسجد حيث تحصن فيه الثوار العلويون ولكن خالد البربري قتل وتفرق اتباعه. ولكن الحسين لم يجد تجاوباً من أهل المدينة ولذلك قرر الذهاب إلى مكة حيث أن أتباعه لا يزالون يتقاطرون. ولكن أهل مكة لم يتجاوبوا مع الثورة ولذلك اعلن الحسين بأن أي عبد ينضم إليه يكون حراً وقد اثار هذا الاجراء أهالي مكة الاشراف المتنفذين حيث قالوا له (عمدت إلى مماليك لم تملكهم فاعتقتهم. بم تستحل ذلك؟) مما اضطره إلى اعادة بعض العبيد إلى مواليهم.

والتقى العباسيون بالحسين بن علي في يوم التروية 8 ذي الحجة المصادف 11حزيران في وادي فخ. وقد قتل الحسين بن علي مع مئة من اتباعه في مجزرة دموية. وهرب الباقون واختلطوا بالحجاج. وقد أعلن محمد بن سليمان الامان ولم يتعقبوا الهاربين.

وكان من بين الهاربين يحيى بن عبدالله المحض وأخوه ادريس. وقد هرب الأول إلى الديلم حيث ثار هناك في عهد الرشيد 176 هـ/ 792-788م، بينما هرب الثاني إلى المغرب حيث شكل دولة الأدراسة سنة 172هـ/ 793م. ورغم الامان فقد قتل بعض العلويين بعد اسرهم غدراً. ومن هؤلاء الحسن بن محمد الذي كان احد عوامل الثورة سلم نفسه إلى العباسيين باختياره واثقاً بالامان ولكنه قتل بأمر من موسى بن عيسى. ولكن محمد بن سليمان القائد العام وكذلك الخليفة غضبا لما سمعا بقتل الحسن بن محمد بعد أستسلامه. وأمر الهادي بمصادرة املاك موسى بن عيسى عقاباً له(6).

ويؤكد بعض المؤرخين عدم ميل الهادي إلى قتل العلويين ولعل ذلك صحيحا

إلى حد ما، ولكن الخليفة لم يتردد في معاملة الشيعة العلوية بشدة وعنف حيث اصبحوا هدفاً للتعذيب والملاحقة في الكوفة والمدينة. وقد قاست من اجراءات مشددة من قبل الوالي العباسي.

ورغم التعهد الذي اعطاه قائد الجيش العباسي للاسرى باطلاق سراحهم حسب شروط الامان فإن عددا منهم اعدم وعلق على باب الجسر في بغداد.

كما أن الهادي اهان مولاه مبارك التركي وانقص من مرتبته وصادر املاكه لما سمع بأنه كان قد تردد في قتال الحسين بن علي في مكة. ومع ذلك فقد عد المؤرخون معركة (فخ) مشابهة في نتائجها المأساوية معركة كربلاء.

الهادي وحركة الخوارج في الجزيرة الفراتية

تحرك حمزة بن مالك الخزاعي في الجزيرة الفراتية وهزم الجيش العباسي الذي أرسل ضده من الموصل. ولكن حمزة الخزاعي مالبث (أن اغتيل فجأة من قبل شخصين ادعيا انهما من اتباعه)[7].

مصر تشهد حركة موالية للأمويين:

ثار الأمير الأموي دحيه بن الأصبغ بن عبدالعزيز بن مروان في صعيد مصر واعلن نفسه خليفة. ولم تتمكن قوات الولاة العباسيين المتتابعين من القضاء على حركته، مما اضطر السلطة المركزية لارسال الفضل بن صالح مع قوة عسكرية لمجابهته. وبعد معارك عديدة وقع دحيه المرواني في الاسر وارسل إلى الفسطاط حيث قتل[8].

انتفاضة في أرمينيا:

وقد حدثت اضطرابات في ارمينيا سنة 169هـ/ 785 م وادت إلى اجراءات شديدة اتخذها الوالي العباسي، وقد سجن ثلاثة من الأمراء الأرمن حيث قتل في السجن اثنان منهم أما الثالث فتشير رواية تاريخية إنه اعتنق الإسلام[9].

وقد أشرنا سابقاً إلى اجراءات الهادي تجاه الزنادقة، كما أتهم بعض المسيحيين بنشر كتب تحتوي تعاليم زندقية، والقي القبض على مسيحيين على الحدود الإسلامية- البيزنيطية اتهموا بالتعاون مع الروم (البيزنطيين)[10].

وكالعادة أستمرت عمليات الجهاد (الصوافي والشواتي) ضد الروم دون أية مكاسب مادية أو امتداد لرقعة الدولة الإسلامية[11].

ولاية العهد[12]:

قرر الهادي اتباع الأسلوب نفسه الذي سار عليه ابوه المهدي في نقض ولاية العهد الشرعية لصالح ابنه. لقد اراد الهادي أن يسلب اخاه هارون من ولاية العهد الشرعية ويعطيها إلى ابنه جعفر دون أي اعتبار للعهد أو للعمر حيث كان جعفر دون السن الشرعي للولاية.

لقد ساند القرار عدد من قادة الجيش بينهم يزيد بن مزيد الشيباني وعبدالله بن مالك وعلي بن عيسى بن ماهان، ولم يبق موالياً لهارون سوى يحيى بن خالد البرمكي تسانده الخيزران وكتلتها. إن موقف يحيى البرمكي اثار الخليفة ودفعه إلى الأمر باعتقاله، ولكن يحيى البرمكي نجح في مقابلة الخليفة واظهر ولاءه له مبديا تخوفه من النتائج السلبية الخطيرة التي قد بسببها نقض البيعة الشرعية بهذه السرعة ولم تنقض مدة طويلة على اعلانها. كما اشار البرمكي إلى صغر سن الأمير جعفر متعهداً للخليفة بأن هارون سيترك ولاية العهد لاحقاً وبعد بلوغ جعفر سن الرشد. وبعكسه فإن الرعية لاترضى بجعفر وهو دون سن الرشد خليفة في حالة موت الهادي.

ومع أن الخليفة اقتنع بمنطق يحيى البرمكي بداية، ولكنه عاد فطالب بتنازل هارون عن ولاية العهد وحاول هارون بتحريض من يحيى البرمكي الابتعاد عن العاصمة بغداد ولكنه اعيد إليها واعتقل مع يحيى البرمكي.

إلا إن الذي حدث بعد ذلك يكتنفه الغموض، فقد سافر الخليفة في رحلة إلى

الموصل حيث مرض واضطر إلى العودة إلى بغداد حيث مات بصورة غريبة ومفاجئة.
إن العديد من الروايات التاريخية تشير إلى دور الخيزران في القوى والتكتلات في دار الخلافة، لقد صمم الخليفة على التخلص من هارون ويحيى البرمكي وفي الليلة ذاتها كانت الخيزران تحيك مؤامرة لاغتياله، حيث نجحت في تدبيرها. وبدلا من ان يقتل القائد هرثمة بن اعين هارون ويحيى تنفيذاً لتعلميات الخليفة تلقى أمراً من الخيزران باطلاق سراحهما فوراً لان الخليفة قد مات وقد تم ذلك فعلاً. اما القائد خزيمة بن خازم التميمي فقد ذهب إلى دار جعفر بن الهادي واجبره على التنازل عن ولاية العهد لعمه هارون وقد اعلن ذلك بصورة علنية في اليوم التالي.

إن الروايات التاريخية والعلاقات المتوترة بين الخيزران وابنها الأكبر موسى الهادي منذ عهد هارون الرشيد وفي عهد الهادي القصير كلها تشير إلى دور الخيزران في الموت المفاجئ وغير الطبيعي للخليفة الذي لم يبلغ من العمر سوى ست وعشرين سنة ولم يبق في الخلافة سوى أربعة عشر شهراً، وقد صلى هارون الخليفة الجديد على اخيه المتوفي الهادي الذي دفن في ضاحية عيساباذ حيث كان دوما يحب أن يكون.

ومأأن شعر هارون الرشيد بالحرية وتقلد الخلافة حتى عين يحيى البرمكي وزيراً وقام يحيى مباشرة بارسال الكتب إلى الولايات لتجديد البيعة للرشيد واعلانه خليفة للمسلمين.

هوامش الفصل الخامس

1-الطبري، تاريخ، القسم الثالث، ليدن، ص 492-500.

2- المصدر السابق، ص 551-568.

3- اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص488–ا لطبري، تاريخ496.

4- الاصفهاني، مقاتل، ص 150فما بعد MOSCATI. LA CALIFAT... S.O. 1946. P. 10.

5- ابن الطقطقي، الفخري، تحقيق 1905، ص 260.

6- الطبري، تاريخ، 499– المسعودي، مروج الذهب، ج2ص 67.

7- ابن الاثير، الكامل في التاريخ، تحيقيق تورنبرك، ج6، ص64.

8- اليعقوبي، تاريخ، ج 2، 489 – ابن تغري يردي، النجوم الزاهرة، ج 2 ص 60فما بعد المقريزي، الخطط، ج 1 ص 308– الكندي، الولاة، ليدن 1912، ص 129 فما بعد.

Ghevond. Histore des quennes.... Thad.. Pavis. 1856 Moscati. op. -9 cit. p. 16 ff.

Moscati. op. cit. -10

Brooks. Byzantines and Arabs.... E.H.R. . 1900 -11

12- الطبري، تاريخ، القسم الثالث، 571- 579، 599 فما بعد– اليعقوبي، تاريخ، ج2، ص 489 كتاب العيون والحدائق، 285 فما بعد– ابن الطقطقي الفخري، 258– الاصفهاني، الاغاني، ج 4، ص16.

الفصل السادس

(العصر الذهبي) للدولة العباسية

حين بدأ عهد المهدي تنفس الناس الصعداء بعد حزم المنصور وشدته، فقد أمن الخائف وانصف المظلوم وبسط يده في العطاء، إلا أن المهدي لايستوي مع المنصور في الكفاءة الإدارية والدهاء السياسي. وقد ظهرت نتائج ذلك في العصر الذي تلاه والذي اصطلح على تسميته (بالعصر الذهبي) وهو عصر هارون الرشيد وبنيه من بعده.

إن: «العصر الذهبي» بكل ما فيه من مظاهر الحضارة ودلالات الازدهار يعد منعطفاً في تاريخ الخلافة العباسية تتمثل فيه بدايات الانحلال الإداري والتفكك السياسي[1].

إن المنعطف الجديد يتصف بما يأتي:

من الناحية الإدارية فوض الرشيد أمور البلاد منذ سنة 170هـ حتى 187هـ للبرامكة حيث يشير الطبري إلى قول الرشيد ليحيى البرمكي «... قد قلدتك أمر الرعية واخرجته من عنقي فاحكم بما ترى»[2] ورغم أن هذا القول يمكن أن يكون من صنع صنائع البرامكة موضوعاً على لسان الرشيد، فالواقع أن البرامكة كانت لهم اليد الطولى في السياسة والإدارة نحو عقدين من الزمان.

ولم يكن الرشيد موفقا دائما في اختياره أو مراقبته للعمال ولعل ذلك ظاهرا في علاقاته بولاة الاقاليم حيث لم يكن موفقا في قضية علي بن عيسى بن ماهان والي خراسان الذي عاث بهذه الولاية واخذ أموال الناس واستخف بالرجال[3]. وكان حماد البربري والي الرشيد على اليمن شديد الجور على أهلها الذين لم يهدأوا حتى عزل.

وقد اتخذ الرشيد جملة من التدابير الإدارية تعتبر بدعة في التاريخ الإداري للدولة العربية الإسلامية فلم تكن الكتب الصادرة من ديوان الخراج تصدر إلا بتوقيع الخليفة فخص يحيى البرمكي بهذا الاجراء. واشرك الرشيد جعفر البرمكي في النظر في المظالم[4]. كما تنازل عن واجبه في مراقبة عيار العملة النقدية وقلدها لجعفر البرمكي الذي ضرب اسمه على الدنانير والدراهم في بغداد والمحمدية. ويعلق المقريزي بخصوص اشراف جعفر البرمكي على دور الضرب قائلا: «إذ هو شيء لم يتشرف به احد قبله»[5]. ولا شك فان هذه الاجراءات تدل على تقاعس الخليفة عن أداء واجبات من صميم مسؤولياته المباشرة.

وتفاقمت الاضطرابات في المشرق الإسلامي بحركة رافع بن الليث ولم يستطع الرشيد أن يجد حلا لها. بل أن تكتلات البلاط عقدت المشاكل أكثر بحيث ضاعت المسؤولية بين الآراء المتضاربة والمصالح المتنازعة. اما في المغرب الإسلامي فقد نجح إدريس بن عبدالله الحسني في اقامة كيان مستقل في مراكش سنة 172هـ 788م، وازاء هذا الوضع المتأزم وبسبب القلاقل في افريقيا (تونس وشرقي الجزائر) اضطر الرشيد أن يعترف بالاغالبة أمراء مستقلين مقابل دفع 40 الف دينار لبيت المال. إن هذا الوضع إن دل على شيء فإنما يدل على اعتراف الرشيد بالتفكك السياسي والانحلال الإداري في الخلافة العباسية.

ويعتبر الخليفة الرشيد مسؤولا عن التفكك السياسي حين قرر تقسيم اقاليم الخلافة بين ابنائه الثلاثة الأمين والمأمون والمؤتمن. إن تولية العهد لأكثر من واحد وتقسيم الخلافة ادى إلى الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون تلك الحرب التي ضيعت الأموال والأرواح وافقدت الخلافة هيبتها ونشرت الفوضى في البلاد. وربما كان الرشيد في ما قام به مدفوعاً برغبته في أن يحكم ابناؤه من بعده. أي أن يستمر الحكم في يد العباسيين من نسله، وكذلك لتأكيد السلطة العباسية على كل الاقاليم إلا أنه من الصعوبة القول بإن هذا الحل الذي ابتدعه الرشيد كان حلا صحيحاً.

إن الرشيد بعث روحاً جديدة في الحرب الإسلامية- البيزنطية ولكن الذي يؤخذ عليه هو عدم السير على خطة منظمة في عملياته الحربية وعدم متابعته الضغط على

الروم واستغلاله مشاكلهم الداخلية لتأكيد تفوقه العسكري وتحسين حدود الخلافة البرية والبحرية بل أنه كان يجنح للسلم حالما يطلب الامبراطور الصلح، ولهذا ورغم أن الجهاد كان من مآثر عصر الرشيد البارزة فإن الحدود لم تتغير في صالح المسلمين.

ومع أن عهد المهدي شهد بدايات بروز التكتلات في البلاط، فقد زادت حدة هذه التكتلات في بلاط الرشيد فقد كان للبرامكة اتباعهم ومواليهم وكان للفضل بن الربيع ويزيد الشيباني اتباع وموال وكان لعلي بن عيسى بن ماهان انصاره. وكان لابد أن يحدث صراع على النفوذ والسلطة لعبت فيه الخيزران وزبيدة دوراً كبيراً فقد استعان البرامكة بالخيزران التي كانت «هي الناظرة في الأمور وكان يحيى يعرض عليها ويصدر عن أمرها»[6]. إن ذلك يظهر لنا أثر التكتلات في سياسة الرشيد وبوادر تأثير الحرم في سياسة الدولة العباسية. ويبدو أن خروج الرشيد من عاصمته بغداد بين حين وآخر إلى الرقة يدل على تضايقه من الجو المتأزم في بلاطه في بغداد[7].

ومن المستغرب أن يهمل الرشيد شؤون الاتصال والمواصلات مع سعة رقعة دولته ففي رواية «إن أمور البريد والاخبار»[8] اهملت في عهده وأن الخليفة حين توفى كانت هناك 4 الاف خريطة لم تستعمل.

كل هذه الأسباب تجعلنا نعتبر الرشيد وعهده بداية منعطف جديد في التاريخ العباسي.

إن سياسة الرشيد هذه أثارت استغراب المؤرخين الرواد انفسهم فيعجب ابن الاثير من تدابيره في ما يتعلق بولاية العهد قائلا: «وهذا من العجائب»[9] ذلك لأن الرشيد لم يتعظ بما جرت ولاية العهد لأكثر من واحد من ويلات على الدولة. ويوافقه الطبري حيث يقول على لسان العامة: «وقال بعضهم بل قد القى بأسهم بينهم وعاقبة ما صنع في ذلك مخوفة»[10].

عهد الخليفة هارون الرشيد (170هـ/ 786م - 193هـ/ 808م)

إن شخصية الرشيد تعتبر أكثر الشخصيات العباسية شهرة لا في الاساطير الشعبية فحسب بل في روايات المؤرخين الأوائل والمحدثين منهم على حد سواء. وهذه الحقيقة تدفعنا إلى الاحتراز أكثر من أجل غربلة حقائق التاريخ من بين مئات الروايات المفعمة بالخيال البراق والقصة الساذجة والخبر الموضوع والمدسوس.

لقد اخفت هذه التناقضات شخصية الرشيد الحقيقية وضاعت مظاهر سياسته الداخلية والخارجية ولعل ذلك يعود إلى ظروف عصره السياسية والحضارية إلى حد كبير.

كان هارون الرشيد ثالث أولاد الخليفة المهدي وثاني ابنائه من الخيزران الجارية ذات الآمال الكبيرة والطموحات الواسعة التي تزوجها المهدي واعتقها سنة 159 هـ/ 775-767م فلعبت دورا مهما في عهد زوجها وابنها الرشيد.

إن تربية الرشيد وحياة الدعة والرفاهية التي عاشها جعلت منه شخصية يسهل التأثير فيها خاصة من قبل أمه ومربيه يحيى البرمكي. وتصفه رواياتنا التاريخية بسرعة تغلب العواطف عليه فهو بين الثورة العارمة والرقة المتناهية. كما أنه كان لايدخر وسعا في تبذير الأموال الوفيرة وبذلها لسبب أو دون سبب حتى أن الطبري يقول «لم ير خليفة قط قبله اعطى منه للمال»[12] ويقول ابن الطقطقي إن الرشيد كان «يجزل العطاء»[13].

ولم يكن هارون وهو أمير مهتما بمنصب الخلافة بل كاد أن يقبل بالتنازل عن ولاية العهد لجعفر بن موسى الهادي لولا الحاح أمه الخيزران ومربيه يحيى البرمكي وتشجيعهما له على الصمود في وجه اخيه الخليفة الهادي والحفاظ على حقه الشرعي في الخلافة. ولذلك فقد كان من الطبيعي أن يتمتع البرامكة والخيزران بسلطات واسعة بعد أن تبوأ الرشيد الخلافة. حتى أن الجهشياري[14] يرى أن الدواوين كلها كانت بيد يحيى البرمكي.

إن الظروف الصعبة التي مر بها هارون الرشيد في خلافة موسى الهادي وضياع شخصيته في بداية خلافته بين البرامكة والخيزران شجعت إلى حد كبير على نمو التكتلات في البلاط العباسي وتبلورها. فقد أمر الرشيد في أوائل عهده بسجن أو ابعاد الاشخاص الذين تعاونوا مع اخيه الهادي. ومع أن البرامكة تمتعوا بصلاحيات واسعة إلا إن شخصيات عربية مهمة كانت تنافسهم في البلاط نذكر منها الفضل بن سليمان الطوسي ومحمد فروخ الازدي ويزيد بن مزيد الشيباني والكثير من أمراء العباسيين وكذلك كل من الفضل بن الربيع بن يونس وعلي بن عيسى بن ماهان وغيرهم. وقد لعبت هذه الشخصيات والكتل التي لعبت دوراً مهماً في سياسة الرشيد واجراءاته المختلفة.

ولم يكن عصر الرشيد خالياً من الاضطرابات الداخلية في ارجاء مختلفة من الخلافة العباسية. على أن أسباب هذه الاضطرابات تعود احياناً إلى حركات التمرد الخارجية أو العلوية أو الفارسية أو غيرها وهذا ما سنتطرق إليه في فصل قادم. اما البعض الآخر فكان يعود إلى اضطرابات قبلية أو حركات ذات طابع سياسي لا لون عقائدي له بل سببه سوء إدارة الولاة وتذمر فئات معينة من الرعية.

ففي بلاد الشام ثارت العصبيات القبلية بين اليمانية والقيسية في سنة 174هـ/ 790م وتكررت سنة 176هـ/ 792م واشتدت سنة 180هـ/ 796م. وعلى الرغم من أن الخلافة العباسية تدرك بأن انقسام أهل الشام، اعداء الدولة التقليديين على أنفسهم قوة لها فإن تفاقم الوضع ادى من جهة أخرى إلى ارباك الإدارة واضعف من قوة السلطة المركزية مما دفع الرشيد إلى ارسال جعفر البرمكي للسيطرة على الاقاليم[15]، وقد نجح جعفر في استعادة الأمن والاستقرار وذلك بتجريد القبائل من السلاح وقتل أهل الفتنة والمحرضين عليها والمنتفعين بها من (الزواقيل) واللصوص وبعض شيوخ القبائل مثل ابي الهيذام[16]. وقد جلب جعفر البرمكي معه عددا من الزعماء الشاميين إلى عاصمة الرشيد الذي قرر فرض نوع من الاقامة الاجبارية عليهم في بغداد كما أنه اصطنع البعض الاخر.

وفي اقليم اليمن تمرد الهيصم الهمداني ومعه اليمانية سنة 179هـ/ 795م وتمركز

في الجبال الوعرة وكلما طال أمر حركته تجمع حوله عصاة آخرون فأيده عمر الحميري والصباح الذي اعتصم بناحية حرار وقد استطاع حماد البربري أن يشتت شملهم بعد مجزرة قتل فيها الالاف فانتهى التمرد بعد أكثر من تسع سنوات وقتل الهيصم في بغداد. اما الوالي فقد بقي في اليمن ثلاثة عشر عاما واشتهر بسوء سياسته وتعسفه[17].

اما خراسان ذات الموارد البشرية والاقتصادية الكبيرة فقد بقيت موضع اهتمام الرشيد إلا أنه اساء اختيار الولاة لها ولعل الدسائس وتكتلات البلاط لعبت دورها في قرارات الرشيد في ما يخص إدارة خراسان فقد عين خاله الطريف بن عطاء على خراسان فكان سيئ السيرة والتدبير، ولكن الرشيد لم يعزله حتى اشتدت الفتن عليه. وفي سنة 178هـ/ 794م توجه الفضل البرمكي إلى خراسان بعد أن عينه الرشيد عاملا عليها[18].

ثم تعاقب على حكم خراسان ولاة آخرون حتى عين الرشيد علي بن عيسى بن ماهان واليا عليها[19].

وكانت ثورة رافع بن الليث بن نصر بن سيار الذي دعى فيها إلى بني أمية في سمرقند هي التي نبهت الرشيد إلى سوء إدارة علي بن عيسى. فقد استطاع رافع أن يهزم جيش علي في معركة ضارية زادت من انصاره حيث انضم إليه أهل نسف كما التحقت به اعداد كبيرة من أهالي بخارى وخوارزم وفرغانة واشروسنة والختل وغيرها من اقاليم ما وراء النهر وبلاد الترك. وقد اضطر علي بن عيسى تجاه هذا الضغط العسكري أن ينسحب من بلخ إلى مرو ولكن الرشيد لم يمهله طويلا حيث عزله وصادر أمواله وارسل هرثمة بن أعين لتسلم الأمر واصلاح الوضع ومعه كتاب العزل.

ولم يستطع الرشيد في حياته أن يقضي على الحركة وقد سار بنفسه إلى خراسان فوافاه الأجل وهو في طريقه إليها وبقيت الحركة حتى ولاية المأمون سنة 195هـ/ 810 م الذي استطاع بسياسته في استرضاء أهل خراسان أن يفرق اتباع رافع بن الليث ويكسبهم إلى جنبه مما ادى إلى استسلام رافع وذوبان معارضته.

اما ارمينيا فقد انتشرت فيها القلاقل في عهد الرشيد وعمل هذا الخليفة على توطين قبائل عربية برمتها في ارمينيا فكان كل وال يأخذ معه افخاذا من عشيرته فلما عين يوسف السلمي نقل إليها قبائل نزارية ولما تولى يزيد الشيباني جاء ومعه جماعة من ربيعة وجلب الوالي عبدالكبير الخطابي قوما من مصر. وهكذا فقد تنوعت قبائل العرب في ارمينيا بعد أن كانت صفتها الغالبة قبل عهد الرشيد من القبائل اليمانية.

ومع ذلك فلم تستقر الاوضاع في هذا الاقليم، ويورد المؤرخون أسبابا لحركات الخزر[20] هذه منها الموت الفجائي لابنة خاقان ملك الخزر التي تزوجها الفضل البرمكي ومنها اثارة بعض العصاة والمتمردين العرب الذين دخلوا أراضيهم واستجاشوهم على التمرد على الوالي العربي... على أن هذه العوامل وغيرها ربما كانت عوامل مساعدة ولكن الأهم من ذلك طبيعة الخزر وموقع بلادهم بين دولتين متعاديتين العباسية والبيزنطية فكان كل منهما يستغلهم في مناسبات عديدة لمصلحته ضد الطرف الاخر.

اما الاضطرابات في افريقيا[21] فقد استمرت الحرب سجالا مع الاباضية في ولاية يزيد بن حاتم المهلبي وابنه داود المهلبي. وفي سنة 177هـ/ 793م تحرك الجند بقيادة ابن الجارود وطردوا الوالي المغير بن بشر المهلبي ثم قتلوا الوالي الجديد الذي ارسل لتولي افريقيا واستمر ابن الجارود بالعصيان حتى أرسل الرشيد هرثمة بن أعين الذي فتح القيروان سنة 179هـ/ 795م، وسلم ابن الجارود نفسه لهرثمة فارسله بدوره إلى الرشيد. كما ثار تمام بن تميم بالقيروان يدعو إلى بني أمية.

وهكذا فإن تمرد الجند والتنازع على السلطة بين قادة الجيش حالت بين السلطة وبين مقارعة الحركة الاباضية في افريقيا التي استفحل أمرها في تونس. وقد عين الرشيد محمد بن مقاتل العكي سنة 181هـ/ 797م فتمرد عليه الجند لسوء سيرته وهنا برز إبراهيم بن الاغلب فقضى على حركة الجند ودخل القيروان مما دعا الرشيد إلى تعيينه واليا على افريقيا تخلصا من مشاكلها السياسية واعبائها المالية فقد تعهد ابن الاغلب أن يضمن الاستقرار ويستغني عن الأموال التي تدفعها مصر إلى والي افريقيا سنويا كمعونة له وضمن فوق ذلك أن يدفع لبيت المال40 الف دينار سنويا.

ازدياد نفوذ البرامكة وسقوطهم:

البرامكة اسرة إيرانية من بلخ وينسبون إلى برمك[22] وهو لقب لرئيس سدنة معهد النوبهار في بلخ. وهذا المعبد من المعابد البوذية التي تعبد فيها الهتهم حيث يشير ابن الفقيه أنه معبد للاصنام ويؤيده في رأيه هذا جغرافيون اخرون.

وليس يهمنا هنا تاريخ اتصال البرامكة بدولة العباسيين وإسلام قائدهم خالد البرمكي والتحاقه بالدعوة العباسية ثم خدمته للدولة في عهدي ابي العباس والمنصور. ثم ازدياد نفوذ يحيى بن خالد البرمكي في دولة المهدي واتصاله بالخيزران زوجة المهدي وعلاقته الوثيقة بها وبأبنها هارون الرشيد حيث اصبح يحيى البرمكي مربيا لهارون ومشرفا على شؤونه ومرافقا له في حملاته وسفراته، بل أن الذي نود التأكيد عليه في هذا المجال هو دورهم في عهد الرشيد.

كان يحيى البرمكي ذا قابليات كبيرة يذكيها طموح ماكر ليس له حدود وقد سخر كل هذه القدرات في خدمة هارون ظاهريا وتحقيق خططه الهدامة واقعيا فقد لعب دوراً كبيراً في ولاية العهد لهارون بعد الهادي ولعب دوراً أكبر في وقوفه وراء هارون يشد من عزمه ويشجعه على الحفاظ على حقه الشرعي في الخلافة تجاه ضغوط الهادي الشديدة املا أن يحقق من وراء ذلك طموحاته.

إن المبالغات التي اثرتها الروايات التاريخية القديمة والقصص الروائية التي حبكتها اقلام الادباء والكتاب المحدثين جعلت من «اسطورة لبرامكة» قصة شعبية يتداولها الناس مبالغين في احداثها ومدلولاتها، الواقع أن البرامكة الذين نعرفهم في التاريخ لم يتعدوا اصابع اليد الواحدة ومهما بلغ هؤلاء القلة من نفوذ وسطوة فإن نفوذ الخليفة بقي على الدوام أقوى وأهم. ولعل أكبر دليل على ذلك السهولة التي استطاع بها الخليفة أن يقضي عليهم.

كان يحيى البرمكي والخيزران عاملين مؤثرين في سياسة الرشيد بعد تقلده السلطة. فقد تقلد يحيى البرمكي الوزارة وفوضه الرشيد الأمر قائلاً:

«فاحكم بماترى واستعمل من شئت واسقط من رأيت فأني غير ناظر معك في شيء»[23].

على أن يحيى كان من المكر بحيث اشرك الخيزران في الأمر فكان يستشيرها ويعرض عليها الأمور قبل اصدارها لدرجة أن بعض الروايات تعتبرها الناظرة في الأمور[24]. ومهما يكن من أمر فقد كانت الدواوين كلها بيد يحيى البرمكي خاصة بعد سنة 171 هـ، حين أضاف إليه ديوان الخراج. اما الفضل بن يحيى البرمكي فكان الساعد الأيمن لابيه في الأمور الإدارية وتولى امارة عدة اقاليم من أهمها خراسان وطبرستان وارمينيا. وارسل للقضاء على حركة يحيى بن عبدالله الحسني. وقد بالغت الروايات الشعوبية في اظهار أعمال الفضل البرمكي. ومهما يكن من أمر فإن الرشيد عهد له بتربية ابنه محمد الأمين. ولم يكن جعفر بن يحيى البرمكي مثل اخيه بل كان يحب الانس والطرب والمتعة ويتأنق في مسكنه وملبسه. وقد قربه الرشيد لدرجة كبيرة حيث تشير رواية تاريخية «وغلب جعفر على الرشيد غلبة شديدة حتى صار لا يقدم عليه احد»[25]. ولابد أن نشير بأن الخليفة اخطأ حين عهد لجعفر بمهام سياسية وإدارية فقد اعطاه خاتم الوزارة مرة ثم اشركه معه في النظر في المظالم وامره بأن يراقب دور الضرب، وكتب اسمه على الدنانير بجانب اسم الخليفة.

إن هذه الحظوة الكبيرة وهذا النفوذ السياسي والإداري للبرامكة وكثرة انصارهم وصنائعهم ومواليهم والمنسوبين إلى كتلتهم ادت إلى المبالغة في الكلام عنهم لدرجة أن رواية تقول: «إن في دولة الرشيد دولة ملوكها البرامكة». كما درج المتزلفون على تسمية بعضهم (بالسلطان) أو (بالملك)[26].

وهنا لابد أن ندرك أن سلطة البرامكة المطلقة لم تستمر أكثر من اربع سنين ذلك أن وفاة الخيزران سنة173 هـ/ 790م كانت بداية لنهاية نفوذهم الذي بدأ يتقلص بصورة تدريجية رغم أنها بطيئة. إن موت الخيزران يعتبر في رأينا بداية لنهاية نفوذ البرامكة، لا لأن الخيزران كانت السند المهم ليحيى البرمكي فحسب بل لأن موتها اخلى الجو ليحيى البرمكي وأولاده لكي يتصرفوا في الأمور وحدهم أكثر من ذي قبل

الأمر الذي جعل الخليفة يشعر أكثر من أي وقت مضى بثقل نفوذهم وتماديهم، وإلى ذلك يشير الفخري[27] حين يقول:

«وقيل أن جعفراً والفضل ظهر منهما من الادلال ما لا تحتمله نفوس الملوك فنكبهم لذلك، ولكن الرشيد تخلص منهم سنة 187هـ/ بعد أن دبر مكيدة لهم سراً. وقد حار المؤرخون في سبب سقوطهم فاختلطت الروايات الموضوعة بالروايات الشعبية وحبكت القصص والاساطير وتداخلت بالوقائع الحقيقية حتى بات من الصعب التفريق بينها. ولعلنا ننفي منذ البداية (اسطورة العباسة) اخت الرشيد وقصة زواجها الصوري من جعفر البرمكي لأنها رواية لا تقف امام النقد الداخلي لمتن الرواية ولا امام النقد الخارجي. فالرواية يرويها الطبري دون سند أو سلسلة رواة وليس لها ذكر في كتب الدينوري واليعقوبي والاصفهاني وهم من أوائل من كتب في احداث العراق في هذه الفترة. وقد ابدى الجهشياري هزاءة بها وهو يشير إلى رواية عن مسرور الكبير مفنداً هذه القصة بقوله[28]:

«كأنك تريد ما تقوله العامة فيما ادعوه من أمر المرأة... لا والله ما لشيء من هذا اصل ولكنه من ملل موالينا وحسدهم».

ويناقش ابن خلدون هذه القصة وينفيها اصلا «ولا يعقل أن تقدم العباسة على ذلك وعصرها قريب عهد ببداوة العروبة وسذاجة الدين فأين يطلب الصون والعفاف إذا ذهب منها؟». وأكد ابن كثير وغيره أن العديد من العلماء انكروا هذه الاسطورة التي وضعتها الاقلام الحاقدة خاصة وأن متنها يغلب عليه الطابع الاسطوري المختلق.

هذا من جهة ومن جهة اخرى فالعباسة كانت متزوجة من محمد بن سليمان وتوفي عنها ثم تزوجت ثانية وثالثة فلم تبق دون زوج. حتى أن الشاعر أبا نواس اخذ يتندر في شعره بأمرها ويقول إذا اراد رجل الموت فما عليه إلا الزواج من العباسة! وكانت القيم والتقاليد قوية فعالة في عصر الرشيد فإن هذا الخليفة جعل ابنه الأمين وهو من أم عربية وليا أولا للعهد فكيف يوافق على زواج اخته من مولى اعجمي؟ وكيف يتم الزواج والخليفة لا علم له؟ وإذا كان الزواج صورياً فكيف يوافق عليه

الخليفة مع أنه ينافي الشريعة الإسلامية التي لا تقر زواجا بالصورة التي توردها الرواية؟ .

ومن الروايات تلك التي تدعي أن سبب سقوطهم هو ميلهم إلى العلويين وهذه روايات ضعيفة موضوعة وليس لها ما يبررها كما أن البرامكة يظهرون في روايات اخرى وكأنهم اعداء للعلويين على أننا لا نعتقد بإن البرامكة كانوا موالين سياسيا للقضية العلوية ، وربما اظهروا في مناسبة أو أكثر تعاطفهم مع بعض العلويين أو سمحوا في مجالسهم بمناقشة الافكار والآراء العلوية كما كانت تناقش آراء عديدة اخرى . وليس لدينا روايات موثوقة تدل على اخلاصهم للقضية العلوية أو ولائهم لشخصية سياسية علوية .

ولعل من الصواب إلا نعزو سقوطهم إلى عامل واحد بعينه ذلك لأن مؤرخينا الرواد يعددون أكثر من سبب لسقوط البرامكة . فالجهشياري يذكر أكثر من عشره مسائل اعتبرها أسبابا للسقوط ويعدد ابن خلدون اخطاء البرامكة التي يعتبرها المسؤولة عن سقوطهم . ويمكن تلخيص هذه العوامل في رأيه .

«باستبدادهم على الدولة واحتجابهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه . . . . » .

وعلى هذا فالوقائع تثبت أن سقوط البرامكة لم يكن وليد انفعال مفاجئ من قبل الخليفة بل كان تدبيراً مخططا له ولدته احداث تراكمت بعضها لعل ابرزها نفوذهم الكبير في البلاد والإدارة والمجتمع . فكان جعفر البرمكي يتصرف وكأنه الخليفة . واجتمعت ليحيى البرمكي الوزارتان وهما إدارة الدواوين والخاتم . وكان الفضل يسمى الوزير القدير وكان علي يرى بان الفضل سيخلفه في ولايته .

إن هذه السطوة اثارت شكوك الرشيد واذكت فيه تجاربه المريرة فحز في نفسه وشعر بأن كرامته قد اهينت وهو شيء كما يقول ابن طقطقي «لا تحتمله نفوس

الملوك». وقد عبر الجهشياري عن موقف يد قائلاً بإن الرشيد ندد بيحيى البرمكي متهما اياه «استبد بالأمور وأمضاهاعلى غير رأيي وعمل بما احبه دون محبتي».

وإذا كان السبب الأول سطوتهم السياسية ونفوذهم الإداري فإن السبب الثاني هو جمعهم للثروة والأموال بين أيديهم وهذا ما يبرر كثرة عطاياهم وسخائهم الكبير الذي فاق عطايا الرشيد رغم ما يعرف عنه من كرم- ويظهر من بعض الروايات انهم حجزوا عنه الأموال ولذلك اتهمهم كذلك بإنهم «نهبوا مالي وذهبوا بخزائني».

اما السبب الآخر فهو حبهم للنقاش والجدال في أمور السياسة والعقيدة والكلام ويظهر أن مجالسهم كانت حافلة بالكتاب والادباء والمفكرين والشعراء واصحاب العقائد والمذاهب المختلفة وكانوا لا يجدون في نقاش مسائل عديدة سياسية ومذهبية، وتشير روايات تاريخية أن جعفر البرمكي كان يسمح للعلويين في حضرته لمناقشة مسائل تتعلق بالنص والاختيار والاحقية في الخلافة وربما كان ذلك سببا في اتهامهم بالتشيع للعلويين أو المعتزلة أو جعلهم من انصار الزندقة أو المجوسية. والمعروف أن موقف البرامكة هذا كان على عكس موقف الرشيد الذي كان يتحرج في النقاش والجدال في الدين خاصة. ولعل موقف الرشيد الذي كان له ما يبرره يعود إلى سبب ديني ذلك لأنه يعتقد أن الجدال يؤدي إلى الخلط والتشويه وخاصة على العامة من الناس كما أنه يسمح لمذاهب هدامة معادية بالانتشار، ويعود كذلك إلى سبب سياسي لأنه يعتبره خطراً على سلامة وأمن الدولة لأنه يؤدي إلى استفحال التيارات السياسية المعادية ثم ضعف عوامل التماسك وغابة عوامل الانفصام.

اما العامل الاخير في سقوط البرامكة فيعود إلى تكتلات ضد كتلة البرامكة ولعل ابرز من يمثل الكتلة المعادية لهم هو الفضل بن الربيع بن يونس حاجب الخليفة الذي سعى بهم واوغر قلب الرشيد عليهم. كما أن علياً بن عيسى أتهم موسى بن يحيى البرمكي بمحاولة التآمر ضد الدولة في خراسان. وتكلم محمد بن الليث ضدهم وذكر الرشيد بمسؤولياته تجاه الأمة، وكانت البرامكة تكره ابن الليث هذا «لأن فيه ميلاً على العجم». كما أن البرامكة كانت منحرفة عن القائد العربي يزيد بن مزيد الشيباني. ولم تكن علاقة زبيدة أم الأمين ودية مع البرامكة وكانت تشكوهم

باستمرار إلى الخليفة الرشيد[29] هذا إضافة إلى علاقة الفضل البرمكي بالخليفة ساءت بعد أن نكث الرشيد بعهده ليحيى بن عبدالله العلوي الذي استسلم للفضل البرمكي بعد أن اقنعه هذا الاخير بالعفو والامان. ولا ننسى كره بعض الهاشميين لهم كما أن أبن خلدون[30] يقول : إن بني قحطبة وهم عرب يمانية كانوا اعداء للبرامكة. ولعل هذه الروايات تشير إلى أن للبرامكة ميلاً إلى العجم وأنهم حاولوا ادخال مظاهر الحضارة والقيم الفارسية إلى المجتمع العربي الإسلامي الأمر الذي انكرته وحاربته جماعات اخرى في البلاط مع.

واغلب الظن أن هذه العوامل الأربعة قررت مصير البرامكة حيث أمر الرشيد عام 187هـ/ 803م بالقبض عليهم وصادر املاكهم وضياعهم. في نفس الليلة 1 صفر / 9 كانون الثاني أمر الخليفة بقتل جعفر البرمكي وعلق جثته على جسور بغداد. لقد صورت نكبة البرامكة وكأنها مذبحة مأساوية والواقع أن الرشيد لم يقتل منهم إلا جعفرا اما يحيى والفضل فقد أمر بحبسهما وقد توفى الأول سنة 190هـ / 805م والثاني 193هـ/ 808م وقد رثاهم العديد من شعراء زمانهم وقال عنهم الرياشي :

على اللذات والدنيا جميعا ودولة آل برمك السلام

وقد استوزر الرشيد بعدهم الفضل بن الربيع الذي بقي وزيراً حتى آخر خلافته، . ولعل سقوط البرامكة بالسهولة هذه تدل على قوة الخليفة العباسي ومدى وهن الاراء التي تبرز دور الموالي في الحياة السياسية والإدارية للدولة.

الحركات العلوية في عهد الرشيد

بقيت التقاليد العباسية السياسية في ما يخص العلويين على حالها لم تتغير وهذه التقاليد، كما اوضحنا ذلك سابقاً، كانت تتصف بالشدة حينا وباللين حينا اخر. على أن الخصام الذي وصل إلى حد استعمال السيف والقوة كان بين السلطة وال الحسن في العصر الأول اما في هذا العصر فإن النزاع المسلح شمل العلويين من حسنيين وحسينيين.

فقد كان الرشيد مرنا في بداية عهده مع العلويين ومع غيرهم، فافتتح عهده برفع الحجز عنهم واخلاء السجناء منهم وارسالهم إلى المدينة، في ما عدا العباس بن عبدالله. وقد ظهر إبراهيم بن إسماعيل الحسيني (طباطبا) وعلي بن الحسين بن إبراهيم الحسني اللذان كانا مختفيين عن الانظار ويشير القمي إلى أن الرشيد كان يسير حاجات آل أبي طالب وعيالهم. كما أنه اطلق سراح يعقوب بن داوود المعروف بميوله العلوية، وسمح له بالسفر إلى مكة، حيث اقام هناك حتى وفاته[31].

الرشيد وآل الحسن:

شهد عهد الرشيد حركتين علويتين تزعمهما ابناء عبدالله المحض الحسني. فقد استطاع ادريس بن عبدالله الحسني الذي افلت من موقعة فخ، وساعدته الظروف في مصر، حيث ساعده والي مصر في الهرب إلى المغرب، واستجابت له جماعات من البربر وغيرهم، واستطاع أن يكون كيانا سياسيا سنة 172هـ/ 788م. ولكن عهده لم يدم طويلا، فقد توفي بطريقة غامضة سنة 177هـ ولكن انصاره ثبتوا في اماكنهم، ورعوا ولده الصغير حتى كبر، واستمرت امارة الادارسة حتى سنة 375هـ/ 985م.

وتختلف مصادرنا التاريخية في الطريقة التي توفي بها ادريس الحسني، ولكن اوثق الروايات تشير إلى أن الشماخ اليماني ارسل إلى المغرب، واظهر التشيع، واستطاع التغلغل إلى أن اصبح من حاشية ادريس الحسني، فمرض ادريس، فوصف له الشماخ دواء ساما قتله. اما الشماخ اليماني فهرب قبل الوفاة.

اما يحيى بن عبدالله الحسني فقد تحرك في بلاد الديلم سنة 176هـ. فقد كان يحيى الحسني ممن اشترك في موقعة فخ، وهرب بعد فشلها، ونجا من المجزرة التي تلتها، وقد طاف يحيى في الامصار فذهب إلى اليمن وبلاد ما وراء النهر والديلم.

وقد ارسل الرشيد الفضل بين يحيى البرمكي بجيش كثيف وولاه «جميع كور المشرق وخراسان، وأمره بقصد يحيى والجد بطلبه وبذل له الأمان والصلة إن قبل ذلك».

ويظهر أن يحيى الحسني كان مثل اخويه محمد النفس الزكية وإبراهيم، في طبيعته وأساليبه في السياسة، ولذلك لم يستطع أن يستمر في استقطاب اتباعه وتزعمهم لمدة طويلة. يقول الاصفهاني: إن يحيى بدأ يفكر بالاستسلام «لما رأى من تفرق اصحابه وسوء رأيهم فيه وكثرة خلافهم عليه». ولا ننسى أن مكر الفضل البرمكي والاجراءات التي مارسها حيث استطاع أن يكسب صاحب الديلم نفسه، الذي كان حليفا ليحيى الحسني، كل ذلك اقنع يحيى بقبول الصلح شرط أن يكتب الخليفة أمانا بخطه وأن يشهد عليه الهاشميون والقضاة، فرضي الرشيد بالشرط، وكتب امانا ارسله إلى يحيى. واستمر الفضل يقنعه «حيث واصل كتبه إلى يحيى ورسله بالرفق والاستمالة والتحذير والترغيب والترهيب وبسط الأمل» حتى اجاب يحيى إلى الصلح.

وتشير بعض الروايات أو وجود رسائل متبادلة بينه وبين الرشيد، ولكن مصادر اخرى لا تذكرها، ولذلك نرى بأنها موضوعة وغير صحيحة تاريخياً، خاصة أنها تسير على نمط الرسائل التي تبودلت بين محمد النفس الزكية والمنصور. كما أنها تذكر دون سند بل تقول: «روى بعض اصحابنا» ومن ذكر منهم من الرواة لانعرف عنهم شيئا في كتب الرجال.

وبقى الخليفة يراقب يحيى الحسني عن كثب حتى جاءته سعاية بعض اعدائه، فيروي الاصفهاني أن جماعة من أهل الحجاز سطو عليه وشهدوا بأنه يدعو إلى نفسه، وفي رواية للطبري أن الساعي هو عبدالله بن مصعب الزبيري. فوضعه الرشيد تحت مسؤولية جعفر البرمكي الذي لم يكن متشدداً معه. وفكر الرشيد في نقض الأمان وجمع لذلك الفقهاء ورجال الدين، أمثال محمد بن الحسن والحسن بن زياد، ووهب بن وهب أبو البختري. وقد افتى هذا الاخير ببطلان الأمان قائلاً: «هذا باطل منتقض قد شق عصا الطاعة وسفك الدم فاقتله ودمه في عنقي». فلقبه الرشيد بقاضي القضاة، واعطاه الاف لا تحصى من الدنانير، ومنع الاخرين من الافتاء عقابا لهم.

وقد توفي يحيى الحسني في ظروف غامضة، وإلى ذلك يشير الاصهفاني: واختلف الناس في امره وكيف كانت وفاته». والظاهر أن الرشيد ناظره أكثر من مرة،

وفي احدى هذه المرات علق على حالته قائلا : «اما ترون به اثر علة ، هذا الان إن مات قال الناس سموه . . . » .

ويظهر أن الرواة خلطوا في رواياتهم بين يحيى الحسني وموسى الكاظم حيث نسبت بعض المناظرات وظروف القتل مرة إلى الأول ومرة إلى الثاني ، ولعل معاصرتهما للرشيد وتقارب زمن وفاتهما أدت إلى هذه الشبهات بين الرواة .

الخليفة الرشيد والخوارج

وكان عهد الرشيد170-193 هـ/ 786-809م من العهود التي شهدت تفاقم الحركة الخارجية حيث تعددت ثوراتهم وشملت جهات مختلفة من الخلافة العباسية[32] فثار الصحصح الخارجي في الموصل سنة 971هـ وثار الفضل الخارجي في نصيبين سنة 176هـ وثار الوليد بن طريف الشاري سنة 178هـ في الجزيرة الفراتية ، وثار حمزة بن عبدالله الازرق الشاري في سجستان سنة 179هـ وخرج خراشة الشيباني في الجزيرة الفراتية سنة 180هـ ، وخرج عبدالسلام الخارجي بامد سنة 187هـ وقد اضطر الخليفة الرشيد بسبب كثرة الاضطرابات واعتصام الخوارج بالموصل إلى هدم سورها سنة 180هـ . يقول الازدي[33] :

«وفي سنة ثمانين ومئة شخص هارون الرشيد يريد الموصل . . . وأمر بهدم سور المدينة ونادى مناديه : من هدم ما يليه من السور فهو آمن فهدم الناس سورهم بأيديهم» .

حركة حمزة بن عبدالله بن الأزرق الشاري في سجستان:

وكانت حركة حمزة بن عبدالله الشاري احدى الحركات الخارجية التي ظهرت في سجستان (سيستان) سنة 179هـ / 795-796م ، واعلن نفسه أمير المؤمنين سنة 181هـ ، ولم تستطع السلطة العباسية القضاء على حركته نهائيا حيث قام بهذا العمل نيابة عنها الطاهريون والصفاريون ، وهي اسر توارثت الحكم في بعض الاقاليم الإيرانية وتعهدت بالقضاء على حركات التمرد والعصيان وضمان الأمن والاستقرار ، ولكن هذه السلالات الحاكمة ما لبثت أن انشقت عن الخلافة العباسية .

ويعد تاريخي - سيستان (المكتوب باللغة الفارسية)[34] المصدر الوحيد الذي يفصل في سرد وقائع حركة حمزة الشاري. وكما هي العادة في التواريخ المحلية فإن مؤرخ تاريخي سيستان يظهر عطفا نحو الحركة وتجاوباً معها ضد السلطة المركزية العباسية. ويحتوي الكتاب على مادة مفيدة عن تفسير الحركة واحداثها حتى اضمحلالها وتلاشيها[35]. وتشترك هذه الحركة مع اغلب الحركات الخارجية في هذه الفترة باعتمادها على شخصية زعيمها، فما ان يقتل الزعيم حتى يتفرق الاتباع إلى أن يظهر قائد جديد يجمع الشمل ويوحد الكلمة في تمرد جديد. ولا شك فإن حركة حمزة الشاري في سجستان ضمت إليها إضافة إلى الخوارج كثيراً من المتذمرين من السياسة العباسية، فهي كالحركات الدينية- السياسية التي ظهرت قبلها وبعدها في إيران، رفعت شعارات مختلفة، منها عقائدية، ومنها اقليمية، ومنها مصلحية لتجذب أكبر عدد من الاتباع. وبمعنى اخر فإن الحركة إضافة إلى صيغتها الخارجية عبرت عن مشاعر وآمال ومصالح أهل سيستان. وحين احس الرشيد باستفحال الحركة واعلان حمزة الشاري نفسه أميراً للمؤمنين، كتب إليه رسالة يدعوه إلى التوبة والعودة إلى الجماعة وقد اجابه حمزة على كتابه هذا بكتاب طويل وتبودلت الرسائل بين الطرفين دون جدوى. ووقعت في المشرق حركات خارجية اخرى ولكن لم يكن لها أثاراً سياسية كبيرة.

خوارج الجزيرة الفراتية:

استمرت الحركات الخارجية تظهر الواحدة تلو الاخرى في هذا الاقليم ورغم جهود الخلفاء العباسيين الأوائل في كسر شوكتها ومحاولة التخفيف منها. ومن أبرز الحركات التي ظهرت خلال هذه الفترة.

حركة الصحصح الشيباني سنة 171هـ، وكانت معاركه سجالاً مع الروابط العباسية في الجزيرة حتى قضى على حركته احد قواد الرشيد، وهو نصر بن عبدالله الضبي[36].

وتحرك الفضل بن سعيد الرادني سنة 173هـ وفرض الأموال على مدن عديدة[37]،

وجعل من نصيبين قاعدة لاتباعه، ثم تحرك العطاف بن سفيان الازدي الشاري[38] سنة 177هـ في مدينة الموصل وجبى مناطق عديدة، واستفحلت حركته مما دعا الرشيد إلى السير نحو الموصل وهدم سورها سنة 180هـ. وقد حاول العطاف الازدي أن يكمن للخليفة فيقتله مع اصحابه، ولكن شيوخ الموصل وصلحاءها اجتمعوا وناشدوه أن ينصرف عنهم حتى تنتهي زيارة الخليفة، فخرج العطاف مع أتباعه وسار إلى ارمينيا.

وتحرك الوليد بن طريف الشاري سنة177 هـ[39] أو بعد ذلك بقليل، وبدأ يستجمع الاتباع في منطقة الجزيرة ويهاجم روابط السلطة العباسية، وقد فتت جيوش عباسية متعاقبة، ورفع شعار رفع الظلم، حيث قال:

أنا الوليد بن طريف الشاري ظلمكم اخرجني من داري

وقد نهب الوليد الشاري العديد من المدن و القرى في الجزيرة الفراتية، وكان ولاة المدن أو زعماؤها يفدون المدن بكميات تختلف بسنتها من المال.

وقد امتدت حركة الوليد الشاري إلى اذربيجان، ويشير الأزدي إلى أنه دخل ارمينيا كذلك، وازداد اتباعه خاصة من بني ربيعة، ثم انحدر بعد ذلك إلى جنوبي العراق (السواد) ولكنه عاد إلى منطقته الاصلية، الجزيرة الفراتية، حيث حاصر مدينة نصيبين واباحها حيث قويت حركته، ويشير الطبري إلى ذلك قائلا:

«واشتدت شوكته وكثر تبعه»

وهنا ارسل الرشيد القائد يزيد بن مزيد الشيباني فبدأ يلاحق الوليد في تنقلاته دون جدوى، وحين طال الامد تدخلت تكتلات البلاط وما عرف فيها من حزازات، فأظهر البرامكة اعداء يزيد الشيباني بأن هذا القائد يماطل ويراوغ ولا يرغب في مواجهة الوليد الشاري، خاصة وأن كلا من يزيد الشيباني والوليد من قبيلة واحدة، وقد عنف رشيد قائده برسالة شديدة قال فيها:

«لو وجهت احد الخدم لقام بأكثر مما تقوم به ، ولكنك مداهن متعصب ، وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن اخرت مناجزة الوليد ليبعثن إليك من يحمل رأسك» .

وكانت الملاحقة شديدة ومتعبة حتى التقى يزيد الشيباني بالوليد شمالي هيت على الفرات ، فانقض عليه ولم يفلت ، وقتله وجماعة من اصحابه . وتشير روايات اخرى بأن الاعراب الذي كانوا في معيته قتلوه غيلة وسلموا رأسه إلى يزيد الشيباني كان قلته سنة 189هـ/ 795م . وقد ارسل رأسه إلى الرشيد الذي اعتمر شكراً لله على ما بلاه وكفاه .

إن حركة الوليد الشاري استمرت مدة طويلة قاربت العشر سنين ، ولم تكن لتنتهي لولا حكمة يزيد الشيباني ونجاحه في كسب العديد من اتباع الوليد ، واستمرار الضغط عليه وملاحقته أينما ذهب . وقد احسن الرشيد صنعا باختياره قائداً من ربيعة وهي قبيلة الوليد الشاري نفسها ، وفي ذلك قال الشاعر :

لا ترسلن إلى ربيعة غيرها　　　إن الحديد بغيره لا يفلح

وقد رثت الفارعة بنت طريف التغلبي اخاها الوليد بقصائد رائعة تقول فيها :

أيا شجر الخابور مالك مورقا　　　كأنك لم تحزن على ابن طريف

فتى لا يحب الزاد إلا من التقى　　　ولا المال إلا من قنا وسيوف

وحين استقبل الرشيد يزيد الشيباني في البلاط تبسط معه ورحب به ، وسماه «الاعرابي» وداعبه قائلا : ما أكثر أمراء المؤمنين في ربيعة ؟

فقال يزيد : نعم يا أمير المؤمنين ، ولكن منابرهم الجذوع !

وتحرك بلال الشاري سنة 214هـ/ 829م[40] في عهد المأمون العباسي فوجه إليه الخليفة ابنه العباس وفي معيته عديد من القادة الذين استطاعوا اخماد الحركة وقتل المتمرد . وهي حركة قليلة الاثر وتداخلت مع حركات قبلية اخرى .

الإمامة الاباضية في عمان:

مقدمة: إن دراسة التاريخ السياسي لاقليم عمان لا يمكن أن يتم كما يشير إلى ذلك ولكنسون[41] دون دراسة اصول التنظيمات القبلية وانماطها وعلاقة ذلك بالأمامة ذلك لإن هناك ثلاث ظواهر تتحكم في تاريخ هذه الاقليم: القبلية- الامامة- ثم الصراع بين العمانيين والاجانب للسيطرة على الساحل العماني لأهميته الاقتصادية.

وقد استطاع بنو الجلندي الازديون طرد الفرس من الاقليم والسيطرة على عمان بما فيه من جبال وصحارى، بينما بقيت جماعات فارسية غازية تتمركز على الساحل[42].

ولا تشير مصادرنا بصورة دقيقة متى اصبحت الاباضية العقيدة الواسعة الانتشار في عمان ويرى الدكتور باثيرست[43] إنه ربما كان هناك ائمة خوارج قبل الاباضية.

على أننا نعتقد بأن تأسيس الإمامة الاباضية يعود في الاعم الاغلب إلى الاندحارات التي منيت بها الحركة الاباضية في اليمن والحجاز، وهرب الخوارج الذين اشتركوا في هذه الثورات إلى اقليم عمان. ولم يتم تكوين هذا الكيان السياسي الاباضي إلا بعد سقوط الأمويين ومجيئ العباسيين حيث انتخب خوارج عمان الجلندي بن مسعود اماماً أولا نحو سنة 135هـ/ 752م، أو قبل ذلك بقليل، ولكن لماذا اقليم عمان... ؟ ربما يعود ذلك إلى وجود جماعات خارجية في هذا الاقليم قبل هذا التاريخ.

هذا إضافة إلى أن قبائل الازد اليمانية اعتادت على نوع من عدم الخضوع للدولة المركزية، ولعل الشواهد الكبيرة في صدر الإسلام تثبت صعوبة السيطرة على قبائل هذا الاقليم.

ولكن الأهم من هذا وذاك الموقع الجغرافي وصعوبة الطبيعة في هذا الاقليم: موقع جغرافي ممتاز يتحكم بمدخل الخليج، ويقابل البحر العربي الذي يتصل بالمحيط الهندي ذي الأهمية التجارية والاستراتيجية. أما في الداخل فالاقليم يختلف في

طبيعته من جبال وعرة ، إلى سهول منبسطة خصبة ، إلى صحراء جرداء قاحلة ، و لهذا فيمكننا تشبيه عمان بجزيرة يحدها البحر من الشرق والجنوب ، وتحدها الصحراء (البحر الرملي) من الغرب فتفصلها عن بقية الجزيرة العربية .

لقد أثرت هذه الطبيعة الجغرافية في أهل عمان ، فقد أخذوا على البحر وعرفوا بكونهم مهرة ، ولكن لم يشغلهم البحر عن ارتباطاتهم الوثيقة باخوانهم ببلاد العرب ، وخاصة حضرموت فكانت هناك اعداد كبيرة من ابناء القبائل اليمانية المهاجرة إلى عمان قبل الإسلام وبعده وقد ساعدت الجبال الشاهقة والوعرة سكان هذا الاقليم على الاعتصام بها في حالة دخول اجنبي غاز عبر الخليج . وبعد أن ينظم العمانيون انفسهم ويستعدوا للمجابهة ، يهاجمونهم ويجبرونهم على ركب البحر والعودة من حيث اتوا . وفي هذا المجال ابتدع العمانيون أسسا وطرقا بحرية للدفاع عن بلدهم .

ومنذ تأسيس الامامة الاباضية أو كما يسمونها هم «الامامة الإسلامية» ببيعة الإمام الأولى الجلندي ، لم تشهد عمان استقراراً كافياً ، بل تناوبت فيها السلطة بين الإئمة وبين ولاة السلطة العباسية .

فقد استطاعت الخلافة العباسية في عهد أبي العباس أن تعيد سلطاتها على عمان سنة 136هـ/ 753 م حيث ارسلت جيشاً بقيادة خازم التميمي استطاع ان يسقط الجلندي بن مسعود .

ثم عادت الامامة الاباضية لتحكم الاقليم في نحو سنة 177هـ أو قبل ذلك بقليل حيث حكم البلاد خمسة أئمة متتابعين حتى 274هـ/ 887م ، واستطاعت إذ ذلك من صد هجمات السلطة العباسية والقراصنة على الساحل العماني .

إلا إن العصبيات القبلية والاضطرابات الداخلية ادت إلى سقوط اخر هؤلاء الخمسة فتردت البلاد إلى حالة الارتباك وعدم الاستقرار ، كان نتيجتها استنجاد التزارية بوالي البحرين العباسي سنة 281هـ/ 893 / 894م .

إن المنعطف المهم في تاريخ الإمامة الاباضية في عمان يعود إلى حملة سنة 281هـ، فقد اعد الخليفة العباسي المعتضد جيشاً قويا اعطى قيادته لوالي البحرين الذي اجتاح الاقليم واعاد النفوذ العباسي إليه.

ولكن سيطرة العباسيين كانت وقتية، فقد اقصى الوالي العباسي وتقلد حكم الاقليم ثمانية أئمة اباضية، جاءوا بطريقة الانتخاب حتى سنة 319هـ/ 930-931م حينما نجح القرامطة في مد نفوذهم إلى عُمان، ومع ذلك فقد بقيت اجزاء من عمان تحت حكم الأئمة، حيث حكم خلال هذه الفترة بالذات ثلاثة ائمة ثم استطاعت قوة عباسية جديدة أن تتحكم بالاقليم سنة 332هـ/ سنة 943م بصعوبة حيث جابهتها ثورات خارجية اباضية متعددة. وقد تميزت هذه الفترة بصراع بين ائمة الاباضية من جهة، وبين البويهيين والقرامطة من جهة اخرى للسيطرة على عمان.

نجحت السلطة العباسية في اكتساب الاعوان من زعماء القبائل وشيوخ المحليين ليكونوا سنداً لهاضد الاباضية ورغم ذلك فإن اعوان الخوارج وانصارهم كانوا كثرة في هذا الاقليم وبقوا إلى فترة متأخرة.

إن الاضطراب السياسي وعدم الاستقرار ومضايقات السلطة العباسية والقرامطة لم تؤثر كثيرا في تجارة عُمان. فقد استمرت التجارة في ازدهارها وحققت لهذا الاقليم احيانا، وفرة ورخاء.

نشوء الامامة الاباضية في المغرب الإسلامي وعلاقة ذلك بالمشرق:

يؤكد الازكوي دور البصرة في نشر العقيدة الاباضية بالمغرب الإسلامي، وفي المؤلف بابا ضمن (ذكر انتشار المذهب الاباضي بأرض المغرب وذكر ائمتهم وعلماءهم) وقبل ان نستشهد بنصوص تاريخية، نود أن نشر، بأن أرض المغرب كانت أرضاً خصبة لنشر العقيدة الخارجية حيث انتشر المذهب الاباضي في مناطق شاسعة رغم أنها متناثرة.

وبقدر ما يتلعق الأمر بالاباضية، فقد انتخب أبو الخطاب أول عام سنة 140هـ/

757-758م. وبعد ذلك بأربع سنوات (سنة 144هـ 761م)، أسس عبدالرحمن رستم حكما اباضيا في تاهرت، كتب له في المستقبل، أن يؤثر في مجموع الحركة الخارجية في افريقيا، وتمتع أئمة تاهرت بشهرة و اسعة وصلت المشرق العربي وتشير روايات عديدة إلى بعثات ذهبت من المشرق إلى ابن رستم، محملة بالنقود المالية والهدايا العينية.

ويظهر أن خوارج المشرق العربي من الاباضية خاصة رأوا في تأسيس الإمامة الخارجية في المغرب امكانية احياء العقيدة الخارجية الاباضية ولذلك ارتأوا مساندة الحركة الخارجية بالمغرب بالمال والنصح منذ السنين الأولى.

العباسيون وخوارج افريقيا:

لقد اصبح أبو الخطاب عبد الاعلى بن السمح اماما للخوارج الاباضية في طرابلس وكون كياناً سياسيا يمتد حتى مدينة قابس، ثم أنضم إليه المغرب الاوسط، واستطاع أن يتغلب على ورفجوحة التي كانت تدين بالمذهب الخارجي الصفري. وقد ارسل المنصور محمد بن الاشعث الخزاعي بجيش كبير للقضاء على أبي الخطاب، وكان ابن الاشعث قائداً مجرباً يتمتع بدهاء وخبرة، واستطاع أن يكيل لابي الخطاب واتباعه، ودخل معهم في معركة رهيبة انتهت بقتل أبي الخطاب وارسال رأسه إلى المنصور، وكان ذلك في ربيع الثاني سنة 144هـ.

ولكن افريقيا بقيت مضطربة كثيرة القلاقل، ولعل كثرة عزل وتعيين الولاة العباسيين يعتبر مؤشراً بارزاً على عدم الاستقرار. فقد استمر عبدالرحمن بن رستم والي أبي الخطاب على افريقيا في بث المذهب الخارجي في المغرب الأوسط، وتمركز بتاهرت، في منطقة ذات جبال وعرة شاهقة، مما جعل مهمة ابن الاشعث في القضاء عليه مهمة صعبة، وفي سنة 148هـ بايعت زناته القبيلة البربرية كبيرة العدد ابا قرة الصفري اماما لها، وبهذا اصبح المذهب الخارجي الصفري منتشراً في المغرب الاوسط والاقصى، ولكن الوالي العباسي الاغلب بن سالم هاجمه سنة 150هـ، دون أن يلحق به خسارة كبيرة.

إن العصبيات القبلية وسوء علاقة الولاة بالقادة والجند كانت حجر عثرة في

سبيل تحقيق أهداف السلطة المركزية العباسية في القضاء على الخوارج. ثم أن الذي يسترعي النظر تحالف عبدالرحمن بن رستم الاباضي مع ابي قرة الصفري في حروبهما ضد العباسيين. فقد استنجد أبي قرة الصفري عدة مرات بالاباضية التي كانت مدداً وسندا له في أثناء الحملة التي قادها الوالي العباسي عمر بن حفص هزارمرد، بل إن المقاييس العسكرية انقلبت حين استطاع الخوارج من اباضية وصفرية محاصرة عمر بن حفص في القيروان وقتله في معركة حامية.

والواقع فإن الوالي العباسي الذي استطاع أن يضبط أمور افريقيا هو يزيد بن حاتم المهلبي ودامت ولايته خمس عشرة سنة من(155هـ - 171هـ) وقد تمسك الخلفاء العباسيون به، وبعد وفاته اختار الرشيد لافريقيا داود بن يزيد المهلبي لمرافقته لوالده، الوالي القدير في حروبه هناك مما زاد في تجربته عن احوالها.

على أن افريقيا تحركت بعد وفاة يزيد المهلبي فثارت الصفرية بجبال باجة وتمردت الاباضية في نفرار فولى الرشيد روح بن حاتم المهلبي سنة 171هـ، وجهزة بجيش كثيف ليهدئ الحالة، وقد حاول هذا الوالي أن يقر الاوضاع على حالها فلم يستفز الاباضية في تاهرت ولا الصفرية بجبال باجة.

وهكذا انقسم الاقليم إلى مناطق نفوذ عباسية وخارجية وادريسية (نسبة إلى ادريس الحسني)، وبقيت الحالة هادئة حتى انتفض ابن الجارود سنة177هـ، وفي سنة 183هـ خرج ثمام بن تميم على الوالي محمد بن مقاتل العكي، ودخل القيروان وعزل الوالي العكي، وكان تعيين الرشيد لإبراهيم بن الاغلب بداية نشوء الامارة الاغلبية سنة 184هـ واستقرار الاوضاع السياسية والإدارية هناك لقد ارسل العباسيون صناديد قادتهم من العرب لضبط الحالة في افريقيا والمغرب، ورغم أن عددا منهم نجح في تهدئة الحالة، لكن الهدوء كان وقتيا، مما دعا السلطة العباسية إلى الاعتراف بالأمر الواقع والقبول ضمنا بتقسيم افريقيا إلى مناطق نفوذ متعددة. ولعل ذلك كان السبيل الوحيد امام العباسيين للحفاظ على ما تبقى لهم من سلطة في افريقيا.

ولقد بقيت هذه الحالة سمة بارزة لاوضاع افريقيا خلال الفترة التي نبحثها.

الحركات الأموية في عهد الرشيد وبعده

استمر التشيع للأمويين. ولابد أن نشير إلى أن تبلور التشيع الأموي إلى حركة دينية سياسية لم يكن بصورة الولاء السياسي لهم فقط، بل يعود كذلك إلى الموقف الذي تبنته جماعات من «أهل السنة» التي كانت معارضة للعباسيين كالنابتة والكرامية وجماعات من الحنابلة والحشوية.

الحركات السياسية:

لم يستطع أهل الشام أن ينسوا مميزات الأمويين وفضائلهم على القبائل العربية والسورية بصفة خاصة. فلقد تمتعت بلاد الشام بأوج عزتها السياسية وازدهارها الاقتصادي خلال القرن الذي حكم فيه الأمويون، وتولاها معاوية وحده اربعين سنة، عشرين سنة أميرا وعشرين سنة خليفة، لم يكن فيها متزمتا ضيق الفكر طور الإدارة، مقتبسا ما عند البيزنطيين من مظاهر ايجابية، محتفظاً بتقاليد العرب المسلمين في الشورى واستشارة ارباب الرأي، فانجذبت إليه قلوب الزعماء وأهل الكفاءة والهمة، ونجح في أن يستميل الاخرين بالعطاء أو الاقناع أو الاغضاء أو الوعيد والارهاب، ولعل سياسته تظهر من قوله[44]:

«لا اضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا اضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت».

وبث معاوية لنفسه واسرته دعاية واسعة، وركز على بلاد الشام وأهلها، واستخدم في ذلك القصاص في المساجد والأماكن العامة والاسواق وقد سار العديد من خلفاء الأمويين سيرة معاوية، من حيث المرونة السياسية واصطناع الاراء التي تتمثل بقوله: «إني لا احول بين الناس وبين السنتهم مالم يحولوا بيننا وبين سلطاننا» فلا يستغرب أن يتعلق أهل الشام بذكرى الأمويين ويستمروا في حركاتهم السياسية والسفيانية ضد العباسيين.

ففي سنة 176هـ، ثارت الفتنة بين اليمانية والقيسية، وقتل من الطرفين ما يقدر

بالف رجل، ويعلق ابن كثير على هذه العصبيات القبلية فيقول: «اعادوا ما كانوا عليه في الجاهلية» ولما تفاقمت ارسل الرشيد موسى بن يحيى البرمكي فأقر الاوضاع ونفى جماعة من رؤسائهم إلى بغداد[45].

وفي سنة 180هـ [46] تحرك أبو الهيذام شيخ القيسية (المضرية) واحد فرسان العرب البارزين فهزم جيوش السلطة العباسية، مما دفع الرشيد إلى ارسال جعفر البرمكي فاصلح الحالة وقتل زواقيلهم والمتصلصة منهم.

ولم تهدأ الحال بل اضطربت الشام سنة 187هـ. ولابد أن نلاحظ أن سبب هذه الفتن كان يعود إلى سوء تصرف الوالي العباسي وتعصبه لبعض القبائل، يقول ابن عساكر عن الوالي سهل بن خازم بن خزيمة: «وذكروا منه تعصبا». فارسل الرشيد محمد بن منصور ليتحمل ديات القتلى من بيت المال، ويولي من يختار الفريقان اليمانية والمضرية.

وثار أهل حمص سنة 190هـ، ولكن الفتنة انطفأت بسرعة، وفي سنة191هـ تحرك أبو الفدا في الشام، ولم تنته هذه الفتنة حتى تحرك أهل حمص سنة 194هـ فقاتلهم الأمين حتى طلبوا الامان.

وفي سنة195هـ، ظهر بالشام عبدالله بن خالد بن يزيد بن معاوية وادعى أنه السفياني المنتظر ولقبه الناس بابي العميطر، ونشر الدعاية لنفسه، فكان اعوانه يدعون له على أنه «المهدي المنتظر» وكثر اتباعه من اليمانية، واحتل دمشق ونهب دور القيسية من أهلها، وطرد الوالي العباسي سليمان بن المنصور[47].

ولكن احد الزعماء القبليين قاومه بشدة، وهو محمد بن صالح بن بيهس الكلابي وكتب له العميطر كتابا يحثه على البيعة له ويحذره العاقبة دون جدوى، واستمر القتال بينهما سجالاً حتى استطاع ابن بيهس أن يحتل الشام ويقبض على السفياني وانصاره. ولكنه لم يكن شديداً معهم واوصى جماعته بالرفق ببني امته. ولبس ابن بيهس الثياب الحمر وجعل اعلامه حمرا، وقرب القيسية وجعلهم خاصته. ومنذ سنة 198 هـ حتى مجيئ عبدالله بن طاهر سنة208هـ، ظل ابن بيهس متغلبا على

الشام . و في طريق عودته إلى العراق من مصر 216 هـ اخذ عبدالله بن طاهر ابن بيهس معه إلى العراق[49] .

وكان ابن بيهس قد قضى خلال هذه الفترة على حركة أموية اخرى قادها سعيد بن خالد الأموي الذي ادعى الخلافة في حوران وقتل القيسية ، فطرده ابن بيهس جنويا وانعزل في حصن بالأردن . والظاهر أن هذه الاوضاع وخروج الثوار السفيانية الواحد بعد الاخر انعكست في قول المأمون : « . . . اما قضاعة فسادتها تنتظر السفياني وخروجه فتكون من أشياعه» .

واستمرت الحركات والاضطرابات القبلية في الشام ، ولعل ابرزها كانت حركة أبي حرب تميم اللخمي المعروف بالمبرقع سنة 227هـ في عهد الواثق وعده أعوانه (السفياني المنتظر) وانضمت لخم وجذام وقبائل كثيرة إليه ، ولم يناجزه القائد العباسي حتى وقت الحصاد حين تفرق عنه الكثير من انصاره فانقض عليه واسره . وكان سبب خروجه على ماتقوله رواية الطبري امتعاضه من تصرف الجند العباسي وقتله احد الجنود ثم هروبه حيث لبس برقعا ليخفي نفسه .

وفي سنة 240هـ حدثت حركتان : الأولى في حمص حيث اسر عدداً من زعمائها فضربهم المتوكل بالسياط حتى ماتوا وقتل كثيراً من المتمردين . والثانية في دمشق حيث قتل المتمردون والي العباسيين سالم بن حامد لسوء سيرته ، وكان رد فعل المتوكل عنيفا حيث استشار اصحابه في تعيين والٍ شديد شبيه بالحجاج على الشام . وقد اشير إليه بتعيين القائد افريدون التركي ، ولكن هذا القائد مات قبل أن يصل إلى دمشق ، ولكن المتوكل في الوقت نفسه تغاضى عن نزعة الولاء للأمويين في مجالات الفكر والثقافة ليجعل منها نزعة مضادة للتشيع العلوي وحدثت المفارقة حين حاول المتوكل نفسه أن يتخذ من دمشق ملجأ له ليتخلص من نفوذ الترك في سامراء ، ولكن ظروفه الحرجة جعلت اقامته قصيرة هذا إضافة إلى كره أهل الشام للحكم العباسي .

من ذلك كله ندرك بأن عوامل كثيرة تداخلت مع الولاء الأموي فجعلت بلاد الشام مسرحاً للقلاقل ، ومنها العصبيات القبلية القديمة ، والصراع على النفوذ

والسلطة بين زعماء القبائل والمتنفذين، وعدم تحمل هؤلاء للجند الخراساني، إضافة إلى تعصب الولاة العباسيين وتفضيلهم قبيلة على اخرى وسوء إدارتهم.

ولاية العهد والرشيد:

إن الصراع على السلطة بين الأمين والمأمون الذي استمر نحو خمس سنوات عجاف سالت خلالها دماء أهل العراق وأهل خراسان وانتهى بمقتل الأمين تعود في واقعها إلى ذلك القرار السياسي الخاطئ الذي اتخذه الرشيد بتقسيمه ولاية العهد والدولة بين ابنائه الثلاثة الأمين والمأمون والمؤتمن.

فقد اعطى الرشيد ابنه محمد ولاية العهد سنة 175هـ، وكان ابن عشر سنين فقط وولاه ولاية المغرب، وبعد سبع سنوات أي في سنة 182هـ/ 798م ولي الرشيد ابنه عبدالله ولاية العهد الثانية واعطاه ولايات المشرق وحين حج سنة 186هـ/ 802م كتب عهد احتاط فيه لاحدهما على الاخر واشترطت هذه العهود على محمد الأمين الوفاء لاخيه عبدالله المأمون وارسلت نسخ منه إلى العمال واثبتت في الدواوين وعلقت على جدران الكعبة. وجاء في نصها «إن محمداً الأمين إذا فعل غير ما ورد فيها فحقه يسقط في الخلافة»[50].

ولا جدال فقد كانت عهود الكعبة في صالح المأمون ولم يكن للأمين سلطة على اخيه في المشرق ولم يعط الحق في عزله أو التدخل في إدارة الولايات التي تحت نفوذه. بينما اعطى للمأمون إذا افضت الخلافة إليه الخيار في ابقاء اخيه الثالث المؤتمن أو عزله.

وفي سنة 189هـ/ 804م جدد الرشيد البيعة واعطى للمأمون جميع ما في العسكر من الأموال والسلاح ووجه الخليفة هرثمة بن اعين لكي يعيد البيعة على الأمين ومن بحضرته في بغداد للمأمون والمؤتمن.

إن النصوص الواردة بشأن هذه العهود والمواثيق تتضمن تعهدات من قبل الطرفين ولعل هذه التعهدات كانت متداخلة وتعتمد على توفر حسن النية بين الأمين والمأمون وهي صفة لم تكن متوفرة بين الطرفين مما ادى إلى زيادة الشكوك ولعب

الرجال الذين حولهما دوراً في تعميق الخلاف لمصالح شخصية وسياسية. فكان الفضل بن الربيع وعلي بن عيسى بن ماهان إلى جانب الأمين اما الفضل بن سهل وطاهر بن الحسين فكانا إلى جانب المأمون. ولا ننسى كذلك فإن «جماعة من بني العباس قد مدوا اعناقهم إلى الخلافة» أي طمعوا فيها. ويقول المسعودي حين كتب الرشيد الشرطين وعلقهما على الكعبة «استعظم الناس أمر الشرط والايمان في الكعبة»، ذلك لأن هذا التدبير لم يكن له سابقة من قبل ولكن نص تعهد الأمين يختلف في الطبري عنه في اليعقوبي في أمور جوهرية ثلاثة[52]:

أولها: تحديد المنطقة التي يحكمها المأمون من الري وهمدان حتى اقصر خراسان.

وثانيها: ذكر الطبري للقاسم بن الرشيد والذي عين ولياً للعهد بعد المأمون واعطاء حق اعفائه من ولاية العهد للمأمون. وثالثها حملة تشير إلى آن كل المسلمين مسؤولون امام الله تعالى بالمحافظة على ما في هذا العهد من شروط في صالح المأمون.

وسنفصل في الفصل التالي في النتائج التي أدت إليها خطة الرشيد حول ولاية العهد.

هوامش الفصل السادس

1- Harunal- Rashid E. (2)

2- الطبري، تاريخ، طبعة القاهرة، ج10ص،50- الجهشياري، الوزراء، 177.

3- المصدر السابق، ج10 ، 54.

4- الجهشياري، المصدر السابق، 177 ،178 ،240.

5- المقريزي، شذور ص، 11-12.

6- الجهشياري، ص 177.

7- Barmacides E. 1.(1)

8- الجهشياري، 265.

9- ابن الاثير، الكامل، ج 6 ص 65.

10- الطبري، ج 10 ص 72.

11- Harun al- Rashid E. 1 (2)

12- الطبري، ج10، 113.

13- ابن الطقطقي، الفخري، ص 143.

14- الجهشياري، ص 177.

15- المصدر السابق، ص 208، الطبري، ج 10، ص60-66.

16- اليعقوبي، التاريخ، ج 2 ، ص 494.

17- المصدر السابق، طبعة القاهرة، ج3، ص 143-144.

18- الجهشياري، ص 228، الطبري، ج10، ص 95.

19- نفس المصدر السابق.

20- ابن اعثم الكوفي، الفتوح، ورقة 248.

21- المصدر السابق، ورقة249أ.

22-راجع : مجلة الاكاديمية البولونية في روما، شباط 1958 مقالة لويكي عن الاباضية في تونس .

23- راجع مقالة (البرامكة) للدكتور فاروق عمر دائرة المعارف البريطانية، الطبعة الجديدة 1975 .

24- الجهشياري، ص 177، ابن خلكان، وفيات، ج 2 ص 443 .

25- الجاحظ، البيان، ج 1، ص 190 , 195 .

26- ابن كثير، البداية، ج 10، ص 215، المرتضى، المنية والأمل، ص 31 .

27- ابن الطقطقي الفخري 112 .

28- راجع : فاروق عمر . سقوط البرامكة، مجلة المؤرخ العربي، 1986 ، حيث الاستزادة من المصادر ذات العلاقة .

29- الاغاني، ج 11 ، ص 8-9 ، المسعودي، ج6 ،ص 272 . ابن النديم، الفهرست، ص 175، ابن الاثير، الكامل، ج6، ص 57 ، ويشير البيروني صراحة إلى أن اعداء يحيى البرمكي تكلموا عليه حين اراد أن يؤخر موعد جباية الحاصل بتأخير النوروز وقالوا يتعصب للمجوسية فاضرب عن ذلك (الاثار الباقية، ص 23 فما بعد) .

31- راجع : Harun el - Rashid E. I (2)

32-راجع : قحطان الحديثي، حركات الخوارج في خراسان، مجلة كلية الاداب، جامعة البصرة، عدد 6 ص 5-17 .

33- الازدي، تاريخ الموصل، ص 284 فما بعد .

34-تاريخي سيستان، طهران 1314، ص156 فما بعد .

35- G. Scarcia, lo Scambio di Lettess to Harun al- Rashid al Hawza el-Kharigi. Anuali, 1964, pp. 623 ff

36- الأزدي، المصدر السابق، 267- ابن الاثير، الكامل ،ج 6، 87 .

37- الأزدي المصدر السابق، 272 .

38- الازدي، 279- ابن الاثير، ج 6، 96 .

38- E., Salem, Political Theory and Iustitations of the Khawavij, T. H. U, 1955, pp. 32 f.

39-الازدي، 280 فما بعد- ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج2 ص 283 فما بعد- ابن الاثير، الكامل، ج6 ، ص 97، ابن عبد ربه العقد، ج2، ص 187 .

L. Vaglieri, le Vicerde del Harigismo..., R. S. O., 24, 1949- F. Omar, The Ahlasid Caliphote, Baghdad, 1969.

40- الازدي، 395فما بعد- الطبري، تاريخ، القسم الثالث، 1101 .

41- الازكوي، كشف القمة310 – E. I (20 Ibadiyya .

41- الازكوي، كشف القمة310 – E. I (20 Ibadiyya .

42- Wilknison, op. cit., p. 67 .

43- Bathurst, Maritime Tade... p. 90

44- محمد كرد علي، مميزات بني أمية، مجلة المجمع العلمي العربي، 1937 .

45- الطبري، ج10ص، 60– فاروق عمر، العباسيون الأوائل، الجزء الثالث، عمان 1982ص، 135فما بعد .

46- الطبري، ج 10ص، 66 .

47- الطبري، ج 10ص، 155 .

48- محمد كرد علي، خطط الشام، ص184 فما بعد .

49-فتحي عثمان، المصدر السابق، ج2ص، 167 .

50- الطبري، تاريخ، طبعة دار المعارف، ج 10ص، 73 .

51- المسعودي مروج، ج 3 364 طبعة القاهرة 1964م .

52-راجع التفاصيل: فاروق عمر، العباسيون الأوائل، ج 3ص 27-32 .

الفصل السابع

عهد الخليفة محمد الأمين 193هـ/ 808م- 198هـ/ 813م

- **الصراع بين الأمين والمأمون** 193هـ/ 808م- 198هـ/ 813م :

لقد تعددت تفاسير المؤرخين بشأن طبيعة هذا الصراع وحاول بعضهم أن يعتبره نزاعاً بين عرب وفرس اختل التوازن بينهما مرة أخرى مستندين إلى أقوال الفضل بين سهل للمأمون «أنت بين أخوالك وشيمتك» والواقع أن الأمين حاول أن يستفيد من أهل الشام سنداً له في هذا الصراع ولكنه فشل في مسعاه وكان عليه أن يتعظ بتجربة عبد الله بن علي العباسي واستفاد المأمون من أهل خراسان ، واعتمد اعتماداً كبيراً على الفضل بن سهل وطاهر بن الحسين وكان عليه أن يتعظ بتجربة اجداده مع أبي مسلم الخراساني والخلال والبرامكة .

حين خرج الرشيد من بغداد لقمع حركة رافع بن الليث سنة ١٩٣هـ كان يشكو من تدهور حالته الصحية ، وقد صحبه في هذه الرحلة المأمون والفضل بن سهل والفضل بن الربيع بينما بقي الأمين في بغداد وقد توفي الرشيد فعلاً في هذه الرحلة في طوس تاركاً وراءه مشكلة معقدة شغلته طويلاً وتخبط في وضع الحلول لها ألا وهي فكرة من سيعقبه في الحكم بعد وفاته؟ .

إن الحل الذي استقر عليه الرشيد ألا وهو تقسيم الدولة بين أبنائه الثلاثة كان حلا غير عملي من المحتمل أن يؤدي إلى انفجار الوضع السياسي في أية لحظة ويعتمد في دقة تطبيقه كما قلنا سابقاً توفر حسن النية وقوة شخصية الطرفين الأمين والمأمون بحيث تبعدهما عن تأثيرات رجال البلاد والحاشية وذوي المصالح ، ولا بد من أن نقر بعد ذلك كله أن الرشيد قد قسم الدولة فعلاً إلى شطرين لا يرتبط أحدهما بالآخر .

محمد الأمين خليفة:

في ظل هذه الظروف استلم الأمين الخلافة فأمر بمنح الجند عطاء يعادل مقدار رواتبهم لسنتين. أما المأمون فقد عاد من سمرقند إلى مرو وأخذ البيعة لأخيه ثم لنفسه ومنح الجند عطاءاً يعادل رواتبهم لسنة كاملة. كما أرسل هدايا عديدة لأخيه الأمين بهذه المناسبة، على أن الأمين أمر أن يعود الجيش الذي كان مع الرشيد إلى بغداد ولكن المأمون كان بحاجة إليهم لقتال رافع بن الليث خاصة أن الرشيد نفسه أوصى بأن يبقى الجيش بعهدة المأمون. وقد نفذ الفضل بن الربيع أوامر الأمين وعاد بالجيش إلى بغداد. من هنا بدأت العلاقة تتوتر ذلك أن الأمين كخليفة لا بد من أن يسعى إلى مد سلطته على كل الأقاليم بما فيها خراسان الواقعة ضمن سلطة المأمون. ومن الطبيعي كذلك، وكما حدث من قبل أن يحاول الخليفة الأمين خلع المأمون وإعلان ولاية العهد لابنه موسى. كل هذه الأمور كانت تخامر ذهن الأمين ومما زاد في تعنته حاشيته التي كانت تشجعه على الإسراع في خلع المأمون[1].

ففي سنة 193هـ عزل الأمين أخاه القاسم عن الجزيرة الفراتية وأبقاه على قنسرين والعواصم ثم استقدمه بعد سنة إلى بغداد. وفي سنة 194هـ أمر الأمين بالدعاء لابنه موسى بالامرة بعد الدعاء له وللمأمون والقاسم. وقد استوحش المأمون من ذلك فقطع البريد وأسقط اسم الخليفة من الطراز. فأرسل الأمين وفداً إلى خراسان يطلب من المأمون القدوم إلى بغداد يعرفه فيه حاجته إليه وإيثاره الاستعانة برأيه ومشورته! فحذره بن سهل من الذهاب إلى بغدا فاعتذر المأمون وأرسل رسالة إلى الخليفة يقول فيها:

«أما بعد فإن الإمام الرشيد ولاني هذه الأرض على حين طلب من عدوها ووهي من سندها وضعف من جنودها ومتى اخللت بها أو زلت عنها لم أمن انتقاضي الأمور فيها وغلبة أعدائها عليها بما يصل ضرره الي أمير المؤمنين حيث هو. فرأى أمير المؤمنين أن لا ينتقض ما أبرمه الإمام الرشيد»[2].

ولكن ذلك لم يمنع الأمين من إعادة الكرة لتوكيد سلطته على الأقاليم التابعة

لأخيه فطلب منه أن يتنازل له عن مناطق من خراسان تكون تابعة للسلطة المركزية وأن يقبل بتعيين صاحب البريد من قبل الأمين وهذا الأمر له أهميته الخاصة إذا علمنا أن مسؤولياته تتعدى البريد إلى مراقبة أعمال الولاة وأحوال الرعية والكتابة بشأن ذلك إلى الخليفة بشكل تقارير سرية مستمرة. ولكن الفضل بن سهل شجع المأمون على الرفض قائلاً بأن (محمداً تجاوز إلى طلب ما ليس له بحق).

والظاهر أن المأمون قد أدرك أن هذا الرفض معناه القطيعة فسيطر على الأحوال في خراسان وشدد الحراسة والأمن خاصة على الطرق الواصلة بين العراق وخراسان ويشير الطبري أنه[3]:

«حصر أهل خراسان من أن يستمالوا برغبة أو تودع صدورهم رهبة أو أن يحملوا على سؤال خلاف أو مفارقة».

وقد استمرت الرسائل تترى بين الاثنين الأمين يريد تأكيد سلطته والثاني يتشبث بالعهود والمواثيق على الإبقاء على ما في يده من سلطان وفشلت محاولات الخليفة كافة في كسب وجوه أهل خراسان إليه.

وكان لا بد للأمين تجاه هذا الصمود أن يعزل المأمون من ولاية خراسان ومن ولاية العهد كذلك ولكنه وقبل أن يقدم على هذه الخطوة قرر إرسال العباس بن موسى بن عيسى إليه علّه يقنعه في تقديم موسى بن الأمين على نفسه. ولكن الطلب رفض من قبل المأمون بتحريض من الفضل بن سهل كما ان المأمون هدد بان أي عمل يقدم عليه الخليفة في هذا الاتجاه سيعرض بقوة السلاح. ولكن الأمين أعلن سنة 195هـ/ 812م البيعة لابنه موسى بولاية العهد ولقبه (الناطق بالحق). أما المأمون فكان قد اتخذ لقب (إمام الهدى) دون أن يلجأ إلى إدعاء الخلافة لنفسه. وقد أرسل الأمين رسولاً إلى مكة لجلب الشروط التي كتبها الرشيد بشأن ولاية العهد وقد مزقها الأمين وحرقها. وفي جمادى الثاني سنة 195هـ / آذار 811م عهد الأمين بقيادة الجيش لعلي بن عيسى بن ماهان ووعده بولاية الأقاليم الشرقية وأرسله لقتال المأمون. ولم يضع المأمون وقته بل أعلن نفسه خليفة في 10 شعبان 195هـ/ مايس 811م وبويع من قبل أعوانه وحاشيته في خراسان.

ولم يستطع ابن ماهان أن يقابل جيش طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون ، فقد اندحر وقتل في المعركة وأرسل رأسه إلى المأمون. وتقدم طاهر نحو العراق بسهولة حيث لم يجابه في طريقه عقبة كبيرة. فقد استطاع طاهر بن الحسين وأحمد بن الحسين والحسن بن هرثمة من احتلال الأحواز وواسط والمدائن والكوفة والموصل والبصرة حيث أعلن اسم المأمون خليفة للمسلمين. كما أعلن أمير مكة داود بن عيسى بن موسى خلعه للأمين لنكثه بعهد أخيه وإحراقه الشروط المعلقة في الكعبة.

وقد حوصر الأمين في بغداد وتأزمت أوضاعه ثم أسر وقتل وأرسل طاهر برأسه إلى المأمون مع شارات الخلافة. وقد أصبح طاهر بن الحسين مسيطراً على الموقف والزعيم الذي لا ينازعه أحد ولكن سرعان ما طغت شخصية الفضل بن سهل عليه وعلى بقية القادة أمثال هرثمة بن أعين. فقد سيطر على الأمور الإدارية والعسكرية وأصبح يلقب بـ (ذي الرئاستين) متمتعاً بنفوذ لا حدود له. كما أصبح أخوه الحسن بن سهل والياً على العراق والأقاليم التابعة له. أما القادة العسكريون فقد حرموا، عن قصد، من الامتيازات التي كانوا يستحقونها!.

وإذا كان الأمين قد اندحر وقتل بسبب تفكك انصاره وقلة اخلاص القادة الذين حوله أمثال العباس بن موسى بن عيسى الذي بايع للمأمون في السر حين زار خراسان والفضل بن الربيع الذي اختفى عن الأنظار في رجب 196هـ/ 811م حين كان الأمين في أشد الحاجة إليه، وقد أثرت دعاية المأمون القوية في معنويات القادة الأنصار من جماعة الأمين. إذا كان ذلك قد حدث فإنه لم يحدث بسبب القابليات الخارقة للمأمون ذلك أننا يجب أن نحذر من المبالغات والدعاية التي بثها أنصار المأمون وهم الكتلة التي انتصرت في نهاية المطاف ولذلك نلاحظ كثيراً من الروايات التي أوردها الرواة كانت إلى جانب المأمون وهم حين يذكرون الأمين يطلقون عليه لقب (المخلوع). وليس من شك فإن لكل من الأخوين نقاط قوة ونقاط ضعف. فرغم أن الأمين أخطأ في تقليد أمرة الجيش إلى علي بن ماهان فإن وصيته له تدل على بعد نظر في أمور السياسة. كما أن الأمين كان ليناً مع قواد جيشه مثل الحسن بن علي بن عيسى الذي قام بحركة ضد الأمين سنة 196هـ، وقبض على الخليفة وأمه وسجنهما ولكن

الأمين أفلت من السجن بمساعدة الجند (الحربية) فلم يعاقب الحسين بل عفا عنه! وكان عند الأمين شهامة العربي وغيرته لقد كان بإمكانه أن يستعمل ولدي المأمون وحرمه كوسيلة لجلب المأمون إلى الطاعة ولكنه رفض الفكرة أصلاً قائلاً: «تدعوني إلى قتل ولدي وسفك دماء أهل بيتي؟» لقد قتل الأمين ولكن مشاكل الفتنة ونتائج الحرب الأهلية بقيت دون حل تواجه المأمون ووزيره الفضل بن سهل[4].

هوامش الفصل السابع

1- Al- al- Amin E.I.

2-الطبري ، تاريخ ، طبعة دار المعارف ، ج10ص 125 فما بعد . - الدينوري ، الأخبار ، 290-291 .

3- ابن الأثير ، الكامل ج6 ص 92 .

4-راجع التفاصيل لعملية الحصار في : ابن أبي طاهر طيفور ، تاريخ بغداد ، ليبزك ، 1904م .

الفصل الثامن

عهد الخليفة عبد الله المأمون 198هـ/ 813م- 218هـ/ 833م

حاول المأمون أن يستقر بمرو مركز خراسان معتمداً على مشورة الفضل بن سهل وعلى العون والمساعدة من أهل خراسان ولكنه واجه تحدياً عنيفاً من العراق المركز التقليدي للخلافة العباسية وخاصة من «أهل بغداد».

ولعل أهم ما يميز عهد المأمون عدا الازدهار العلمي ظواهر سياسية ثلاث :

أولاً : محاولته نقل مركز الدولة إلى خراسان وعاصمتها مرو.

ثانياً : التوفيق مع العلويين حين بايع علي الرضا بولاية العهد.

ثالثاً : اتخاذه الاعتزال مذهباً رسمياً للدولة.

ولعل هذه النقاط تعكس صفاته كرئيس دولة فقد كان مثقفاً وفيه دهاء وسياسية وحسن تدبير، ومن يتمعن في سياسته بعد تبوئه الخلافة يدرك بأنه كان ذا نزعة واقعية لا تخدعه الأماني ولا تجوز عليه الخدائع[1].

لقد برر المأمون قتل أخيه الأمين بإصدار منشور نص على :

«أما بعد فإن المخلوع وإن كان قسيم أمير المؤمنين في البيت واللحمة فقد فرق حكم الكتاب والسنة بينه وبينه في الولاية والحرمة لمفارقته عصمة الدين وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين»[2].

- أما الظاهرة الأولى، فقد ظل المأمون في مرو نحو خمس سنوات وكان الفضل بن سهل يحسن له البقاء في مرو متظاهراً بعدم الاستقرار في العراق ولعله كان يرمي

من وراء ذلك إلى نقل مركز الدولة إلى مرو. ولا شك فإن الفضل هذا ظل مجوسياً لم يدخل الإسلام إلا قبل وقت قصير ولذلك كان يحبذ التقاليد والثقافة الفارسية ويحاول إدخالها في مراسيم الدولة والبلاط العباسي مثله في ذلك مثل أسياده البرامكة الذين كان لهم الفضل في تقريبه وتدرجه في مناصب الدولة.

ويظهر أنه كان يحمل على كرسي مجنح حين يذهب لمقابلة الخليفة ويقول الجهشياري «وإنما ذهب ذو الرئاستين في ذلك مذهب الأكاسرة»[3]. كما أن الفضل بن سهل عين أخاه الحسن بن سهل والياً على العراق مكان طاهر بن الحسين ليكون بالإمكان إحكام السيطرة على الوضع في العراق والاطمئنان إلى عدم وصول أخباره إلى إذن الخليفة. واستطاع الفضل بن سهل كذلك أن يفرق بين المأمون وقائده هرثمة بن أعين الذي أصر على مقابلة الخليفة ليعرفه على أسباب الاضطرابات في العراق والجزيرة ويطلب إليه الرجوع إلى بغداد. وحين قابل هرثمة الخليفة عاتبه قائلاً «قدمت هذا المجوسي (يقصد الفضل) على أوليائك وأنصارك». ولكن الخليفة أمر بسجنه ثم دس إليه الفضل بن سهل من قتله.

إن بقاء المأمون في مرو أثار كثيراً من الامتعاظ بين العرب فعدا هرثمة بن أعين ونصر بن شبث الذي سنأتي على ذكره بعد قليل- أظهر نعيم بن خازم بن خزيمة التميمي وعبد الله بن مالك الخزاعي ويحيى بن عامر معارضتهم لسياسته الخراسانية، بسبب بعده عن الأرض العربية.

أما أهل بغداد فقد عارضوا سياسة المأمون هذه وتحدوه حين دعوا صالح بن المنصور ليبايعوه بالخلافه لكنه رفض فبايعوا ابراهيم بن المهدي، مما دعا المأمون بعد اطلاعه على ما يجري في العراق إلى العودة إلى بغداد سنة 204هـ/ 819م والتخلص أثناء سفرته إلى بغداد التي استغرقت نحو سنتين من علي الرضا والفضل بن سهل. ومهما يكن فإن أفضل تفسير للحرب الأهلية بين الأمين والمأمون وما حدث في أعقابها أنها مثلت صمود أهل العراق تجاه سياسة المأمون والفضل بن سهل الخراسانية.

حركة نصر بن شبث العقيلي[4]:

قال نصر العقيلي حين أعلن تمرده على المأمون:

«إنما هواي في بني العباس وإنما حاربتهم محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم».

على أن حركة نصر بن شبث العقيلي في الجزيرة تعتبر من ردود الأفعال الاقليمية تجاه سياسة المأمون الخراسانية. لقد كانت القبائل العربية الخراسانية العنصر الفعال في الثورة العباسية سنة 129هـ/ 132هـ فهم يشكلون أغلبية مويدي الدعوة العباسية يساعدهم في ذلك الموالي من الفرس، على أننا يجب أن نفرق بين فترة الثورة وبين ما حدث في أعقابها، فرغم أن العرب قاموا بالثورة ورغم أنهم احتفظوا بأغلب المراكز الإدارية والسياسية والعسكرية العليا بعد تأسيس الدولة العباسية إلا أنه ظهرت في هذه الدولة نزعة قوية تميل إلى إدخال بعض المظاهر الفارسية في الإدارة وأصول السياسة وتقاليد المجتمع، كما بدأ الموالي وخاصة من الفرس يتقلدون مناصب إدارية وسياسية مهمة وعلى ذلك فإن ما حدث في العصر العباسي هو أن العرب لم يفقدوا مراكزهم بل شاركهم فيها غيرهم من المسلمين من غير العرب، وهذا هو الفرق بين الدولة الأموية والعباسية.

وكان نصر من بني كعب بن ربيعة وأجداده من رجال بني أمية وكان مقيماً في كيسوم بشمالي حلب. وقد امتنع عن بيعة المأمون وتغلب على كيسوم وما جاورها ومنع أن يرسل خراج منطقته إلى بغداد ثم امتد نفوذه فشمل شمالي الشام والجزيرة حتى سميساط. وحين زاد عدد اتباعه وقويت شوكته بما اجتمع إليه من الأعراب وأهل الطمع، عبر الفرات إلى جانبه الشرقي مستولياً على القرى والمدن، ثم حاصر حران وقد أتاه اثنان من الشيعة العلوية واغروه بمبايعة خليفة من آل علي فقد قيل له «أيها الأمير قد وترت بني العباس وقتلت رجالهم. فلو بايعت خليفة كان أقوى لما أنت فيه. قال من أي الناس؟ قالا ترسل إلى بعض آل علي بن أبي طالب عليه السلام فتبايعه قال: أولي بني السوداوات إن كان يقول من وليته منهم إنه خلقني وإنه

يرزقني. ثم طلب إليه أن يبايع خليفة من بني أمية فرفض هذا العرض أيضاً قائلاً: «إن أولئك قد أدبر أمرهم والمدبر لا يقبل أبداً».

وقد مضت ثلاث سنوات ونصر العقيلي متغلب على منطقته وقد كان من الممكن أن يكون مصير العقيلي مصير غيره من المغامرين ورؤساء القبائل الشامية الحاقدين على الدولة العباسية التي أنهت امتيازاتهم القديمة والذين خبت حركاتهم بسرعة لولا أن طاهر بن الحسين الذي أرسله المأمون لمحاربته، كان يحقد على المأمون ووزيره الفضل بن سهل لانتزاعه من بلاد العراق منه «فقد ولى الفضل بن سهل أخاه الحسن على بلاد العراق وكتب المأمون إلى طاهر بن الحسين أن يمضي إلى الجزيرة لمحاربة نصر العقيلي وقد علق طاهر بن الحسين على ذلك قائلاً: «ما انصفني أمير المؤمنين» ويظهر من هذا القول أن طاهر بن الحسين كان يرى بأنه كان ينبغي توجيه قائد آخر لمحاربة نصر وأن منزلته والدور الذي لعبه في أثناء النزاع بين الأمين والمأمون تقضي بإنصافه. لذلك لم يكن طاهر بن الحسين جاداً في محاربته لنصر. بل إن نصراً استطاع أن يهزم جيش طاهر الذي عاد إلى الرقة بفلول جيشه وكان قصارى أمره الحفاظ على الأمن وسلطة الدولة في النواحي التي احتلها.

وبعد رجوع المأمون إلى بغداد سنة 203هـ اطلع عن كثب على الحالة في الجزيرة وتغلب نصر بن شبث العقيلي عليها فولى عبد الله بن طاهر بن الحسين الجزيرة والشام ومصر والمغرب وأمره بمحاربة التغلبيين بها فذهب عبد الله سنة 206هـ. أما طاهر بن الحسين فذهب عبد الله سنة 206هـ. أما طاهر بن الحسين فذهب إلى خراسان ولكنه لم ينس أن يكتب إلى ابنه كتاباً يحوي حكماً ووصايا سياسية وإدارية وأخلاقية. وقد شاع هذا الكتاب بين الناس وأعجب به الخليفة المأمون كذلك حتى قيل بأنه أمر بأن يكتب به إلى جميع العمال.

وقد حاصر عبد الله بن طاهر نصراً وضيق عليه فأوفد إليه المأمون رجلاً من أهل الجزيرة هو جعفر بن محمد ليعطي نصراً الأمان.

وقد قبل نصر بن شبث أمان المأمون بشرط ألا يطأ بساط المأمون ورفض الخليفة

هذا الشرط. وعلق على ذلك قائلاً: «أتراه أعظم جرماً عندي من الفضل بن الربيع ومن عيسى بن أبي خالد؟ والمعروف أن الفضل أخذ قواد المأمون وجنوده وسلاحه وجميع ما أوصى به إليه الرشيد وذهب به إلى الأمين وتركه في مرو وحيداً وأسند عليه أخيه فكان من أمره ما كان حيث عفا عنه المأمون».

وكتب المأمون إلى نصر بن شبث يهدده بالقضاء عليه وعلى اتباعه ومن انضوى تحته من الناس. وحين سمع نصر بن شبث علق على ذلك قائلاً: «ويلي هو لم يقم على اربعمائة ضفدع -يقصد الزط- تحت جناحه يقوى على حلبة الحرب». والظاهر أن الخليفة المأمون كان جاداً في أمانه لنصر إلا أن نصراً ذلك الشيخ العربي الحذر اشترط عدم مقابلة الخليفة وحين رفض الخليفة امتنع نصر عن التسليم خوفاً على نفسه وعلى قبيلته من إجراءات العباسيين وحفاظاً على كرامته حيث اعتبر إصرار المأمون تحدياً له. كما وأن ملاحقة عبد الله بن طاهر له وجده في قتاله خاصة بعد أن عنفه الخليفة وحثه على الاشتداد في القتال أجبرت نصراً على الاستسلام والقدوم إلى بغداد بعد أن استمرت الحرب خمس سنوات. وفي رواية غير متواترة إن نصراً لما علم عزم المأمون على القدوم إلى بغداد أملى على كتابه خطاباً للبطريق مانويل البيزنطي عارضاً التحالف مع الروم فلما علم الامبراطور ميشيل بذلك بعث رسله فوصلوا إلى كيسوم فوجدوه قد خرج إلى قرية سروج. ولكن اتباع نصر انكروا عليه اتصاله برسل الروم مما اضطره إلى إرسال من قتل هؤلاء الرسل. ويبدو أن الملاحم الرومية حفظت ذكرى ثورة نصر بن شبث وتسميه المصادر الرومية فيوفوبوس. ويشير ميشيل السوري أن نصراً كان يعامل المسيحيين برفق ويقول: «ليس عندكم إلا الجزية وكل فرد بعد ذلك حر في اختيار عقيدته. وخرج نصر بالأمان سنة 209هـ/ 825م واستسلمت كيسوم بعد مقاومة خمس سنوات. وسار عبد الله بن طاهر ليستقري الشام بلداً بلداً لا يمر ببلد إلا أخذ من رؤساء القبائل والعشائر والصعاليك والزواقيل وهدم الحصون وحيطان المدن وبسط الأمان للأسود والأبيض والأحمر وضمنهم جميعاً. ونظر في مصالح البلدان وحط عن بعضها الخراج فلم يبق مخالف ولا ضالع إلا خرج من قلعته وحصنه.

وقد دخل نصر العقيلي مع جمهرة من اتباعه بغداد في موكب حافل في صفر سنة 210هـ وأنزل مدينة (أبي جعفر) ووكل به من يحفظه. على أن بعض العباسيين والحاقدين على المأمون لم يرضهم الصلح وانتهاء الفزع والقضاء على الخلاف بين السلطة وثائر قوي فقطعوا جسر الزوارق الذي يمتد على عرض نهر دجلة عند اقتراب موكب نصر وقد قبض عليهم وكان المأمون قاسياً في عقابه لهم.

وبدخول نصر العقيلي بغداد ووقوعه تحت سلطة الخليفة انقطعت أخباره ويعترف الطبري بأنه لم يسمع عنه شيء بعد ذلك فيقول: «ولم أقف على خبر له بعد». ومن هذا الاستعراض لنصر العقيلي ولأخباره نقول بأن الرواة العرب المولعون بتصوير أمثال هذه المساجلات بين الخلفاء والثوار وإضفاء صبغة أسطورية فيها كثير من المبالغة قد أبدعوا في تصوير العلاقة بين الخليفة ونصر العقيلي، على أننا إذا طرحنا جانباً هذا التزويق بدا لنا بجلاء أن الدولة العباسية لم تعد تعيش في دور قوتها في أيام المنصور بل إن الحرب الأهلية قد أنهكتها وأن الخليفة كان يحاول بشتى وسائل الإغراء والتشويق أن ينهي ثورة نصر العقيلي التي طالت، أما نصر فيظهر بمظهر الرئيس القبلي الفخور والثائر المغامر الذي زخرت بأمثاله بلاد الشام في العصر العباسي الأول من أمثال حبيب بن مرة المري وأبي الورد مجزاة بن كوثر الكلابي وأبو الهيذام عامر بن عمارة وغيرهم. فقد خسرت بلاد الشام وقبائلها خسارة كبيرة بزوال الدولة الأموية حيث ذهبت امتيازاتهم بذهاب الأمويين. ولم يكن هدف نصر العقيلي حين ثار إسقاط الدولة العباسية بل جلب انتباهها إلى أهمية القبائل الشامية وخطورتها وبالتالي نيل حظوة الخليفة وقد أدرك الخليفة المأمون ذلك ولهذا فهو يسبغ عليه الوعود والامتيازات إذا رجع إلى الطاعة واستسلم.

لقد كان نصر ثائراً من أجل القبائل الشامية. أما ادعاؤه بأنه ثائر من أجل العرب الذي فقدوا مراكزهم للعجم فقول مبالغ فيه ذلك لأن الدولة العباسية في عصرها الأول لم تقدم العجم على العرب الذين احتفظوا بمراكز القيادة في السياسة والإدارة والجيش، ولكنها أشركت الموالي في هذه الوظائف والامتيازات. على أن الدولة العباسية التي قامت على أكتاف العرب من أهل خراسان والعراق وخاصة القبائل

اليمانية والربعية منهم كانت تنظر نظرة حذر وشك إلى القبائل، وهذا يفسر لنا سبب ثورة نصر بن شيث العقيلي وأمثاله من شيوخ القبائل السورية الذين كانوا يمثلون الفروسية العربية من الطراز الكلاسيكي بكل ما في ذلك من معان.

محاولة طاهر بن الحسين الانفصال بخراسان:

بعد أن قتل المأمون الفضل بن سهل برزت شخصية فارسية جديدة هي شخصية طاهر بن الحسين الذي أصبح صاحب الشرطة ببغداد سنة 204هـ ثم أصبح والياً على خراسان والجبال سنة 205هـ وكان طاهر ذا طموح كبير وكان يرغب أن يتولى خراسان وقد أدرك الخليفة ذلك وكان يرى أنه سينفصل عن الدولة في حالة تثبيت مركزه هناك. وهذا ما حدث فعلاً سنة 207هـ/ 822م حين قطع طاهر الخطبة للخليفة. وقد استطاع الخليفة أن يقتل طاهراً بطريقة أو بأخرى ولكنه لم ينجح في إزاحة آل طاهر من خراسان حيث خلف طلحة أباه طاهر ثم جاء بعده أخوه عبد الله بن طاهر فترسخت الإمارة الطاهرية في خراسان[5].

اضطرابات القبائل العربية في الاقليم المصري:

استفحلت العصبية القبلية في مصر بين القيسية التي ناصرت الأمين واليمانية التي انحازت إلى المأمون سنة 214هـ/ 829م ولكن الانتفاضة تطورت إلى حركة عارمة سنة 216هـ حين انتفضت أسفل الأرض عربها وقبطها وأخرجوا العمال لسوء سيرتهم وخلعوا الطاعة، مما جعل الخليفة يخرج بنفسه إلى مناطق الحركة وجعل قيادة الجيش إلى الافشين. ويظهر أن أساس التمرد يعود إلى شدة العمال في جباية الخراج من المزارعين من عرب وقبط. ولذلك فقد عزل المأمون عامل الخراج كما جلب معه بعض زعماء الحركة إلى العراق، ومع ذلك فقد ظل المأمون يعتقد بأن الحركة كان يجب ألا تتطور بالشكل الذي تطورت إليه من تمرد مسلح على السلطة.

عوامل التفكك ترجح وعوامل التماسك تتضاءل:

بدأت عوامل التفكك تظهر بقوة منذ عهد الرشيد حيث نشأت إمارة الأدارسة في المغرب وإمارة الأغالبة بتونس (افريقيا)، وفي عهد المأمون وبسبب ظروف الحرب الأهلية وفقدان قوة السلطة المركزية انفصلت الإمارة الطاهرية بخراسان. وقد فعل محمد بن ابراهيم الزيادي باليمن ما فعله طاهر بن الحسين بخراسان وبنى مدينة جديدة له هي زبيد سنة204هـ/ 820م سنةثم توارث الإمارة أولاده وأعوانه من بعده.

إن السلطة المركزية في بغداد على عهد المأمون لم تقف مكتوفة الأيدي تجاه عوامل التفكك هذه بل كانت تحاول جاهدة أن ترجح عوامل التماسك فقد رأينا كيف تخلص المأمون من طاهر بن الحسين، كما أننا نعتقد بأن ما أمر به سنة 212هـ من لعن معاوية على منابر بغداد والأمصار كان بمثابة إعداد للرأي العام موجه ضد الأمويين في الأندلس في عصر عبد الرحمن الأوسط وربما كان ينوي أن يشن حملة عسكرية على معقلهم في الأندلس كما حاول ذلك قبله المهدي والمنصور.

سياسة المأمون الاعتزالية:

كان العباسيون متقلبين في سياستهم الدينية في عهود خلفائهم الأوائل وبعد تجارب عديدة مع اتجاهات دينية مختلفة مال العباسيون إلى أهل الحديث وكونوا علاقات شخصية قوية مع كثير منهم وذلك لجعلهم سنداً للخلافة.

وحين جاء المأمون إلى الخلافة قرب الفلاسفة والمتكلمين وكان فيه ميل إلى العلم والثقافة حيث جمع في (بيت الحكمة) أمهات الكتب العربية وغير العربية مع مئات العلماء والمفكرين والمترجمين. وجمع في بلاطه الفلاسفة والعلماء وكانوا يتدارسون القرآن والحديث والفقه والمسائل المتفرعة عنها، ولكن المأمون كان يميل إلى آراء المعتزلة ويعجب بأدلتهم العقلية والنقلية ولذلك أصبح أحمد بن أبي داود المعتزلي ذا نفوذ كبير في دولة المأمون.

وتعرف المعتزلة بأنها أول مدرسة كلامية في الإسلام وأنها استطاعت أن تثبت

الأصول العقلية للعقيدة الإسلامية[6] . ولا شك أنها لعبت منذ نشأتها على يد واصل بن عطاء الغزال وعمرو بن عبيد في نهاية القرن الأول الهجري دوراً كبيراً في تاريخ الفكر الإسلامي، وهناك نظريات عديدة في أصل المعتزلة. ولكن الذي يهمنا منها في هذا المجال النظرية السياسية عمل المعتزلة التي قال بها بعض المؤرخين[7] . وتشير هذه النظرية إلى الاعتزال بدأ سياسياً في حرب صفين ومعركة الجمل ظهرت جماعة يطلق عليهم المعتزلة لامتناعهم عن مناصرة الفريقين المتنازعين ووقوفهم على الحياد، وأن اتباع واصل بن عطاء هم استمرار فكري لموقف عملي سابق وليس من شك فهناك نقاط قوة ونقاط ضعف بشأن هذه الفرضية وأن مؤيديها لم يتوصلوا إلى استنتاجات متشابهة حولها. وللمعتزلة أصول تميزهم عن غيرهم من الفرق «فليس منهم أحد يستحق اسم اعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة: التوحيد والعدل والوعد والتوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[8] .

وتتشعب من هذه الأصول مسألة مهمة في تاريخ الاعتزال وهي مسألة خلق القرآن التي اصطلح عليها اسم (المحنة). فكانت المعتزلة تقول بأن القرآن مخلوق انطلاقاً من مبدأ نفي صفات المعاني عن الله تعالى ومنها الكلام فالقرآن مخلوق لأنه مجموعة من الحروف والأصوات يخلقها الله، ولا يمكن اعتباره قديماً وغير مخلوق لأن ذلك يؤدي إلى مشاركة القرآن صفة من صفات الله وهي القدم والأزلية. فالله وحده لا شريك له أما إذا اعتبرنا القرآن غير مخلوق فقد شارك الله في صفة من صفاته عز وجل.

ولكن أهل الحديث عارضوا المعتزلة وتصلبوا في موقفهم، وتصلب المعتزلة كذلك في موقفهم خاصة أن المأمون اتخذ الاعتزال مذهباً رسمياً للدولة والواقع أن المعتزلة الذين نادوا بحرية الرأي والإرادة وسيادة العقل تعسفوا حين وصلوا إلى كرسي الحكم واضطهدوا مخالفيهم في الرأي الذين قالوا بأن القرآن غير مخلوق فكانت المحنة التي قاسى منها أحمد بن حنبل واتباعه الأمرين. ومما لا شك فيه أن المأمون نفسه أيد مدرسة المعتزلة هذه وقد وضح موقفه في كتابين أرسلهما إلى اسحق بن إبراهيم وقال فيهما يرد على وجهة نظر أهل الحديث[9] :

«وتزين في عقولهم ألا يكون مخلوقاً فتعرضوا بذلك لرفع خلق الله الذي بان به عن خلقه وتفرد جلالته بابتداع الأشياء كلها بحكمته وينشأئها بقدرته والتقدم عليها بأوليته التي لا يبلغ أولها ولا يدرك مداها وكأن كل شيء دونه خلقاً من خلقه وحدثاً هو المحدث له وإن كان القرآن ناطقاً به ودالاً عليه وقاطعاً للاختلاف فيه وضاهوا به قول النصارى في ادعائهم في عيسى بن مريم أنه ليس بمخلوق ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم ونسبوا أنفسهم إلى السنة وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته مبطل قولهم ومكذب دعواهم يرد عليهم قولهم ونحلتهم ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة وإن من سواهم أهل الباطل والكفر والزندقة فاستطالوا بذلك على الناس وغرروا به الجهال.

وقد عظم هؤلاء الجهلة بقولهم في القرآن الثلم في دينهم والجرم في أمانتهم وسهلوا السبيل لعدو الإسلام».

إن الاضطهاد الذي عانى منه أهل الحديث وخاصة بعد عهد المأمون حيث توفي بعضهم من الضرب والسجن في عصري المعتصم والواثق زاد شعبيتهم بين جماهير الناس وكان من الممكن ان يكون للمحنة ردود أفعال مساوية في العنف في عهد المتوكل حين سيطر أهل الحديث لولا سيطرة المتوكل على الأمور.

سياسة المأمون تجاه العلويين[10]:

لقد كان للظروف الصعبة التي مرت بها الخلافة العباسية أثناء الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون 193هـ -198هـ/ 809م -814م من انتشار الفوضى وعدم الاستقرار السياسي وانعدام السلطة ، أن انتهزت العناصر المعارضة للعباسيين الفرصة ، فقامت بثورات في أقاليم مختلفة في العراق والحجاز واليمن. فلم يكد المأمون يتسلم السلطة حتى فوجئ بثورة أبي السرايا السري بن منصور الشيباني بالكوفة سنة 199هـ/ 815م باسم ابن طباطبا العلوي ، وبعد نجاحه في الكوفة أرسل أبو السرايا جيوشاً لاحتلال المدن الرئيسة ، فأرسل الحسين بن الأفطس ومحمد بن سليمان إلى الحجاز ، وأرسل إبراهيم بن موسى بن جعفر إلى اليمن. ويشير الطبري إلى «انتشار الطالبيين في

البلاد» مما يدل على النجاح الذي حققه أبو السرايا الذي كان يلعب دوراً مباشراً أو غير مباشر في كل الثورات العلوية في الأقاليم الأخرى أيضاً عدا العراق. ولعل سبب هذا النجاح يعود إلى ملل أهل العراق من الاضطراب وعدم الاستقرار السياسي فأملوا أن حكماً جديداً ربما يحقق لهم الاستقرار، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن أهل العراق كانوا ساخطين على المأمون الذي نقل مركزه إلى خراسان، وعلى سياسة الفضل بن سهل الموالية إلى الفرس، واستبداده برأيه وغلبته على الخليفة.

حركة أبي السرايا السير الشيباني:

لم يكن المأمون موفقاً في إكرامه للأركان الأربعة التي حققت له النصر على الأمين ففي الوقت الذي أغدق الامتيازات والمناصب على الفضل بن سهل وأخيه الحسن الذي أصبح والياً على العراق والمشرق، لم ينل القائدان طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين شيئاً، فقد أمر طاهراً بالتوجه إلى الرقة والاستعداد لمجابهة ثورة نصر بن شبث العقيلي أما هرثمة بن أعين فقد دعي للتوجه إلى خراسان. إن هذه الاجراءات كانت دون شك من بناة أفكار الفضل بن سهل (ذو الرئاستين) الذي كان يخشى اتساع نفوذ طاهر بن الحسين، وكان يطمع أن يحل أخاه الحسن محل طاهر في ولاية العراق التي احتلها طاهر بجيشه، وكان يأمل أن يحكمها بنفسه.

على إن انتصار آل سهل على القائدين العسكريين كان له رد فعل من نوع آخر في العراق، حيث فسره أهل العراق على اعتبار أنه تأكيد لما يشاع من استبداد آل سهل وغلبتهم على المأمون الذي لا يزال في العشرينات من عمره، فزاد في ثورة العراقيين الساخطين على آل سهل الذين نقلوا مركز الدولة إلى مرو بدلاً من بغداد، ولعل هذه الظروف هي التي فجرت ثورة أبي السرايا في الكوفة.

إن ثورة أبي السرايا السري الشيباني تذكرنا بثورة المختار الثقفي في الكوفة قبل أكثر من قرن وربع القرن، فلقد ثار المختار باسم محمد بن الحنفية الذي لم يلعب دوراً رئيساً بالثورة بل كان شخصية معنوية، وربما استغل المختار اسمه دون رضاه، وكذلك كان أبو السرايا الزعيم الحقيقي لثورة الكوفة سنة 199هـ، أما ابن طباطبا (محمد بن

ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي) فلم يعلب إلا دوراً ثانوياً ومعنوياً. ولم تكن ظاهرة الادعاء بالتشيع إلى العلويين ظاهرة غريبة، بل على العكس، فإن حركة المعارضة العلوية أصبحت الحركة البديلة والمقابلة للنفوذ العباسي، ذلك لأن الجماعات المنتصرة التي خاب أملها بالحكم العباسي وأخذت تنظر إلى العباسيين لتحقيق آمالها ومطامحها، ولذلك ظهر كثير من المغامرين والثوار الذين رفعوا شعار الولاء للعلويين، وذلك لكسب الاتباع دون أن يكون لهم في الحقيقة أي ميل أو عاطفة علوية.

إن رواية الاصفهاني خير دليل على هذه الظاهرة، فهي تشير إلى أن نصر بن شبث العقيلي اتصل في سنة 198هـ في الحج بابن طباطبا، واتفق معه على الثورة في الجزيرة. ولكن نصر العقيلي فشل أن يقنع اتباعه في الجزيرة على الثورة من أجل القضية العلوية، ذلك لأن قبائل الجزيرة معروفة بميولها الخارجية أو الأموية، ولم يعرف عنها تحمس لقضية آل البيت (الهاشميين). كما أن العقيلي نفسه لم يكن مقتنعاً ومتحمساً للفكرة.

وقد عاد ابن طباطبا إلى الحجاز وفي طريقه التقى بأبي السرايا في الرقة. ونحن لا نعرف شيئاً كثيراً عن شخصية أبي السرايا وسيرته، ولا تذكر الروايات عنه إلا أنه من شيبان من الجزيرة، ولم يكن من أشراف القوم بل تدرج حتى لمع اسمه حين التحق بجيش يزيد بن مريد الشيباني الذي أرسل إلى ارمينيا لحرب الخرمية. وفي الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون كان إلى جانب الأمين، وحارب جيش هرثمة بن أعين الذي تقابل مع جيش أحمد بن يزيد بن مزيد الشيباني. ولكن أبا السرايا بدل رأيه وولاءه وانحاز بنحو 2000 من اتباعه الخيالة والمشاة إلى جيش المأمون، ومنح لقب «أمير». وبعد انتهاء الحرب الأهلية واستدعاء هرثمة إلى خراسان لم يحصل أبو السرايا على ما كان يطمح فيه من امتيازات، فعاد إلى حياة الغزو والنهب والتناحر القبلي، فقد غزا مع الطوق بن مالك التغلبي بني قيس وسلبهم، ثم التقى بالرقة بابن طباطبا فوجد فيه الرجل الذي يستطيع عن طريقه أن ينفس عن ميوله العلوية الظاهرية من جهة، ونفسيته البدوية المتمردة من جهة أخرى، وطموحه من جهة ثالثة.

وقد اتفق أبو السرايا مع ابن طباطبا على الالتقاء في ظاهر الكوفة، وأخذ الأول طريق البر فيما ركب الثاني سفينة عبر الفرات. وحين وصل أبو السرايا موقع كربلاء ارتجل خطبة مؤثرة خاطب فيها جنده واتباعه من العلوية. وقد استطاع بعد ذلك كلا الزعيمين من احتلال الكوفة بسهولة بدون إراقة دماء، ذلك لأن الوالي العباسي سليمان بن المنصور وقائده خالد الضبي لم يحركا ساكناً بل لم يقاوما الثورة العلوية على أن المقاومة العباسية تجمعت حول شخصية الفضل بن العباس بن عيسى بن موسى الذي أعلن رفضه لبيعة ابن طباطبا ودافع عن نفسه مع اتباعه، ولكنه سرعان ما استسلم ونهب داره. لقد بايع الناس البيعة إلى «الرضا من آل محمد.. والعمل بكتاب الله وسنة نبيه». وحين سمع أمير العراق الحسن بن سهل بالحركة العلوية أرسل لتوه زهير بن المسيب مع 10 آلاف من الجند، وتقابل الطرفان في أواخر شهر جمادي الثاني، وكان النصر في هذه المعركة للعلوية حيث تشتت جيش زهير بن المسيب الذي اضطر إلى التراجع.

إن الحادثة التي تفاجئ الباحث بعد هذا الانتصار هو موت ابن طباطبا المفاجئ. ويختلف المؤرخون الرواد في عرضهم لهذه الحادثة، على أن الطبري برواياته العديدة التي استقاها منه أغلب المؤرخين الآخرين يشير إلى أن الموت كان غير متوقع، وربما كان بسبب دس السم من قبل أبي السرايا، الذي منعه ابن طباطبا من الاحتفاظ بالغنائم والأسلاب التي تركها الجند العباسي. ولكننا يجب أن نذكر بأن هناك روايات أخرى تظهر ابن طباطبا وكأنه مريض منذ مدة، وأنه مات موتاً طبيعياً وترك وصية إلى داعيته أبي السرايا يرشح فيها علي بن عبد الله لرئاسة الحركة العلوية المسلحة.

ومهما يكن من أمر فإن أبا السرايا أعلن نبأ موت بن طباطبا وترشيحه لعلي ابن عبد الله، ولكن عليا هذا رفض أن يزج نفسه في مغامرة سياسية مسلحة، وكان معروفاً بتقواه وبعده عن السياسة، واقترح بيعة محمد بن محمد بن زيد الذي كان لا يزال حدثاً صغيراً، وقد قبل أبو السرايا ومن معه بيعة محمد بن محمد قائلين لعلي بن عبد الله «رضانا من رضاك وقولنا من قولك». فكانت هذه البيعة في الأول من رجب سنة 199هـ.

وقد اتسعت الحركة العلوية بسرعة واستطاع أبو السرايا أن يدحر قوة عباسية جديدة مكونة من 4,000 خيال بقيادة عبدوس بن محمد بن أبي خالد المرزوي، أرسلت لتعزيز زهير بن المسيب الذي تراجع إلى قصر ابن هبيرة. وقد أيد الثورة كثير من المدن والأقاليم. وقد أرسل العباس بن محمد بن عيسى بن محمد . . بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب والياً على البصرة، وزيد بن علي والحسن بن ابراهيم بن الحسن بن علي على واسط.

ويمكننا أن نقول بإن الحركة وصلت ذروة نجاحها في شعبان سنة 199هـ حيث خضعت أقاليم كثيرة، وأرسلت أقاليم أخرى تعلن ولاءها وتدعو أبا السرايا لإرسال ولاته. وقد امتد نفوذ أبي السرايا إلى نهر الملك وهو لا يبعد عن بغداد إلا أميالاً قليلة. كان موقف والي العراق الحسن بن سهل صعباً فلم يكن لديه من القادة غير قريبه علي بن أبي سعيد (ذي العلمين) الذي لم يستطع أن يعمل شيئاً تجاه تعاظم الثورة العلوية، إن هذه الظروف الحرجة أجبرت الحسن بن سهل أن يفكر مرة ثانية بطاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين اللذين حققا النصر للمأمون في الحرب الأهلية. وقد كتب الحسن أول الأمر إلى طاهر ثم بدل رأيه واستدعى هرثمة بن أعين الذي كان في طريقه إلى خراسان كما أمره بذلك الخليفة المأمون. وقد أرسل الحسن بن سهل السندي بن شاهك إلى هرثمة يتوسل إليه بالعودة إلى العراق لمعالجة الوضع الخطير هناك. على أن هرثمة رفض أول الأمر العودة ثم غير رأيه وقرر العودة للقضاء على الثورة.

ولم يمض وقت طويل حتى واجه أبو السرايا جيشين عباسيين، الأول بقيادة هرثمة والمنصور بن المهدي، والثاني بقيادة علي بن أبي سعيد. وقد انقذت المعركة الأولى بغداد، حيث اضطر أبو السرايا إلى الانسحاب من المدائن إلى قصر ابن هبيرة، وهناك استطاع هرثمة أن يهزمه الهزيمة الثانية، واضطر إلى الانسحاب إلى الكوفة. وفي الكوفة عزز العلويون مراكزهم واستعدوا لمقاومة عنيفة. ورغم أن هرثمة بن أعين حاول جاهداً القضاء على المقاومة في الكوفة قبل حلول موسم الحج لكي يستطيع أداء الفريضة إلا أن الكوفيين لم يمكنوه من ذلك. وفي الأول من ذي القعدة

وقعت معركة دموية حاسمة، ولكن النصر لم يكتب للعباسيين بقوة السلاح، وإنما بالمرونة والسياسة والحيلة التي دبرها هرثمة بن أعين. ويشير الاصفهاني إلى أن هرثمة استطاع أن يقنع أشراف الكوفة بإنهاء الحرب والتخلي عن أبي السرايا وخذلانه. وعبثاً حاول أبو السرايا أن ينبهم إلى حيلة هرثمة وسوء نيته مما اضطره إلى مهاجمتهم واتهامهم بقتل الإمام علي (رضي الله عنه) وخذلان الحسين (رضي الله عنه) وجبنهم في ساعة الصفر إمام (المسودة) العباسيين، ولكن الكوفيين الذين أنهكتهم الحرب التي دامت أشهر عديدة لم يستجيبوا لنداءات أبي السرايا. وهكذا خذل الكوفيون أبا السرايا كما خذلوا المختار قبله.

وفي الليلة التالية اضطر أبو السرايا ومحمد بن محمد بن زيد وغيره من العلويين، ونحو 800 من العلوية الخيالة إلى ترك الكوفة التي فتحت أبوابها إلى هرثمة، حيث دخلها الجند العباسي دون إراقة دماء، وعين غسان بن أبي فرج والياً على الكوفة.

أما أبو السرايا ومن هرب معه فقد توجهوا إلى واسط بعد مرورهم بالقادسية، على أن واسط وقعت مرة ثانية في أيدي الجيش العباسي بقيادة علي بن أبي سعيد، مما اضطر أبو السرايا ومن معه إلى أخذ طريق البصرة حيث عبروا نهر دجلة جنوبي مدينة واسط. وكان أبو السرايا يتجنب المخاطر والهجمات من القبائل التي يمر بها بتوزيع الأموال عليها، وحين وصل الأحواز انذره الوالي العباسي الحسن بن علي البادغيسي بترك الاقليم إذا أراد السلامة، وحين حاول أبو السرايا المقاومة هوجم وخرج، ولم يستطع السيطرة على تماسك اتباعه، ولذلك قرر العودة إلى موطنه الأصلي في رأس العين بالجزيرة ومعه محمد بن محمد بن زيد واتباعه ومواليه المخلصون ومنهم أبو الشوك.

وفي طريقهم إلى الجزيرة وقعوا أسرى في جلولاء بيد القائد حماد الذي كان في جلولاء مع ثلة من الجند، فأرسلهم بدوره إلى الحسن بن سهل. وقد أرسل الحسن محمد بن محمد إلى المأمون في خراسان الذي أعلن العفو عنه كما تقول بعض الروايات، إلا أن هناك روايات في (مقاتل الطالبيين) تشير إلى أن العفو كان على

الصعيد الرسمي فقط، وإن ما حدث لمحمد هو السجن ثم الموت سماً، أما مصير أبي السرايا فقد قتل في النهروان بأمر الحسن بن سهل، وعلقت جثته على جسر بغداد، وطيف برأسه في الأقاليم.

أما البصرة فقد استسلمت لعلي بن أبي سعيد القائد العباسي الذي أسر فيها زيداً بن موسى بن جعفر الصادق ومعه جماعة من أهل بيته. وتشير رواية في الطبري أن زيداً هذا كان يلقب بزيد النار «لكثرة ما حرق بالبصرة من دور بني العباس واتباعهم، وكان إذا أتى برجل من المسودة كانت عقوبته عنده أن يحرق بالنار، وانتهبوا من البصرة أموالاً».

وهكذا فقد انتهت هذه الحركة في العراق في ظرف ثمانية أشهر أو أكثر قليلاً.

حركة العلويين بالحجاز:

ومع أن حركة العلويين في الحجاز مرتبطة بثورة أبي السرايا في الكوفة إلا أن لها خصائصها التي تميزها عن ثورة العراق، وأنها استمرت ولم تنته بانتهاء ثورة أبي السرايا. لم ينس أبو السرايا حين اشتدت حركته في العراق أن يمد نفوذه إلى الحجاز، فرغم فقدان الحجاز لأهميته السياسية وضعف أهميته الاستراتيجية والاقتصادية فقد بقي هذا الأقليم ذا مركز ديني ومعنوي كبير، وخاصة في موسم الحج، حيث استطاع أبو السرايا تنظيم حملة دعائية لنفسه وللإمام بين الحجاج الذين يمثلون الأقاليم الإسلامية المختلفة. لذلك فقد أرسل أبو السرايا محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن علي إلى المدينة، وأرسل الحسين بن الحسن الأفطس بن علي بن الحسن بن علي إلى مكه وأشار إليه بإمرة الحج الذي بات على الأبواب.

أما والي الحجاز العباسي فكان داود بن عيسى بن موسى بن محمد الذي عين في الإمارة منذ عهد الأمين، ولكنه استطاع في اللحظة المناسبة أن يبدل ولاءه وأرضى المأمون الذي أبقاه في الولاية. وحين سمع داود بن عيسى باقتراب الاتباع العلويين لم يستعد للحرب بل لم تكن له رغبة في المواجهة، وربما بسبب ضعفه وتخاذله، أو لاحترامه لشهر الحج أو لأسباب أخرى غير معروفة. وتشير رواية تاريخية بأن

مسرورا حاجب الرشيد المشهور والذي كان في مكة ينوي الحج قد قابل الوالي العباسي وأبدى استعداده مع اتباعه الذين يعدون بمئتي فارس لمجابهة الثوار العلويين، ولكن الوالي رفض الفكرة وغادر مكة إلى العراق تاركاً ابنه في الولاية وإمارة الحج.

إن الموقف الذي اتخذه الوالي العباسي قد خيب آمال العباسيين ومواليهم وعبيدهم الذين كانوا مستعدين للدفاع عن المدينة المقدسة، وقد اضطر مسرور الخادم الكبير إلى ترك مكة مع اتباعه بعد أن فقد الأمل في جدوى المواجهة مع العلويين، كما أنه خاف من انتفاض العلوية في مكة عليه وعلى اتباعه بعد أن فقدت السلطة وهرب الوالي.

وفي اليوم الأول من عرفات (التاسع من ذي الحجة) وجد الحجاج انفسهم دون إمام يقودهم، ذلك لأن قاضي مكة رفض أن يقوم بالعمل لئلا يتورط في ذكر اسم الإمام أو الخليفة في الخطبة. فالحجاز لم تكن قد سقطت بعد في أيدي العلويين، كما وأن الوالي العباسي كان قد هرب منها، ولعلنا نلاحظ هنا مدى تردد الحسين بن الأفطس واتباعه من احتلال مكة حتى بعد هروب الوالي العباسي، خوفاً من وجود مقاومة مؤيدة للعباسيين حتى أكد له بعض العلوية من خلو المدينة، من الأنصار العباسيين، فدخل مكة في يوم عرفة، وبهذه الطريقة أخذ العلويون المدينة ومكة.

ولعل أبرز ما يلاحظ المؤرخ هو قلة حماسة عامة الناس وعدم مبالاتهم واكتراثهم للأحداث التي تجري أمام أعينهم من نزاع على السلطة بين العلويين والعباسيين، وربما كان سبب ذلك ملل الناس من الاضطراب السياسي ونزوعهم نحو الاستقرار مما أضعف تلك الحماسة التي كنا نعهدها لأهل البيت، سواء كانوا علويين أو عباسيين بل إن الناس كانوا مستعدين لطاعة الأقوى من الفرعين الهاشميين دون أن يضحوا بأنفسهم في سبيل أي منهم.

لقد سيطر الحسين بن الأفطس على الحجاز باسم أبي السرايا، وأزال كسوة الكعبة العباسية ووضع بدلها علمين من الحرير الأول أبيض، والثاني أسود، أرسلهما أبو السرايا وكتب عليهما، أمر به الأصفر بن أصفر أبو السرايا داعية آل محمد لكسوة بيت الله الحرام، وأن يطرح عنه كسوة الظلمة من ولد العباس ليطهر من كسوتهم،

وكتب في سنة تسع وتسعين ومائة. وقد أعقب ذلك عمليات مصادرة ونهب لممتلكات العباسيين واتباعهم في الحجاز التي رافقها كثير من التجاوزات والأخطاء.

وحين وصلت أخبار فشل ثورة الكوفة ومقتل أبي السرايا، كان على الحسين بن الأفطس من أجل أن يبقى على سلطته في الحجاز تعيين شخصية علوية محترمة لزعامة الحركة معنوياً في الأقل، ولم يكن هناك من يتمتع باحترام الناس وعطفهم في مكة أكثر من محمد بن جعفر الصادق الملقب (بالديباج) وكان شخصاً متواضعاً مسالماً كبيراً في السن، برز في رواية الحديث ولم يكن له ولع بالسياسة، ولذلك تردد أول الأمر بقبول البيعة ثم وافق، واتخذ لقب أمير المؤمنين في السادس من ربيع الثاني سنة 200هـ.

والمعروف أن محمداً الديباج كان يعتبر من أولاد جعفر الصادق البارزين حيث انقسم أنصار الصادق بعد وفاته إلى جماعة أيدت اسماعيل وابنه محمد، وجماعة أيدت موسى الكاظم، وأخرى أيدت عبد الله الأفطح، ورابعة أيدت محمد الديباج، ولم تكن الصلة بينهم طيبة. ومهما يكن من أمر فإن دور محمد الديباج في ثورة الحجاز بقي ثانوياً ومعنوياً، وبقي قائد الحركة الحسين الأفطس، وكذلك ابنه علي بن محمد الذي كان غير محمود السيرة مما سبب تذمراً واضطراباً بين الناس في مكة، وعجل نهاية الثورة وعودة الحجاز إلى المأمون.

حركة العلويين في اليمن:

كان أبو السرايا قد أرسل إلى اليمن ابراهيم بن موسى بن جعفر الصادق ليستولي عليها باسم الإمام ابن طباطبا. واستطاع ابراهيم بن موسى أن يسيطر على اليمن بسهولة ذلك لأن واليها العباسي اسحق بن موسى أخلى صنعاء مع جنده قبل وصول ابراهيم بن موسى بمجرد سماعه بنبأ اقتراب الثوار العلويين، وبهذا قلد اسحق اجراءات خاله والي مكة الذي انسحب منها أيضاً دون أن يشتبك مع العلويين الذين زاد عددهم بانضمام البدو إليهم.

وفي طريقه إلى العراق قابل الجند العباسي بقيادة عيسى بن يزيد الجلودي ومساعده ورقة بن جميل القادمين إلى مكة، والظاهر أن اسحق بن موسى اقنع أو أجبر على مصاحبة الجيش إلى الحجاز، وبعد معركة عنيفة في بئر ميمون اندحر العلوية وطلبوا الأمان حيث تدخل عدد من القرشيين، بينهم قاضي مكة، واقنعوا الجلودي بمنح الأمان للمتمردين. والواقع بأننا لا نعلم شيئاً عن مصير الحسين الأفطس أما الشيخ الطاعن في السن محمد بن جعفر فقد هرب وتعب من تجواله في البادية حتى حان وقت الحج، فتقرب نحو مكة آملاً في استرجاع سلطته، ولكنه لم يفلح فطلب الأمان من الجلودي ورجاء بن أبي الضحاك والي مكة، فأعطي الأمان بشرط أن يقف في الكعبة وفي المكان نفسه الذي أعلن نفسه أمير المؤمنين ويتنازل عن البيعة ويعلن ولاءه للمأمون، وعهده بألا يعود إلى طلب السلطة والعمل من أجلها ثانية، وقد أرسل إلى العراق ومن هناك إلى مرو.

أما في اليمن فنحن في الواقع لا نعرف شيئاً كثيراً عن حكم ابراهيم بن موسى وإدارته لهذا الاقليم، ولكن بعض الروايات تشير إلى اتباعه سياسة مالية شديدة تضمنت مصادرة الممتلكات الخاصة وقتل المعارضين، مما دفع خصومه إلى تلقيبه «بالجزار». ومهما يكن من أمر فأن ابراهيم بسط سيطرته على الاقليم لأكثر من سنة.

ورغم أن سيطرة العلوية في العراق والحجاز قد انتهت فإن ابراهيم قاوم في اليمن، بل أكثر من ذلك أرسل من يؤم الناس للحج باسم الإمام، حيث عين لهذا الغرض أحد أبناء عقيل بن أبي طالب المقيمين في اليمن. وفي طريق الحج كمن الطالبي أمير قافلة الحج اليمانية لقافلة الحج العباسية التي كانت بقيادة أخي الخليفة ونهبها وسلب كسوة الكعبة. ولكن الجلودي قائد جند مكة لم يمهل الطالبي واتباعه بل حاصرهم واستعاد الأسلاب والكسوة وضربهم بالسياط بسبب فعلتهم.

ثم أرسل الحسن بن سهل والي العراق حمدوية بن علي بن عيسى بن ماهان أميراً على اليمن، فانتصر على ابراهيم بن موسى الذي انسحب نحو صعدة، فلقي مقاومة، ولكنه فتحها ونهبها وخرب سد الخندق. وسار نحو مكة فواجهته قوة عباسية انتصر عليها واحتل مكة. وهكذا عادت مكة تحت سلطة العلويين. وفي هذه الفترة عين المأمون علي الرضى ولياً للعهد، واعترف كذلك بشرعية ولاية ابراهيم لمكة بل أعطاه إمارة الحج. ويشير المسعودي إلى أن إعطاء هذا الامتياز العلوي قد حدث لأول مرة في تاريخ الإسلام. ثم أن المأمون عين ابراهيم والياً على اليمن كذلك، ، وأمر الجلودي بمساعدة ابراهيم لاسترداد اليمن من ابن ماهان، ولكن الجلودي ماطل وتعذر ولم يذهب. واندحر ابراهيم أمام ابن ماهان ورجع إلى مكة. وعندئذ أعلن ابن ماهان استقلاله في اليمن عن السلطة المركزية استياء من سياسة المأمون الموالية للعلويين، في الوقت نفسه الذي ثارت فيه العراق ضد هذه السياسة. وقد واجه ابن ماهان ثورتين قويتين الأولى علوية في تهامة دبرها اتباع ابراهيم، والثانية ثورة قبلية في زبيد قامت بها قبيلتا عك وأشعر، وقد أضعف ذلك من سيطرته حيث استطاع الجلودي القضاء عليه، وانهزم ابن ماهان بملابس النساء، ولكنه قبض عليه في صنعاء، وحينئذ عين المأمون باقتراح من وزيره الفضل بن سهل، محمد بن زياد المعروف بآرائه المعارضة للعلويين سنة 203هـ/ سنة 819 والياً على اليمن، أما ابراهيم بن موسى فقد ترك مكة إلى العاصمة مرو حيث طلبه المأمون.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن اعتلاء المأمون يعني بالنسبة لكثير من المؤرخين انتصار النزعة الفارسية ويستطرد هؤلاء المؤرخون فيقولون بأن من مظاهر النزعة الفارسية الميل للعلويين والتشيع لهم. على أن هذا الرأي رأي خاطئ، ذلك لأن التشيع في هذه الفترة المبكرة كان عربياً، وأن الثورات العلوية كانت ثورات عربية قادها عرب، ووقعت في أقاليم عربية وأن أنصارها من العرب، ثم إن الميل «للفارسية» لم يكن من واقع سياسة المأمون بل من تخطيط وزيره الفضل بن سهل وأعوانه خاصة خلال السنوات بين198هـ-202هـ. ولم تزعج هذه النزعة الفارسية بني هاشم وأعوانهم فقط بل أزعجت أيضاً أهل بغداد الذين شعروا بضعف مركزهم بالنسبة لمرو، وكذلك قادة كبار من أمثال طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين وقد أبعد

طاهر إلى الرقة لفترة من الزمن، أما الثاني فقد استطاع أن يتصل بالمأمون ويلومه على تأييده للسياسة التي يتبعها الفضل بن سهل قائلاً:

«قدمت هذا المجوسي على أوليائك وأنصارك».

على أن الفضل استطاع سجنه ثم قتله فخسرت الدولة قائداً من ألمع أنصارها. ولكن ثورة بغداد استمرت رافعة شعار: «لا نرضى بالمجوسي بن المجوسي الحسن بن سهل». وثارت بغداد بين سنتي 200هـ-201هـ بقيادة محمد بن أبي خالد وابنه عيسى. أما كتلة المأمون في بغداد فكان يمثلها المنصور بن المهدي والحسن بن سهل وحميد بن عبد الحميد الطوسي.

الخليفة المأمون والإمام علي الرضا:

تشير بعض الروايات التاريخية إلى «تشيع» المأمون، على أن المستشرق كبريللي يعتقد بأن للمأمون ميلاً دينياً عاطفياً للعلويين، وهذا الميل دفعه ليبايع الرضا. إلا أننا يجب أن نفرق بين العواطف وبين الأعمال، فالبيعة للرضا ليست بالأمر العاطفي ولكنه أمر سياسي له عواقبه العملية الخطيرة لذلك لأنه يعني نقل الخلافة أو نقل الدولة -على حد قول ابن طباطبا- من العباسيين إلى العلويين.

يقول الطبري ويؤيده اليعقوبي أن المأمون أرسل رجاء بن أبي الضحاك (وهو من أقرباء الفضل بن سهل) وفرناس الخادم إلى المدينة سنة 200هـ ليرافق علي الرضا إلى مرو، حيث أعلنت البيعة رسمياً واستبدلت الأعلام السود بالأعلام الخضر، وضربت السكة باسم ولي العهد الجديد. وأصدر الخليفة أمراً وزع على كل الأقاليم وأظهر فيه أنه اختار علي الرضا بعد «نظر في بني العباس وبني علي فلم يجد أحداً هو أفضل ولا أروع ولا أعلم منه» ولا تشير رواية الطبري واليعقوبي إلى الدوافع الحقيقية التي دفعت المأمون إلى هذه الخطوة على أنهما يذكران رد الفعل لدى أهل بغداد الذين علقوا على النبأ بقولهم: «هذا دسيس من الفضل بن سهل».

وهناك روايات كثيرة تؤكد اتهام الفضل بن سهل بهذه البيعة نجدها في البلعمي

والجهشياري وفي ابن طباطبا، ويظهر الجهشياري اندفاع الفضل بن سهل ودوره في البيعة. أما الفخري فيقول: «كان الفضل بن سهل هو القائم بهذا الأمر والمحسن له».
ورغم أن المؤرخ يتردد في قبول هذه الروايات التي تؤكد دور الفضل بن سهل ويحتار في تفسير دوافعه، وهو الذي تربى في كنف الدولة وأصبح صنيعة من صنائعها، وأن مصلحته باتت في بقائها، إلا أن المؤرخ لا بد أن يصدق هذه الروايات التي يؤكدها أوائل المؤرخين حيث يقول الاصفهاني: إن المأمون شاور الفضل بن سهل وأخاه الحسن في نيته نقل الخلافة إلى الرضا، فعارض الحسن المشروع مبدياً قلقه من العواقب، ولكن الخليفة بقي معانداً متصلباً في رأيه متعذراً بأنه كان قد وعد بأن ينقل الخلافة إلى العلويين إذا ما انتصر على الأمين وبقيت الخلافة بيديه «إني عاهدت الله إن أخرجها إلى أفضل آل أبي طالب إن ظفرت بالمخلوع».

ونحن هنا أمام رأيين: الأول يقول: إن المقرر الأول لفكرة البيعة للرضا هو الخليفة المأمون نفسه حيث كانت الفكرة قد اختمرت في ذهنه وصمم بطبيعته المجبولة على العناد على أن ينفذها. أما الرأي الثاني فهو رأي الاستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري حيث أنه «يميل إلى تأثير الفضل بن سهل ووجود المأمون في خراسان هما اللذان اضطراه إلى اتخاذ هذه الخطة». ويدلل الأستاذ الدوري بالأدلة التالية: -

1- الروايات التاريخية التي تؤكد دور الفضل الرئيس في البيعة.

2- لوم البغداديين للفضل بن سهل في تدبير هذه الخطة وعدم لومهم للخليفة.

3- رغبة الفضل في إرجاع سلطة الفرس لأن نقل الخلافة إلى علوي معناه إبقاء مركز الخلافة في خراسان لعدم رغبة أهل بغداد في مبايعة علوي. وقد اتهم نعيم بن خازم الفضل بأنه يحتال «ليصير الملك كسروياً».

4- خيبة أمل الفرس من أهل خراسان من الدولة العباسية فنقلوا ولاءهم إلى المعارضة العلوية.

5-إن انتصار المأمون كان ضربة لبني العباس أخوال الأمين ودحرا لآمالهم، ففقد

المأمون تأييدهم، ولذلك أراد أن يكسب ثقة وتأييد الفرع الهاشمي الآخر وهو الفرع العلوي.

على أن الروايات التاريخية لا يتوقع منها أن تضع اللوم كل اللوم على الخليفة صاحب السلطة بل لا بد أن تضعه على الفضل الذي سقط وهوى من عليائه.. ويؤكد المستشرق كبريد ذلك، ويشير أولاً إلى السرعة واليسر الذي استطاع بهما الخليفة أن يتخلص من الفضل بن سهل وأعوانه، ولذلك فالخطة من بناة أفكار المأمون قبل الفضل بن سهل. وثانياً إلى تصميمه في التخلص من الرضا دون عناء كبير. وثالثاً لم يستبدل المأمون شعار الخضرة حتى دخل بغداد وتمركز فيها وبعد توسلات طاهر بن الحسين والأميرة زينب. ويعتبر كبريللي كل ذلك دلائل على شخصية المأمون واستبداده برأيه. ويستطرد كبريللي فيقول: بأن الظروف السياسية التي أحاطت بالمأمون أثناء الحرب الأهلية وبعدها ثم إن عواطف المأمون تجاه العلويين ورغبته في إحياء حكم العدل الذي وعد به إذا تسلم السلطة لعبت دورها في قرار الخليفة بالبيعة للرضا.

ولعل الظروف السياسية لعبت دوراً أكبر من الميول العاطفية عند الخليفة، فلم ينفك العلويون واتباعهم من الثورة ضد حكم المأمون العباسي، ولقد أراد المأمون الذي مل حالة القلق السياسي بعد الحرب الأهلية أن يبدأ فترة من الاستقرار والتوفيق بين السلطة والمعارضة، فاختار عليا وسماه (الرضي) وهو اللقب نفسه الذي كان الثوار العلويون يتخذونه، وتبنى الأخضر وهو شعار الجنة وأهلها ويرمز إلى المحبة والتسامح والتوفيق وهذا يدل على الطبيعة السياسية للعمل الذي أقدم عليه المأمون، ولعل هذا يذكرنا بسياسة التوفيق والمرونة التي حاول الخليفة المهدي اتباعها مع العلويين كذلك وفي هذا المجال يقول سورديل:

«لقد كان المأمون مثله مثل الخلفاء الذين سبقوه مهتماً بوحدة الدولة وتماسكها وضمان أمنها وسلامتها، وفي نطاق محاولته لتأمين تلك الوحدة أراد أن يوفق بين الفئتين اللتين شقتا الأمة، وهما: العباسية والعلوية، وأن يجد أسساً جديدة للتفاهم بينهما فكان مذهب المعتزلة. إضافة إلى اتخاذه خطوات سياسية مقبولة لدى العلوية».

هذا من جهة، ولكن من الجهة الثانية فإننا نرى أنه من الصعب أن يصل ميل الخليفة وتعاطفه مع العلويين إلى الحد الذي يحول به الخلافة إلى شخصية علوية، فالتعاطف الذي خطط له المأمون لا يتعدى حدود المعنويات إلى الأعمال والأفعال. فالمأمون كافح في سبيل الحصول على الخلافة ولا يمكن أن يعطيها هدية سائغة للعلويين، هذا سياسياً، أما عقائدياً فالمأمون معتزلي ولا يمكن أن يتفق مع الشيعة الحسينية بشأن الخلافة. ولذلك فإننا نرى بأن حركة المأمون ببيعة الرضا كانت تهدف ظاهرياً التعاطف والتوفيق، وعملياً ليست إلا مناورة سياسية بارعة لكشف بعض الشخصيات العلوية وإظهار عجزها عن الخوض في مضمار السياسة ومعترك الحياة، كما تؤكد ذلك عدة روايات تاريخية.

أما دور الفضل بن سهل فقد أيد المأمون في البيعة وأخفى عن الخليفة رد الفعل المعادي في بغداد للبيعة قائلاً: أن ابراهيم المهدي الذي بويع خليفة في العراق لم يكن إلا ممثلاً عنه هناك. ولكن علاقة الفضل بالرضا لم تكن ودية بل إن الرضا أظهر امتعاضه من تدابير الفضل وأنه هو الذي أخبر الخليفة في نهاية الأمر بحقيقة الوضع في العراق. ولذلك فإن تأييد الفضل لسياسة المأمون كانت منبثقة عن طموحه العريض ورغبته في الحفاظ على سلطاته الواسعة في خراسان والعراق معاً.

ولم يكن علي الرضا ذا طموح سياسي كبير فلقد ولد في المدينة سنة 148هـ من أم نوبية وبلغ عمره 53 سنة دون أن يلعب دوراً في السياسة، على أن شهرته في ميادين العلم والورع كانت واسعة، وقد امتنع الرضا أول الأمر عن قبول العهد حيث تشير الروايات إلى أنه «كان معرضاً عن الدنيا ولولا خوفه من المأمون لما أجاب إلى ولاية العهد.

والملاحظ في نص كتاب الخليفة أنه لم يشر إلى نقل الخلافة من العباسيين إلى العلويين ذلك الأمل الذي كافح العلويون من أجله بالثورة حيناً وبالحجج والأدلة النظرية حيناً آخر بل أشار فقط إلى فضل علي الرضا وورعه (وأرجأ للقيام بأمر الله حقه).

وعلى هذا فإن قرار التعيين اعتبر الرضا أفضل المرشحين لولاية العهد، ولا يشير جملة إلى حق العلويين. وبمعنى آخر فإن المأمون -على عكس آراء بعض المؤرخين- لم يعترف بحق العلويين بالخلافة وأفضليتهم على العباسيين بل أراد أن يضع طريقة جديدة لتنظيم ولاية العهد تعتبر العباسيين والعلويين على قدم المساواة في الترشيح للخلافة وأن أفضلهم هو الذي يكون خليفة. وهكذا فقد جعل الصفات الشخصية للمرشح هي التي توصله إلى الخلافة. والملاحظ أن الجاحظ وهو معتزلي من أنصار مذهب المأمون أكد على الفكرة واعتبر الوصول إلى الخلافة معتمداً على القابليات والصفات الشخصية وليس الوراثة المباشرة من الأب إلى الابن أو أن تكون محصورة في عائلة واحدة.

صدى البيعة:

لم يكن ما قام به الخليفة من أمر البيعة أمراً يسيراً، وذلك لأنه قلب السياسة العباسية السابقة رأساً على عقب، مما كان له صداه في الاقاليم المختلفة. وكان من الطبيعي أن يطيع ولاة الأقاليم أوامر الخليفة ويذعنوا لها، وكان من بينهم الحسن بن سهل والي بغداد، إلا والي البصرة اسماعيل بن جعفر بن سليمان بن علي الهاشمي فقد رفض البيعة قائلاً: «هذا نقض لله وله (الخليفة)» وقد اعتقل ونفي إلى جرجان.

وقد هلل أهل قم وهم في غالبيتهم من أنصار العلويين، للقرار. ولكن أهل بغداد لم يرضهم هذا القرار، وقالوا: «لا نبايع ولا نلبس الخضرة ولا نخرج هذا الأمر من ولد العباس. ورغم أن المأمون قد جعل مقره مرو، فإن الكثير من العباسيين كانوا يعيشون في بغداد عاصمة المنصور كما كانت فيها كتلة كبيرة مؤيدة للعباسيين. وبدأت حركة المعارضة للبيعة في بغداد بإلقاء اللوم على آل سهل ولكنها ما لبثت أن تحولت إلى شخص الخليفة حيث رشحوا خليفة جديداً هو (المنصور ابن المهدي) الذي رفض تقلد الخلافة خوفاً أو ولاء للمأمون بل اعتبر نفسه ممثلاً للخليفة الشرعي. لكن الأمر كان أخطر من ذلك فالبيعة كانت تعني نقل السلطة إلى بيت آخر وبكلمة أخرى فإن هذا الاجراء مس طموح العباسيين وهدد مصالحهم بالخطر. وفي يوم الجمعة أعلن الناس في المسجد الجامع بيعتهم (لابراهيم بن المهدي) خليفة وتلقب بلقب

(المبارك) في 5 محرم سنة 212هـ/ 817م، وبايعه غالبية الأمراء العباسيين وأهل بغداد. وبذا فقد قطع أهل بغداد كل علاقة بالمأمون وإدارته، ويشير الطبري إلى أنهم إنما فعلوا ذلك:

«غضباً منهم على المأمون حين أراد إخراج الخلافة من ولد العباس إلى ولد علي، ولترك لباس آبائه من السواد ولبسه الخضرة».

فقد ترك ابراهيم بن المهدي بغداد إلى المدائن حيث معسكر الجند، لإعداده للحرب المقبلة وللذود عن حق العباسيين في الخلافة، وقد أعطى الجند عطاء نقدياً إضافة إلى مقادير عينية من الحنطة والشعير.

أما في بغداد فبقي العباس واسحق بن موسى الهادي. وقد استمرت المقاومة في بغداد حتى 203هـ على أن شعار الدولة كان في هذ المرة الأخضر، بينما كان شعار المعارضة الأسود. ورغم أن الكوفة سقطت في يد الجيش الموالي للمأمون وأصبح العباس بن موسى بن جعفر والياً عليها ودعا أهل الكوفة للانضمام إليه والبيعة للمأمون والرضا، ولكنهم لم يتقبلوا دعواه ودعوه إلى الدعوة لنفسه أو لعلوي آخر. وبينما كانت الكوفة على هذا الحال تقدم جند ابراهيم بن المهدي رافعين شعار «ابراهيم يا منصور لاطاعة للمأمون» واستطاعت احتلال الكوفة وهرب العباس منها. على أن الثوار لم يستطيعوا احتلال واسط واندحروا منسحبين إلى بغداد التي بقيت تحت سيطرته حتى سقطت على يد المأمون.

إن أهم ظاهرة تلفت النظر في حوادث بغداد خلال هذه الفترة هي حركة المتطوعة التي نظمها سهل بن سلامة سنة202هـ وهدفها في بداية الأمر لم يكن سياسياً بل لحفظ النظام والآداب والأمن العام في بغداد، وقد برزت هذه الحركة كنتيجة لفقدان سلطة الحكومة بعد قرار المأمون البقاء في مرو، وقد زاد نفوذها تدريجياً حتى أصبحت سلطة داخل سلطة. يقول الطبري: «فكان كل من أجابه (سهل بن سلامة) قد عمل على باب داره برجا وأجر ونصب عليه السلاح والمصاحف حتى بلغوا قرب باب الشام سوى من أجاب من أهل الكرخ وسائر الناس». ولكن هذه الحركة ضربت حيث اعتقل زعيمها وتبعثر أنصارها وسجن بعضهم بأمر من ابراهيم بن المهدي.

وفي أوائل سنة 203هـ كان العباسيون وأهل بغداد لا يزالون صامدين أمام سلطة المأمون رغم أن الخليفة بعث إليهم برسالة يدعوهم فيها إلى المصالحة والسلم، فإنهم رفضوا ذلك مما دعا الخليفة إلى التحرك نحو بغداد، وكان على رأس الجند حميد الطوسي وعلي بن هشام، اللذان حاصرا بغداد حتى استسلمت في 17 ذي الحجة سنة 203هـ بعد سنة و11 شهراً من التحدي لسلطة الخليفة العباسي، وهرب ابراهيم بن المهدي مع بعض أعوانه. على أن عاصمة المنصور حققت هدفها الرئيس فعادت عاصمة للمأمون وعاد العراق اقليماً مركزياً للدولة.

وبعد.. فمن الصعب علينا أن نضع مسؤولية البيعة لعلي الرضا بولاية العهد على عاتق الفضل بن سهل وحده أو على عاتق الخليفة المأمون. إن كثرة الروايات المتيسرة لدينا وتناقضها يزيد المشكلة تعقيداً، فنحن بما لدينا من روايات لا نستطيع أن نستقري الا بقدر محدود. ما يختلج في نفوس وعقول الخليفة والمحيطين به. على أننا نستطيع أن نقرر بأنه أولاً رغبة المأمون وتعاطفه لما حصلت البيعة، وأنه هو لا الفضل بن سهل لعب الدور الأول والرئيس فيها، وقد جاءت هذه السياسة موافقة لخطط الفضل في السيطرة وازدياد النفوذ والقضاء على المنافسين له، أمثال طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين وغيرهم فأيدهم وحببها إلى المأمون، ولكنه ما لبث أن وقع هو ضحية لها.

إن واقع الحوادث وشخصية المأمون لا يمكن أن تسمح للوزير الفضل بن سهل باتخاذ قرار خطير كهذا ونحن نعتقد بأن سقوطه واغتياله جعل الرواة يضعون على عاتقه كل مساوئ سياسة المأمون.

إن الفضل بن سهل اعتقد بأن تأييد سياسة المأمون سيحفظ له منصبه كوزير ونفوذه على المشرق، كما قد أمل بأن أخاه الحسن سيستطيع بسهولة إخماد الثورة في العراق والقضاء على القادة الطموحين والأمراء العباسيين المتمردين دون أن تكون هناك حاجة لإخبار الخليفة بذلك. وهكذا تبقى السلطة بيد آل سهل وهو هدف الفضل الأول.

على أن الذي أربك خطط الفضل بن سهل هو علي الرضا نفسه ، فإن تقاه وورعه وقلة طموحه جعله على طرفي نقيض مع الفضل . وكان الرضا بسبب وازع من ضميره أو بتأثير رجالات البلاط المعادين للفضل الذين أدركوا أن الرضا هو الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يخبر الخليفة عن حقيقة الوضع في العراق ، وهو الذي يفتح عيني الخليفة على الاضطرابات وعدم الاستقرار في الدولة . وقد فوجئ المأمون واستفسر عن صحة هذه الأخبار التي وصلته عن طريق الرضا رجالات بلاطه مثل يحيى بن معاذ ، وعبد العزيز بن عمران ، علي بن أبي سعيد وخلف المصي ، ولكنهم جميعاً رفضوا الإفصاح بشيء قبل أن يعطيهم الخليفة ضماناً خطياً على محافظته عليهم من عقاب ذي الرئاستين (الفضل) . وعندئذ أكدوا للمأمون ما ذكره ولي العهد الرضا من سوء الحالة في العراق وتفاقم الاضطرابات ونددوا بسياسة العزلة التي اتبعها الفضل بن سهل ، وأشاروا إلى اغتيال القائد هرثمة بن أعين الذي لم يرتكب ذنباً سوى محاولته حماية الدولة والخليفة من سوء تدبير الفضل . وانتقدوا نفي طاهر بن الحسين في الرقة ، في الوقت الذي كان بالإمكان الاستفادة من خبرته في تهدئة الحال في العراق ، خاصة أنه يتمتع بمقدرة عسكرية وكفاءة إدارية تفوق خبرة الحسن بن سهل وكفاءته . كما أنهم حرضوا الخليفة ، بصورة غير مباشرة على التخلي عن الفضل وقتله .

ورغم أن المأمون نجح في جذب عديد من أنصار العلوية ، وخاصة الزيدية إلى جانبه ، لكن سياسته فشلت لأنها لم تنل تأييد أهل العراق عموماً . لقد اعتبر أهل العراق هذه السياسة مخططاً لها من قبل وزير المأمون الفضل بن سهل المتحكم بمقدرات الدولة وزيادة نفوذ العناصر الفارسية ولذلك ثاروا على المأمون وطافت مليشيات أهل بغداد المسلحة رافعة شعار الشرعية العباسية والعودة إلى القرآن والسنة !! .

لقد قرر المأمون العودة إلى العراق بعد سماعه بالموقف واستطاع التخلص من الفضل بن سهل حيث قتل في الحمام عن عمر يناهز السبعين . ولكن الخليفة أظهر امتعاضه من قتل الفضل ، وقرب أخاه الحسن وجعله وزيراً ليغطي حادثة قتله ، كما

أنه تزوج ابنة الحسن بن سهل. ورغم أن الفضل بن سهل أثار كثيراً من الكره بسبب حبه للسلطة وتدابيره، ولكن وفاته أثارت شجون بعض الشعراء أمثال دعبل الخزاعي، ومسلم بن الوليد.

كانت رحلة المأمون إلى بغداد سفرة بطيئة حيث كان يتوقف كثيراً في المدن على الطريق ويحب التعرف على أحوالها وتخفيف الخراج عنها ليكسب رضا الناس. حين توقف في طوس تخلص من علي الرضا حيث مات على الأكثر بالسم، ودفن قرب قبر هارون الرشيد، وفي ذلك قال شاعر علوي:

قبران في طوس خير الناس كلهم   وقبر شرهم هذا من العبر

ما ينفع الرجس من قرب الزكي ولا   على الزكي بقرب الرجس من ضرر

وقد دعا المأمون الأمراء العباسيين وأهل بغداد بعد وفاة الرضا إلى الطاعة، ولكنهم لم يجيبوه إلى ذلك. وحين وصل حلوان وصلته الانباء عن اختفاء ابراهيم بن المهدي وعودة الأحوال إلى طبيعتها في بغداد، خاصة أنه لم يعد هناك دافع للمقاومة بعد أن قتل الفضل بن سهل أولاً، وانتهى أمر البيعة للرضا ثانياً، وعاد المأمون إلى العاصمة العباسية بغداد ثالثاً. ومع ذلك فإن كبرياء الخليفة واعتداده بنفسه وكرامته لم تسمح له بالتراجع عن سياسته بصورة كلية. فقد بقي الأخضر لفترة من الزمن شعار العباسيين بعد دخول المأمون بغداد في 22 صفر سنة 204هـ/ 819م.

إن مشاعر المأمون الودية تجاه العلويين لم تنته كلياً، فقد أصدر منشوراً سنة 212هـ/ 827م. ذكر فيه الإمام علي (رضي الله عنه) مشيراً إلى أنه «خير خلفاء الله بعد رسول الله (صلعم) وأولى الناس بالخلافة». كما أنه عزم على ذم معاوية وأصدر منشوراً كاد أن يوزعه على الأقاليم ذكر فيه: «برئت الذمة من أحد من الناس ذكر معاوية بخير أو قدمه على أصحاب رسول الله (ﷺ)». إلا أنه لم يفعل ذلك تحسباً للعواقب بين عامة الناس.

إن بيعة المأمون بولاية العهد لعلي الرضا ستبقى ظاهرة سياسية فريدة في تاريخ

مطالع العصر العباسي، كما أن هذه الظاهرة تعكس شخصية المأمون ذاتها والتناقض الواضح فيها بين سلوكه واخلاقياته. . . سلوكه الذي يهدف إلى ضمان مصلحة العباسيين وعواطفه الميالة إلى العلويين. وسواء كانت رواية الصفدي موثوقة أم موضوعة، فإنها تعبر بصدق عن الموقف، حين تشير إلى آخر حديث بين المأمون والرضا، حيث قال الأول للثاني:

- ما توصيني؟؟

فأجابه: أوصيك أن لا تعطي أحداً ما تندم عليه.

المأمون وولاية العهد:

في رمضان سنة 201هـ/ آذار 817م كما ذكرنا سابقاً عين المأمون علي الرضا بن موسى الكاظم ولياً للعهد وقد استدعى الإمام الرضا من المدينة إلى مرو حيث كان يقيم الخليفة وقد ضرب الخليفة اسمه على النقود كما زوجه ابنته.

إن هذه الاجراءات لاقت معارضة شديدة من أهل بغداد، حيث أعلنوا عصيانهم على الخليفة وساندهم في ذلك عدد من العباسيين، وقد أرادوا أول الأمر البيعة للمنصور بن المهدي ولكنه رفض فبايعوا إبراهيم بن المهدي خليفة واسحق بن موسى بن المهدي ولياً للعهد. وقد اتخذ ابراهيم لقب (المبارك).

ولقد شرحنا تفاصيل البيعة للرضا وانعكاساتها في مكان آخر ولكننا نقول بأن ابراهيم المهدي لم يستطع مواصلة الحكم في بغداد بل أعيد الاعتراف بالمأمون خليفة للمسلمين بعد أقل من سنتين سنة 819م.

ولم يعالج المأمون مشكلة ولاية العهد طيلة مدة حكمه ولكنه بعد أن وقع مريضاً في مرضه الأخير كتب إلى ابنه العباس وإلى عبد الله بن الحسين والأشراف والولاة أن الخليفة من بعده هو أخوه أبو اسحق (المعتصم). ويظهر أن بعض القادة في الجيش كانوا منقادين للبيعة للعباس ولكن المعتصم استطاع أن يسيطر على الموقف كما أن الأمر الذي حسم الأمور وهدأ الأوضاع أن العباس نفسه أسرع في البيعة لعمه

المعتصم وكان المأمون قد أوصى أخاه المعتصم وصية مهمة أودع فيها خلاصة تجاربه ومما جاء فيها :

«واعمل في الخلافة إذا طوقكها الله عمل المريد لله الخائف من عذابه وعقابه ولا تغتر بالله ومهلته فكأن قد نزل بك الموت . ولا تغفل أمر الرعية ، الرعية الرعية ، العوام العوام فإن الملك بهم وبتعهدك المسلمين والمنفعة لهم ، الله الله فيهم وفي غيرهم من المسلمين . . وعجل الرحلة عني والقدوم إلى دار ملكك بالعراق وانظر هؤلاء القوم الذين امنت بساحتهم فلا تغفل عنهم في كل وقت» .

وقد توفي المأمون وهو يجاهد البيزنطيين قرب طرسوس في شمالي الدولة الإسلامية .

هوامش الفصل الثامن

1-المسعودي، التنبيه، 304

2- الجهشياري، الوزراء، ٢١٤

3-المصدر السابق، 316

4-فاروق عمر، ثائر من أجل العرب، مجلة العرب، 7, 1971.

5-ابن الأثير، الكامل، جـ 6، ص 162.

6-عرفان عبد الحميد، دراسات في الفرق. . ، بغداد، 1967 , 83 فما بعد.

7-نلنيو، بحوث في المعتزلة، ص 179، E.I. Mutazila

8-الأشعري، مقالات، 31.

9-عن الاعتزال راجع: زهدي جار الله، المعتزلة، القاهرة، 1947- البير نصري نادر، فلسفة المعتزلة، الاسكندرية، 1950، نلنيو، المرجع السابق.

10-حول التفاصيل راجع: فاروق عمر، سياسة المأمون تجاه العلويين، القسم الأول، مجلة الجامعة المستنصرية، بغداد 1973. القسم الثاني، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، 1973 وفيهما ذكر للمصادر والمراجع.

11- اليعقوبي، تاريخ، جـ ٣، ١٩٧ (طبعة النجف). العيون والحدائق، 31- الطبري، تاريخ، جـ 10 , 304 طبعة دار المعارف.

12- الطبري، جـ 10 ص 214 -215

الفصل التاسع

عهد الخليفة المعتصم بالله العباسي

218هـ/ 833 م - 277هـ/ 842م

المعتصم والأتراك:

كانت شخصية المعتصم على نقيض شخصية أخيه المأمون فبقدر ما كان المأمون سياسياً مرناً كان المعتصم رجل حرب شديداً، وبقدر ما كان المأمون مثقفاً كان المعتصم عديم الاهتمام بالكتب والمعارف بل إنه وصف بكونه (أمياً لا يكتب) وبقدر ما كان المأمون عقائدياً ملتزماً كان المعتصم عسكرياً محترفاً ولذلك فإن استمرار تأييده لمذهب المعتزلة لم يكن في أغلب الظن عن عقيدة راسخة بل كان تقليداً أعمى لسياسة سلفه المأمون وانقياده حرفياً لوصيته له.

ولعل أظهر ما تميز عصره هو إكثاره من استخدام الأتراك وإيثاره لهم وتفضيلهم على سائر العناصر الأخرى.

ولما كنا سنبحث هذا الموضوع بتفصيل أكثر في مكان آخر فلا بد لنا هنا أن نوضح مغزى التنظيم العسكري الجديد الذي أقدم عليه المعتصم.

إننا يجب أن ندرك أن اصطلاح (الموالي) كان اصطلاحاً مرناً ذا مدلولات واسعة ولم يكن يعني فقط المسلمين من غير العرب ولم يكن يقتصر على الفرس كما يحلو للبعض تفسيره واستنباط نتائج خاطئة منه، ومن جملة مدلولات هذا الاصطلاح هو أن المولى الذي يرتبط بنوع من الولاء أو الرابطة بقبيلة ما أو بسيد ما قد يكون عبداً أو مملوكاً بغض النظر عن عنصره ارتفع إلى مرتبة مولى. وقد كان هذا النوع من الموالي متواجداً منذ العصر الأموي، سأل الخليفة المنصور أحد أنصار الأمويين عن سبب سقوط الأمويين في رأيه؟ فأجاب من تضييع الأخبار، ثم سأله أين

وجد الأمويون الوفاء؟ فأجاب في مواليهم وقد استخدم المنصور كما نعلم مواليه في البريد، ثم أن الخليفة المهدي اعتمد بدرجة أكبر على مواليه وقدمهم على غيرهم في الخدمات بسبب إخلاصهم واندفاعهم في تنفيذ أية خدمة يريدها منهم الخليفة.

وإذا ما تقدمنا أكثر في العصر العباسي الأول نلاحظ اصطلاحات جديدة تدل على ازدياد اعتماد الخلفاء على مواليهم وصنعائهم فترد في عصر الرشيد مثلاً مرتبة (الخادم) كلقب للعديد من الأفراد الذين اعتمد عليهم هذا الخليفة في أموره المهمة. فقد كان هرثمة بن أعين من موالي الخليفة وكان مسرور الكبير من أقرب المقربين إليه. كما نلاحظ أن العديد من القادة العسكريين في جيش الخليفة هارون الرشيد في حروبه مع البيزنطيين كانوا من العبيد والخدم التابعين للبلاط العباسي ولشخص الخليفة بالذات وتشير الروايات التاريخية إلى أن الأمين أغرق بلاطه بالعبيد والخدم، وهذا ما فعله المأمون كذلك خاصة إذا علمنا أن الجيش الخراساني الذي قاده طاهر بن الحسين لاحتلال بغداد كان يتكون إضافة إلى العرب والفرس يتكون من البخارية والخوارزمية والأتراك مما يدل على أن سكان شرقي خراسان وبلاد ما وراء النهر كانوا ممثلين بصورة واضحة فيه.

وعلى ذلك فإن ظهور هذه الكتلة من الموالي المرتبطين بالخليفة في العاصمة وفي بلاط العباسيين وما نالوه من نفوذ متزايد يعتبر من العوامل الممهدة الرئيسة للتدابير العسكرية التي أقدم عليها الخليفة المعتصم. ومما لا شك فيه فإن أهم ما يميز هؤلاء الأتراك الذين اعتمد عليهم المعتصم أنهم غرباء لا تربطهم صلة بقبيلة أو شخص الخليفة العباسي مما يجعل إخلاصهم واعتمادهم وولاءهم له وحده هذا يجعلهم بعيدين عن التكتلات والولاءات والعصبيات التي يرتبط بها وهم من الكتل الأخرى وبمعنى آخر فإن المعتصم أدرك بأن الاعتماد على الترك أفضل لدولته وأضمن لخلافته، لأن ولاءهم غير متشتت وخالص له بينما العرب تتقاسمهم العصبيات القبلية، والفرس تراودهم الآمال العنصرية والاقليمية والدينية القديمة (المجوسية). هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد استقرت العناصر المختلفة في الخلافة العباسية وتحضرت ولم تعد قبائل العراق وخراسان تتسابق للحرب والقتال كما كانت من

قبل، وذلك أن حياة الحضارة والرفاهية جعلتهم يبدلون أسلوب معيشتهم، فمالوا إلى الزراعة والتجارة والمهن وبدأ عندهم الولع بالثقافة، أما الأتراك فكانوا لا يزالون بدوا متنقلين ويسميهم الجاحظ (بدو العجم)[2].

ولا يفوتنا أن نذكر التقارب الفكري بين طبيعة المعتصم وثقافته وبين طبيعة هؤلاء الأتراك وثقافتهم فلم يكن لديهم ميل نحو أمور الحضارة وتقاليدها قدر ميلهم إلى أمور الحرب والسلاح وهذا ما كان يفضله المعتصم الذي نشأ مولعاً بأمور الحرب والفروسية.

وأخيراً وليس آخراً فإن عملية دخول المماليك الأتراك إلى المؤسسة العسكرية والمؤسسة الإدارية العباسية بصورة فعالة في عهد المعتصم يرتبط كذلك بالتدابير النشطة التي اتخذها المأمون وبعده المعتصم لإحكام السيطرة على بلاد ما وراء النهر والأقاليم المجاورة لها والعمل على نشر الإسلام فيها بهمة ونشاط. مما سهل عملية هجرة أو استقدام الأتراك إلى العراق في عصر المعتصم والعهود التي تلته. ولقد كان عدد الأتراك يتزايد سنة بعد أخرى حيث يذكر اليعقوبي[3] بأن المعتصم ألح في طلب الأتراك من مواطنهم وكذلك اشترى من كان ببغداد من رقيق الناس! ويشير علي بن الجهم إلى أن الخليفة جمع ما لا يقل عن 70 ألفاً من الأتراك حين يقول[4]:

أمامي من له سبعين ألفاً   من الأتراك مسرعة السهام

بناء سامراء:

بعد بحث طويل تعرف المعتصم على موضع دير على دجلة شمالي بغداد فبنى مدينة (سر من رأى) سنة 220هـ/ 835م وقد ذكر مؤرخونا الرواد أسباباً عديدة لانتقال الخليفة بجيشه ودواوينه إلى سامراء لعل أهمها الفارق الحضاري[5] والاجتماعي بين سكان بغداد وبين الترك الذين كانوا بدوا جفاة يركبون الدواب ويسيرون في أسواق بغداد دون نظام. هذا إضافة إلى تكرار التصادم بينهم وبين الناس لسوء تصرفهم[6] وكذلك لضيق المدينة بهم بسبب كثرتهم وتزايد عددهم[7].

ومهما عدد المؤرخون من أسباب فإننا نؤكد على سبب واحد لعلّه العامل المهم الذي جعل أمر الانتقال من بغداد إلى سامراء أمراً حتمياً ألا وهو التصادم بين كتلتين مسلحتين في العاصمة الأولى (أهل بغداد) والثانية الترك. فإذا كانت المؤسسة العسكرية قد تقبلت الأتراك كعنصر جديد فإن العاصمة نفسها لم تهضمهم أبداً بسبب الفارق الكبير بين الكتلة القديمة والكتلة الجديدة في الطباع والثقافة والاتجاهات والميول، وهذا الأمر جعل المعتصم يدرك أكثر فأكثر بأن البحث عن مركز عسكري وإداري جديد لا بد منه إذا أريد للسلطة المركزية أن تثبت وتستقر.

ولكن من هم هؤلاء الذين اصطلح عليهم (أهل بغداد): أن دورهم في الواقع يعود إلى أيام الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون[8] فهم الذين كونوا العنصر الرئيس في جيش الأمين وهم الذين أبدوا بسالة كبيرة في مقاومة جيش طاهر بن الحسين الذي حاصر بغداد، وتذكرهم مصادرنا حين تتكلم عن المعارك العديدة في ضواحي بغداد وفي داخلها وتسميهم أحياناً (جند أهل بغداد) ولذلك فهم ليسوا من الرعاع أو العامة، كما يحلو لبعض المؤرخين تسميتهم وإنما وحدة عسكرية متميزة تتكون مما لا يقل عن 50 ألفاً من الفرسان والمشاة مسجلين في (دفاتر الجند). وتظهر رواية أخرى ولاءهم للأمين وندمهم على مقتله.

ولعل أهم من ذلك أننا نلاحظ بأن جند أهل بغداد كان يعتمد في تكوينه على كتلة مهمة ظهرت أيضاً أثناء الحرب الأهلية وهي (الأبناء)[9].

والأبناء ينعتون بنعوت كثيرة في المصادر المتوفرة لدينا فأحياناً يسمون أبناء الدولة أو أبناء الدعوة أو أبناء أنصار (العباسية). ولكن الشائع في تسميتهم هو الأبناء ومفرده الابناوي أو البنوي.

والمحتمل جداً أن هؤلاء الأبناء هم أحفاد أهل خراسان أنصار العباسيين وأصحاب الدعوة العباسية والذين كانوا في غالبيتهم من القبائل العربية الخراسانية.

إن هؤلاء الأبناء المسيطرون على بغداد الفخورون بأمجادهم العسكرية والسياسة هم الذين أجبروا المعتصم على الانتقال إلى سامراء بجنده. فالأبناء منذ

حرب الأمين والمأمون كانوا يستهزئون بالعجم جند طاهر بن الحسين فقد قال عبد الرحمن بن جبلة الابناوي عن طاهر بن الحسين وجيشه قبل إحدى المعارك في ضواحي بغداد.

« . . . يامعشر الأبناء يا أبناء الملوك والفاف السيوف انهم العجم وليسوا بأصحاب مطاولة ولا صبر فهبوا لهم فداكم ابي وامي»[10].

إن النظرة نفسها التي نظر بها أهل بغداد إلى جيش طاهر بن الحسين ظلوا ينظرون بها إلى جيش المعتصم. وكما أجبر المأمون على تغيير سياسته أجبر المعتصم على تغيير عاصمته!

لقد كانت خطة المعتصم على حد قول الطبري أن يعثر على موضع «أخرج إليه وأبني فيه مدينة وأعسكر به فإن رابني من عساكر بغداد حادث كنت بنجوة وكنت قادراً على أن أتيهم في البر وفي الماء[11]. ولذلك قرر المعتصم أن يبتعد عن جند أهل بغداد ليكون في مأمن منهم من جهة وليستطيع ضربهم وكسر شوكتهم إذا تمردوا من جهة ثانية.

ويشير اليعقوبي[12] إلى أن تخطيط المدينة الجديدة تميز بمراعاة النواحي العمرانية والحضارية وذلك أمر طبيعي لأن الدولة العباسية استقرت وثبتت وأن عهد المعتصم يختلف عن عهد المنصور باني بغداد المدورة. وقد اهتم المعتصم بالعمران وصنوف الأسواق وكانت «كل تجارة منفردة وكل قوم على حدتهم على مثل ما رسمت عليه أسواق بغداد» واهتم بزراعة الضواحي القريبة من المدينة وحمل إليها الأشجار وحفر الترع فكان قدوة لرجال دولته في الاهتمام بالزراعة والتشجير[13].

على أن أبرز ما اهتم به هذا الخليفة المحارب هو راحة جيشه فقد قسمهم إلى وحدات تسكن كل منها في ناحية خاصة. وراعى في التقسيم جنسياتهم الأصلية وجعل قائد لكل وحدة، أو صنف مسؤولاً عن المحلة أو المنطقة التي تسكن فيها.

سياسة المعتصم الداخلية

الاضطرابات في جنوبي العراق: حركة الزط

تعرضت منطقة البطيحة في العراق إلى اضطرابات قام بها الزط. ولا نعرف الشيء الكثير عن هؤلاء الناس، ويرى المسعودي[14] أن أصلهم من الهند هاجروا إلى إيران فالعراق بسبب المجاعة والفاقة، ويؤيد البلاذري القول بأن أصلهم هندي ويحدد منطقهم بالسند. أما ابن خلدون فيقول إنهم قوم من أخلاط الناس[15].

ومهما يكن من أمر فالظاهر أنهم من ضعفاء الهنود الذين جابوا البلدان حتى وصلوا أهوار العراق وقد حاول ولاة العراق وخاصة الحجاج الثقفي أن يستغلهم لزراعة المنطقة عن طريق استقرارهم فيها.

وفي العصر العباسي أثار الزط الاضطراب وعدم الاستقرار في عهد المأمون الذي لم يتمكن من قمع حركتهم، بل إنهم بدأوا يغيرون على السفن القادمة إلى بغداد من البصرة، كما أنضم إليهم العبيد وهاجموا المناطق القريبة ونهبوا غلاتها حتى انقطع الطريق المائي إلى بغداد كما قطعوا الطريق بين واسط والبصرة.

وفي سنة 219هـ / 834م أرسل المعتصم جيشاً بقيادة عجيف بن عنبسة فحاصرهم وأحكم الحصار فاستسلم مئات منهم وقتل آخرون. وقرر الخليفة بعد ذلك تهجير آلالاف منهم إلى الثغور الشمالية وخاصة ثغر عين زربة وبذلك خفت وطئتهم في الجنوب.

تمرد في الجزيرة الفراتية واذربيجان:

وتمرد جعفر الكردي في الجزيرة واذربيجان ثم انتقل إلى ارمينيا وانضم إليه عديد من الناس فباتت حركته خطرة مما دعا السلطة المركزية إلى قمعها بسرعة[16].

المعتصم والعلويون:

استمرت المعارضة العلوية تتحرك هنا وهناك في أقاليم الخلافة العباسية. فقد تحرك المعتصم سنة 219هـ / 834 م، محمد بن القاسم بن علي بن عمر الملقب (بالصوفي) في خراسان داعياً إلى «الرضا من آل محمد» وكان محمد بن القاسم يرى رأي الزيدية التي تدعي بأن الإمامة شورى بين العلويين من آل الحسن والحسين، فمن خرج منهم ثائراً فهو الإمام.

وقد جاب محمد بن القاسم هذا، الأقاليم فكان بالحجاز ثم بالكوفة في العراق، ولكنه حذر من المعتصم فرحل إلى خراسان. كما أنه لم يجد الأعوان في الكوفة المعروفة بتطرفها في تلك الفترة، في حين أنه كان زيدياً ويقول بالعدل والتوحيد كما يقول المعتزلة.

وقد نزل محمد بن القاسم في رستاق بمرو، ولكنه لم ينجح كثيراً بسبب ورعه وزهده وعفته، مما جعله يصطدم ببعض شيعته ويرحل إلى الطالقان.

وكان عبد الله بن طاهر والي خراسان في هذه الفترة فتولي أمر الحرب ضد محمد بن القاسم فأرسله إليه قوات عسكرية خسرت في الجولة الأولى، ولكن الجولة الثانية كانت من صالح الطاهريين حيث استعمل القائد نوح بن حيان خطة الكمائن، فحين اشتبكت قواته مع قوات محمد بن القاسم تراجعت متظاهرة بالهزيمة فتبعتها قوات محمد، وهنا انقضت عليها الكمائن وانهزم محمد وجيشه، إلا أنه أفلت من القتل واستقر في نسا.

ولكن عبد الله بن طاهر جد في طلبه، وخصص مكافأة مقدارها عشرة آلاف درهم لمن يدله عليه، واستطاع أخيراً وبخيانة بعض أصحاب محمد من القبض عليه في نيسابور، وبعد سجنه ثلاثة أشهر أرسله إلى المعتصم، فسجنه عند مسرور الخادم الكبير، ثم حوله إلى بستان حيث استطاع محمد القاسم من الهرب بمعونة بعض أصحابه حيث استتر في واسط حتى وفاته. وهناك رواية تشير إلى أن المتوكل بعد مضي سنين عديدة ألقي القبض عليه، فمات في سجنه، ولكن هذه الرواية ضعيفة.

وقد لعبت عوامل عديدة دورها في تدهور حركة محمد بن القاسم، منها: شخصية محمد نفسه فقد كان أقرب إلى الورع منه إلى السياسة ومغامرتها حتى أنه كان يلقب (بالصوفي). ثم أن عديداً من اتباعه لم ينضموا إليه عن عقيدة مخلصة بل خرجوا على حد قول أحدهم: «لنكتسب وننتفع ونأخذ ما نحتاج إليه. ولا شك بأن اجراءات عبد الله بن طاهر وجده في طلبه وتخصيصه المكافآت المالية لمن يدل عليه، كل ذلك فت من وحدة حركته بل أن بعضاً من أعوانه أصبحوا جواسيساً عليه ينقلون أخباره للسلطة.

ولم يشهد عهد الواثق تحركاً علوياً بل إن المصادر تشير إلى أن هذا الخليفة كان يقرب العلويين ويمنحهم الأموال والهدايا. ومهما يكن من أمر فإن عهده لم يدم طويلاً (227-232هـ) بحيث يمكنه أن يبلور سياسة معينة تجاه العلويين أو غيرهم.

الحركات الفارسية:

استمرت الحركات في بلاد فارس وما حولها مدفوعة بعوامل عديدة متشابكة ومتفاعلة في الوقوف ضد العباسيين، ليس على الصعيد السياسي فحسب، بل شملت كل ما يمثله العباسيون من مظاهر ومثل فكرية واجتماعية وروحية.

إن أبرز الحركات الإيرانية التي ظهرت في عهدي المأمون والمعتصم هي حركات الخرمية، وأهمها حركة بابك الخرمي، ثم تمرد المازيار اصبهبذ طبرستان، ثم تمرد منكجور الفرعاني، وأخيراً تمرد الأفشين.

حركة بابك الخرمي:

البابكية (نسبة إلى بابك الخرمي) حركة دينية سياسية تدين بالخرمية. والخرمية ما هي إلا مزدكية[18] جديدة، أي أن تعاليمها تشبه إلى حد كبير تعاليم المزدكية الإيرانية، متبرقعة بثوب جديد وقد ظهرت في أواخر العصر الأموي حتى أن خداش الذي اتهم ببث آراء خرمية سنة 188هـ، كان من أوائل الدعاة العباسيين في خراسان، حيث يقول عنه الطبري:

«ثم غير ما دعاهم إليه وتكذب، وأظهر دين الخرمية ودعا إليه، وخص لبعضهم في نساء البعض[19].

ولا شك فإن الخرمية تبنت أبا مسلم الخراساني خاصة بعد وفاته، ونظرت إليه قائداً وزعيماً لها، وكانت (المسلمية) فرقة خرمية تنظر إلى أبي مسلم باعتباره منقذاً منتظراً سيعود إلى هذه الأرض فيملأها عدلاً وتحرك الخرمية بزعامة عبد القهار سنة 126هـ في جرجان، ولكن القائد عمر بن العلاء مزقهم[20]، ثم انتقل في اصفهان سنة 167هـ، ثم عاد المحمرة الخرمية فانتقضوا في جرجان سنة 180هـ وتحرك الخرمية في اذربيجان سنة 192هـ[21] فأرسل الرشيد جيشاً قوياً بقيادة عبد الله بن مالك الذي استطاع أن يخمد الحركة ويأسر عديد منهم وقد أمر الخليفة بقتل الرجال وسبي النساء. كما قامت سنة 218هـ انتفاضة خرمية في إقليم الجبل واستطاع الخليفة المعتصم القضاء عليها.

ويختلف المؤرخون في أصل تسمية الخرمية، ولعلنا نستطيع أن نجمل هذه الاختلافات كالآتي: -

أولاً: أن التسمية جاءت من (خوارمة) زوجة مزدك التي دعت إلى تعاليم زوجها فانجذب إليها الناس وأطلق عليهم (خرم ديني). ولكن هذه الرواية بعيدة التصديق.

ثانياً: أصل الكلمة يعني الفرح والتلذذ والاستطابة والاستهتار.

ثالثاً: أن معنى خرم هو فرج، وهي تدل على الإباحة والدعارة وانعدام الحدود فيما يخص الشهوة الجنسية، وهي رواية فريدة يشير إليها ابن الأثير.

رابعاً: أن أصل التسمية يعود إلى اسم منطقة في اذربيجان قريبة من أردبيل، ويعتبر الدكتور حسين العزيز هذه الرواية أقرب التقارير إلى القبول، بينما ينفيها الدكتور صديقي نفياً باتاً[22].

خامساً: أما المستشرق السوفياتي بونيياتوف فهو يعتبر منشأ كلمة خرم من النار، وهو تفسير لغوي بحت لا يستند إلى روايات تاريخية، ويخلط بين الخرمية وعبدة النار من الديانات الأخرى التي ظهرت قبل الخرمية، كالزرادشتية وغيرها[23].

ويؤيد صديقي[24] التفسير القائل بإن التسمية جاءت من (خرم دين) وأن اتباع الخرمية هم الذين سموا انفسهم بهذا الاسم. ويؤكد صديقي بأن هذا التقليد كان سائداً في ايران بالنسبة لأهل الديانات الأخرى كالزرادشتية والمزدكية. وأن كلمة (خرم دين) تعني الدين المرح المفرح وكان المزدكية في العهد الساساني يسمون (بالخرم دين) وحين أصبحت ايران ضمن الدولة العربية الإسلامية عرفت الاسم وأصبح خرمدينية أو خرمية اختصارها. ويشير صديقي بأن أغلبية المؤرخين يؤيدون هذا التفسير، خاصة وأن أكثرهم من المؤرخين المتقدمين.

أما الدكتور شعبان فهو لا يرى في محاولة تفسير الخرمية تفسيراً دينياً محاولة مجدية، ويعلل ذلك بأن اصطلاح الخرمية لا يعني تاريخياً أي ارتباط مع دين ما من الديانات، وأن خرم إنما تعني «سعيد أو مسرور» وقد حرفه أعداء الخرمية فجعلوه يعني «المجون والتهتك» ويلاحظ الدكتور شعبان بأن الاصطلاح أطلق على مجموعة من الحركات ليس بينها أي ارتباط. وفي هذا يشابه اصطلاح الخرمية اصطلاح الخوارج، الذي استعمل قبل هذا التاريخ. ويرى الدكتور شعبان بأن شرح الخرمية وتوضيح طبيعتها يجب أن يستنبط من خلال الظروف الاجتماعية والاقتصادية في اقليم اذربيجان ذاته.

تعتبر الحركة البابكية أكثر الحركات الإيرانية مادة في مصادرنا التاريخية الأصلية[26]، ولعل ذلك يعود لسببين رئيسين:

1- أنها وقعت في فترة متأخرة من العصر العباسي الأول، ولذلك فإن المؤرخين الرواد عاصروا الذين حركة بابك أو عاشوا بعدها بقليل وصفوها لنا بكثير من الاستطراد والتفصيل النسبيين ولعل هذا ينطبق بالدرجة الأولى على واقد بن عمرو التميمي الذي اعتمد عليه ابن النديم في الفهرست، وذكر كتابه بعنوان (أخبار بابك).

2- أهمية هذه الحركة بالنسبة للمؤامرات الإيرانية الأخرى وخاصة الخرمية منها. فقد امتدت أكثر من عقدين من الزمان، وانتشرت في رقعة واسعة من ايران ومع ذلك

فلا بد أن نذكر بأن ما وصل إلينا من معلومات على كثرتها النسبية تعتبر غير كافية لتكوين فكرة واضحة عن البابكية، من حيث طبيعتها والآراء التي بشرت بها، أو الفعاليات السياسية والعسكرية التي قامت بها. ولذلك يضطر الباحث في البابكية إلى الاستنتاج حين تعوزه المعلومات والوثائق التاريخية، وقد يؤدي به هذا الاستنتاج، كما هو الحال لدى كثير من الباحثين المحدثين، إلى الوصول إلى تفسيرات وفرضيات بعيدة عن طبيعة البابكية وعن العصر الذي ظهرت فيه.

ولا شك فإن البابكية حركة دينية -سياسية معارضة للسلطة العباسية والدين الإسلامي، وأن هذه الحركة فشلت في نهاية المطاف في صراعها ضد العباسيين.

ترأس بابك فرقة الخرمية بعد وفاة جاويدان، ورشحته زوجة جاويدان لقيادة الحركة مدعية أن زوجها قال بإن روحه بعد وفاته ستدخل في بدن بابك، فقبل الاتباع قولها واعتبروا بابك زعيماً لهم[27].

لقد عين الخليفة المأمون حاتم بن هرثمة والياً على ارمينية قبل مقتل أبيه هرثمة بن أعين، ولكن مقتل الأخير استثار ابنه الذي بدأ يعد العدة للتمرد على السلطة، فراسل أمراء ارمينيا وايران وكذلك راسل بابك زعيم الخرمية. وقد اعتبر البابكية هذه الفرصة جيدة للتحرك ضد العباسيين، ولكن حاتم بن هرثمة توفي قبل أن يحقق مآربه[28]. وفي سنة 201هـ اجتاح بلاد فارس القحط واضطرب السكان وواجهت السلطة المركزية صعوبات كبيرة، وقد انتهز البابكية هذه الظروف السيئة فأعلنوا حركتهم[29].

ولعل ما ذكرته زوجة جاويدان حيث أعلنت عن رئاسة بابك للحركة خير مؤشر على طبيعة الحركة وأهميتها وطموحاتها. فقد قالت للاتباع على لسان جاويدان (وصيته):

«أن بابك سيبلغ بنفسه وبكم أمراً لم يبلغه أحد ولا يبلغه بعده أحد وأنه يملك الأرض ويقتل الجبابرة، ويرد المزدكية ويعز ذليلكم ويرتفع به وضيعكم»[30].

فالبابكية تريد عودة المزدكية أو مذهب قريب الشبه منها متطور عنها، وتؤمن بالحلول، ومعنى ذلك أن بابك إله أو حلت فيه روح الآلهة، ثم التناسخ، ذلك أن روح جاويدان دخلت في بدن بابك، وكذلك الرجعة وانتظار المنقذ الذي سيحقق لهم الأهداف التي يرتضونها، الدينية منها والسياسية. ويظهر من أقوال العديد من المؤرخين أن البابكية، أو جماعة منها، كانت تقول بإباحة النساء على الرضا منهن وإباحة كل ما يستلذ النفس وينزع إليه الطبع، وقد أكد ذلك ابن الجوزي في فترة متأخرة حيث قال «بقي من البابكية جماعة يقال أن لهم ليلة في السنة يجتمع فيها رجالهم ونساؤهم ويطفئون السرج يتناهضون للنساء»[31].

والمعروف عن المزدكية أن مذهبهم أقرب إلى السلم والموادعة، ولكن بابك طور الخرمية البابكية فجعلها تؤمن بالمقاومة الإيجابية، ويشير ابن النديم إلى أن بابك: «أحدث في مذاهب الخرمية القتل والغصب والحروب والمثلة، ولم تكن الخرمية تعرف ذلك»[32].

كما أراد البابكية القضاء على نظام التملك المعمول به في تلك الفترة، فكانوا يحرضون الفلاحين على قتل أسيادهم من ملاك الأرض ونهب أموالهم، ولعل هذا هو الذي دفع بارتولد للقول بأن النزاع يخفي تحته مسألة الأرض[33].

ومهما كانت نسبة تصديقنا أو شكنا بآراء البابكية كما صورها المؤرخون وكتاب الفرق المسلمين، فإننا لا يمكن أن ننزلق في خيال خصب يعتمد النظرة المسبقة أساساً في التفسير، فننظر إلى البابكية بمنظار القرن العشرين، ونعتبرها «حركة تحررية» بل «انتفاضة» شعب ضد الاحتلال العربي العباسي! وإن البابكية حركة سعت إلى تحقيق المساواة وتعميم الاستفادة من المنافع العامة وتحرير مركز المرأة!![34] إن هذا التفسير الذي يغالي في المحاباة لا يختلف في شيء عن التفسير الذي يغالي في العداء، فكلاهما يشوه حقيقة البابكية.

وإذا كان المؤرخون متفقين بأن البابكية الخرمية هي مزدكية جديدة أو متطورة فإن عقيدتها تشابه إلى حد كبير العقيدة المزدكية في النواحي الدينية والاجتماعية

والاقتصادية، على أن بابك كان شخصاً طموحاً وذو قابليات كبيرة، ولذلك أعطى للبابكية لوناً جديداً هو المجابهة المسلحة بدل المقاومة السلبية التي كانت تتصف بها المزدكية.

إن المقاومة جعلت من البابكية حركة مسلحة معادية للسلطة العباسية وعلى صدام معها، وهنا كان لا بد أن تتضح مبادؤها الدينية وتتبلور بصورة أكثر، وكذلك كان لا بد أن تتضح أهدافها السياسية.

ويظهر من سلوك الحركة البابكية وتحالفها مع الأمراء الاقطاعيين المعادين للحكم العربي الإسلامي وتحالفها مع البيزنطيين أعداء الإسلام القدماء، وكذلك فإن البابكية كانت تسعى لنشر مذهبها باعتباره بديلاً عن الإسلام، وتوسيع سلطتهاالسياسية لتحل محل السلطة العباسية. ويظهر من وصية جاويدان آنفة الذكر، إن الهدف السياسي القضاء على «الجبابرة» العباسيين وأحياء المزدكية. وتشير روايات عديدة إلى أن هذا الهدف السياسي هو القضاء على سلطان العباسيين، ولكننا نكتفي هنا بإيراد قول المسعودي بعد ذكره لقتل بابك وإرسال رأسه إلى خراسان:

«. . . لما كان في نفوس الناس من استفحال أمره. . وإشرافه على إزالة ملك وقلب ملة وتبديلها».

ولا شك فإن عداءهم للإسلام لم يكن بالضرورة ناتجاً كونه ديناً فحسب لأنه كان يمثل سلطان العرب الذي كان يقيمه العباسيون في هذه المناطق، ذلك لأن الإسلام والعروبة كانا خلال هذه الفترة المبكرة صنوين لا يفترقان، فالعروبة تعني الإسلام وبالعكس. كما الإسلام يعني مجموعة من القيم والمثل التي جاء بها العرب إلى هذه الأقاليم. وكلما زاد سلطان العرب والإسلام، زاد كره الخرمية للسيادة العباسية.

بدأت سيرة بابك الخرمي السياسية سنة 200هـ / 837 م. وخلال هذه الفترة الطويلة كان بابك ناجحاً في مشاريعه السياسية والعسكرية واستمر هذا النجاح حتى السنتين الأخيرتين حيث جرب مرارة الخسارة والاندحار ثم الأسر والقتل.

وقد اعتمد بابك في جذب الاتباع على الإغراء بالآمال والوعود، وعلى التهديد والإرهاب، فقد زرع الرعب في أنحاء عديدة من اذربيجان والجبال، وأمر اتباعا الخرمية بعد أن فرقهم في أماكن عديدة بين سكان القرى بقتل المسلمين والإجهاز عليهم دون تفريق بين العرب والموالي، وبين الرجل والمرأة والصبي، فازداد الرعب بين السكان الذين لم يعرفوا دوافع هذه الجرائم ولا الأيدي التي تقوم بها. ونتيجة لذلك فقد دخل عديد في حركته رهبة منه، ودخل آخرون رغبة في السلب والنهب والغنائم والسلطان. وقد امتدت منطقة نفوذه وشملت البذ التي اعتبرها مركزاً لحركته.

عين الخليفة المأمون يحيى بن معاذ بن مسلم والياً على ارمينيا، وأمره بالقضاء على حركة بابك الخرمي وقد بدأ يحيى الهجوم فعلاً سنة 204هـ، ثم عين المأمون أميراً جديداً للحرب هو عيسى بن محمد الذي وصل إلى اذربيجان المحليين، ولكن جهوده باءت بالفشل، كما وأن جهود قواد آخرين وعلى رأسهم محمد بن حميد الطائي الطوسي لم تثمر، بل إن هذا الأخير قتل بعد اندحار جيشه في معركة طاحنة مع بابك الخرمي سنة 214هـ.

توسعت حركة بابك فشملت إضافة إلى اذربيجان اقليم الجبال وجزء من ارمينيا فاستقر رأي المأمون على أن يرسل عجيف بن عنبسة لقتال بابك، كما وأن المأمون نفسه قاد الجهاد ضد البيزنطيين ليتحرى بنفسه عن الوضع العسكري والسياسي الخطير في هذه المنطقة. ذلك أن الأمير البيزنطي ميشيل الثاني بدأ جاداً في مساعدة بابك الخرمي بالمال والسلاح والرجال، كما وأنه سمح لاتباع بابك بالاستفادة من الأراضي البيزنطية كملجأ لهم أثناء ضغط الجيش العباسي. والواقع فإن الخليفة المأمون استغل كذلك ثورة توماس الصقلبي وأعانه بمتطوعين عرب ليبث سيطرته على آسيا الصغرى ويشير المؤرخ فازيليف:

«إننا نلاحظ حلفاً حقيقياً بين توماس والعرب، فلم يكن وجود الفرق العربية في جيش توماس اتفاقاً اعتباطياً، ولم يكن دخولهم فيه رغبة في السلم والغنيمة، وإنما كان متبعاً خطة دقيقة التحديد عدائية للروم».

ويظهر من المصادر البيزنطية وبعض المصادر السريانية مثل تاريخ ميشيل السوري بأن اتفاقاً كان قد عقد بين الخليفة وتوماس، اعترف الأول بموجبه بتوماس امبراطوراً على الروم، وأن يعضده حتى ينحي خصمه عن العرش، ووافقه الثاني على تسليم مناطق حدودية معينة وأن يدفع ضريبة سنوية. وقد توج توماس الثائر على يد بطريرك انطاكية.

ولكن توماس وأن كان قد كسب قوة مادية كبيرة بتحالفه مع المسلمين فإن أنصار المذهب الارثوذكسي الذين أيدوه أول الأمر باعتباره حامي الصور (الايقونات) ابتعدوا عنه بعد ذلك لتحالفه مع المسلمين (الكفار في نظرهم). ولم تدم ثورة توماس طويلاً بل أخمدها أنصار الامبراطور وأسروا توماس وسلموه إلى ميشيل الثاني سنة 208هـ/ 833م فقتله.

وكان لحركة توماس آثارها في الخلافة والبيزنطيين معاً، فبالنسبة للروم خربت هذه الحركة اقاليم الامبراطورية وافقرتها اقتصادياً، وزادت من نفوذ الملاكين الكبار الذين أثروا على حساب جيرانهم الصغار الذين باعوا أراضيهم بسبب افلاسهم. وقد استغل عرب الأندلس وافريقيا انشغال البيزنطيين ففتحوا جزيرتي كريت وصقلية. أما الخلافة العباسية فقد خاب أملها بعد فشل حركة توماس، على أن المأمون أوصى أخاه المعتصم في أواخر أيامه وصية مهمة ضمنها تجاربه السياسية جاء فيها:

«وانظر هؤلاء القوم أنت بساحتهم (يعني البيزنطيين) ولا تغفل عنهم في كل وقت. والخرمية فأغزهم ذا حزامة وصرامة، واكنفه بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة، فإن طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك، واعمل في ذلك مقدم النية فيه راجياً ثواب الله عليه».

ولعلنا نلاحظ أن الربط بين الحرب مع البيزنطيين وبين استمرار الكفاح ضد الخرمية واضح جداً ذلك أن الامبراطور البيزنطي لم يدخر وسعاً في مساعدة الخرمية وحمايتهم، فقد كانت ارمينيا واذربيجان مسرحاً لنشاط بابك الخرمي، ولذلك تداخلت هذه الحركة بالعلاقات السياسية- البيزنطية فقد تفاوض بابك الخرمي مع

توفيل الامبراطور البيزنطي. ووافق الامبراطور على لجوء أعداد كبيرة من الخرمية إلى أرض الروم، فأعدتهم الدولة البيزنطية وسلحتهم من أجل مهاجمة الجيش العباسي.

وكان على الخليفة المعتصم وقد جاء للحكم سنة218هـ أن يواجه الحركة البابكية وحليفها الامبراطور البيزنطي، فأرسل سنة 220هـ/ 835 م حملة قوية بقيادة الافشين حيدر بن كاوس، ثم وجه محمد بن يوسف إلى اردبيل وأمره «أن يبني الحصون التي خربها بابك في ما بين زنجان واردبيل ويجعل فيها الرجال مسالك لحفظ الطريق لمن يجلب الميرة إلى اردبيل».

واستطاع محمد بن يوسف أن يلحق أول هزيمة بسرية خرمية، وأرسل رؤوس القتلى إلى الخليفة. وكان الافشين لا يقتل جواسيس بابك الخرمي بل يكسبهم إليه ويغريهم ليعملوا لحسابه. كما وأن محمد بن البعيث ترك بابك الخرمي والتحق بجيش العباسيين.

على أن الحرب لم تكن سهلة لأن البابكية كانوا يتمركزون في الجبال الشاهقة ولهم معرفة كبيرة بالمسالك، وكانوا يستخدمون الكمائن ويغيرون ليلاً «البيات» ووضعوا عوائق كثيرة أمام جيش العباسيين النظامي، منها: الحفر الواسعة ومهاجمة الميرة والتموين بصورة مستمرة. ولكن الأفشين كان لا يمد قدماً دون أن يثبت الأولى، فأطال أمد الحرب، وأختار مواقع حصينة وشدد الحراسة على الطرق. ثم دفع بجيشه نحو (البذ) فاندحر جيش بابك فعرض عليه الافشين الأمان، ولكن بابك فر مع نفر من اتباعه باتجاه ارمينية، وكان ذلك سنة222هـ.

حين وصل بابك الخرمي ارمينيا التقى به سهل بن سنباط الأرمني أحد أمراء ارمينيا وصاحب قلعة شاكي. وقد استطاع سهل بن سنباط أن يتصل بالافشين ويعلمه بوجود بابك عنده حيث عجل الافشين بإلقاء القبض عليه أسيراً. ثم أرسله إلى المعتصم في سامراء حيث أمر الخليفة بأن يستعرض بابك في الشوارع راكباً على فيل ثم أعدم في اليوم نفسه، ثم علق جسده في سامراء. أما رأسه فقد أرسل إلى بغداد وعلق الرأس مع أخيه عبد الله الذي أعدم في الرصافة وصلب على رأس الجسر.

ويعزى ميشيل فشل هذه الحركة إلى عوامل عديدة، منها :-

1- اهتمام الخليفة المعتصم وتركيز جهوده للقضاء عليها واستخدام أساليب متنوعة في التكتيك الحربي، منها: المماطلة، والتطويل والكمائن والدوريات. ولا شك بأن القائد الافشين لعب دوراً مهماً في تنفيذ هذه الخطط. وإلى ذلك يشير الدينوري حين يقول: «لم تكن همته (المعتصم) غيره (غير بابك)».

2- نجاح السلطة المركزية في استمالة بعض حلفاء بابك الخرمي، مثل: محمد بن البعيث وأمراء ارمينيا وعلى رأسهم سهل بن سنباط. هذا إضافة إلى الجواسيس الذي جذبهم الافشين واستخدمهم للتجسس على بابك بدلاً من التجسس إليه.

3- فشل الحركة البابكية في جذب جماهير الفلاحين إليها، ذلك أن عديداً من فلاحي اذربيجان والجبال فترت عزائمهم عن مساندة البابكية، وحتى اولئك الذين انضموا بدأوا يتراجعون بصورة تدريجية.

4- العنف والقسوة والنهب الذي صاحب الحركة منذ بدئها ويعزو كثير من المؤرخين هذه القسوة الشديدة إلى بابك نفسه، بينما يعزوها الدكتور حسين العزيز إلى كثرة من انضم إليه من اللصوص وقطاع الطرق وأصحاب الفتن.

5- تضارب مصالح الفئات المختلفة التي انضوت تحت راية البابكية، فقد ضمت الحركة اجناساً مختلفة من اذربيجانيين وأرمن وأكراد وايرانيين، وحتى بعض العرب المعارضين للسلطة. كما ضمت الروم الذين ساعدوا بابك في حركته. وكان في معية بابك فئات من الفلاحين وأمراء الاقطاع والأمراء المحليين، ولا شك فإن مصالح هؤلاء متضاربة وقلما تلتقي على هدف واحد.

تمرد المازيار بطبرستان:

كان للمأمون علاقة ودية مع اصبهبذ طبرستان، وقد استلم على يديه بعد لجوئه إلى العراق على أثر خلاف عائلي في طبرستان، ثم عاد سنة 220هـ إلى طبرستان، ولكنه اختلف مع عبد الله بن طاهر والي خراسان وبدأ في عهد المعتصم «يكاتب بابك ويحرضه ويعرض عليه النصرة».

والظاهر أن من بين الأسباب التي دفعت المازيار محمد بن قارن بن ونداد هرمز إلى التمرد هو سخطه من التبعية لوالي خراسان عبد الله بن طاهر، وقد احتد هذا النزاع بعد تحرك بابك فلما انتصر الافشين على بابك أراد أن يستغل هذا الانتصار من أجل الحصول على ولاية خراسان والقضاء على أعدائه الطاهريين، وتشير رواية: «وكان الافشين يسمع أحياناً من المعتصم كلاماً يدل على أنه يريد أن يعزل آل طاهر عن خراسان فطمع الافشين في ولايتها فجعل يكاتب مازيار أن خالف احتاج المعتصم أن يوجهه لمحاربته ويعزل عبد الله بن طاهر ويوليه خراسان».

وهكذا اتفقت مصالح الافشين التركي والمازيار الطبرستاني ضد الطاهريين، كما اتفقت مصالح المازيار وبابك الخرمي ضد السلطة العباسية. ويشير الدوري مستنداً إلى رأي البغدادي أن المازيار كان خرمياً من المحمرة، ولكن من الصعب اعتبار حركة المازيار حركة خرمية والأرجح أنها حركة إيرانية سياسية، ولذلك فإن أوامره كانت ضد حكم العرب المسودة حيث قال أحد أعوانه للفلاحين:

«إن الأبناء هم أهم من العرب والمسودة ولست أمن غدرهم ومكرهم، وقد جمعت أهل الظنة ممن أخاف ناحيته فاقتلوهم لتأمنوا»[35].

كما وأن المازيار نفسه طلب من الفلاحين قتل منافسيه من المتنفذين وأمراء الاقطاع ليصفوا له الجو ويتسع نفوذه. وللسبب نفسه اتصل بابك الخرمي وشجعه على الاستمرار في حركته ضد السلطة.

ويظهر من الرسائل المتبادلة بين المازيار والافشين[36] أنهما اتفقا على القضاء على سلطة العباسيين في طبرستان، وسلطة الطاهريين في خراسان. بل إن المسعودي يؤكد بأن المازيار اعترف بأن الافشين «حثه على الخروج والعصيان لمذهب كانوا اجتمعوا عليه ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنوية والمجوس». كما وأن أخا الافشين كتب إلى أخي المازيار:

«إنه لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض غيري وغير بابك، فأما بابك فإنه بحمقه قتل نفسه، ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت فأبى حمقه إلا أن دلاه فيما وقع فيه،

فإن خالفت لم يكن للقوم من يرمونك به غيري ومعه الفرسان وأهل النجدة والبأس . . . »[37] .

وبعد أن يستخف بجند الخلافة من عرب ومغاربة وترك وسلطتها يبوح بهدفه في أن «يعود الدين إلى ما لم يزل عليه أيام العجم» .

وكان من الطبيعي أن يندفع عبد الله بن طاهر لحرب المازيار ، فقد أرسل عمه حسن بن حسين لحربه ، وأرسل المعتصم جيشاً آخر بقيادة محمد بن ابراهيم ، ولذلك لم تستمر الحركة المازيارية طويلاً ، حيث اختنقت في محلها بعد أن تفرق قواد المازيار وانحاز بعضهم إلى العباسيين فسلم نفسه بأمان فأرسل إلى المعتصم وضرب 400 سوط ، مات منها ، ثم صلب سنة 224هـ .

تمرد الافشين وقتله[38] :

من القادة الذين اظهروا طموحات واسعة لم يتحملها الخلفاء ، بل إن هؤلاء الخلفاء اتخذوا الحيطة والحذر من هؤلاء بعد اتساع نفوذهم وتزايد خطرهم فتخلصوا منهم بطريقة أو بأخرى وتبدأ هذه السلسلة من الخلال وتمر بأبي مسلم الخراساني والبرامكة وآل سهل والقائد التركي الافشين .

وإذا كانت القضايا السابقة التي أشرنا إليها قضايا سياسية بحت لم تبرقعها الدولة ببرقع ديني تبريراً لها فإن قضية الافشين البست ثوباً دينياً ، ذلك أن الدولة كانت قد اتخذت من الاعتزال مذهباً رسمياً وامتحنت الناس به وضيقت على المخالفين له . وحين أحس المعتصم بتعاظم نفوذ الافشين وارتباطه بالمازيار المتمرد ، وخزنه الأموال وإرسالها إلى موطنه حيث ذكر عبد الله بن طاهر ذلك للخليفة ، ثم اعتراف قريبه منكجور الفرغاني والي اذربيجان ، كان من السهل اتهامه بالانحراف عن الإسلام والمروق ، فعقد الخليفة محكمة تتألف من الوزير ابن الزيات وابن أبي داوود واسحق بن ابراهيم ووجهت له تهماً عديدة لم يكن بينها تهمة تدل على التآمر أو السعي لقلب نظام الحكم .

وكان الافشين قد جعل منكجور الفرغاني والياً على اذربيجان وعاد إلى سامراء ولكن هذا تمرد سنة 224هـ/ 839م ويرى اليعقوبي أن سبب التمرد هو تواطئه مع الافشين، فيقول «إنما خلع بأمر الافشين، وإنما وجه إليه بأبي الساج مدداً».

ويعزو الطبري تمرد منكجور إلى احتجازه الأموال التي خلفها بابك الخرمي وعدم إخباره بذلك، ولكن صاحب البريد أوصل الخبر إلى الخليفة فطلب الخليفة من الافشين عزل منكجور. ويستطرد الطبري:

«فلما بلغ منكجور ذلك خلع وجمع إليه الصعاليك وخرج من اردبيل فرآه القائد فواقعه فانهزم».

وقد أرسل الخليفة بغا التركي لمحاربة منكجور فطلب الأمان وسلم نفسه، حيث أرسل مخفوراً إلى المعتصم، وتشتت اتباعه من الخرمية وغيرهم.

وتروي مصادر عديدة تفاصيل محاكمة الافشين والأسئلة التي وجهت إليه على أن أكثرها تفصيلاً هي الطبري، ويليه المؤلف المجهول (صاحب العيون والحدائق).

وقد كان المازيار وبعض الأمراء الأتراك ممن شهدوا عليه. فقد سئل المازيار عن الرسائل المتبادلة بينه وبين الافشين فأنكرها وعزاها إلى أخيه وأخي الافشين، وفيها دعوة إلى عودة الدين إلى ما كان عليه العجم. وقد أكد ذلك:

1- بأنه يحتفظ بكتاب مزين بالذهب والديباج فيه الكفر.

2- كان أهل أشروسنة يكتبون إليه «إلى إله الآلهة من عبده فلان».

3- يأكل المخنوقة وهو غير مختتن.

4- جلد مؤذناً وإماماً بنيا مسجداً في اشروسنة.

ويظهر من التهم كذلك أن إسلام الافشين كان ضعيفاً، وكان يميل إلى المظاهر والقيم المجوسية وكان يكره القادة العرب من أمثال أبي دلف العجلي «للعربية

والشجاعة». على أن السبب لقتله يعود إلى اتساع نفوذه، وحذر المعتصم منه، بل إن الذهبي يذكرها صراحة حين يقول «وخافه أيضاً المعتصم». ولا ننكر هنا مؤامرات ودسائس البلاط ووجود تكتلات قوية ضده يتزعمها عبد الله بن طاهر وبغا الكبير، وإلى ذلك تشير رواية الطبري، فقد قال الافشين لبغا الكبير وجماعته حين اقتادووه إلى السجن: «قد كنت أتوقع هذا منكم قبل اليوم». وقد بقي الافشين في السجن حتى مات.

نهاية الخرمية[39]:

لم تكن نهاية بابك نهاية للحركة الخرمية، فقد استمرت هذه الحركة الخرمية إلى حركة منكجور الفرغاني، ثم إن روايات أبي دلف (سافر إلى جبل البذ في النصف الأول من القرن الرابع الهجري) وكذلك المسعودي (الفترة الزمنية نفسها) تؤكد تواجدهم في اذربيجان. وفي نهاية القرن السادس الهجري أشار المقدسي إلى أن الخرمية ما يزالوا متواجدين في مناطقهم، ولعلهم بعد ذلك ذابوا في صوفية اذربيجان فلم يبق لهم أثر يذكر.

نخلص من ذلك كله إلى أن الحركات الفارسية استمرت على نهجها السابق، فكان بعضها، كالبابكية، حركات عقائدية خرمية، وبعضها كالمازيارية حركات ذات طابع سياسي غالب تهدف إلى الانسلاخ عن جسم الخلافة العباسية، وذلك عن طريق حمل السلاح ضد السلطة المركزية. ولم تكن مصالح الأطراف الضالعة في هذه الحركات متفقة، وهذا سبب مهم في ضعفها، كما وأن زعماء مهمين أمثال: المازيار وعبد الله بن طاهر وسهل بن سنباط، وأمراء محليون آخرون، كانوا متنافسين على السلطة والنفوذ مما سهل الأمر أمام الخلافة لضرب بعضهم بالبعض الآخر.

أما قضية الافشين فتبدو لنا بأنها بدايات محاولة القادة الأتراك للتحكم والسيطرة على مقدرات الخلافة العباسية، وهذا ما يؤكده حين يعترف بتظاهره بالإسلام من أجل الوصول إلى الغايات التي يرجوها فيقول: «إني قد دخلت لهؤلاء القوم في كل شيء أكرهه حتى أكلت لهم الزيت وركبت الجمل ولبست النعل غير

أني إلى هذه الغاية لم تسقط عني شعرة»، ولكن قوة الخليفة المعتصم وقابلياته العسكرية وتنافس القادة الأتراك بينهم فوت الفرصة على الافشين، فلم تنجح محاولته، ولكن حين تغيرت الظروف نجح قادة عسكريون آخرون في الوصول إلى السلطة الفعلية، وهذا ما حدث بعد عهد المتوكل.

عهد الخليفة الواثق بالله العباسي 227هـ/ 841م - 232هـ/ 847م

فترة من الهدوء النسبي:

توفى المعتصم سنة 227هـ/ 841م فخلفه ابنه وولي عهده الواثق الذي تميزت فترته بازدياد نفوذ القادة العسكريين الأتراك مثل اشناس الذي لقب (بالسلطان) ووصيف وايتاخ وبغا الكبير.

كما بقي المعتزلة أصحاب النفوذ والسلطان وبخاصة أحمد بن أبي دؤاد الذي كان أحد الاثنين لا يصدر الخليفة «إلا عن رأيهما ولا يعاب رأيهما فيما رأيا قلدهما الأمر وفوض إليهما ملكه»(٤٠) أما الثاني فهو الوزير محمد بن عبد الملك الزيات.

حذا الواثق حذو أبيه وعمه في سياسة الاعتزال وتشدد في القول بخلق القرآن[41] وقد أدى ذلك إلى تمرد جماعة من أهل بغداد ضده سنة 231هـ يعرفون بأهل الحديث بزعامة أحمد بن نصر بن مالك الخزاعي ولكن السلطة استطاعت أن تجهض الحركة، وألقي القبض على زعيمها الذي اتهم بنشر آراء مخالفة لعقيدة الدولة وحوكم محاكمة رسمية حضرها قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد، وحكم عليه بالموت حيث قتله الخليفة وصلبه في بغداد[42]. ولكن سياسة إسكات المخالفين في الرأي والعقيدة كانت ذات مردودات سلبية ذلك أنها أذكت المعارضة وشدت من عزم القوى المضادة فكان من السهل على المتوكل أن ينهي سلطة المعتزلة السياسية في ما بعد.

اضطرابات قبلية: وشهد عهد الواثق تحركات قبلية أثارت الفوضى في الحجاز حيث انتفض بنو سليم وبنو مرة وبنو فزارة وقطعوا الطريق بين مكة والمدينة. كما

حدثت انتفاضات قبلية في اليمامة وقد لعب القائد (بغا الكبير) دوراً مهماً في إخماد هذه الحركات مما زاد في نفوذه في البلاط والإدارة.

ولاية العهد: ولم يعهد الواثق لأحد حين توفي سنة 232هـ/ 847م مما برر تدخل القادة الاتراك في تعيين الخليفة الجديد حيث انتخبوا في البدء ابن الواثق ثم بدلوا رأيهم وعينوا جعفراً المتوكل فكانت سابقة خطيرة ومثلاً سيئاً لتدخل القادة العسكريين في السياسة.

سياسة الاعتزال والمحنة[43]: المأمون- المعتصم- الواثق

بعد أن وضعت الحرب الأهلية أوزارها واستقر الخليفة المأمون في بغداد حاضرة الدولة العباسية ومركز العلم والثقافة، ولع باقتناء الكتب وترجمتها، فبلغ درجة جيدة من الثقافة وعمق التفكير، وكان يحب المناقشة والنظر في شتى مسائل الفكر والتراث، فاجتمع في بلاطه ومجالسه عديد من أهل القلم والفكر، وقد دفعه ذلك إلى تقريب المعتزلة لما عرف عنهم من تعمق في المناقشة والجدل واستنادهم إلى المنطق والعقل في ذلك وبهذا أصبح ثمامة بن أشرس المعتزلي وأحمد بن أبي دؤاد من أبرز المتنفذين في بلاطه.

ومن أهم المعتزلة الذين عاشوا في أيامه أبو الهذيل العلاف (ت 235هـ) وكان مفكراً ذائع الصيت في عصر المأمون، فتشير رواية تاريخية:

«وعقد المأمون المجالس في خلافته للمناظرة في الأديان والمقالات، وكان استاذه فيها أبا الهذيل محمد بن الهذيل العلاف».

وفي كتاب الانتصار يوصف «واحد دهره في البيان ومعرفة جيد الكلام ثم ابراهيم بن سيار النظام (ت 221هـ) وكانت منزلته كبيرة لدى المأمون. ولعل الجاحظ أوضح أهميته ودوره في نشر الاعتزال بقوله:

«لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل، فإن لم أقل ولولا أصحاب ابراهيم وابراهيم لهلكت

العوام من المعتزلة، فإني أقول أنه قد انهج لهم سبلاً وفتق لهم أموراً واختصر أبواباً ظهرت فيه المنفعة وشملتهم بها النعمة».

أما الجاحظ (ت 255هـ) فأشهر من أن يعرف، فقد كان تلميذ النظام في الاعتزال وفي كتبه العديدة ومقالاته ورسائله المهمة كانِ المدافع القوي عن النظام العباسي ومذهبه الرسمي، هاجم أعداءهم من علويين ونابتة وفقهاء من أهل الحديث، ودافع عن فكرة خلق القرآن، حيث يقول:

«ثم زعم أكثرهم (أهل الحديث) أن كلام الله حسن.. وأن الله تولى تأليفه... وأنه أنزله تنزيلاً وأنه فصله تفصيلاً... غير أن الله مع ذلك كله لم يخلقه! فأعطوا جميع صفات الخلق ومنعوا اسم الخلق... والعجب أن الذي منعه - بزعمه- أن يزعم أنه مخلوق أنه لم يسمع ذلك من سلفه وهو يعلم أنه لم يسمع أيضاً من سلفه أنه ليس بمخلوق!».

ومن رؤساء المعتزلة في هذه الفترة بشر بن المعتمر (ت210هـ) ولم يغامر ابن المعتمر في ميدان السياسة، ولكن ثمامة بن الأشرس وأحمد بن أبي داؤد من تلاميذه أصبحا من ذوي النفوذ في عصر المأمون. وكان الرشيد قد سجن ثمامة بسبب آرائه ثم أطلق سراحه وبرأه من تهمة الزندقة. أما المأمون فقد أراده ليكون وزيراً فرفض المرة تلو الأخرى على أن نفوذه كان أقوى من نفوذ الوزراء بل كان «صانع الوزراء» حيث أشار على الخليفة أن يستوزر أحمد بن أبي خالد ثم يحيى بن أكثم. وكان ثمامة يقول:

«إني لم أر أحداً تعرض للخدمة أو الوزارة إلا لم يكن لتسلم حاله ولا تدوم منزلته».

وكان لثمامة بن أشرس صولات وجولات في المناظرات والمساجلات في بلاط المأمون، وهذا مما زاد في حظوته لدى المأمون ووسع نفوذه.

على أن أقوى شخصية على الإطلاق في عصر الاعتزال هو أحمد بن أبي داؤد الأيادي (ت 240هـ) وكان نفوذه كبيراً في ميدان السياسة، وصيته واسعاً في المجتمع لمروءته وكرمه، وقال فيه ابن خلكان «وأكرم من كان في دولة بني العباس البرامكة ثم ابن أبي دؤاد» هذا إضافة إلى ميله إلى العرب واصطناعه لهم. وقد أوصى المأمون المعتصم بتقريبه واستشارته، فعين المعتصم أحمد بن أبي دؤاد قاضياً للقضاة، واستمر في ذلك في عهد الواثق. ولكن ابن أبي دؤاد نفسه كان العقل المدبر وراء (المحنة) التي ميزت عصر الخلفاء المعتزلة، والتي كان لها نتائجها السلبية على حركة الاعتزال نفسها.

وحين نتكلم عن سياسة المحنة يجب ألا نعممها على كل المعتزلة ونعتبر المعتزلة كلهم مسؤولين عن سياسة إجبار الناس على قبول آراء المعتزلة. فقد كان هناك فريق من المعتزلة يرى أن الدولة يجب ألا تتدخل في أذواق الناس وأفكارهم وعلى رأس هذا الفريق يحيى بن أكثم الذي عزل عن القضاء سنة 217هـ وتولى مكانه ابن أبي دؤاد، فحسن للخليفة جعل مذهب المعتزلة مذهباً رسمياً للدولة سنة 218هـ.

وفي هذه السنة أصدر المأمون منشوراً إلى والي بغداد أمر فيه الولاة بحمل الناس على القول بخلق القرآن، وكان ذلك قبل وفاته بأشهر قليلة. والمعروف أن كبار محدثي بغداد وافقوا المأمون على رأيه خوفاً من السلطة وضماناً للسلامة. ولم يكن بين هؤلاء أحمد بن حنبل. وقد حرمت السلطة العباسية كل من لا ينقاد إلى مذهبها من الشهادة أو التعيين في المناصب الإدارية والقضائية.

وقد برز أحمد بن حنبل زعيماً للمعارضة في آخر أيام المأمون، وامتحنه والي بغداد في خلق القرآن فلم يرضخ، وأصر على أنه كلام الله، ولم يزد على قوله هذا شيئاً. ولذلك سجن بقية عهد المأمون.

وسار الخليفة المعتصم سيرة أخيه المأمون الذي أوصاه: «وخذ بسيرة أخيك في القرآن». وتشدد هذا في سياسة المحنة، وقتل بعض الفقهاء، وضرب أحمد بن حنبل سنة 220هـ، ثم أخرجه الخليفة من السجن وناظره العلماء المعتزلة بحضرته واستمرت

المناظرة ثلاثة أيام دون جدوى. وقد ضرب 38 سوطاً حتى سال منه الدم، ورغم أن بعضهم أشار بقتله إلا أن الخليفة اكتفى بضربه ثم أمر بإخلاء سبيله. ولعل سبب ذلك خوف المعتصم من الفتنة، فتشير رواية إلى أن أحمد بن حنبل «أخرج بعد أن اجتمع الناس وجنحوا حتى خاف السلطان». وكان المعتصم عسكرياً شجاعاً ولعله أعجب بصلابة ابن حنبل وشجاعته وثباته على رأيه.

ثم سار الواثق سيرة أبيه في سياسة المحنة وكان من أبرز من قتلهم، كما ذكرنا ذلك سابقاً، أحمد بن نصر بن مالك الخزاعي الذي دبر حركة معارضة مسلحة في بغداد، فقبض عليه الواثق وامتحنه في القرآن. فعارض آراء المعتزلة فيه، فأمر الخليفة بقتله لأسباب سياسية تتعلق بسلامة الدولة أكثر من كونها عقائدية، ذلك لأن الخليفة لم يقتل أحمد بن حنبل المعروف بصلابته كذلك في معارضة عقيدة الدولة. وقد أصدرت الدولة منشوراً بعد قتل الخزاعي جاء فيه:

«هذا رأس أحمد بن نصر بن مالك، دعاه عبد الله الإمام هارون إلى القول بخلق القرآن ونفي التشبيه، فأبى إلا المعاندة، فجعله الله إلى ناره، ووكل بالرأس من يحفظه ويصرفه عن القبلة».

وقد أسرف الواثق في سياسته هذه فكتب إلى القضاة في الأقاليم المختلفة للخلافة بامتحان الناس في خلق القرآن وأن لايقبلوا إلا شهادة من قال بالتوحيد. وفي سنة 231هـ امتحن أهل الثغور وضربت أعناق أربعة أشخاص هناك. والغريب في الأمر أنه حين حصل الفداء لم يفتد من خالف سياسة السلطة الاعتزالية. ولعل هذا التشدد دعى الناس إلى الكلام عنه فيقول المسعودي: «شغل نفسه بمحنة الناس في الدين فأفسد قلوبهم وأوجد لهم السبيل إلى الطعن عليه».

هوامش الفصل التاسع

1-الطربي ، تاريخ ، القسم الثالث ، 414(طبعة ليدن) .

2- الجاحظ ، مناقب الترك ، 43 .

3- اليعقوبي . البلدان ، ٣32 .

4-الاربلي ، خلاصة الذهب ، 162 .

5- الطبري ، جـ10 .311، (دار المعارف) .

6-المسعودي ، مروج ، ط 4 .9، اليعقوبي ، تاريخ ، 24 .

7-العيون والحدائق ، 5 . - الفخري ، 210 .

8- الطبري ، القسم الثالث ، 831 .

9-المصدر السابق ، 842 ،846 ، 998.

10-المصدر السابق . القسم الثالث ، 829 .

11-المصدر السابق ، جـ10 .311، (الحسينية) .

12-اليعقوبي ، البلدان ، 24 فما بعد .

13- المصدر السابق .

14-المسعودي . التنبيه ، 307 .

15-لبلاذري ، فتوح ، 383 .

16-المسعودي ، التنبيه ، 308.

17-المصدر نفسه .

(١٨) يرى كرستنس أن الخرمية فرقة دينية متطورة عن المزدكية تؤمن بصراع الخير (إله النور) مع الشر (الظلمة) انظر : ايران في العهد الساساني ، ص 350 .

19-الطبري القسم الثالث ، ص ١٥٨٨ ، (الطبعة الأوروبية) .

20-المصدر السابق ، 493 . - الدينوري ، الاخبار الطوال ص 326- سمي هؤلاء الخرمية بالمحمرة لاتخاذهم اللون الأحمر شعارا لهم ولارتدائهم الألبسة الحمراء . نظام الملك ، سياسة تامة ، ص ٢٩٠ .

21- الطبري ، قسم 3 ، ص 732 .

22-العزيز ، البابكية ، ص 134 .

23-المصدر السابق ، ص 135 .

24-صديقي الحركات الدينية السياسية ، ص 194 .

25-شعبان 25 ص56 .

26- المصدر السابق ، ص 229-337 .

27-الطبري ، القسم الثالث : ص 1015 . - تشير الرواية إلى وجود علاقة عاطفية بين بابك وزوجة جاويدان .

28-اليعقوبي ، تاريخ ، جـ 2 ، ص 563 .

29-الطبري ، المصدر السابق ، ص 1015 .

30-ابن النديم ، الفهرست ، ص 343 فما بعد .

31- ابن الجوزي ، تلبيس ابليس ، ص 101 .

32-الفهرست ، ص 493 .

33- راجع حسين العزيز ، البابكية ، انتفاضة الشعب الاذربيجاني ضد الخلافة العباسية رسالة كانديدات في العلوم التاريخية ، جامعة موسكو1966 .

34-فاروق عمر ، التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين ، بغداد ، 1985 (المبحث التاسع) حيث تفاصيل المصادر والمراجع .

35-الطبري جـ 35310 .

36- المسعودي ، مروج جـ 4 , 61 .

37-الطبري ، القسم الثالث 1311 - 1314 .

38-راجع : المصدر السابق ، 1301 . - اليعقوبي ، تاريخ ، جـ3 . 203 . - العيون والحدائق ، 63-67 الذهبي ، دول الإسلام ، جـ 1 , 98 . العزيز ، المرجع السابق ، ٢٦٤ فما بعد .

39-العزيز ، المرجع السابق ، 265-267 .

40-لمسعودي ، مروج ، جـ 4 ، 19 .

41- اليعقوبي ، تاريخ جـ 3 , 107 .

42-الطبري ، تاريخ ، جـ 11 ، ص 18 (دار المعارف) .

43-حول التفاصيل راجع : فاروق عمر ، العباسيون الأوائل ، عمان ، 1982 ، جـ 3 ، ص 161-184 .

الفصل العاشر

عهد الخليفة المتوكل على الله العباسي
232هـ/ 847م- 247هـ/ 861م

بيعته: لم يكن جعفر المتوكل من المقربين إلى اخيه الواثق في عهده، بل إن الذي يستعرض سيرته في عهد الواثق لا بد أن يتذكر حياة الرشيد في عهد الهادي فقد كان الواثق يسيئ معاملة أخيه المتوكل ويود تعيين ابنه خليفة من بعده رغم أنه لم يقم بهذا العمل فعلاً.

والواقع فإن الواثق حدد من نشاط المتوكل وعين اثنين من رجال البلاط للإشراف على أموره ومراقبته. وقد حاول المتوكل أن يوسط الوزير محمد بن عبد الملك الزيات لدى الخليفة إلا أن هذا الوزير رفض القيام بالعمل وأهان جعفراً المتوكل مما دعا هذا الأخير إلى الاستنجاد بابن أبي دؤاد الذي حاول التوسط لدى الخليفة دون جدوى[1].

الجيش يتدخل في السياسة:

ولم يكن حصول المتوكل على الخلافة وليد خطة مدبرة بل نتيجة الظروف التي أعقبت موت الواثق الذي لم يعهد لأحد من بعده. فقد اضطرب الجيش وعقد قادته اجتماعاً لاختيار الخليفة الجديد وقد اقترح ابن الزيات أن يكون محمد بن الواثق خليفة ولكن القائد وصيف رفض الاقتراح باعتبار أن محمداً صغير ولا يجوز الصلاة وراءه. ثم نظر المجتمعون في أسماء مقترحة أخرى حتى تقرر تعيين الموكل حيث لعب القادة العسكريون وعلى رأسهم وصيف وايتاخ دوراً بارزاً في ذلك وأيدهم أحمد بن أبي دؤاد بإسراعه بمبايعة المتوكل الأمر الذي جعل ابن الزيات يعترف بالأمر الواقع.

إن أهمية مجيئ المتوكل للخلافة تكمن في أن القادة العسكريين استطاعوا

ولأول مرة في التاريخ العباسي أن يجعلوا كلمتهم هي النافذة في أمر سياسي مهم ألا وهو اختيار الخليفة.

وعلى ذلك فقد جاء المتوكل إلى الحكم (232هـ/ 247هـ) بترشيح ومساندة القادة العسكريين الأتراك في الجيش، وكنتيجة للمنافسة الحادة بين القادة الأتراك وبين (البيروقراطية) المدنية التي يرأسها الوزير ابن الزيات. وقد سقط ابن الزيات بعد نحو الشهر من تسلم الخليفة الجديد الحكم وبدأت فترة من الاضطراب السياسي أدرك الخليفة المتوكل خلالها خطر تدخل الأتراك في السياسة وحاول أن ينهج نهجاً جديداً ويربط نفسه بتكتلات جديدة لينقذ نفسه والخلافة من الأزمة.

على أن الباحث في خلافة المتوكل تواجهه قلة الروايات التاريخية عند المؤرخين الرواد في القرن الرابع الهجري وعدم تناسبها مع الأحداث الكبيرة التي وقعت حينذاك. فالطبري يسكت عند كثير من الأحداث ولعل سبب ذلك يرجع إلى سوء علاقته بالحنابلة ولذلك يتحاشى ذكر أخبارهم. أما المسعودي فيمتدح سياسة الخليفة في إعلاء السنة والحد من نشاط المعتزلة ولكنه ينتقد موقف الخليفة تجاه العلويين. ولعلنا نستطيع أن نتفهم موقف اليعقوبي الحذر تجاه سياسة المتوكل السنية تلك السياسة التي لم تكن تنسجم مع مشاعر اليعقوبي العلوية المعتدلة. إن أهم ما يذكره اليعقوبي هو القول بأن المتوكل منع الكلام بشأن القرآن وأطلق سراح كل المعتقلين بسبب (المحنة)، أما المؤرخون المتأخرون أمثال ابن الأثير والسبكي والبغدادي وابن الجوزي وابن كثير والسيوطي فيمتدحوا سياسة المتوكل الدينية ولكنهم في الغالب ينتقدون موقفه من العلويين أما الشعراء فقد استغلهم الخليفة في الدعاية لسياسته وإبراز وجهة نظره.

ولسياسة الخليفة الموكل أوجه مختلفة على أن أهم المظاهر الدينية- السياسية التي ميزت عهده هي: الأزمة السياسية المستمرة التي انتهت بمقتله ثم موقفه المعادي للمعتزلة والعلويين والمؤيد لأهل السنة والجماعة الذي يعتبر منعطفاً جديداً خالف به سياسة أسلافه منذ عهد المأمون وتشدده تجاه أهل الذمة.

التكتلات السياسية والقادة الأتراك:

إن الأزمة التي رافقت اعتلاء المتوكل للخلافة أظهرت بجلاء الصراع الحاد بين المؤسسة العسكرية المتمثلة بالقادة الأتراك وبين البيروقراطية المدنية التي يتزعمها الوزير ابن الزيات. وقد سقط ابن الزيات فتدهورت معنويات الكتاب ومرت المؤسسات الإدارية بفترة من الاضطراب أدرك المتوكل خلالها قوة تسلط العسكريين وبدأ يعمل على إيجاد تكتل جديد يدين بالولاء له.

إن السياسة الجديدة التي انتهجها المتوكل ساعدت على انتعاش البيروقراطية المدنية بصورة تدريجية وتقلص نفوذ القادة العسكريين. ودعماً للسياسة الجديدة نفسها تبنى المتوكل سياسة دينية جديدة تتسم بالعداء للمعتزلة والتشدد تجاه العلويين والذميين. كل ذلك لكسب جماهير المسلمين وعلى رأسهم الفقهاء والمحدثون. وعلى ذلك فإن انتقاء الخليفة لموظفي الإدارة وحاشيته في البلاط كان يتم خلال عهده وفقاً لأطر وشروط السياسة الجديدة.

ولعل سقوط الوزير ابن الزيات يعود في الأساس إلى عوامل رئيسية ثلاثة هي:

أولاً: سوء معاملته للمتوكل في عهد الواثق.

ثانياً: ارتباط اسمه بالمحنة.

ثالثاً: تأثير قادة الجيش وخاصة ايتاخ. إن رواية اليعقوبي[2] التي تنسب سقوط ابن الزيات إلى خشونة اخلاقه وتعاليه ليست كافية ولا بد أن نربط سقوطه بالضغط الكبير الذي مارسه الجيش. وقد تلت سقوطه فوضى إدارية واضطراب في صفوف الكتاب الذين عانوا كثيراً خلال هذه الفترة.

وفي سنة 233هـ/ 848م سقط عمر بن فرج[3] وصودرت أملاكه وأملاك الكتاب الذين في معيته. ولم تجد السلطة العباسية في حوزته أكثر من 15 ألف درهم ولكن مولاه نصر سلم الدولة 30 ألف دينار من أموال سيده. وقد عومل عمر بن فرج معاملة قاسية وتعرض لإهانات شديدة. ولعل أهم أسباب سقوطه تعود إلى سوء معاملته للمتوكل قبل الخلافة وإلى استغلال نفوذه في الارتشاء وكسب المال وأن

الأموال الكبيرة التي استطاع عمر وأخوه أن يقدماها للمتوكل تشير إلى اكتنازهم الأموال خلال مدة ترأسهم للإدارة.

وقد تبع سقوط عمر بن فرج سجن أحمد بن خالد أبي الوزير سقوط الفضل بن مروان... إن هذه الأمثلة وغيرها إضافة إلى أنها مؤشرات ذات دلالات سياسية مهمة تظهر محاولات الخليفة لضبط الإدارة وتحسينها والقضاء على الرشوة والاختلاس والفساد.

المتوكل ورؤساء الجيش:

حاول المتوكل جاهداً أن يرضي قادة الجيش فكان ايتاخ قائداً للجيش والمغاربة والأتراك والموالي إضافة إلى مسؤولياته في الحجابة والبلاط. أما بغد الشرابي (الصغير) ووصيف فكانا حاجبين إضافة إلى مسؤولياتهم العسكرية.

أما بغا الكبير الذي كان يرتبط بالخليفة برباط القربى من جهة أمه[4] فكان قائداً لعدة حملات عسكرية أهمها حملة أرمينيا238هـ/ 852م، وعين المتوكل صالح التركي أميراً على دمشق ويزيد التركي أميراً على مصر كما أن نديمه المقرب الفتح بن خاقان كان تركياً. وأن موسى بن بغا الكبير أصبح قائداً لحرس القصر نيابة عن أبيه.

على أن المنعطف الذي غير سياسة الخليفة تجاه القادة العسكريين هو انتقال الخليفة إلى دمشق حيث (عزم سنة 242هـ على المقام بها ونقل دواوين الملك إليها وأمر بالبناء بها)[5] وقد شغب الجند والأتراك وأجبروا الخليفة على الرجوع بعد إقامته فيها شهرين. ولا شك فإن قراره بالرجوع كان حكيماً. فرغم أنه كان رضوخاً للقادة والجند[6] فإن بلاد الشام وهي المعروفة بولائها للأمويين لا يمكن أن تساند خليفة عباسياً وكان على المتوكل أن يتذكر حركة عبد الله بن علي العباسي وفشلها وجهود الأمين وإخفاقها لقد أدرك المتوكل بعد أحداث دمشق سنة 242هـ سوء نية بغا الكبير وابنه موسى وتآمرهما عليه مع أنه عفى عنه بعد ذلك بقليل. ولكن القادة العسكريين استمروا في الحصول على امتيازات جديدة فوسعوا اقطاعاتهم في المناطق المحيطة بسامراء كما أن إنشاء (ديوان الجند والشاكرية) و(ديوان الموالي والغلمان) يدل على

ازدياد عدد الترك وتوسيع المؤسسة العسكرية وزيادة مصروفاتها المالية وكان القادة وجندهم يحصلون على ارزاقهم رغم تدهور حالة الخزينة- المركزية وذلك بالضغط على الخليفة، كما استطاع بعضهم مثل وصيف الحصول على ضياع في اصفهان والجبال وفارس[7] وهكذا أصبحت الحالة لا تحتمل بالنسبة للخليفة.

ولكن رؤساء الجيش وجنده لم يقنعوا بكل هذه الامتيازات، ولا بد لنا من أن نشير بأن تدهور العلاقة بين الخلافة والقادة بين الخليفة والقادة العسكريين يعود بالدرجة الأولى إلى مطاليب هؤلاء القادة المستمرة والمتزايدة للسلطة والمال، وذلك لأنهم كانوا يدركون أهميتهم ومدى قوتهم في الجيش والإدارة. وأن أية مقاومة من الخليفة كانت غير مجدية بل أنهم دبروا خطة لقتله قبيل عودته من دمشق ولكن بغا الكبير وقف ضد هذه المؤامرة.

ولا بد لنا أن نلاحظ بأن المتوكل بدأ ينتهز أية فرصة مواتية لتقليص سلطة الأتراك، فمثلاً انتهز فرصة ذهاب ايتاخ للحج ونقل عنه الحجابة إلى صويف ثم أمر والي بغداد بسجنه حين عودته من الحج حيث نجحت الخطة ومات ايتاخ في السجن سنة 235هـ. ولا شك بأن بغداد بميولها المعادية للترك ولتسلط الجيش كانت أنسب مكان لاعتقال ايتاخ وسجنه دون أن يجد نصيراً له. وإلى ذلك تشير رواية تاريخية:

«ولو لم يؤخذ ما قدروا على أخذه، ولو دخل سامراء فأراد بأصحابه قتل جميع من خالفه أمكنه ذلك»[8].

ثم كانت محاولته الفاشلة لنقل الخلافة إلى دمشق التي اتبعها بإجراء آخر حيث بنى مدينة جديدة سماها «المتوكلية»[9] تبعد ثلاثة فراسخ عن العاصمة سامراء وأقطع فيها أتباعه والقادة الموالين له وبذلك أراد الابتعاد عن أعدائه المتمركزين في العاصمة القديمة.

ثم عزز المتوكل مركزه أكثر حين شكل فرقة عسكرية جديدة ليس فيها عنصر تركي بقيادة ابنه المعتز ووزيره عبد الله بن يحيى بن خاقان وتتكون من 12 ألفاً من

العرب والصعاليك. وقد حاول الجند القدماء التآمر على الفرقة العربية الجديدة دون جدوى بل إن المتوكل قلص نفوذ وصيف وحاول قتله وقتل بغا معه.

إن هذه الاجراءات المتتالية زادت من حذر القادة الترك وشكوكهم تجاه الخليفة الذي كان يبغي استئصالهم معتمداً على البيروقراطية المدنية التي فشلت في الساعة الحرجة أن تقف معه. فلقد استغل الترك نزاع الخليفة مع ابنه المنتصر فحالفوا الأخير ضد أبيه وكانت النتيجة مقتل الخليفة وانتصار قادة الجيش.

الاضطرابات في الاقاليم:

إن الصبغة الغالبة في عهد المتوكل هي التكتلات والمؤامرات في العاصمة وفي داخل البلاط بالذات والمتسمة بمحاولات الخليفة التخلص من نفوذ الجيش في الإدارة والسياسة، وكذلك الحد من ابتزاز كبار الكتاب والوزراء.

على أن انشغال الخليفة بتدبير أمور العاصمة زاد من رجحان عوامل التفكك فظهر الصفارون في سجستان واستطاعوا تكوين سلطة سياسية على انقاض السلطة الظاهرية[10].

كما ثارت قبائل ربيعة في اذربيجان بقيادة محمد بن البعيث فأخمد حركتها بغا الشرابي. وقاد البطارقة في ارمينيا حركة تمرد واسعة وقتلوا الوالي العباسي فأشتعلت الحرب وقاد بغا الشرابي حملة كبيرة كانت نتيجتها مقتل آلالاف قبل إخماد الحركة. وفي أسفل صعيد مصر تحرك البجة الاحباش وقتلوا المسلمين سنة 237هـ فانقطع أهم مورد للدولة من معدن الذهب ذلك أنهم كانوا يؤدون للدولة سنوياً 400 مثقال تبر غير مصفى. ولكن الحملة العباسية استطاعت إخضاع البجة والعودة إلى شروط العهد السابق مع المسلمين[11].

رد الفعل تجاه المعتزلة: الخليفة المتوكل على الله وسقوط المعتزلة سياسياً:

لم يحاول الخلفاء العباسيون قبل المأمون أن يتخذوا مذهباً رسمياً للدولة، ولكن الاعتزال اصبح سلاحاً قوياً بيد الخليفة المأمون ثم المعتصم لمجابهة أعداء الدولة

ومعارضيها. والمعروف أن العلويين كانوا من أشد منافسي العباسيين على الخلافة، ونستطيع أن نستنتج من مناقشات هشام بن الحكم، وهو من أشد أنصار العلويين، مع عمرو بن عبيد والعلاف أن المعتزلة كانت تخالف الشيعة العلوية حول مبدأ (النص) ومبدأ (العصمة والكمال والعلم السري). فقد نادت المعتزلة بحق الأمة في اختيار من تشاء من بني هاشم. على أننا نستدرك ونقول بأن المعتزلة لم تكن كلها على رأي واحد فبعضهم مثل الاسكافي (ت 240هـ) كان يفضل العلويين على غيرهم من بني هاشم، وقد وقف (أهل الحديث) وهم أسلاف (أهل السنة والجماعة) ضد عقيدة المعتزلة وآرائهم، وقد جعل هذا الوضع الخلفاء العباسيين في موقف صعب، فقد كانوا في حاجة إلى مساعدة المعتزلة وأهل الحديث ضد العلويين ومعارضيهم الآخرين.

حاول المأمون أن يعتمد على المعتزلة وأن يتقرب إلى العلويين، ويخلق مذهباً رسمياً يمتاز بكونه سنياً بطبيعته معتزلياً بتفسيره، وبمعنى آخر أنه حاول أن يوجد مذهباً وسطاً بين مذهب أهل الحديث والشيعة العلوية.

ولكن سياسة المأمون ارتكبت خطأ كبيراً باتخاذها الاجراءات القسرية (المحنة) ضد المخالفين لمذهب الدولة الرسمي، ووصلت إلى ذروتها حين عذب أحمد بن حنبل من قبل المعتصم، وحين قتل الواثق أحمد بن نصر الخزاعي. إلا أن هذه السياسة فشلت ولاقت اشمئزازاً شعبياً متصاعداً كان من أبرز معالمه ثورة أهل بغداد ضد المأمون، كما أن إدراك الواثق لعنف رد الفعل لدى الناس هو الذي جعله يعلن ندمه على ما عمله أثناء المحنة.

وفي سنة 234هـ/ 848م أصدر المتوكل مرسوماً أعلن فيه إنهاء المحنة[12]، وفرض حظراً على المناقشة بشأن طبيعة القرآن من حيث كونه مخلوقاً أو غير مخلوق، والطريف هنا أن الطبري يشير إلى هذه الاجراءات باقتضاب. والظاهر أنه لم يكن مسروراً لانتصار الحنابلة. أما ابن الجوزي فقد امتدح بحماسة اجراءات الخليفة المتوكل.

إن انهيار الاعتزال وسقوط المعتزلة لم يؤد إلى موجة جديدة من الاضطهادات كرد فعل على المحنة، وعلينا أن نقدر حقيقة تاريخية وهي أن المتوكل، عدا حالات معينة، اتبع في معاملته للمعتزلة سياسة معتدلة أقل عنفاً من سياسة المأمون والمعتصم والواثق تجاه خصوم المعتزلة[13]. فقد أبقى المتوكل اسحق بن ابراهيم مسؤولاً عن بغداد حتى سنة 235هـ رغم أن هذا الرجل كان من أشد المتحمسين لسياسة (المحنة).

ونحن نشك في عزل ابن أبي دؤاد من القضاء بسبب فعالياته السابقة، ويؤيد الطبري واليعقوبي ذلك.

ثم إن العزل حصل بعد ست سنوات من مجيئ المتوكل للخلافة. أما عزل ابن الليث عن قضاء مصر فكان بسب سوء تصرفه واختلاسه، لا بسبب مذهبه الاعتزالي ومع ذلك فقد عفا عنه الخليفة وأعاده إلى منصبه، ثم عاد فسجنه بسبب سوء تصرفه.

على أن المتوكل لم يحاول أن يعين أشخاصاً جدداً في وظائف إدارية أو قضائية، إذا كان هؤلاء معروفين بميول معتزلية، باستثناء ابن أبي دؤاد وابن الليث.

كما أن سياسة المتوكل المعادية للاعتزال تظهر في التشييع الرسمي الذي أمر به لأحمد بن نصر الخزاعي، حيث أحيا ذكراه بعد ست سنوات من قتله في أثناء المحنة، ودفنه سنة 237هـ في احتفال رسمي مهيب. ولكن الخليفة اتخذ في هذه المناسبة تدابير مشددة لمنع انفجار العامة وما يتبعه من فقدان النظام والسلب والنهب.

وقد أصبح لأحمد بن حنبل مكان كبير عند الخليفة، وهذا دون شك يعني (انتصار أهل السنة والجماعة) ذلك الانتصار الذي كافح (أهل الحديث) من أجله كفاحاً طويلاً. ونستطيع القول بأن مذهب أهل السنة والجماعة الذي وضع أسسه الخليفة المنصور، ولم يكن واضح المعالم في عهد الخلفاء العباسيين الأوائل، قد بدأ يتبلور في عهد المتوكل. وهذا يعني بأن الخلفاء كانوا لا يزالون فوق الميول المذهبية والاتجاهات الفقهية.

على أن العلماء والفقهاء المسلمون كانوا حذرين من محاولات السلطان إيجاد

مذهب رسمي للدولة. ولم يبال أحمد بن حنبل بالعروض السخية التي قدمها إليه المتوكل ورفض أن يخدم الدولة أو أن يقبل منها مالاً.

إن هذا الموقف من أحمد بن حنبل إضافة إلى مهاجمته للناصبة وهي الفرقة التي كانت تعادي العلويين وذكراهم، تؤكد بأن هذا الإمام اتخذ لنفسه منهجاً مستقلاً لا يرتبط بالدولة ولا بالمتطرفين من أهل السنة.

وأكثر من ذلك فإن اسم أحمد بن حنبل لم يكن ضمن قائمة العلماء الذين أيدوا الخليفة في سياسته ضد المعتزلة والجهمية. وحين دعاه المتوكل إلى سامراء ذهب ليبقى مدة قصيرة جداً ثم استأذن بالرجوع إلى بغداد. على أننا لا نستطيع أن ننكر بأن أحمد بن حنبل كان يمثل روح العصر الذي عاش فيه، وأثر في جماهير غفيرة من الناس نتيجة صلابته أثناء المحنة، وتشبثه بعقيدته، واتزانه وبعده عن السلطان، رغم أن الخليفة المتوكل حاول أن يغرقه بالهدايا والجوائز. وحين مات أحمد بن حنبل شيعته الدولة تشييعاً رسمياً وصلى عليه والي بغداد. لقد اتخذ المتوكل إجراءات عديدة في سبيل إحياء مذهب (أهل السنة والجماعة).

فبالإضافة إلى إصداره منشوره المشهورالذي يدعو فيه إلى (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) سنة 235هـ ويهاجم الجهمية والمعتزلة. أحيا شعائر عديدة كانت معروفة منذ زمن من الرسول (ﷺ) وحث المحدثين على دراسة الحديث النبوي في سبيل إنعاش مذهب أهل السنة. وهكذا دعا المتوكل إلى مذهب رسمي جديد للدولة هو مذهب (أهل السنة والجماعة). كما أنه شجع المؤرخين والكتاب على الكتابة مؤكدين على النهج نفسه الذي رسمه. فكتب علي بن ريان الطبري كتابه (الدين والدولة) وكتبا لجاحظ رسالته في (الرد على النصارى) وقد كان هدف الكتاب الأول نشر فضائل الإسلام مستشهداً بآيات من القرآن والحديث ورداً على أعدائه. أما الكتاب الثاني فقد حاول فيه الجاحظ أن يبرز ميزات الإسلام وتفضيله على المسيحية وهدفه التودد إلى «أهل السنة» ودحض دعايات المرتبطين بالبيزنطيين. ويشير السيوطي إلى أن السياسة «السنية» التي انتهجها المتوكل كانت على المذهب الشافعي وليس الحنبلي، ولعل هذا صحيح، خاصة وأن ابن حنبل لم يتعاون تعاوناً كلياً مع المتوكل، بل اتخذ سبيلاً مستقلاً بعيداً عن السلطة.

إن السؤال الذي يفرض نفسه الآن هو هل كانت سياسة المتوكل هذه نابعة عن عقيدة خالصة أو أنها سياسة أملتها الظروف السياسية التي أحاطت بالخليفة؟

إن بعض روايات الطبري والمسعودي تشير إلى أن الخليفة لم يلزم نفسه بالسلوك الذي أعلنه على الناس وطلب منهم انتهاجه. ولعلنا نستطيع القول بأن هناك تناقض يكاد يكون واضحاً بين سياسته المعلنة وبين حياته الخاصة، وإسرافه وبذخه على القصور والبلاط، ورغم ما في بعض هذه الروايات من مبالغة وتشويه فمن المحتمل أن سياسته الدينية كانت ناتجة عن الظروف السياسية، وهناك أسباب وجيهة حملت الخليفة على اتباع هذه السياسة من أجل الحصول على عضد شعبي قوي من الناس ومن العلماء والفقهاء المعروفين بتأثيرهم في الناس ضد معارضيه السياسيين وعلى رأسهم الأتراك والعلويين. فقد حاول المتوكل أن يحد من سلطة القادة الأتراك الذين امتد نفوذهم حتى جاوز الحدود.

إن هذه الظروف نفسها هي التي دفعت المتوكل إلى رعاية النابتة واسنادها. إضافة إلى حضوره صلوات الجمعة والأعياد بنفسه، وتوسيعه للمساجد، وبناؤه جامعاً جديداً في الجعفرية، تلك مظاهر مهمة كسبت له تأييد الجمهور وزعمائهم من الفقهاء من أهل الحديث وأهل السنة والجماعة.

لقد ترك المتوكل العباسي القول بخلق القرآن وأصدر تعاليمه إلى سائر الأقاليم وأمر المحدثين بالتحديث وإظهار السنة والجماعة. ويشير السبكي إلى رد الفعل:

«فتوفر دعاء الخلق له وبالغوا في الثناء عليه والتعظيم له، حتى قال قائلهم: «الخلفاء ثلاثة، أبو بكر يوم الردة، وعمر بن عبد العزيز في رد المظالم، والمتوكل في إحياء السنن».

أما أهم الأسباب التي أدت إلى سقوط الاعتزال سياسياً:

أولاً: سياسة المحنة التي أفضت إلى سجن وقتل المخالفين لهم في الرأي فرغم أن المعتزلة دعوا إلى حرية الإرادة وتحكيم العقل، فإن الفئة التي سيطرت منهم على السلطة استعملت أساليب القسر والإجبار في نشر آرائهم بين الناس.

ثانياً : هجومهم على الفئات المخالفة لهم واتهامهم بالكفر والكذب فقد وصفوا «أهل الحديث بالجهالة ولقبوهم بالحشوية واتهموهم بالكذب» .

ثالثاً : الإسراف في الاستدلالات المنطقية والعقلية ومحاولتهم إعادة كتابة العقيدة في صيغ فلسفية مستوردة لا تنطبق على الإسلام ، مثل الفلسفة اليونانية ، وهذا ما جعل عامة المسلمين لا يفهمونها ، وفقهاء الإسلام لا يستسيغونها .

رابعاً : شكل المعتزلة فئة مثقفة متعالية غالبيتها تعتمد الاستدلال العقلي والمنطق الفلسفي اليوناني الغريب ، الأمر الذي جعلهم علي طرفي نقيض مع جمهور العامة من الناس ، ولذلك نرى رؤساءهم تكره جماهير الناس الذين لم يدركوا فحوى المنطق المعتزلي ونفروا منه ، وقد هاجم الجاحظ العامة والفقهاء وسماهم بالحشوية . كما أن جماعة من المعتزلة سوغوا للمأمون لعن معاوية على المنابر رغم علمهم أن فئة العامة تنفر من ذلك ، بل إن ثمامة بن أشرس قال للمأمون :

«ما العامة؟ والله لو وجهت إنساناً على عاتقه سواد ومعه عصا لساق إليك بعصاه عشرة آلاف منها . . . »[15] .

إن المعتزلة وصلوا إلى السلطة وحكموا الخلافة العباسية من سنة218هـ/ 232هـ ، ولكن عقيدتهم لم تفلح في أن تتغلغل في أوساط الجماهير ، فلم ينجح المعتزلة في جذب غالبية العامة إليهم ، وبقوا طوال حكمهم دون سند أو قاعدة حقيقية . ولذلك كان من السهل على المتوكل أن ينهي أمرهم ، بل إن ما فعله كان استجابة لرغبة نابعة من المجتمع كرد فعل للمحنة . وربما كان رد الفعل هذا في بعض الأحيان عنيفاً إلى حد التطرف ، وخاصة على يد بعض الحنابلة . ولقد كان من المحاسن التي تذكر للمتوكل عدم سماحه بردود أفعال عنيفة ومتطرفة تجاه المعتزلة بعد سقوطهم .

الخليفة المتوكل والعلويون:

ولعل موقف الخليفة المتوكل من القلاقل التي أثارت أنصار العلويين في الجزيرة العربية حيث قتل كثير من قادتها كما تشير رواية الاصفهاني يدل دلالة واضحة على خوف المتوكل من حركات اتباع العلويين ومحاولته القضاء عليهم بكل الوسائل المتيسرة لديه، ومن الوسائل التي لم يتردد في اتخاذها:

1- تشجيعه للأدباء والشعراء للكتابة والنظم في مدح العباسيين، واسناد حقهم في الخلافة، على أن الحركة الأدبية اتخذت في هذه الفترة اتجاهين متضادين أحدهما موالي للعباسيين، والآخر موال للعلويين، وتظهر هذه المشادة الأدبية السياسية بوضوح في كتب الأدب والشعر في الفترة نفسها.

2- تشجيعه لحركة (الناصبة) وهو الشعور المعادي للعلويين، ولحركة (النابتة) وهو الشعور الموالي للأمويين، كان موجهاً بصورة مباشرة لإضعاف نفوذ العلويين بين الناس، وقد استغل المتوكل في هذا الشأن الشعراء من أهل الشام المعروفين بميولهم الأموية، فأصبحوا أداة في يد المتوكل.

3-شكوكه المتزايدة بخصوص فعاليات الإمام العاشر علي الهادي وقد حدد إقامته في سامراء، وعين من يراقبه بصورة سرية بعد أن استدعاه من المدينة المنورة. وغير ذلك من الإجراءات الشديدة تجاه شخصيات علوية أخرى.

فرق موالية للأمويين في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي[14].

ظهر الميل للأمويين في صور أخرى تتمثل في مواقف فئات مختلفة معارضة للعباسيين.

أولها: النابتة وهي الفئة التي ظهرت في القرن الثالث الهجري مناوءة للعباسيين سياسياً والمعتزلة والعلويين في آرائهم الدينية- السياسية، ولذلك وجدت في الموالاة لمعاوية والأمويين رمزاً لمعارضتهما وتعبيراً عن شخصيتها المعنوية.

وفي اللغة النابتة هم الجيل الناشئ الجديد، وعلى ذلك فهي تدل على الفئة

الجديدة في المجتمع التي بدأت تظهر مع بداية القرن الثالث الهجري وتسمع أصوات التذمر من أوضاعها. على أن كتاب الفرق أطلقوا لأنفسهم العنان في استعمال هذا الاصطلاح، فاتهم ابن الراوندي المعتزلة بأنهم نابتة. أما الجاحظ فقد أزعجه أن يكون هنك ارتباط بين هذه الفئة من أهل السنة وبين الأمويين، فاتهم النابتة بالمروق والتمادي في الخطأ لأنهم رفضوا أن يتهموا ملوك الأمويين. وقد حاول الجاحظ أن يربط النابتة والرافضة، ورأى بأن هناك كثيراً من نقاط الاتفاق بينهما.

ورغم أن الجاحظ كتب بعد مدة من اعتلاء العباسيين للحكم حينما تبلورت حركة الشيعة الأموية وتطورت إلى حركة دينية -سياسية، فإن كتاباته تعكس كل الحركة الموالية للأمويين منذ بداية الدولة العباسية. فلقد كان أنصار الأمويين قسمين:

الأول: الفئة التي توالي الأمويين سياسياً، وقد ظهرت بصورة مبكرة كما لاحظنا سابقاً.

الثاني: الفئة التي ظهرت متأخرة واتخذت من معاوية مثالاً يحترمون ذكراه للتقليل من شأن معارضيهم من عباسيين وعلويين ومعتزلة. وتبنى هذه النزعة الكرامية في سجستان وخراسان، والحنابلة في اصفهان والري وفارس.

ولعل هذا الاتجاه بدأ ظهوره في فترة مبكرة حيث تشير رواية إلى أن المأمون قرر أن يصدر سنة 211هـ أمراً بلعن معاوية في المساجد، ولكن القاضي يحيى بن أكثم أشار عليه بخطورة ذلك لأنه سيثير عواطف الناس، كما وأن الموالاة للأمويين لا بد وأن تكون لها جذور تاريخية عريقة، ففي رواية المسعودي أن (أشياخا من أهل الشام من أرباب النعم والرياسة حلفوا لأبي العباس السفاح أنهم ما علموا للرسول قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بني أمية). وربما كانت هذه خطة مدبرة عمل بها الأمويون عن طريق القصاص والرواة وأئمة المساجد وغيرهم.

وقد استمرت الإشادة بالأمويين وإظهار فضائلهم ومزاياهم: يقول المسعودي أنه قرأ في كتاب حين كان في طبرية سنة 324هـ عنوانه (البراهين في إمامة الأمويين ونشر ما طوي من فضائلهم). وأشهر من عرف بالدفاع عن صحة إمامتهم ابن حزم

الذي والي الأمويين في المشرق والمغرب (الأندلس) وفضلهم على سواهم من قريش كما يدافع ابن عذارى عنهم وحين يقارنهم بالعباسيين يبرر اختلاطهم بالناس ونفعهم لهم، بينما حجب العباسيون أنفسهم عن الناس وابتدعوا تقاليد أذلت الرعية وجعلت من العباسيين جبابرة، وكذلك ابن عساكر في تراجمه عن معاوية وأمويين آخرين ثم ابن عربي في كتابه (العواصم من القواصم).

المتوكل وأهل الذمة:

لقد جاء العباسيون إلى السلطة مؤكدين صبغة الخلافة الدينية ودورها الفعال في إحياء «السنة» والمحافظة على وحدة «الجماعة» وهي بطبيعة الحال الأمة الإسلامية وعلى ذلك فإن موقف السلطة من أهل الذمة لم يكن بصورة عامة موقفها من المسلمين. وكانت علاقات الجاليات غير الإسلامية مع الدولة محددة بمجموعة عهود أصبحت بمرور الزمن تقليداً يسير عليه الخلفاء[15]. ومهما كانت صفة هذه العهود من حيث المرونة والتسامح فإنها كانت دون شك عهوداً أعطيت من جانب القوي المنتصر، فلم يسمح لأهل الذمة بالخدمة في الجيش بل إن الدولة تدافع عنهم وعليهم مقابل ذلك أن يدفعوا ضريبة الجزية، وقد حرمهم هذا الوضع نظرياً في الأقل، وكذلك عملياً في فترات محدودة من الاشتراك في (الإدارة). ولذلك وجه الذمي نشاطه إلى التجارة والنواحي المالية والحرف والمجالات الفكرية والثقافية والعلمية[16].

إن القارئ المتمعن لروايات التاريخ لا بد وأن يدرك وجود هذه التحديات لأهل الذمة في المجتمع الإسلامي في العصر العباسي إلا أن الخلفاء والولاة والمؤسسات المختلفة في الدولة الإسلامية كانت تقيم براعة أهل الذمة وكفاءتهم في مجالات معينة في الإدارة وبيت المال والمجالات العلمية وقد تقبل المجتمع الإسلامي ذلك واعترف به ولهذا نجد كثيراً من الموظفين بل كبار الموظفين الإداريين والأطباء وعلماء الفلك والحرفيين والتجار وغيرهم من أهل الذمة رغم إلحاح بعض الفقهاء وتشددهم في مسألة استخدام أهل الذمة[17].

ونحن حين ندرس موقف الخلفاء العباسيين الأوائل من أهل الذمة يجب أن نضع أمامنا الاعتبارات التالية :

1-كانت الخلافة العباسية كما حاول الخلفاء العباسيون أن يصوروها انبعاثاً جديداً للدين القويم والسنة الصحيحة وفي مقابل ذلك كان لزاماً على السلطة أن تلزم غير المسلمين بالتزامات معينة وتحث الكتاب على كتابة الرسائل والكتب دفاعاً عن الإسلام واثباتاً لسموه على سائر الأديان ومثال ذلك ما فعله الجاحظ في رده على النصارى وغيره كثير.

2-كان النزاع العباسي - البيزنطي في هذه الفترة قد تحول من استراتيجية الهجوم الإسلامي إلى خطة الدفاع فلم تعد الدولة الاسلامية ، عدا بعض الاستثناءات التي لم تثمر شيئاً ، بقادرة على القيام بهجوم كاسح تنتج عنه مكاسب مادية واقليمية كما كان الحال في الماضي.

3- لقد اتخذ بعض الثوار وخاصة المسيحيين في لبنان والجزيرة وارمينيا الدولةالبيزنطية ملجأ يلتجئون إليه ولذلك كان لا بد للدولة العباسية أن تحتاط الأمر في هذه الاقاليم.

4-كان الخليفة العباسي (خليفة الله في أرضه) وزعيم الأمة الإسلامية. وكما كان هذا المركز يلزم الخليفة بأن يستمر في الجهاد ضد (دار الحرب) التي يسكنها غير المسلمين من مسيحيين أو وثنيين أو غيرهم. فإن هذا المركز يلزمه أن يحد من امتيازات وفعاليات غير المسلمين في (دار الإسلام) بحيث تكون هذه القيود حجر عثرة في طريق مساواتهم بالمسلمين في الحقوق والواجبات.

لقد استطاع الإسلام أن ينتصر على الديانات الثنوية الفارسية واستطاع كذلك أن يقضي سياسياً وعسكريًا على الامبراطورية الساسانية ، ولكنه لم يستطع أن يقضي على الامبراطورية البيزنطية وبقى المسيحيون يعيشون داخل حدود الدولة الإسلامية وقد نقلت عن طريقهم الفلسفة الاغريقية والمنطق والعلوم الأخرى التي ربما باتت خطراً على تعاليم الإسلام من جهة كما وأن هؤلاء المسيحيين سيطروا على مناصب

إدارية وكتابية ومهنية مهمة من جهة أخرى مما استدعى قلق بعض الفقهاء وكذلك حسد جمهور الناس. ولما كان الخليفة العباسي بحاجة إلى تأييد الفقهاء والمحدثين ذوي التأثير الكبير في العامة من الناس، فلم يكن في وسعه إلا أن يحيي بعض القيود التي كانت تفرض من حين لآخر من قبل بعض الخلفاء محاولين كسب جمهور العامة وبعض الفقهاء. على أن هذه القيود ليس لها ما يؤيدها في القرآن أو في مبادئ الإسلام الخلقية.

ولعلنا نستطيع القول بأن سياسة العباسيين الأوائل كانت خطوطها العريضة تتصف بكونها معادية ظاهرياً لأهل الذمة. على أن وجود عدد من الذميين المقربين إلى الخليفة من أطباء ومنجمين وكتاب وغيرهم أو ممن شغلوا وظائف إدارية مهمة يدل بأن القيود التي فرضها الخلفاء والتي ذكرها المؤرخون والفقهاء لم يكن لها سوى أثر قليل من الناحية العملية. وهي في حقيقتها لم تكن سوى مناورة حتمتها ظروف الخلافة سلاحاً سياسياً بيد الخليفة العباسي.

ثورات أهل الذمة:

إن أشهر الانتفاضات التي قام بها أهل الذمة في هذه الفترة هي انتفاضات الأقباط في مصر ونصارى الجزيرة ونصارى جبل لبنان ونصارى ارمينيا والمناوشات التي حصلت مع النصارى المنعزلين في شاطئ افريقيا والمغرب.

أما في مصر[18] فقد ثار القبط على والي الأمويين وكانوا عاملاً مساعداً للعباسيين في احتلال مصر. وقد عفا العباسيون بعض الأقباط من الضرائب وخففوا عن البعض الآخر. إلا أن ذلك لم يدم طويلاً فقد أعيدت الضرائب إلى سابق عهدها كما وأعاد المنصور الضريبة على بعض أهل الذمة الذين لبسوا لبوس الرهبان تهرباً منها. وكانت مصر داخلياً تعاني من مشاكل كثيرة فالأقباط كانوا يحسون بكثرة الضرائب والقيود والقبائل القيسية صعبة المراس في الحوف الشرقي كثيرة الاضطرابات والبدو في الصعيد يأنفون الانصياع للسلطة المركزية. ولعل هذه العناصر غير المستقرة والمستاءة كانت بؤرة الاضطرابات ضد الدولة.

لقد أمل القبط أن يكون عهد العباسيين عهداً جديداً في معاملته لهم ولكن آمالهم ما لبثت أن خابت وقد عبروا عن تذمرهم من أوضاعهم بسلسلة من الثورات كان بعضها عنيفاً. ففي سنة 133هـ 750م ثار أبو مينا القبطي في سمناود في الصعيد ولكن أبا عون عبد الملك الأزدي استطاع قتله في السنة نفسها. وفي سنة 150هـ 767م قامت ثورة قبطية عنيفة في سها وتوسعت إلى المناطق القريبة بعد أن طردت قوات الدولة وانضمت إلى الثورة قرى فلاحية أخرى ولم تستطع التعزيزات الجديدة التي أرسلها الوالي يزيد بن حاتم المهلبي أن تقضي على الثورة إلا بعد جهود مضنية حين أشعلت النار في قرى الثوار. ولكن الثورة ما لبثت أن اشتعلت مرة ثالثة في بهيت في ولاية موسى بن علي اللخمي الذي استطاع اخمادها بسرعة سنة 156هـ/ 772-773م. والظاهر أن البدو كانوا ينضمون إلى هذه الثورات حال قيامها.

ولم يكن تذمر الاقباط بسبب الأعباء المالية[19] فقط بل لكونهم يتعرضون من حين لآخر لبعض القيود وكانوا عرضة للنهب والسلب كما كانت كنائسهم عرضة للهدم وخاصة أثناء ثوراتهم ضد الدولة العباسية. كما وكان بناء كنيسة جديدة يتطلب موافقة قاضي مصر. ولعل رواية المقريزي التي تقسم الناس في مصر إلى ثلاثة أصناف آخرهم القبط «وهم ليسوا من صنف الناس» تدل على ما أوردناه عن حالتهم الاقتصادية والاجتماعية. وتشير روايات متأخرة على أن كثيراً منهم كان يهرب إلى الصعيد بسبب عبء الضريبة على أن الأقباط لم يستطيعوا الاستمرار في الثورة بل كانت آخر ثوراتهم الكبرى سنة 226هـ / 840م حيث يقول المقريزي «ومن حينئذ ذلت القبط في جميع أرض مصر». ومن الثورات المعروفة في هذه الفترة في لبنان[20] هي ثورة بندار المسيحي في جبل لبنان سنة 142هـ / 759-760م. وقد أعلن بندار نفسه ملكاً على منطقته ونادى بالنصرانية ديناً رسمياً لاتباعه ثم هاجم القرى الإسلامية في سهل البقاع ولكنه اندحر وعبر الحدود البيزنطية لاجئا إلى البيزنطيين. وقد أمر صالح بن علي والي الشام بهجرة سكان جبل لبنان جماعياً ووزعهم على مناطق مختلفة من بلاد الشام.

وقد عارض الفقيه الاوزاعي فقيه الشام سياسة العباسيين هذه التي تقضي

بتشتيت نصارى جبل لبنان فكتب إلى الوالي كتاباً يستنجد فيه العطف عليهم وعدم أخذ الجميع بجريرة البعض قائلاً «فإنهم ليسوا بعبيد ولكنهم أحرار أهل ذمة»[21]. والواقع أنه كانت من تقاليد الفقهاء أن يخاطبوا الحكام بشأن تطبيق مبادئ الشريعة السمحاء على أهل الذمة والإيصاء بهم خيراً فقد كتب أبو يوسف إلى الرشيد يوصيه برعايتهم «حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم». وقال الليث بن سعد فقيه مصر في فداء أهل الذمة إذا وقعوا في الأسر «أرى أن يفدوهم من بيت المال ويقرون بذمتهم»[22].

ومن الواضح أن العباسيين اعتبروا المسيحيين من سكان الشام والجزيرة معرضين للاستغلال أو التواطؤ مع البيزنطيين باعتباره وحدة العقيدة الدينية وكان على الوالي العباسي في الجزيرة أن يتخذ وسائل دفاعية من ضمنها بعض القيود والالتزامات التي يجب أن يلتزم بها نصارى هذا الاقليم المجاورة للحدود الشمالية فكان على المسلمين في الجزيرة أن يلبسوا السواد ليسهل تميزهم عن المسيحيين كما وأن المنصور أمر بهجرة مجموعات كبيرة من سكان الثغور وإحلال مجموعات جديدة محلهم لأسباب تتعلق بأمن الدولة[23].

ويتعرض داينيس التلمحري[24] في تاريخه إلى الأحوال الاقتصادية المتردية والفوضى السياسية في اقليم الجزيرة، ورغم أنه يبالغ في تصويره هذا المنبعث من تحسسه الديني العميق وعاطفته المتأججة التي جعلت كتابه صورة مشوشة لحالة الجزيرة، بإمكاننا القول بأن أوضاع الجزيرة الاقتصادية كانت تتردى بسبب كثرة الثورات واضطراب حبل الأمن وعدم تمكن الدولة من السيطرة على القبائل البدوية أو الأكراد واللصوص وكان نبلاء المسيحيين أنفسهم يهاجمون بعضهم البعض في قراهم الجبلية الحصينة. ولذلك فإن النهب والسلب الذي تعرضت له الأديرة والكنائس كما يقول داينيس لم يكن من قبل الوالي بل قام به عصاة محليون.

ولعل أهم ما كان يعاني منه نصارى الجزيرة هو ثقل الضرائب مما أدى إلى هروبهم من قراهم إلى المدن ولكن الدولة منعت الهجرة وذلك بأن ختمت على أيدي دافعي الضريبة من سكان القرى والمدن باسم مدنهم وقراهم ومقاطعاتهم. ولم

يقتصر الختم على الأيدي بل على الرقبة والصدر والظهر. وليس من المستغرب والحالة هذه أن يظهر بين المسيحيين من يدعي النبوة أو المهدية معلناً أن باستطاعته أن ينقذ الناس من حالتهم السيئة هذه وقد ظهر في هذه الفترة (جون بربادي)[15] وتبعه كثير من سكان القرى وقد حاول المسيحيون المنقذون والكنيسة التعاون مع السلطة العباسية للقضاء على جون بربادي. كما ظهر بعده منقذ آخر بشر الناس بالخلاص والعدالة وكان اسمه (مارمارته) كما أدعى قدرته على إشفاء المرضى وذوي الآلام وحاربته الكنيسة بالتعاون مع السلطة العباسية كما وأن الاضطهاد والضيق الاقتصادي والحساسية السياسية دفعت إلى ظهور نبي مزعوم آخر نبي المسيحيين في عهد المتوكل. وكان الوالي العباسي يشرف بنفسه على انتخابات بطريرك الموصل وملحقاتها كما حدث في سنة 148هـ/ 764-765م. وكانت السلطة العباسية أحياناً تحابي بعض الطوائف المسيحية على بعضها الآخر كما حدث في عهد الرشيد في مصر بين اليعاقبة والروم والملكانيين[26].

وعلى شواطئ البحر المتوسط[27] في المغرب كانت هناك جاليات مسيحية لا تزال تعيش في الشواطئ القريبة من برقة ولم تستطع القوات الإسلامية فتح هذه المناطق حتى زمن الخليفة العباسي المتوكل. ولعل تشديد الخليفة على إخضاع هذه المناطق المسيحية يتفق وسياسته الدينية السنية المتشددة.

أما في ارمينيا وبلاد الخزر فقد عين أبو جعفر المنصور حين كان في عهد أخيه العباس والياً على الجزيرة وارمينيا واذربيجان نائباً عنه في ارمينيا هو يزيد بن أسيد السلمي وعين يزيد بن حاتم المهلبي نائباً عنه في اذربيجان. وكانت ارمينيا ذات طبيعة جبلية وعرة المسالك قليلة المؤن ولذلك كثر فيها العصاة وقطاع الطرق. كما وأنها كانت معرضة لهجمات الخزر مما أجبر أبو جعفر على الإشارة إلى واليه بإقامة علاقات ودية مع الخزر، عن طريق التزوج بابنة ملك الخزر. وقد تم ذلك فعلاً.

ولكن النزاع نشب ثانية بين الخزر والعباسيين بعد سنتين حين توفيت العروس سنة 145هـ/ 762-763م. وبعد معارك دموية اضطر يزيد السلمي إلى الانسحاب إلى (برذعة). وقد بدأت السلطة العباسية ببناء سلسلة من الحصون والقلاع التي عسكر

فيها الجند العباسي، كما وأن عملية استيطان القبائل العربية استمرت. ولما كانت ارمينيا ذات حدود مشتركة مع الامبراطورية البيزنطية فقد كان هناك دائماً احتمال مساعدة البيزنطيين لأهل ارمينيا أو مساعدتهم ضد العباسيين. على أن ذلك لم يكن دائماً حيث يشير المؤرخ[28] داينيس التلمحري إلى أن الأرمن كانوا يتعاونون مع الجيش الإسلامي ويعرفونه على مواقع القوات البيزنطية فيوجه ضرباته الشديدة لهم. ولعل هذا القول من داينيس مبالغ فيه لاختلافه في المذهب معهم.

والمعروف أن الأرمن مسيحيون أما الخزر فكان غالبيتهم من اليهود في تلك الفترة.

أوضاع الذميين في الدولة العباسية:

إن الصورة التي تعطيها مصادرنا الذمية والإسلامية عن وضع أهل الذمة في المجتمع الإسلامي صورة قاتمة في الاعم الأغلب، على أننا أشرنا سابقاً إلى أن هذه الصورة مصطنعة ونظرية كان لها مبرراتها في مجتمع العصور الوسطى. أما الصورة الفعلية فكانت على العكس كما سنرى بعد قليل.

يسهب داينيس في وصفه للقيود الاجتماعية والالتزامات الاقتصادية التي عانى منها أهل الذمة. ويتكلم ابن قيم الجوزية في بحث[29] مفصل عن «منع استعمال اليهود والنصارى في شيء من ولايات المسلمين وأمورهم»: ويؤكد على «غش أهل الذمة للمسلمين وعداوتهم وخيانتهم وتمنيهم السوء لهم». ويمنع أحمد بن الحسين المالكي ولاة الأمور من استعمال أهل الذمة[30]. وتنسب الروايات إلى عمر بن الخطاب أنه قال: «لا تولوا اليهود والنصارى فأنهم يقبلون الرشا في دينهم ولا يحل في دين الله الرشا». وتشير رواية في صبح الأعشى عن الشافعي أنه قال «لا ينبغي لقاض ولا وال أن يتخذ كاتباً ذمياً ولا يضع الذمي موضعاً يفضل به مسلماً ويعز على المسلمين أن يكون لهم حاجة إلى غير مسلم»[31]. وهناك روايات كثيرة أخرى نسبت إلى عدد من الصحابة والفقهاء والخلفاء.

إن مركز الخلفاء العباسيين كان يحتم عليهم إصدار المراسيم التي تتضمن قيوداً

معينة لأهل الذمة ولكن حاجة الدولة إلى مهارتهم وكفاءتهم كانت تدعو الخليفة إلى استخدامهم. ويشير البلاذري[32] إن أبا العباس عامل الذميين معاملة حسنة وخفض من الضرائب المفروضة عليهم في الكوفة. وتشير الأدلة على أن أهل الذمة استعملوا في الديوان منذ أوائل العباسيين.

وحين بنى المنصور مدينته المدورة (بغداد) لم يسمح للذميين بالسكنى داخل أسوارها كما وأنه نقل أسواقها إلى خارج الأسوار خوفاً من وجود الجواسيس والعيون الذين تستخدمهم الدولة البيزنطية. على أن المنصور حرم على كثير من مقاطعات الشعب من السكنى في الداخل ومنحهم قطائع وارباض خارج المدينة وكان منها (قطيعة النصارى)[33].

وكانت العلاقة العباسية- البيزنطية في عهد المنصور تؤثر في سياسة الخليفة تجاه أهل الذمة بصورة مباشرة فيشير المؤرخ ثيوفانيس[34] في حولياته أن المنصور بعد أن رجع من الحدود البيزنطية حيث عمل بعض التحصينات الدفاعية في (سمالو) وغيرها أمر بفرض تقيدات جديدة على اليهود والمسيحيين وخاصة أولئك المستوطنين قرب الحدود. وقد هرب كثير من المسيحيين إلى داخل الحدود البيزنطية.

ومع ذلك فتشير كل الدلائل إلى وجود عدد كبير من الذميين في وظائف الدولة المالية والإدارية وكذلك في المهن الأخرى كالطب والهندسة، كما برعوا في الترجمة إلى العربية وفي الكتابة في العلوم العقلية (علوم الدلائل).

فالمستشرق فنز يبدي عجبه من كثرة عدد العمال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة. ويقول المستشرق ترتون أن من كبار موظفي الخراج في عهد المنصور كان يهودياً اسمه (موسى). ويؤكد بارتولد وجولد تسهيران حال أهل الذمة في المعاملات المدنية والاقتصادية كان حسناً تحت الحكم الإسلامي[35].

ولكن المنصور كان عليه أن يراعي موقف الفقهاء واحساسهم حيث يأبون أن يتسلط ذمي على مسلم في شيء ولعل هذه النظرة تتمثل في قول شبيب بن شبة للمنصور:

«يا أمير المؤمنين إن دون أبوابك نيراناً تأجج من الظلم والجور ولا يعمل فيها بكتاب الله ولا سنة نبيه محمد (ص). يا أمير المؤمنين سلطت الذمة على المسلمين ظلموهم وعسفوهم وأخذوا ضياعهم وغصبوهم أموالهم وجاروا عليهم واتخذوك سلماً لشهواتهم وأنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً يوم القيامة»[36].

فطلب منه المنصور أن يعمل معه في الإدارة فأجاب شبيب «إن المسلمين لا يأتونك وهؤلاء الكفرة في خدمتك إن أطاعوهم أغضبوا الله وإن أغضبوهم أغروك بهم. . .». وما كان على المنصور إلا أن يطلب من الربيع بن يونس أن «يكتب إلى الأعمال ويصرف من بها من أهل الذمة». وفي رواية في الجهشياري[37] أن المنصور أمر حماداً التركي ألا يدع أحداً من أهل الذمة يكتب لأحد من العمال على المسلمين، إن هذه الروايات إن دلت على شيء فإنها تدل على وجود أهل الذمة في الإدارة وعلى دورهم الكبير في الحياة الاقتصادية، ثم إن استمرار وجود الذميين في الوظائف يدل دلالة واضحة على أن أوامر المنصور كانت شكلية ولم تنفذ بل كانت هدف الخليفة إرضاء الاتقياء وجمهور الناس. ذلك لأن الدولة كانت تحتاج إلى هؤلاء في تسيير دفتها.

ولعلنا نستبق القول فنشير إلى أن أغلب الخلفاء العباسيين ساروا على خطة المنصور ففي الوقت الذي كانت المراسيم تصدر بإعفاء الذميين من الوظائف كانت مناصبهم لا تتأثر من الناحية العملية[38].

ففي عهد المهدي[39] ثالث خلفاء العباسيين قويت شوكة أهل الذمة كما يؤكد ذلك ابن قيم الجوزية. وتشير رواية أن ضياع المهدي بالبصرة كانت تحت إدارة كاتب نصراني، وكان توما النصراني رئيس منجمي المهدي. وقد استجاب المهدي لأحد الفقهاء الذي أنشده:

بأبي وأمي ضاعت الأحـــلام	أم ضاعت الأذهان والأفهام؟
من صد عن دين النبي محمد	أله بأمـر المسلمين قيـــــام؟
ألا تكـن أسيـافهـم مشهـورة	فينا فتلك سيـوفهم أقـــلام

وأمر بإخراج بعض أهل الذمة من وظائفهم، ولكننا لا نعرف إذا كانت هذه الأوامر قد نفذت أم لا ولكننا نستدل بأن أعمال الأهواز وكور ودجلة وفارس والسواد كانت بيد موظفين ذميين قبل أن يعين المهدي موظفين مسلمين جداً.

وتشير روايات إلى أن الأقباط في مصر كانوا يعانون من ضريبة الخراج. وفي الجهشياري[40] «أن أهل الخراج كانوا يعذبون بصنوف من العذاب من السباع والزنانير. وكان محمد بن مسلم خاصاً بالمهدي فلما تقلد الخلافة ووجد أهل الخراج يعذبون استشاره فقال: هذا موقف له ما بعده وهم غرماء المسلمين فالواجب أن يطالبوا مطالبة الغرماء فتقدم إلى أبي عبيدة الله بالكتاب يرفع العذاب عن أهل الخراج».

على أن المهدي كان مولعاً بحث الذميين على الدخول إلى الإسلام وتدل على ذلك محاورته مع البطريرك طيماثاوس، حيث أبدى المهدي فيها مرونة وتسامحاً يشهد به البطريرك نفسه، وقد دعاه إلى الإسلام ولكن البطريرك تمسك بدينه. وقد نجح المهدي في إدخال عدد من أهل الذمة في قنسرين إلى الإسلام وكتب على أيديهم بالخضرة قنسرين[41]. ولعل لهذه المحاولات لنشر الإسلام في منطقة الجزيرة خاصة علاقة بنشاط الفعاليات العسكرية الإسلامية ضد البيزنطيين في عهد المهدي ذلك لأن دخول مسيحيي الجزيرة إلى الإسلام كان بمثابة عامل استقرار وصمام أمان للدولة العباسية.

أما الرشيد فكان من أوائل الخلفاء العباسيين الذين تشددوا في أمر أهل الذمة «فصرف أهل الذمة عن أعمالهم واستعمل المسلمين عوضاً عنهم وغير زيهم ولباسهم وخرب الكنائس وأفتاه بذلك علماء المسلمين»[42]. ويقول الطبري «أن الرشيد أمر سنة 191هـ بهدم الكنائس بالثغور وكتب إلى السندي بن شاهك يأمره بأخذ أهل الذمة بمدينة السلام بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم». وكان أهل الخراج يعذبون حتى أمر برفع العذاب عنهم سنة 184هـ.

ويذكر البيروني أن الرشيد قتل أحد الذميين الذي أدعى دعوات خارقة إلا أن ذكراه بقيت في أذهان النصارى ونسبوا إليه المعجزات[43].

وفي مصر على عهد الرشيد أمر الوالي علي بن سليمان العباس بهدم الكنائس المحدثة فهدم كنيسة مريم وكنيسة قسطنطين[44] وكان الرشيد قد استدعى (بلليطان) الطبيب في مصر وكان بطريك الاسكندرية لمعالجة إحدى جواريه ثم كتب له منشوراً عند عودته إلى مصر برد الكنائس التي أخذها اليعاقبة من الملكانيين[45] .

إن موقف الرشيد لم يكن أقل حراجة من موقف المنصور وكان عليه كأسلافه أن يتبع سياسة التوفيق، وتشير رواية البلاذري إلى معاملته الحسنة للنجرانية حيث خفض خراجهم وأن يكون مأواه إلى بيت المال المركزي دون وساطة العمال. وكان طبيبه الخاص جبريل بن بختيشوع من المقربين إليه. وكان محمد بن مسروق قاضي مصر في عهد الرشيد تشير إليه رواية أخرى في الأحكام السلطانية فقد حكم في أيام الرشيد على مسلم قتل كافراً بالقود ولكن الخليفة -على حد قول الرواية- خاف الفتنة فطلب أبو يوسف القاضي أن يتدارك الأمر بمخرج شرعي لئلا تكون الفتنة[46] .

وبالنسبة لعهد الخليفة المتوكل[47] نقول بأن من مظاهر سياسة المتوكل الدينية المتشددة هي القيود الجديدة التي فرضها على الذميين حيث أصدر مراسيم تأمرهم بوضع إشارات صفراء اللون على ثيابهم وأن يكون طيلسانهم أصفر كذلك. كما وأن عبيدهم يجب أن يتميزوا عن عبيد المسلمين. ويقول ساويرس ابن المقفع «بأن بلايا وقعت على الكنائس وأهلها في عهد المتوكل». أما ابن قيم الجوزية فيمتدح المتوكل قائلاً: «إن المتوكل صرف أهل الذمة من الأعمال وغير زيهم في مراكبهم وملابسهم وذلك أن المباشرين منهم للأعمال كثروا في زمانه وزادوا على الحد وغلبوا على المسلمين.. فكانت الأعمال الكبائر كلها أو عامتها إليهم في جميع النواحي». وحين شدد عليهم أمرهم بلبس الثياب العسلية وألا يمكنوا من لبس الثياب لئلا يتشبهوا بالمسلمين ولتكن ركوبهم خشباً وأن تهدم بيعهم المستجدة وأن تطبق عليهم الجزية ولا يفسح لهم في دخول حمامات المسلمين وأن يفرد لهم حمامات خدمها ذمة ولا يستخدموا مسلماً في حوائجهم لنفوسهم وأفرد لهم من يحتسب عليهم». وأن المدرك لموقف المتوكل السياسي حيث كان يجابه العلويين والمعتزلة والأتراك الذين يحيكون مؤامراتهم في البلاط وخارجه ضد الخليفة ربما يعطي الحق للخليفة على ما أصدره من

تقيدات ضد المسيحيين ليرضي (أهل السنة) من فقهاء وجمهور الذين كانوا أمله وعضده الأخير في صراعه السياسي الديني ضد أعدائه. من هذا المنطلق نستطيع القول أن اجراءات المتوكل الشديدة ضد الذميين والزنادقة كان لها هدف سياسي واضح إضافة إلى الأهداف الأخرى. ومما يؤيد ذلك رواية البلاذري[48] التي تشير إلى تسامح المتوكل مع الذميين من قرى فلسطين الذين شكوا إليه ثقل الضرائب فردها من خمسة دنانير إلى ثلاثة دنانير، كما وأن رواية ابن قيم الجوزية آنفة الذكر تشير بصراحة إلى كثرة الموظفين الذميين في عهد المتوكل نفسه.

إن وجود الذميين عملياً في وظائف الدولة الإدارية والمالية هو الذي دفع كتاب الأحكام وبعض الفقهاء إلى الحكم[49] بجواز استعمالهم في الوظائف فقد نص الفقهاء مثلاً على جواز تقليد الذمي وزارة التنفيذ وجواز اسناد الجباية إليه. إن رسالة الجاحظ في (الرد على النصارى) وثيقة تاريخية مهمة تظهر لنا حقائق غريبة عن مدى اتصال النصارى بالمسلمين في عمره وقبل عصره وكذلك مركزهم الاجتماعي والاقتصادي لهم. ويقول إن في النصارى «متكلمين وأطباء ومنجمين وعندهم عقلاء وفلاسفة وحكماء.. وأن منهم كتاب السلاطين وفراشي الملوك وأطباء الأشراف والعطارين والصيارفة.. وأنهم اتخذوا البراذين والخيل واتخذوا الشاكرية (الاجراء والمستخدمين) وتسموا بالحسن والحسين وعلي واكتنوا وترك كثير منهم عقد الزنانير وامتنع كثير من كبرائهم من عطاء الجزية». ولكن الجاحظ يتهمهم بالمساعدة على ترويج كتب ذات مبادئ هدامة فيقول: «فلولا متكلمو النصارى وأطباوءهم ومنجموهم ما صار إلى أغنيائنا وظرفائنا ومجاننا شيء من كتب المثانية والديصانية والمرقونية والعليائية ولما عرفوا غير كتاب الله وسنة نبيه». كما أن الجاحظ يهاجمهم بشدة حين يقول: «ودينهم يضاهي الزندقة ويناسب في بعض وجوهه قول الدهرية.. أنا لم نر أهل ملة قط أكثر زندقة من النصارى. ألا ترى أن أكثر من قتل في الزندقة ممن كان ينتحل الإسلام ويظهره هم الذين آباؤهم وأمهاتهم نصارى؟»[50]. ويظهر من كلام الجاحظ أن المسيحية كانت تشكل تحدياً للإسلام لا يقل خطراً عن المانوية والمزدكية (أي الزندقة والخرمية) وربما كانت أكثر خطراً بسبب دعم الامبراطورية البيزنطية لها.

بعد هذا كله علينا أن نعرف كذلك أن الرسالة التي ألفها الجاحظ كانت تطلب من السلطة العباسية، وهي لذلك بمثابة تعبير عما كانت تريده السلطة من تصور لموقفها الظاهري «الرسمي» ضد الذميين وتطميناً لجمهور المسلمين الذين ربما شعروا بالخيبة والحسد تجاه المتنعمين والمتنفذين من الذميين.

اضطهاد أهل الذمة: لم يعرف عن الخلفاء العباسيين الأوائل أنهم أمعنوا في اضطهاد أهل الذمة أو قادوا حملة عنيفة ضدهم كتلك التي قادها ضد الزنادقة والملحدين الشكاك والمجان.

ورغم اتهام الجاحظ للنصارى بالزندقة، ورغم ما ذكره داينيس عن اضطهادات النصارى والمانوية من عبد الرؤوس في الجزيرة، ورغم ما يشير إليه ميشيل السوري[51] حين يمثل اضطهاد النصارى باعتباره جزءاً من حركة اضطهاد الزنادقة المانوية، فإننا لا يمكن أن نقول بأن نظرة الخلفاء العباسيين إلى الذميين كانت توازي نظرتهم إلى المانوية، رغم أن تحدي المسيحية ربما كان -على حد قول الجاحظ- لا يقل عن تحدي المانوية (الزنادقة).

يقول ميشيل السوري[52] في تاريخه أن اضطهاد المسيحيين ابتدأ منذ بداية عهد المهدي وأن عدداً من الكنائس قد هدم وأن رقيق المسيحيين صودر وبيع. وأجبر الخليفة عرب قبيلة تنوخ المسيحية بالدخول في الإسلام وأن قسماً منهم اضطهد بسبب رفضه ذلك. إن الرواية آنفة الذكر فيها كثير من المبالغة لأن الدلائل تشير إلى سياسة المهدي المرنة تجاه أعداء الدولة منذ بداية حكمه، كما وأننا قد ذكرنا سابقاً مدى تحيز ميشيل السوري (وخاصة في النسخة المكتوبة بالسريانية) ضد الإسلام والحكم العربي ومهاجمته بعنف لسياسة الدولة الإسلامية بحق وبغير حق. على أن الخليفة المهدي ربما ألزم المسيحيين في الدولة وخاصة المستوطنين منهم قرب الحدود البيزنطية ببعض الالتزامات وهدم الكنائس المحدثة بعد إحدى الهزائم التي فنى فيها الجيش العباسي في حربه مع البيزنطيين.

وفي رواية أخرى يشير ابن العبري[53] إلى أن المهدي أجبر بطريرك مرو

النسطوري على قبول الإسلام. ورغم ذلك فإن المهدي كان أكثر شكاً في المنيزفيين من النساطرة وغيرهم حيث أخرج بطريرك اليعاقبة من السجن الذي كان معتقلاً فيه قبل خلافته وكانت علاقة الخليفة حسنة مع بطريرك النساطرة طيماثوس الأول[54].

إن روايات المؤرخين الذميين المتأخرين مبالغ فيها وليس لها ما يؤيدها في المصادر الأصلية والأولية.

وتشير رواية[55] إلى محاولة الهادي إجبار بعض أمراء ارمينيا وجورجيا على قبول الإسلام، واضطهد الكثير في ارمينيا لهذا السبب وقتل الوالي بسبب ذلك أميرين من الأرمن رفضاً الانصياع لأوامره. كما قتل أميراً من جورجيا. وتقول الرواية أن هذه الحادثة وقعت في ولاية خازم في سنة 233 من التقويم الأرمني المقابلة للسنة 785م وليس في مصادرنا التاريخية ما يؤيد هذه الحادثة أو يشير إليها خاصة وأن الهادي لم يحكم إلا سنة واحدة تميزت بالاضطرابات والمؤامرات الداخلية.

ولاية العهد:

إن عهد المتوكل وعديداً من اجراءاته تعيد إلى الأذهان عهد الرشيد واجراءاته. وكأن المتوكل لم ينتفع بتجربة الرشيد المريرة ولم يتعظ بأخطائه التي أدت إلى الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون.

فقد قسم المتوكل أقاليم الدولة بين أبنائه الثلاثة 235هـ/ 850م[56] وهم المنتصر والمؤيد والمعتز وعقد لكل منهما لواءين الأبيض لواء العمل والأسود لواء العهد. وكان المنتصر أكبر أولاده وعمره 13 سنة. وقد عينه المتوكل على افريقيا والمغرب والثغور الشامية والجزرية والجزيرة والسواد والحرمين والجبال والسند والأهواز وغير ذلك. أما المعتز فله خراسان وفارس أما المؤيد فله جند دمشق وحمص والأردن وفلسطين[57].

وحين بدأ المتوكل ينحرف عن المنتصر لميوله وآرائه، أعطى ابنه المعتز امتيازات جديدة منها الإشراف على بيت المال وعلى دور الضرب حيث ضرب اسمه على

الدراهم. لقد كرر المتوكل اخطاء الرشيد فكانت النتيجة وبالاً عليه لأن المنتصر كما سنرى انحرف عنه وتآمر ضده واشترك في قتله.

اغتيال المتوكل:

تعتبر الأزمة بين المتوكل والقادة العسكريين سبباً رئيساً في اغتياله(58). لقد بدأت الأزمة بسقوط ايتاخ وظهور البيروقراطية المدنية على الصعيد السياسي تحت زعامة عبد الله بن يحيى والفتح بن خاقان. ثم تطورت الأحداث التي صعدت الأزمة حتى انفجرت حين بدأ المتوكل يتخذ اجراءات متتالية لإبعاد الترك فصادر ضياع وصيف. وانتهز الأتراك الفجوة الكبيرة بين الخليفة وابنه المنتصر فتحالفوا مع المنتصر ووضعوا نهاية مؤلمة للخليفة.

ولذلك فإننا نميز كتلتين واضحتين على مسرح الأحداث:

الأولى: تتألف من الفتح بن خاقان وعبد الله بن يحيى والأمير المعتز واتباعهم والثانية: تتألف من المنتصر والقادة وصيف وبغا واتامش واتباعهم كما كانت هناك مسألتان أساسيتان:

الأولى: من سينتصر في الصراع على السلطة والنفوذ أهل القلم المدنيون أم أهل السيف العسكريون؟.

والثانية: هل سينجح المعتز في الحصول على ولاية العهد الأولى بدلاً من أخيه المنتصر، وقد جمعت المصالح وبين وصيف المنتصر ولذلك وحدوا جهودهم ضد المتوكل. وقد تبنى الترك وجهة نظر وصيف بالدرجة الأولى ولم تكن تهمهم مشكلة ولاية العهد أو مصير المنتصر.

وكان بغا الشرابي العقل المدبر للمؤامرة حيث أعد القتلة ودبر خطة الاغتيال في مجلس الشراب. ورغم أن المنتصر كان إلى جانب المتآمرين إلا أنه لم يشترك في إعداد الخطة. والمعروف أن المتوكل أسرف في إهانة ابنه وخلعه من ولاية العهد فاحتمى المنتصر بالقادة لأسباب شخصية بحت.

ولا بد أن نشير إلى أن الجند لم تكن لهم يد في المؤامرة بل إنهم علموا بها بعد وقوعها وإنما حاكها ونفذها حفنة من القادة العسكريين بالتعاون مع بعض المدنيين في البلاط مثل أحمد بن الخصيب الذي قرأ إعلاناً على الناس بأن المتوكل قتل في البلاط على يد الفتح بن خاقان وأن أمير المؤمنين المنتصر قتل الفتح بن خاقان. والمعروف أن الوزير عبد الله بن يحيى كان حاضراً ولكنه لم يتجرأ على الكلام بل بايع الخليفة الجديد تواً.

على أن الجند المغاربة لم يقتنعوا بالتصريح الرسمي وكادت أن تبدأ اضطرابات جديدة لولا تمكن المتآمرون من قتل مجموعة صغيرة منهم فهدأت الحالة من جديد.

وقد شعر القادة العسكريون بعد مقتل المتوكل بالاطمئنان الحقيقي فلم يبق أحد يهدد مصالحهم ويقلص نفوذهم ولم يكن باستطاعة عبدالله بن يحيى أن ينظم مقاومة عسكرية مضادة أو يجابه هؤلاء القادة، ثم إن الرؤساء المدنيين بالإمكان اصطناعهم كما حدث بالنسبة لأحمد بن الخصيب.

لقد شعر المتوكل بتآمر الأتراك عليه ولذلك أكثر من إحاطة نفسه بالخدم والحاشية ولكن لم يكن إلى جانبه شخص عسكري كفوء يتمكن من حمايته من القادة الترك وقد فشل ابن خاقان والوزير ابن يحيى في اتخاذ اجراءات صارمة للحفاظ على أمن الخليفة وسلامته، وفي ليلة الأربعاء 4 شوال 47 هـ قتل المتوكل في مدينة الجعفرية بعد انفضاض شرابه وقتل معه نديمه الفتح بن خاقان وهو يدافع عنه.

هوامش الفصل العاشر

1-فاروق عمر، نظرات في سياسة المتوكل، المجلة التاريخية العراقية، 2 ، 1973 .

2-اليعقوبي، التاريخ، ج 2، ص 201 .

3-الجهشياري ص 316 .

4-لطبري، القسم الثالث، ص 1459 .

5-لطبري، ج 11 ، ص 55 (المطبعة الحسينية) .

6-المسعودي، مروج الذهب، ج7، ص 258 .

7- الطبري، القسم الثالث، ص 1452 .

8- الطبري، ج 11 ، ص 33-35 .

9-المصدر السابق، ص56-57 .

10-ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 37 .

11-عن هذه الاضطرابات راجع: اليعقوبي ج3، ص 210، ص 223. الطبري، ج11، ص52 .

12- ابن كثير، البداية، ج10، ص 215 . - المرتضى، المنية والأمل، 31 .

13-حول تفاصيل المصادر والمراجع، انظر: فاروق عمر، العباسيون الأوائل، ج3، 161 فما بعد .

14- الطبري، ج10، ص 60 ،66 ،155 (الطبعة الحسينية) . - محمد كرد علي، خطط الشام، ص 184 فما بعد .

15-ابن قيم الجوزية، أحكام هذه الذمة، المقدمة للدكتور صبحي الصالح ص12-13 .

16- R.Gottheil, Afetwa on the appointment of Dhimmis to office. Z.A. PP. 208-214.

Dhimma. Djizaya E.% (2).

Fischal, Jews in the economic.. London 1937.

Sasoon, Ahistory of the jews in Baghdad.

Strauss, The cosial isolation of ahlal- Dhimma E.O. 1950.

جيب زيات الديارات النصرانية في الإسلام 1938 بيروت.

1938 الموصل الديورة في مملكتي الفرس والعرب

يشوعدناح، الديورة الموصل1939.

17-ابن قيم الجوزية، ج2، ص 663-664.

Shedd, Islam and the oriental..P. 110.

18-انظر: الإمامة والسياسة، ج2 ص 229-230. - خطط، ج4 ص 395، 396، 29 ج1 ص 128. - النجوم الزاهرة ص 361 الكندي الولاة ص 102. - ساويرس، ابن المقفع ج5 ص 172-173.

- انظر كذلك الدكتور فاروق عمر OP. cit ص 320 فما بعد. الدكتورة سيدة كاشف مصر في فجر الإسلام ص 20 فما بعد.

19- كاشف OP. cit ص 64.

20-ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج5، ص 341. - البلاذري فتوح ص 221. أبو عبيد بن سلام الأموال ص 170-171. انظر كذلك.

Theophanes, chronographia.

21-البلاذري OP. cit. - أبو عبيد. - الذهبي، تذكرة الحفاظ ج1، ص 170. - محاسن المساعي ص 114 فما بعد.

22-البلاذري فتوح ص 79. - أبو يوسف الخراج 120-124. - أبو عبيد بن سلام ص 127. - عبد الكريم زيدان، أحكام الذميين. ص 89.

23- الجاحظ، الحيوان ج4 ص 27. - البلاذري، فتوح ج1 ص 196 انظر كذلك مقالة في Finkel J.A.D.S. 1927، ج 47

Dionysius, chronique, Paris 6895, PP. 43ff.-24

25- OP. cit ص 47 فما بعد. - عن الحالة الاقتصادية في الجزيرة انظر:

C. Cahen, fiscalite, proprieti.. PP. 137-152.

26- داويونسيس، OP. cit. ص 64، 70. - خطط ج4 ص 369.

27-البلاذري، فتوح، ج1 ص 377.

28-دايونسيس ص 101-102.

29-ابن قيم الجوزية، ص 208-238.

R. Gottheil. OP. cit, 208ff. -30

31-الطرطوشي، سراج الملوك ص 118. - القلقشندي، صبح الأعشى ص 40.

32- البلاذري، فتوح ج1 ص 80.

33-الطبري، ج3ص324. - ياقوت معجم البلدان، ج2 ص 680.

Theophanes, chronagraphia vol. 1, P. 446. -34

35- انظر مثلاً:

بارتولد، الحضارة الإسلامية ص 19-20. - جولد شهير، العقيدة والشريعة ص 38.

36- ابن قيم الجوزية، ج1 ص 215.

37- الجهشياري، ص 134.

38-القلقشندي، مآثر الانافة، ج3 ص 228-233. - ابن قيم الجوزية ج1 ص 215-236.

39- ابن القيم الجوزية، ص 215، 216. - ابن العبري ص 220(النسخة العربية).

40-الجهشياري ص142. - كانت الضريبة التي تؤخذ من أهل الذمة على مرؤوسهم تسمى الجزية أو الجوالي- فالخوارزمي والمقدسي يسميها الجوالي (مفاتيح 59- أحسن التقاسيم ج3 ص 133). ولعل اسم الجوالي يعود أصله إلى المهاجرين الهاربين من مدنهم خشية من الضرائب وكانت الجوالي تعني كذلك الضريبة المفروضة على التجارة التي يقوم بها التجار الذميين خاصة اليهود كما يؤيد ذلك اليعقوبي وابن خرداذبة والاصطخري وابن حوقل (الصدقة والعشر دفعت من المسلمين والجوالي من غير المسلمين) ويقول بيكر إنها في الأصل الضريبة المفروضة على القرى ثم أخذت تعني الضريبة على الرؤوس.

41-البلاذري، فتوح ج1 ص 172.

42-ابن قيم الجوزية ص 217

43-الطبري، ج3 ص 712. - اليعقوبي، ج2 ص 501. - البيروني النسخة العربية، ص 292- النسخة الانكليزية، ص 287.

44- الكندي، الولاة 131. - النجوم الزاهرة ص 454.

45- ابن أبي اصيبعة، طبقات الأطباء ج2 ص 82.

46-الكندي، الولاة 391، 388. - مروج ج6 ص 345-348. - الأحكام السلطانية ص219

47- ساويرس ابن المقفع ج2 ص 4-5 . - الطبري ج3 ص 1318, 1319, 1419 . ابن قيم الجوزية، ص 222-224 .

48-البلاذري، فتوح ج1 ص 187 .

49- الماوردي، الأحكام السلطانية ص 24-25-126 . - ابن أبي يعلي، الأحكام السلطانية، ص 124 عبد الكريم زيدان، مقدمة الذميين ص 80 .

50- الجاحظ، الرد على النصارى ص 16-18ص 20 (نشرة فنكل) . وفي الحياة العامة خالط بعض المسلمين النصارى واتخذوهم أصدقاء واعتادوا قضاء أوقات سمرهم في الأديرة فقال الشاعر:

تسقيك كأس مدامة من كفها   ممزوجة بمداحة من ثغرها

بنت الميـراع والقسوس كريمة   لا يستحي يوم الحساب بوزرها

حبيت زيات. الديارات النصرانية ص 41

51- داينيس OP. Cit ص 67-70 . - ميشيل السوري، تاريخ، ترجمة شابو ج3 ص 103 . - انظر ڤيدا . . .

Vajda, les Zindiqdan pays R.S.O., 1939, P.229.

52-ميشيل السوري ج3 ص 487-480 .

كان القضاة عادة يحكمون على الذمي الذي يشتم السلف بالموت وهذا هو الحكم نفسه الذي كان يصدر على الزنادقة. (الكندي. الولاة . . ص 382) .

53- ابن الصبري، تاريخ ج3 ص 173-176 .

L.E. Brown, the patraiarch Timothy, M. W. -54

شابو، المحاورة الدينية . . . المشرق 1923 .

Moscati, le califat d, al- Hadi, S.O., 13, 1946. -55

56- الطبري، تاريخ، القسم الثالث، 1395 ,1402 .

57-فاروق عمر، العباسيون الأوائل، ج3 ، 1982 .

58-راجع التفاصيل في الطبري، تاريخ، القسم الثالث، 1402 فما بعد. كذلك لاحظ نظرة المؤرخين المتأخرين الإيجابية إلى عصر المتوكل، مثل ابن الجوزي، ابن الأثير، الذهبي .

الفصل الحادي عشر

السياسة الخارجية

الحرب مع البيزنطيين:

إن أهم ما يميز المواجهة العباسية ضد الروم البيزنطيين أنها في أكثر مراحلها لم تكن حرباً مخططة، تهدف إلى توسيع رقعة الدولة الإسلامية بل إنها انخفضت في مستواها إلى اشتباكات متباعدة على الحدود تتخللها هجمات يتفاوت عمقها داخل حدود الدولة المعادية على أن حصيلتها لم يكن أكثر من التهديد وإرهاب العدو وتدمير الحصون والمعسكرات الثغرية. ولعل هذا الاختلاف في المجهود الحربي تجاه الروم بين الدولتين العباسية والأموية يعود إلى أن العباسيين اهتموا بالأقاليم الشرقية من دولتهم أكثر من اهتمامهم بالأقاليم الغربية ويعود السبب في ذلك إلى إدراكهم بأن ضمان الاستقرار في المشرق يعني ضمان السلطة لهم والامن في العراق ولذلك بذلوا جهوداً لا بأس بها في تثبيت مراكزهم هناك بنقل العاصمة إلى العراق ليكون على مقربة من إيران المضطربة وبالقضاء على كل حركة فيها. كما يبدو أن المقاتل العربي المسلم قد استنفد كافة قدراته القتالية مع مجيئ العباسيين، وبناء على ذلك غدت سياسة الخلافة العباسية دفاعية وليست هجومية في الأعم الأغلب، بعد أن أدركت الدولة أن «دار الإسلام» بلغت أوسع ما ما يمكن بلوغه وأن المقاتلة قد سأموا الحرب وظهرت لديهم توجهات جديدة نحو الاستقرار والعمل في الحرف والمهن.

لقد ظلت امبراطورية الروم العدو الرئيس للدولة الإسلامية منذ نشأتها ذلك لأن الروم خسروا عدة أقاليم غنية كانت داخل امبراطوريتهم بعد الفتوحات الإسلامية التي حررت الشام ومصر. والمعروف أن الامبراطور البيزنطي قسطنطين (741م-775م) هاجم منطقة الثغور منتهزاً فترة الاضطرابات في السنوات الأولى من

عمر الدولة العباسية وهدد كل الثغور الإسلامية فدمر حصونها وخاصة حصون الفرات وحصون المنطقة الوسطى (الجزرية) مثل الحدث وزبطرة وملطية.

فقد حاصر الامبراطور ملطية واستسلم أهلها بعد أن يأسوا من المدد وقد اشترط عليهم اخلاء القلعة. كما ضربت سميساط وكمخ وهدم حصن قلوذيه وكان ذلك في 133هـ/ 750-751م[1].

ولقد أمر الخليفة العباسي الأول أبو العباس عبد الله عمه وواليه على الشام عبد الله بن علي العباس بالتحرك فوراً من معه من الخراسانية وأهل الشام لجهاد الروم وإزاحتهم[2]. على أن عبد الله بن علي كان يطمح بالخلافة ويعتبر نفسه الرجل الثاني بعد الخليفة. ولذلك فقد كان اهتمامه منصباً على مصير الخلافة لا مصير الثغور الإسلامية، وكان متثاقلاً في سيره إلى الحدود ولذلك لم يكن قد قطع شوطاً بعيداً حين جاء نبأ وفاة الخليفة فغير اتجاهه جنوباً نحو العراق مدعياً بالخلافة.

وحين جاء الخليفة الثاني المنصور إلى الحكم (136هـ-158هـ) اهتم بمنطقة الحدود على أن جل عمله كان دفاعياً لا هجومياً ذلك لأنه أعاد تحصين المنطقة التي دمرها قسطنطين الخامس وبنى كثيراً من الحصون التي هدمت. ولا شك في أن المنصور نفسه كان ملماً بأحوال المنطقة لأنه كان والياً على الجزيرة وارمينيا واذربيجان في عهد أخيه الخليفة الأول.

ويعطينا دايونسيس التلمحري والبلاذري[3] معلومات جيدة عن الجهود التي بذلها المنصور وعن الإمكانات البشرية والمالية التي أنفقها من أجل أن يضع أساساً جديداً لاقليم الثغور. ويذكر بأن 70.000 من أهل خراسان والجزيرة والشام اشتركوا في إعادة تحصين ملطية وكان على رأسهم الحسن بن قحطبة الطائي الخراساني الذي استطاع بدأبه على العمل المستمر أن يعيد بناء ملطية في 6 أشهر.

وقد استعمل الخليفة وسائل إغراء كثيرة لحث الجند والناس على العمل في الثغور منها:

1- زيادة العطاء لكل مقاتل عشرة دنانير إضافية.

2- تخصيص معونة قدرها100 دينار لكل واحد منهم.

3-بناء بيوت خاصة لإقامتهم مع عوائلهم وعلى هذا الأساس كان يقسمهم إلى جماعات صغيرة تحيط بالحصن ولا تبعد عنه كثيراً.

4- اقتطاع الأراضي للمقاتلة لكي يزرعونها في أوقات السلم. ونحن نتفق مع دانيوسيس التلمحري الذي أدرك كثرة النفقات التي تكبدتها الدولة من جراء ذلك وصعوبة توفير المواد الغذائية والمؤن لهذا العدد من المقاتلة والمتطوعين وأهل الحرف، إلا أن هذه الاجراءات كانت ضرورية وملحة.

لقد تمت مرحلة استكمال الدفاع والتحصينات بين الأعوام 138هـ-139هـ-141هـ حيث بنيت ملطية. وعمرت المصيصة 139هـ وأسكنت في السنة الثالثة وسميت (المعمورة) ونقل إليها بعض الفرس والصقالبة والأنباط والنصارى بعد أن نقل سكانها الأصليون إلى داخل الدولة الإسلامية (فلسطين) لاتهامهم بالتواطؤ مع الروم. كما بنى صالح بن علي العباسي مرعشاً وحصنها وشحنها، وكذلك اهتم بتحصين أدنه 141هـ وعسكر فيها مقاتلة من أهل خراسان وأهل الشام. وأعيد تعمير حصن زبطرة في خلافة المنصور أيضاً. ولكن المنصور لم ينتظر كل هذه المدة دون مواجهة الروم، فقد أرسل حملة بقيادة العباس بن محمد[4] على رأس أهل خراسان وصالح بن علي على أهل الشام سنة 138هـ. ويؤكد اليعقوبي بأن هذه الغزوات كانت أول غزوة في العصر العباسي ويوافقه ابن النديم في وجهة النظر هذه غير أنه يذكر 139هـ بدلاً من 138هـ[5].

إن اعتبار 138هـ أول غزوة في الحروب العباسية الرومية لا ينفي وجود محاولات سابقة لها، حيث يذكر الطبري أن صالحاً بن علي وجه سعيداً بن عبد الله لغزو الصائفة وراء الدروب 133هـ. على أن هذه الحملة الأخيرة لم يكتب لها النجاح حيث يقول اليعقوبي عن حملة سنة 133هـ فلم يكن لقاء بينهما ولا ذكر لهذه الحملة في البلاذري أو ابن الاثير كما وأننا ذكرنا سابقاً محاولة عبد الله بن علي عم الخليفة

للغزو ولكنه «بلغ دلوك ولم يدرب حتى أتته وفاة أبي العباس. . وقدم حاجب أبي العباس ببيعة أبي جعفر وعبد الله بأفواه الدروب يريد الروم».

إن أهم ما حققته حملة 138هـ-139هـ هو إعادة بناء الحصون الثغرية أولاً وتحذير الروم من مغبة هجماتهم المدمرة ثانياً. ثم الفداء واستنفاد أسرى المسلمين من أيدي الروم ثالثاً[6].

ويظهر أنه لم تعقب حملة 138هـ غزوة حقيقية جديدة حتى 146هـ وذلك لتعرض الدولة العباسية إلى حركة علوية كادت أن تؤدي بكيانها ألا وهي حركة محمد النفس الزكية وأخيه ابراهيم. تقول الرواية «ولم يكن بعد ذلك فيما قبل للمسلمين صائفة إلى سنة 146هـ-763م لاشتغال أبي جعفر بأمر أبي عبد الله بن الحسن[7]» وقد يعزى الهدوء على الحدود الإسلامية -الرومية إلى عدة عوامل لا إلى عامل واحد:

أولها: الاضطرابات الداخلية في الدولة الإسلامية حيث كان عهد المنصور كثير القلائل هددته أخطار ثلاثة هي: خطر عبد الله بن علي العباسي وخطر أبي مسلم الخراساني واتباعه وخطر الشيعة العلوية.

ثانيها: انشغال الروم انفسهم بمشاكل داخلية حيث تنازعت الحكم تكتلات سياسية وعسكرية ولعل جذور هذا الانشقاق يعود إلى حركة دينية ترأسها الامبراطور ليو الثالث الايسوري الذي اتخذ اجراءات متشددة ضد عبادة الايقونات[8] في الامبراطورية وهي عبادة الصور المقدسة والتماثيل التي تصور المسيح والعذراء والقديسين وتعرف هذه السياسة (بالحركة اللاأيقونية) أي حركة إصلاح الدين بتطهيره من الماديات ورفض عبادة الصور والتماثيل المقدسة.

وقد تطورت الحركة اللاأيقونية من دينية إلى دينية -سياسية وأدت إلى عداء بين الامبراطور والبابا. ومع ذلك فقد استمر الأباطرة البيزنطيون في سياستهم فقد سار قسطنطين الخامس على سياسة والده نفسها بإصداره مراسيم جديدة ضد الصور والتماثيل. وتبعه في ذلك ليو الرابع.

هذا من جهة ومن جهة أخرى كان خطر البلغار يهدد الامبراطورية مما اشغل قسطنطين عن الاهتمام بالحرب مع المسلمين.

ثالثاً: الاضطرابات في ارمينيا والخزر شغل الدولة العباسية في هذه الفترة. وقد استفاد الروم من ذلك حيث خف ضغط المسلمين عليهم. ففي سنة 148هـ غزا حميد بن قحطبة الترك بعد أن دمروا تفليس وغزا الحسن بن قحطبة الخزر سنة 163هـ كما وأن المنصور اهتم اهتماماً كبيراً بجبهة الخزر وولى مولاه واضحاً على ارمينيا واذربيجان، وأسكن بعض القبائل العربية هناك.

ولم تكن الفترة بين 146هـ/ 763م-775م أي إلى نهاية حكم المنصور[9] فترة فعالة أو هجومية إلا ماندر حيث أن الحملات لم تكن تتوغل بعمق و تلاقي قوة بيزنطية حقيقية. والمصادر تحفل بعبارات مثل (عسكر بدابق في هذا العام ولم يغزو) أو (لم يدربوا- أي يدخلوا أراضي الدولة البيزنطية). ولعل أهم اشتباك حدث بين الطرفين كان في 153هـ/ 770م حين سار معيوف بن يحيى الحجوري إلى حصن الروم (ليلاً وأهله تيام فسبى وأسر ممن كان فيه من المقاتلة ثم سار إلى «اللاذقية المحترقة» ففتحها وأخرج منها ستة آلاف رأس من السبي سوى الرجال البالغين)[10].

المهدي والبيزنطيون:

ولقد توفي الخليفة المنصور في السنة نفسها التي توفى فيها الامبراطور قسطنطين الخامس وخلف المنصور ابنه المهدي بينما خلف قسطنطين ابنه ليو الرابع (755م-780م) وقد استمر ليو الرابع في سياسته اللاأيقونية واضطهد كثيراً من أبناء الشعب حتى شمل اضطهاده زوجته ايريني. كما وأنه انشغل في جبهة أوروبا بحربه مع الفرنك في ايطاليا. وقد خلفه في الحكم ابنه قسطنطين السادس (780-797م) الذي كان لا يزال طفلاً صغيراً تحت وصاية أمه ايريني. هذا وقد لعبت المشاكل الداخلية والنزاع على السلطة في القسطنطينية دوراً كبيراً في ضعف المقاومة للقوات الإسلامية خلال هذه الفترة. وإذا سمحنا لأنفسنا أن نستبق الأحداث التاريخية لنعرض وصفاً موجزاً لحالة البلاط البيزنطي وما دار فيه من مؤامرات سياسية كان

لولبها الملكة ايريني التي اشتهرت بصفات فذة وطموح ليس له حدود لا يوازيه إلا طموح معاصرتها الخيزران زوجة الخليفة المهدي وأم الهادي والرشيد. لم ترغب ايريني التنازل عن العرش لابنها قسطنطين الذي بلغ سن الرشد (18 سنة)، كما وأن قسطنطين نفسه وقف موقفاً يشابه موقف الهادي من أمه حيث أراد أن يحد من سلطاتها وهيمنتها على الدولة. وقد أجبرت ايريني على إعلان ابنها امبراطوراً بعد عصيان الجند عليها وفشلها في صد غارات المسلمين على الحدود. ولكن الامبراطورة الطموح ذات الأطماع الواسعة انتهزت أول فرصة مواتية وقبضت على ابنها وسملت عينيه وأعلنت نفسها امبراطورة مرة ثانية. إن عمل ايريني هذا مهد الطريق لزوال حكمها حيث بدأت سلسلة من المؤامرات حاكها رجال البلاط وقواد الجيش حتى استطاع نقفور (802-811م) القضاء على نفوذها ونفيها سنة 803م[11].

إن أهم ما يميز عهد الخليفة المهدي بالنسبة لعلاقته بالروم هو تصاعد العمليات الحربية حيث لم تمر سنة إلا وتكون هنا صائفة أو شاتية، ولعل السبب في ذلك يعود إلى عوامل منها:

1-تأكيد الخليفة على الصبغة الدينية للخلافة وأهم ما يعمق هذه الصفة هو الجهاد في سبيل الله وإرسال البعوث ضد الروم في محاولة لتوسيع رقعة الإسلام.

2- إظهار الخليفة لدوره كمهدي منتظر لهذه الأمة ببعثه روح الجهاد وتذكير الناس بأنه هو المهدي الذي سيعيد للدولة سيرتها الأولى وينتصر على أهل الكفر.

3-ولا بد من الإشارة بأن عهد المهدي كان عهد استقرار وأمن نسبيين بعد أن وطد المنصور دعائم الدولة وقضى على الأخطار الرئيسة. ولقد أوصى المنصور ابنه المهدي بالوصية التالية في ما يتعلق بالجهاد:

«وليكن أهم أمورك إليك أن تحفظ أطرافك وتسد ثغورك. وأرغب إلى الله في الجهاد والمحاماة عن دينك وإهلاك عدوك بما فتح الله على المسلمين ويمكن لهم في الدين. وابذل في ذلك مهجتك ونجذتك ومالك وتفقد جيوشك ليلك ونهارك واعرف مراكز خيلك ومواطن رحلك. وبالله فلتكن عصمتك وحولك وقوتك»[12].

وعلى هذا فلم يكن المهدي فقط على حد قول البلاذري[13] «أستتم ما كان بقي من المدن والحصون وزاد في شحنها». بل إنه أخذ زمام المبادرة في الحرب. وكانت أول حملة في سنة 159هـ/ 776م بقيادة العباس بن محمد[14] وعلى مقدمته الحسن الوصيف. وكان هدف الحملة على ما يظهر الرد على هجوم قام به ليو الرابع الذي ضرب سميساط وأخذ بعض الأسرى. وقد وصلت الحملة إلى أنقرة دون أن تحاصرها أو تحاول فتحها.

وقد أسكن المهدي في هذه السنة -حسب رواية البلاذري- 200جندي في حصن المصيصة كما وأنه بدأ ببناء كفر بابا.

وفي سنة 160هـ/ 776م وسنة 161هـ[15]كان هناك صائفتان على التوالي على أن الروم هجموا هجوماً مفاجئاً بجيش كثيف قدر بنحو 80.000 مقاتل أو أكثر بقيادة القائد ميخائيل الذي استطاع أن يصل إلى مرعش على طريق درب الحدث. وبعد أن حاصرها لم يستطع فتحها. وحين تراجع الجيش البيزنطي تعقبه جيش إسلامي جاء لنجدة مرعش ولكن التصادم أسفر على دحر النجدة الإسلامية التي تراجعت تاركة الروم في طريقهم نحو الشمال ومعهم كثير من اليعاقبة النصارى الذين تقرر تهجيرهم من أماكنهم إلى الحدود الإسلامية-الرومية.

ولما سمع المهدي نبأ الهجوم البيزنطي أرسل لتوه القائد الحسن بن قحطبة الطائي مع مقاتلة عراقيين وحجازيين. والظاهر أن حملة الحسن الطائي كانت انتقامية لما قام به ميخائيل حيث يقول البلاذري[16] (وثقلت وطأته على أهلها) ولعل ما قام به لم يكن أكثر من التخريب دون أن يضم مناطق جديدة إلى الدولة وكسب لنفسه لقب (التنين).

وشهدت سنة 162هـ/ 778م-779م عدة حملات إسلامية ضد الروم فقد كانت الحملة الأولى بقيادة ثمامة بن الوليد إلا أنه عزل عن القيادة التي تولاها الحسن بن قحطبة. وقد سار الحسن بجيش قدر بحوالي 80.000 من المقاتلة وتعمق في داخل أراضي الامبراطورية حتى عمورية إلا أنه لم يفتحها لحصانتها. وقد استطاع الجيش

البيزنطي أن يقطع المؤونة عن جيش الحسن من الخلف مما اضطره إلى التراجع. ولم تحقق حملة الحسن انتصاراً حربياً إلا أنه أعاد بناء حصن طرسوس والحدث الذي أراد المهدي أن يغير اسمه إلى المهدية أو المحمدية[17].

أما الحملة الثانية في هذه السنة فقد كانت بقيادة يزيد بن أسيد السلمي الذي قاد حملته إلى قاليقالا (ثيودو سبيولز) مخرباً لبعض الحصون غانماً بعض الأسرى. على أن محاولاته لاحتلال بعض المدن البيزنطية باءت بالفشل فاضطر إلى العودة[18].

والجدير بالذكر أن حملتين خلال هذه الفترة المبكرة من العصر العباسي يذكرهما المؤرخون بشيء من التفصيل والإعجاب وبروح مشوبة بالمبالغة، هما حملتا سنة 163هـ/ 779م و165هـ/ 781م. ورغم أن الحملتين كانتا في الواقع جريئتين وفيهما كثير من الشجاعة والمغامرة حيث وصلت الجيوش العباسية للمرة الأولى والأخيرة إلى أسوار القسطنطينية وحاصرتها، فإن من حق المؤرخ أن يتساءل عن أثر السياسة وتكتلات البلاط في القصص والمبالغات التي أثيرت حول هاتين الحملتين. خاصة إذا علمنا بأن هارون بن المهدي كان قد عين أميراً للحملة وهو لا يزال في بداية شبابه يساعده في ذلك البرامكة والربيع بن يونس وقد استقبل هارون بمظاهر العظمة والتهليل بعد رجوعه من الحملة وأعطى لقب (الرشيد) كما وعين ولياً للعهد بعد أخيه موسى الهادي.

ولقد ظل المهدي شهرين يجهز لحملة 163هـ في معسكره في البردان وأغدق العطايا على المقاتلة والصلاة على قواده وأهل بيته. وكان مع هارون في هذه الحملة عدا الربيع وخالد البرمكي الحسن وسليمان أباء برمك ويحيى بن خالد البرمكي حيث كان هذا الأخير على أمر العسكر ونفقاته وكتابته. وتقول رواية أخرى (وكان أمر هارون كله إلى يحيى).

وقد رحل الخليفة مع الجيش إلى الموصل بعد أن ترك ابنه موسى نائباً عنه في بغداد، ثم استمر حتى وصل حلب ونزل هناك بقصر بطياس وقد أتاه هناك خبر القضاء على ثورة المقنع الخراساني كما وأنه قتل في حلب عدداً من الزنادقة الذين

ظهروا في دابق ثم عاد أدراجه إلى بيت المقدس[19]. وفي الوقت نفسه سار هارون يغزو داخل الأقاليم البيزنطية وقد استطاع الجيش العباسي أن يحتل سمالو بعد حصار دام نحو 40 يوماً حيث ضربت المجانيق وفرض عليها الحصار الاقتصادي وقد استسلمت على شروط هي ألا يقتلوا ولا يفرق بينهم وقد وافق المسلمون على هذه الشروط. على أن أهل سمالو رحلوا إلى بغداد ونزلوا في موضع قرب باب الشماسية سمي باسمهم. كما وأن بعضاً من بقي في الحصن عومل كأسير وبيع على أساس كونه عبداً.

وقد رجع الجيش المنتصر إلى بغداد محملاً بالغنائم والفيئ واستغل أنصار هارون هذا الانتصار فأثروا في المهدي الذي أعطى ولاية العهد الثانية لهارون وأطلق عليه لقب الرشيد كما ولاه الأقاليم الغربية كلها إضافة إلى اذربيجان وأرمينيا رغم حداثة سنه الذي تؤكده الرواية التي تقول بأن (موسى بن عيسى وعبد الملك بن صالح كانا يتضاحكان منه).

وقد استطاع البيزنطيون في السنة التالية (164هـ/ 780-781م) أن يحققوا نجاحاً جزئياً بأن ردوا الجيش الإسلامي الذي كان يقوده عبد الكبير بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب. وكان هذا القائد قد أمر جيشه بالانسحاب بعد أن رأى كثرة عدد الجيش البيزنطي (نحو 90 ألف). وقد غضب عليه الخليفة وأراد أن يقتله ثم حبسه بعد أن توسط له عدد من رجال البلاد. والجدير بالذكر أن بعض المؤرخين البيزنطيين يدعون بأن اشتباكاً وقع بين الجيشين وأن الغلبة فيه كانت للبيزنطيين في هذه السنة[20].

على أن أهم حملة في عهد المهدي بل وأكبر حملة خلال الفترة الأولى من العصر العباسي هي حملة 165هـ/ 781-782م. فقد أنفذ الخليفة ابنه هارون للمرة الثانية ومعه الربيع بن يونس ويحيى بن خالد ويزيد بن مزيد الشيباني[21].

وكان أول ما افتتحه حصن (ماجدة) ثم التحم الجيش الإسلامي مع خيالة نقيطا قوس فبارزه يزيد الشيباني واندحرت خيالته مما مكن الجيش الإسلامي بالزحف على المستق وهو صاحب المسالح في نقمودية وهنا انفتح الطريق إلى الشمال نحو

القسطنطينية فاندفع هارون بجيشه شمالاً يريد خليج البوسفور، في الوقت الذي ظل فيه الربيع بن يونس ويحيى البرمكي مع جيشين آخرين يشاغلان بعض الكتائب البيزنطية ويدافعان عن مؤخرة جيش هارون ويؤمنان له وصول المؤونة، ولقد استطاع هارون أن يصل للمرة الأولى منذ عهد الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك (96هـ/ 715م-99هـ/ 717م) إلى سواحل مضيق البوسفور.

والواقع فإن الامبراطورية البيزنطية كانت في مأزق شديد نتيجة أوضاع داخلية شاذة سببت عدم الاستقرار وأوهنت القوة العسكرية للدولة التي انشغلت عنها، ولعلنا نستطيع أن نجمل أسباب الوهن في الكيان البيزنطي في هذا الوقت بالذات إلى:

1-يقول الطبري بأن وقت حملة 165هـ كان مناسباً جداً لأن الروم كانوا مشغولين بقمع ثورة داخلية في جزيرة صقلية.

2-كانت ايريني (أوغسطة) امبراطورة البيزنطيين في هذه الفترة تواجه مصاعب داخلية كبيرة بعد أن قضت على مقاومة ابنها قسطنطين. ولعل أهم ما يقال عن هذه الفترة أن الحكام شغلوا أنفسهم باتخاذ الوسائل المناسبة والرادعة للحفاظ على السلطة بأيديهم والقضاء على معارضيهم وبهذا أهملوا وسائل الدفاع عن الدولة ولم يعيروا أية أهمية إلى تقويتها أو ازدهارها.

3-هذا إضافة إلى النزاع العقائدي كان قد قسم الشعب إلى فئات وكان الامبراطور طرفاً في هذا النزاع. والمعروف أن ايريني عانت من سياسة زوجها التعسفية تجاه حركة تقديس الصور والتماثيل واحترامها وانتهجت سياسة جديدة معاكسة لسياسة الأباطرة الذين سبقوها حيث سمحت بإظهار الصور والتماثيل الدينية والتقرب إليها وتقديسها.

4- إن الانقسام بين صفوف قادة الجيش وزعمائه أدى إلى انحياز بعضهم إلى صفوف المسلمين فقد انحاز تأتزيت إلى هارون[22] بسبب كرهه للرجال المحيطين بالامبراطورة وكان هذا القائد البيزنطي خير عون لهارون من الناحية العسكرية.

إن مما لا شك فيه هو مواجهة الجيش الإسلامي لكثير من الصعوبات نتيجة وعورة الطريق وتعقده خاصة في ما يتعلق بإيصال المؤن والإمدادات وإمكانية الوقوع في كمائن بسبب كثرة الجبال والمسالك الضيقة. إن الروايات التاريخية تتفق على ذكر وصول هارون إلى البوسفور ولكنها تختلف في ما حصل بعد ذلك والشيء الذي يلفت نظر المؤرخ لهذه الأحداث هو طلب ايريني الامبراطورة الصلح وإرسالها السفراء إلى هارون وقبول هارون الفوري لهذا الصلح بشروط، وعليها (الوفاء بما أعطت له وأن تقدم له الادلاء والأسواق في طريقه وذلك أنه دخل مدخلاً صعباً مخوفاً على المسلمين فأجابته إلى ما سأل) وتدل هذه الرواية أن الجيش الإسلامي رغم وصوله إلى القسطنطينية فقد كان في وضع حرج، حيث أنهكته المسافة ووعورة المسالك وقلة المؤونة وكان لا بد من الصلح إذا أريد لهذا الجيش أن يعود سالماً إلى الديار الإسلامية -هذا ما تؤكده الروايات غير الإسلامية وكذلك رواية الطبري آنفة الذكر.

أما شروط الصلح بين هارون وايريني فكانت كما يلي:

أولاً- تدفع ايريني أتاوة سنوية تقدر بين 90 ألفاً-70 ألف دينار على دفعتين في نيسان وحزيران.

ثانياً- أن ترسل ايريني رسولاً يمثلها شخصياً إلى الخليفة المهدي في بغداد ومعه هدايا الذهب والفضة وغيرها من العروض كالملابس الحريرية.

ثالثاً- أن تقدم ايريني الادلاء والغذاء إلى المقاتلة المسلمين في طريق عودتهم إلى بلادهم عبر الأناضول وأن تسهل طريق العودة بكل الوسائل الممكنة.

رابعاً- أن تسلم ايريني جميع الأسرى المسلمين الموجودين لديها.

خامساً- مدة الصلح ثلاث سنوات.

هناك من المؤرخين من يقول بأن كان على هارون وقواده أن يصبروا ويصابروا فربما أدى ذلك إلى فتح القسطنطينية على أيديهم ولكن الوضع العسكري كما رأينا لم يكن تماماً في صالح المسلمين ولم تكن تساند المسلمين قوة بحرية كما كان الحال في

عهد الأمويين خاصة وأن رواية تاريخية لميشيل السرياني تؤكد بأن الجيش الإسلامي كان قد وقع في كمين عند بعض الممرات الضيقة ولذلك أدرك قادته أن من الأفضل الموافقة على الصلح. وعلى الرغم من ذلك فقد كانت غنائم المسلمين كبيرة. يقول الطبري:

كان عدد الأسرى 5643 أما عدد القتلى منهم 2090.

وغنم المسلمون 20.000 دابة بأدواتها.

وذبح10.000 رأس من البقر والغنم.

وبيع البرذون بدرهم والبغل بأقل من عشرة دراهم.

والدرع بأقل من درهم وكل 20 سيفاً بدرهم.

وقد حصن هارون في طريق عودته المصيصة وجامعها كما بنى حصناً جديداً قرب جسر أدنه على نهر سيحان.

والواقع أن ما حققه الجيش الإسلامي في هذه المعركة من نتائج طيبة كان الفضل فيها يعود بالدرجة الأولى القواد العرب من أمثال يزيد بن مزيد الشيباني الذي اشتهر بكفاءته وحذاقته في الحرب ويذكر في هذا الشأن أنه أنقذ الرشيد من كمين بيزنطي كاد يودي به وبأغلب الجيش الذي كان معه. تقول رواية في الأغاني (خرجنا مع الرشيد إلى بلاد الروم.. وقد كاد يعطب لولا الله عز وجل ثم يزيد بن مزيد)(٢٣) وإلى ذلك يشير الشاعر سلم الخاسر:

ومدجج يغشى المضيق بسيفه   حتى يكون بسيفه الإفراج

وقال منصور النميري:

فطل على الصفصاف يوم تباشرت   ضباع وذؤبان به ونسور

ومدحه مسلم بن الوليد (صريع الغواني)[24]:

أثبت سوق بني الإسلام فأكادت (يوم الخليج) وقد قامت على زلل

لولا دفاعك بأس الروم إذ بكرت عن عترة الدين لم تأمن من الثكل

أسلم يزيد فما في الدين من أود إذا سلمت وما في الملك من خلل

كما امتدح مروان بن أبي حفصة الأمير هارون قائلاً:

أطفت بقسطنطينية الروم مسنداً إليها ألقنا حتى اكتسى الذل سورها

ولقد كانت السنتان اللتان تلت الصلح خاليتين من الغزوات (166هـ/ 782م و167هـ/ 783م) كما تؤكد ذلك أغلب مصادرنا[25].

أما الحرب البحرية فقد كانت في عهد الأمويين سجالاً ولذلك لم يستطع المسلمون تثبيت نفوذهم على جزر البحر المتوسط. لقد كان عصر الأمويين عصر بداية تعريف العرب بالبحر المتوسط ولذلك انصرفت الجهود إلى تحصين الثغور البحرية وبناء السفن وتدريب العدد الكافي من المقاتلة البحريين. وكان المنتظر من الدولة العباسية أن تبدأ الخطوة التالية خطوة السيطرة على جزر البحر المتوسط وشواطئه واستخدام الموانئ البحرية كطريق للتجارة ولربط الأجزاء البعيدة من الدولة الإسلامية كالأندلس والمغرب بالمشرق على أن شيئاً من هذا لم يتم ذلك لأن وجهة العباسيين كانت شرقية وقد فقدوا تدريجياً كل صلة بالأقاليم الغربية.

يقول المؤرخ المصري ساويروس أن مروان الثاني آخر خلفاء الأمويين هرب إلى مصر بعد اندحاره في معركة الزاب. وهناك أرسل حامية من جنده إلى الوجه البحري وأمرهم بحرق كل السفن البحرية. ويستمر المؤرخ نفسه فيقول بأن الخليفة العباسي المنصور أمر كثيراً من رجال الدين غير المسلمين بأن يعملوا في أحواض بناء السفن في مصر مقابل إعفائهم من الجزية ولعل هذا الخبر إن دل على شيء فإنما يدل على اهتمام المنصور بالبحرية ولكن كثرة المشاكل في الأطراف الشرقية ربما غيرت من وجهة نظر المنصور وأجبرته على الاهتمام بالمشرق أكثر من المغرب[26].

هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد انشغلت دولة الفرنجة كذلك بمشاكل داخلية حولت اهتمامها إلى الداخل عوضاً عن البحر المتوسط مما مهد الطريق للامبراطورية البيزنطية بأن تبقى سيدة الموقف في البحر المتوسط لأكثر من نصف قرن تقريباً حين بدأت دولة الأغالبة والدولة الأموية في الأندلس تنازعها على السيادة البحرية منذ القرن التاسع الميلادي (800م).

ومهما يكن من أمر فإن التاريخ يسجل للعباسيين الأوائل عنايتهم بتحصين الموانئ الشامية والمصرية ولكنهم نظروا إليها لا كقواعد هجومية بل كحدود لدولتهم ينبغي حمايتها والدفاع عنها. وتسجل الروايات بعض الغزوات البحرية العباسية، ففي سنة 156هـ-773م أغار الأسطول الإسلامي على قبرص وأسر حاكمها حيث كان الروم منشغلين بحروب مع البلغار في أوروبا. وفي عهد المنصور كذلك قاد ثمامة بن وقاص حملة بحرية سنة 157هـ/ 773م على شواطئ آسيا الصغرى الغربية ولكن السفن البحرية البيزنطية استطاعت قطع الاتصال بين الجيش الإسلامي البري وبين أسطوله ولكن تعاون الجيش والبحرية الإسلامية مكن لثمامة أن ينجو من الحصار وينسحب إلى داخل حدود الدولة العباسية البحرية.

وفي عهد المهدي قام الغمر بن العباس الخثعمي بغزو بحر الشام خلال سنتين متتاليتين سنة 160هـ و161هـ[27].

وهكذا نرى بأنه لم يكن للأسطول العباسي باع طويل في البحر المتوسط وقد شجع ضعفه الأسطول البيزنطي على مهاجمة الموانئ الإسلامية في الشام ومصر. وكذلك هاجم الكرك جده في البحر الأحمر. كما وأنه حفز الأمويين في الأندلس على مهاجمة مصر كما حدث سنة 835م-209هـ.

من ذلك نستنتج النقاط التالية في العلاقات العباسية- البيزنطية:

لقد استمرت الحرب العباسية - البيزنطية بين المد والجزر، على أنها بصفة عامة كانت غزوات للتخريب والسبي ولإرهاب العدو. ولا يمكننا أن نسميها فتوحات لأنها لم تكن تهدف أو لم تستطع أن توسع حدود الدولة الإسلامية. أما الأسطول العباسي

فلم يكن ذا أثر وكل ما استطاع عمله هو مراقبة الأسطول البيزنطي والإغارة المفاجئة على الشواطئ هذا مع العلم بأن هذه الغارات كانت نادرة خلال هذه الفترة موضوعة البحث.

ورغم استمرار حالة الحرب على ما كانت عليه في السابق على الحدود الإسلامية البيزنطية إلا أن الأيام (المجيدة) للفتوحات الإسلامية كانت قد ذهبت إلى غير رجعة، فلم يكن المقاتلة المسلمون يعودون محملين بالغنائم والفيء والسبي وهذا ما دعا الجاحظ الناقد الاجتماعي والمؤرخ والأديب إلى تصوير المقاتلة وكأنهم قد انقلبوا إلى شحاذين وفقراء قدموا من الثغور الإسلامية (المصيصة) إلى المدن الداخلية يتجولون في شوارعها ويتكلمون عن بطولاتهم وبطولات إخوانهم في سالف الأزمان فيترحم عليهم الناس ويساعدونهم بالمال والزاد[28].

ويظهر أنه كان من مصلحة الدولتين الإسلامية والبيزنطية استمرار هذه الحرب لأثرها العملي والسياسي إضافة إلى دوافعها الدينية. وبمعنى آخر إن الجهاد لم يكن الحافز الوحيد للحرب بل هناك دوافع أخرى منها إظهار قوة الدولة أو لرفع شأن أحد الأمراء أو ابناء الخليفة من أجل تعيينه ولياً للعهد مثلاً كما فعل المهدي مع هارون. ثم أن أعداء الدولة اعتادوا اتخاذ أراضي العدو ملجأ لهم يحتمون فيه بعد أن يفلتون من يد السلطة. فقد هرب الثائر المسيحي بندار من لبنان[29] بعد فشل حركته إلى داخل الحدود البيزنطية، كما حاول نصر بن شبث وكذلك بابك الخرمي الاتصال بالبيزنطيين وكان الأرمن وسكان الجزيرة يدخلون حدود البيزنطيين كلما ساءت علاقتهم بالوالي العباسي. وهذا ما دفع والي الجزيرة في عهد أبي العباس والمنصور أن يأمر كل المسلمين في الاقليم بلبس السواد ليميز بينهم وبين غيرهم من سكان الاقليم.

وأكثر من ذلك فإن المقاتلة في منطقة الثغور دخلت الأراضي البيزنطية معلنة العصيان على أوامر الخليفة المنصور الذي أراد أن يسحب بعضها لقتال محمد النفس الزكية الثائر في الحجاز. فأن صحت هذه الرواية[30] فإنها تعكس مدى أهمية منطقة الثغور الشامية والجزيرة وضرورة سيطرة السلطة المركزية عليها ولذلك فقد كان أمراء الصوائف ينتخبون على الأكثر من البيت العباسي أو من القادة المشهورين كما وأن بعض نساء البيت العباسي اشتركن في الجهاد.

ولقد بذل العباسيون الأوائل جهوداً لا بأس بها لا من أجل تحصين المنطقة ليسهل الدفاع عنها بل من أجل إعمارها بشرياً واقتصادياً ليسهل العيش فيها ولتوفير المؤن للمقاتلة الذين يرابطون أو يمرون من هناك أثناء غزواتهم. وقد حاول المنصور بصورة خاصة زيادة عدد الرعايا الذين يربون الجاموس مثل الزط والسيابجة في هذه المناطق لكي يخلق نوعاً من الحياة الريفية حول الحصون والمدن الثغرية الإسلامية[30].

الحروب في آسيا الوسطى:

لقد كانت جهود العباسيين في بلاد ما وراء النهر وتركستان أكثر نجاحاً مما استطاعوا تحقيقه في بلاد الروم. فقد واجه أبو مسلم الخراساني أول وال عباسي على خراسان مقاومة شديدة من بعض مدن أو أمراء بلاد ما وراء النهر ويظهر أن هذه المدن كانت موالية للأمويين وراضية عن سياسة نصر بن سيار آخر ولاة الأمويين على خراسان ولذلك لم تنضم في حينه للثورة العباسية.

وكان على أبي مسلم من أجل أن يبسط نفوذه على هذه الاقاليم ويدفع خطرهم عن خراسان كان عليه أن يستخدم القوة فأرسل جيشاً بقيادة خالد بن ابراهيم الذهلي وزياد بن صالح الخزاعي الذي استطاع أن يخضع شرق خراسان ويتوغل في الأراضي عبر نهر جيحون. وكان من أهم نتائج هذه الحملة أن اشتبك العباسيون في معارك مع الإمارات الصغيرة هناك مثل فرغانة والشاش.

وحدث في هذه الفترة أن تدخلت الصين في شؤون إمارة الشاش التي قتل أميرها بعد أن قاوم تدخل الصين فاستنجد ابنه بالعباسيين سنة133هـ/ 751م فأنجده زياد الخزاعي بجيش اشتبك مع القوات الصينية في معركة شهيرة تدعى (هاو هسين شي) وكانت هذه المعركة فاصلة سقط فيها 50 ألف قتيل من الصين وأسر نحو 20 ألفا [32].
أما نتائجها فكانت بعيدة المدى منها:

1-أنها قررت على حد قول المستشرق بارتولد أن تسود الحضارة العربية بدل الحضارة الصينية في بلاد ما وراء النهر. ولا يزال أثر هذه الحضارة واضحاً في كثير من مدن هذه المنطقة.

2- لم تستطع الصين أن تحقق هدفها الاقتصادي بالاستيلاء على طريق القوافل التجارية بين أوروبا والشرق الأقصى .

3-انقطع التعاون العسكري والسياسي لمدة ليست بالقصيرة بين الصين وأمراء الأتراك الشرقيين. وبإبعاد الصين عن ساحة المعركة أصبح من المحتم على الأمراء الأتراك أن يواجهوا العباسيين لوحدهم فتفرقت كلمتهم حيث انحاز قسم منهم للعرب مقتنعاً بأن ليس هناك من جدوى للقتال أما القسم الآخر فلم يعد خطره جسيماً بل اقتصر على الغارات الخاطفة أو التحريض على التمرد و إيواء الثوار كما حدث للمقنع الخراساني وللحارث بن سريج المرجيء قبله. وقد استطاع العباسيون على عهد المنصور من إخضاع أمير فرغانة الذي دفع الجزية كما خضع أخشيد الصغير وأمير أسروشنة وأمراء القرلق والأوغوز في عهد المهدي[34] .

ويظهر بأن انتصارات المهدي في سنة 165هـ على الروم هي التي أدت من شهرته حيث يشير اليعقوبي إلى تقديم ملوك كابل وطبرستان الصغد وطخارستان الطاعة والولاء له[35] .

ورغم إشارة الروايات الإسلامية إلى عمق التغلغل العباسي في تركستان فإننا نعتقد بأن هناك نوعاً من المبالغة وذلك لأن اقليم خراسان نفسه لم يكن اقليماً مستقراً في هذه الفترة المبكرة من حياة الدولة العباسية حيث كثرت فيه الاضطرابات وتعاقب على ولايته ولاة متعددون، على أن هؤلاء الولاة لم يدخروا وسعاً في الجهاد[36] حينما تحين الفرصة المناسبة .

حملة بحرية على الهند:

أرسل الخليفة المنصور في عهده هشام بن عمر التغلبي[37] والياً على السند وقد جهز هذا حملة بحرية على تارند والقندهار بقيادة عمر بن جميل على أن هذه الحملة والحملات التي وقعت قبلها لم تكن لها نتائج ملموسة فلما جاء المهدي إلى الخلافة أرسل محرز بن ابراهيم إلى البصرة ليشرف على إعداد حملة بحرية جديدة إلى الهند. وكانت البصرة قاعدة الحملات البرية إلى الشرق كما وأنها المنفذ الطبيعي للحملات البحرية إلى جهات جنوب شرقي آسيا .

ولعل الذي دفع المهدي على تنظيم هذه الغزوة اعتقاده بالدور الذي ابتدعه له أبوه المنصور ألا وهو دور (المهدي) الذي سيعيد العدل ويرفع اسم الإسلام وينشره على بقاع جديدة بالجهاد. ويظهر أن المهدي من جهة ثانية أراد أن يشغل مقاتلة البصرة وقبائلها المشهورة بقابلياتها على إثارة القلاقل، أراد أن يشغلهم بالحرب وما تدره من غنائم.

وكان عدد رجال الحملة حوالي 10.000 مقاتل منهم 2000 من البصرة بقيادة غسان بن عبد الله و1,500 من المتطوعة بقيادة المنذر الجارودي وكتيبة سورية بقيادة يزيد بن الحباب المذبحي و4,000 من الآسوارين والسيابجة وهم في الأصل من الهند جنوب شرقي آسيا سكنوا البصرة قبل الفتح الإسلامي. وقد وصلت الحملة سواحل الهند سنة 160هـ وهاجمت مدينة بأريد وبعد حصار فتحت المدينة ولجأ أهلها إلى معابدهم (البد) يستغيثون بأصنامهم ولكن المسلمين أشعلوا النيران في هذه المعابد فقتل عدد من اللاجئين وخرج الآخرون يقاتلون فيقتلون وقد أسر المسلمون بعضاً منهم.

على أن المسلمين لم يستطيعوا العودة مباشرة نظراً لشدة الرياح الموسمية وقد أدى بقاءهم إلى انتشار الأوبئة بينهم فمات من المسلمين بسبب الوباء ألف مقاتل. وما أن هدأ البحر حتى أبحر ما تبقى من المسلمين قاصدين البصرة وحين وصلوا إلى الخليج العربي هبت عليهم رياح شديدة ليلاً فغرق أغلبهم ولم يبق، إلا القليل منهم، الذي وصل البصرة. وهكذا انقلبت هذه الغزوة الموفقة إلى كارثة غير متوقعة[38].

ولعل الظاهرة التي تثير الانتباه هنا هو استخدام الخليفة المهدي لأهل الشام في الحروب ويعتبر هذا تبدلاً جزئياً عن سياسة أسلافه الذين كانوا يشكون بولاء الجند السوري وميوله الأموية ولذلك فقد سرح أبو العباس الجند السوري حين وصوله إلى واسط سنة 132هـ، وأمرهم بالرجوع إلى بلادهم. ولكن المنصور استغله في الجهاد ضد البيزنطيين وزاد المهدي من استخدامه لهم.

الحرب في ارمينيا وبلاد الخزر:

لقد كانت الطبيعة الوعرة لإقليم ارمينيا وضيق الممرات البرية وقلة المؤونة سبباً في ضعف السيطرة الإسلامية عليها. ولذلك كان الولاة يرددون في قبول هذا الاقليم. فيروي الأزدي في تاريخ الموصل[39]، أن الخليفة أبا العباس قلد الموصل رجلاً يقال له: محمد بن صول مولى الخثعم وقلد ارمينية رجلاً من الأزد من آل المهلب فوافيا الموصل جميعاً، فلم يقبل أهل الموصل ولاية ابن صول وقالوا: ما نرضى أن يكون أميرنا مولى الخثعم ومنعوه من الدخول إلى الموصل، وقالوا للمهلبي: نحو مولى الخثعم ومنعوه من الدخول إلى الموصل وقال للمهلبي: نحن نرضى بك والياً علينا واجتذبوه إلى الولاية فأجابهم إلى ذلك وكتبوا إلى أمير المؤمنين يسألوه أن يوليهم المهلبي ويصرف عنهم ابن صول. فكتب أبو العباس إلى ابن صول: أن أقم بمكانك إلى أن يأتيك أمري وكتب إلى المهلبي بن خلف اصحابك وثقلك بالموصل، وانحدر، فانحدر المهلبي وخلف رجاله. وانفذ أبو العباس قائداً من قواده في جماعة إلى المهلبي وثقبوا الزورق وأغرقوه وكاتبه. وكان من أقوى ولاة ارمينيا في عهد أبي العباس أخاه أبو جعفر الذي تولى الجزيرة وارمينيا واذربيجان. فجعل مركزه في الجزيرة وأرسل يزيد بن أسيد السلمي على ارمينيا ويزيد بن حاتم المهلبي على اذربيجان[40]، وكان يزيد المهلبي أول من أسكن قبائل عربية من الأزد وطي وغيرهم من اليمانية في اذربيجان في حصون مختلفة.

كما وأن العباسيين اضطروا من أجل حماية طريق المواصلات بين المركز وارمينيا أن يضعوا حامية عسكرية في سيسر[41].

في ولاية يزيد السلمي الذي استقر في بردعة اضطربت ارمينية فكتب إلى المنصور بذلك فأجابه الخليفة (أن بلاد ارمينية لا تستقيم ولا تصلح إلا بمصاهرة الخزر والرأي عندي أن تصاهر القوم حتى تستقيم البلاد وإلا فإني خايف عليك وعلى جميع عمالك من الخزر فإنهم إذا أرادوا واجتمعوا غلبوا فانظر ولا تخالف أمري واجتهد في مصاهرة الخزر والسلام)[42].

وقد تزوج يزيد بأبنة ملك الخزر (خاقان) وكان صداقها 100 ألف درهم ولكنها ماتت عند يزيد بعد نحو ثلاث سنوات. وبهذا لم تنفع المصاهرة هذه حيث ثار الخزر ولم يكن عند يزيد السلمي أكثر من 7 آلاف مقاتل من الخيالة، فاستنجد بالمنصور الذي اهتم بالأمر كثيراً حيث أكد على وجوب حماية النفوذ الإسلامي هناك والدفاع عن (الثغر الأعظم) وهي الصفة التي أطلقها الخليفة على حدود المسلمين مع الخزر.

وكانت التعزيزات الجديدة التي وصلت إلى يزيد السلمي مكونة من: أكثر من 10,000مقاتل من أهل الشام. أما جند العراق فكان يتكون من 10.000 بقيادة جبريل بن يحيى و5,000 مع حرب بن عبد الله الراوندي و10,000 مع حميد الطائي وسار يزيد بن مزيد الشيباني في 20 ألفاً من أهل الجزيرة والشام. وقد واجه الجيش الإسلامي أعداداً هائلة من الخزر قدر عددهم بنحو 100,00مقاتل وحدثت المعركة في أرض الشروان. وانهزم المسلمون إلى بردعة، حيث قتل عدد كبير منهم كما قتل حرب الراوندي في هذه المعركة التي حدثت في سنة 145هـ/ 762-763م[43].

وكانت إجراءات المنصور فورية حيث أوجد نظام الأجناد ورتب فيه المقاتلة من أهل النجدة من الشام والجزيرة والعراق. ونزلت هذه الفرق في (باب الأبواب) وكمخ وبنيت حصون جديدة واستقرت المقاتلة وأجريت عليها الأرزاق التي كانت بني أمية تجريها من قبل[44].

وفي ولاية الحسن بن قحطبة الطائي على ارمينيا الذي جاء معه 50 ألف مقاتل من أهل خراسان والشام والعراق ثارت (الصنارية)[45]وهم صنف من سكان البلاد الذين لم يسلموا فاستنجد الحسن الطائي بالمنصور الذي أرسل إليه30 ألفاً مع عامر بن اسماعيل الجرجاني الخراساني وعيسى بن موسى الخراساني والفضل بن دينار ومقاتل بن صالح فقاتلوهم وانتصروا عليهم وكان ذلك سنة 148هـ/ 765-766م.

وقد استقر الحسن الطائي في بردعة وعين أولاده الثلاثة قحطبة وابراهيم ومحمد ولاة على مناطق مختلفة من ارمينيا، ولكن السياسة المالية التعسفية التي اتبعها محمد أدت إلى ثورة جديدة في ارمينيا بقيادة (البطريرك موشابذ) وقد وجد

الجيش الإسلامي الجديد الذي قدم من العراق لقمع الثورة أسلحة مدخرة في الكنائس ولعل وجود الأسلحة في الأماكن المقدسة المسيحية كان مبرراً لمقاتلة المسلمين لكي يصادروا ما في الكنائس من أموال وتحف ويقتلوا موشابذ و3 آلاف من اتباعه[47].

وقد استمر المنصور في سياسته الاستيطانية فأرسل مجموعة قبلية جديدة واسكنها في ارمينية وكان هدفه دون شك إحكام السيطرة العربية على هذا الاقليم لضمه إلى إطار الدولة الإسلامية. وكان الخليفة يخشى من مساعدة الامبراطورة البيزنطية للأرمن ولكن ذلك لم يحدث إلا نادراً. بل على العكس فقد ساعد الأرمن الجيش الإسلامي بتعريفه أماكن تحشد الروم ولهذا السبب ينعتهم المؤرخ داينوسيس التلمحري بالخداع وعدم الأمانة والمكر. على أن كره داينوسيس التلمحري لهم قد يكون متأتياً من اختلافه وإياهم في المذهب. والمعروف أن الخزر أنفسهم كونوا جزءاً من الجيش الإسلامي في حربه مع البيزنطيين سنة 151هـ/ 768م. ولم تهدأ ارمينيا في عهد المنصور الذي اهتم بها إلى درجة أنه ولى مولاه واضحاً عليها، وبقي واضح أميراً عليها وعلى اذربيجان حتى وفاة المنصور.

لقد استمرت سياسة الشدة تجاه ارمينيا في عهد الخليفة الهادي[48] حيث استعمل واليه عليها سياسة تعسفية شملت أمراء ارمينيا حيث قتل اثنان منهم بأمر من الخليفة على حد قول المؤرخ شيفرند. على أننا لا نجد أي رواية في مصادرنا الأخرى وخاصة الإسلامية لتؤكد هذا الخبر.

العلاقة بين الدولة العباسية ودولة الفرنجة:

تذكر بعض الروايات غير الإسلامية حدوث تقارب دبلوماسي بين الخلفاء العباسيين وملوك الفرنجة الميروفنجيين- وقد فسر بعض المؤرخين المحدثين هذا التقارب وبينوا أن له أهدافاً سياسية ملخصها أن الدولة العباسية أرادت أن تتعاون مع الفرنجة ضد العدو المشترك في الغرب ألا وهو الدولة الأموية في الأندلس في الوقت الذي تتعاون الدولتان ضد عدوهم المشترك في الشرق كذلك ألا وهو الامبراطورية البيزنطية.

على أننا لم نجد في مصادرنا العربية أي ذكر لعلاقة سياسية- عسكرية بين المنصور وبين القصير ولا بين المهدي وشارك مارتل، ولا بين الرشيد وشارلمان[49] وربما كانت هناك علاقات يمكن تسميتها بالودية لعب فيها بعض التجار دوراً رئيساً بنقل الهدايا من هذه الدولة إلى تلك وبالعكس. وحتى يتم اكتشاف مصادر جديدة موثوق بها تاريخياً تحتوي معلومات جديدة عن ماهية تلك الصلات الدبلوماسية فإننا نقول بأن ما ذكر عن هذه الصلات هو محض خيال.

محاولة استعادة الأندلس إلى السيطرة العباسية:

لقد استفحل الصراع القبلي بين المضرية واليمانية في افريقيا في أواخر عهد الأمويين وأثر ذلك في الأندلس أيضاً، وحين جاء العباسيون إلى الحكم كان يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب الفهري والياً على الأندلس. أما والي افريقيا فكان أبوه عبد الرحمن الفهري[50].

وحيث تشدد العباسيون في أوائل عهدهم بطلب الأمويين وقتلوا منهم بضعة عشرات في مجزرة نهر أبي فطرس أفلت عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك من السلطة العباسية من مولاه بدراً وعبر إلى مصر فبرقة وحينما وصل إلى افريقيا وسمع به عبد الرحمن الفهري طلبه ليتقرب به إلى العباسيين وليحسن علاقته معهم. على أن عبد الرحمن الأموي هرب إلى قبيلة زناتة البربرية، ثم نقل منها إلى أخواله في نفزاوه حيث آووه. وفي سنة 138هـ/ 755-759م استطاع عبد الرحمن الأموي أن يعبر إلى الأندلس بمساعدة اليمانية وابتدأ نفوذه السياسي يقوى تدريجياً حتى انتهى بتشكيل الدولة الأموية في الأندلس إلا أنه ظل يعترف بالخلافة العباسية في بغداد ولم يجرأ بادئ ذي بدأ أن يدعي الخلافة.

وكانت سلطة عبد الرحمن الأموي الجديدة مصدر قلق العباسيين لسببين: -

الأول: يعتبر الأمير عبد الرحمن ثائراً على الدولة في أحد أقاليمها النائية.

الثاني: لقد كان هذا الأمير أموياً وهذه الصفة تضاعف من خطره باعتباره مثلاً للدولة الأموية الزائلة ورمزاً للعناصر الموالية لتلك الدولة التي لم تكن قد فقدت الأمل

بعد من إمكانية إعادة مجدها الغابر. ومما يؤكد ذلك رواج أحاديث وملاحم في بلاد الشام تتنبأ بأن خلاص بلاد الشام من العباسيين سيكون على أيدي الأمويين الذين سيبحرون من الأندلس وبيدهم الأعلام الصفر[51].

وكان لا بد للمنصور العباسي أن يقضي على عبد الرحمن الأموي الذي لقب (بصقر قريش) من قبل المنصور نفسه لأنه على حد قوله (عبر البحر وقطع القفر ودخل بلداً أعجمياً مفرداً فمصر الأمصار جند الأجناد ودون الدواوين وأقام ملكاً بعد انقطاعه، بحسن تدبيره وشدة شكيمته)[52].

أمر الخليفة العلاء بن مغيث اليحصبي سنة146هـ-763م لشن هجوم على الأندلس. وقد عبر اليحصبي بالسفن واحتل باجة. فوجد بعض الموالين هناك ورفع الرايات السود شعار العباسيين ولكن الأمير عبد الرحمن الأموي دحر جيش العلاء اليحصبي في (معركة أشبيلية) وأرسل الكثير من رؤوس القتلى من جند العباسيين إلى القيروان وإلى مكة حيث كان الخليفة يحج في تلك السنة. وهكذا فشلت المحاولة الأولى لاستعادة الأندلس[53].

أما المحاولة الثانية[54] فكانت في سنة 161هـ/ 777م-878م في عهد الخليفة المهدي حيث هجم عبد الرحمن بن حبيب الفهري الصقلبي (الذي لقب بذلك نظراً لطوله وشقرته وزرقة عينيه) مع جيشه البربري على الأندلس ونزل في تدمير. وعند ذلك اتصل بسليمان بن يقظان الأعرابي والي برشلونة ولكن الأعرابي رفض بعد تردد مساعدة عبد الرحمن الصقلبي مما أدى إلى اشتباك الاثنين بمعركة انتهت بانتصار سليمان الأعرابي وانسحاب الصقلبي إلى الساحل الجنوبي وهناك تحرك الأمير عبد الرحمن الأموي نحو جيش الصقلبي المنهك الذي تحصن في فالنسيا وأثناء الحصار استطاع أحد البرابرة واسمه (مسكار) من قتل الصقلبي بعد أن كسب ثقته بمقابل 1000 دينار يقبضها من عبد الرحمن الأموي.

وفي سنة 163هـ/ 779-780م خطط عبد الرحمن الأموي للانتقام من العباسيين وبينما كان يعد العدة لغزو بحري لبلاد الشام معقل الأمويين حيث ينتشر

(الرتل الخامس) الموالي لعبد الرحمن الأموي حدثت ثورة في برشلونة وسركوزة بقيادة سليمان الأنصاري منعته من تنفيذ مشروعه.

ولم ينته النزاع بين عبد الرحمن والمهدي عند هذا الحد بل تعداه إلى تبادل الرسائل يتهم كل منهما الآخر ويبرر موقفه. ولقد استعان المهدي بهشام الكلبي المؤرخ والنسابة والذي كتب رسالة باسم المهدي مشيراً إلى مساوئ الأمويين وأعمالهم القبيحة. وعلى هذا فنحن لا نتفق مع البروفسور المستشرق موسكاتي حيث يعزو حملة 163هـ إلى قرار اتخذه الصقلبي دون مشورة المهدي. ذلك لأن النزاع بين الفهري وعبد الرحمن الأموي له جذور تعود إلى زمن مجيء عبد الرحمن الأموي إلى افريقيا والتجائه إلى أخواله هناك.

وهكذا لم يفلح العباسيون الأوائل في استعادة الأندلس بل إن قبضتهم على افريقيا بدأت تضعف تدريجياً حينما سيطر الأغالبة على تونس في عهد الرشيد بموافقته.

العلاقات الحربية في عهد هارون الرشيد

لقد كان «الروم» أو البيزنطيون العدو الذي استطاعت الدولة العربية الإسلامية إزاحته من الشام ومصر، وتعقبه إلى الأناضول برا وبحراً في صواف وشوات سنوية مستمرة.

والمعلوم أن الحجاز والشام ارتبطتا بروابط جغرافية وبشرية وتجارية قبل الإسلام، ولذلك فقد كان اتجاه العرب المسلمين بعد تأسيس دولتهم في الحجاز إلى تحرير الشام من سيطرة البيزنطيين، ونجحوا في ذلك سنة 638م، حث زار الخليفة عمر بن الخطاب مدينة القدس التي اشترط سكانها أن يسلموا مفاتيحها للخليفة بالذات. ويشير المؤرخ ثيوفانيس إلى أن رجال الكنيسة لم يكونوا مرتاحين لتغير السلطة السياسية من بيزنطية إلى عربية[56]. كما وأن السلطة البيزنطية لم تكن لتستكين لهذا الاندحار الذي سلبها اقليماً من أغنى أقاليمها، ولذلك استمرت المعارك دون أن تؤثر في تغيير الوضع السياسي.

لقد حلت الدولة الإسلامية محل الساسانيين في الحرب طويلة الأمد بين الشرق والغرب. وأصبحت الدولة البيزنطية «دار الحرب» بالنسبة للمسلمين المجاهدين. ولكن جبال الأناضول الوعرة ووديانها العميقة وقفت حجر عثرة في سبيل تقدم الجيوش العربية الإسلامية، على أن الحرب استمرت سجالاً بين الطرفين تشتد مرة وتخف أخرى في صدر الإسلام والدولة الأموية. وقد حوصرت القسطنطينية أثناء ذلك ثلاث مرات (668-670) و(674-680) و(715-717م)[57].

وقد منعت الاضطرابات الداخلية في أوائل العصر العباسي الخلفاء العباسيين من «الجهاد» ضد الروم، ولكن الدولة حاولت جاهدة أن تبقى روح الجهاد ومظاهره مستمرة، وذلك لسببين:

الأول- أن الجهاد من واجبات الخليفة الدينية الرئيسة، حيث كان عليه أن يعمل لنشر الإسلام في أقاليم جديدة من (دار الكفر) وتوسيع (دار الإسلام).

الثاني- لقد استعملت بلاد الروم ملجئاً لأعداء الدولة والثوار.

أشرنا سابقاً إلى أن أهم ما يميز الحرب الإسلامية- البيزنطية في العصر العباسي هو اقتصارها على اشتباكات تتخللها هجمات تتفاوت في العمق داخل حدود الدولة المعادية. ولعل هذا الاختلاف في المجهود الحربي تجاه البيزنطيين يعود إلى أن وجهة الدولة العباسية وجهة شرقية لا غربية، رغم أن سياسة الاتجاه نحو الاقاليم الشرقية والاهتمام بها كانت سياسة أموية بداها هشام بن عبد الملك، ولم تكن بدعة عباسية جديدة. ومهما يكن من أمر فقد أهتم الخليفة أبو جعفر المنصور بمنطقة الحدود مع البيزنطيين، وكان جل عمله دفاعياً لا هجومياً، فقد أعاد تحصين المنطقة التي دمرها قسطنطين الخامس وبنى بها حصوناً جديدة. وتعطينا مصادرنا التاريخية معلومات جيدة عن الجهود التي بذلها المنصور وعن الإمكانات البشرية والمالية التي انفقها من أجل أن يضع أساساً جديداً لاقليم الثغور. واستعمل المنصور وسائل إغراء كثيرة لحث الجند والناس على العمل في الثغور، منها: زيادة العطاء لكل مقاتل عشرة دنانير إضافية وتخصيص معونة قدرها 100 دينار لكل واحد منهم وبناء بيوت خاصة لإقامتهم مع عوائلهم.

وإذا كان عهد المنصور مرحلة استكمال الدفاع والتحصينات، فإن عهد ابنه المهدي شهد تصاعد العمليات الحربية، فقد استتم (المهدي) ما كان بقي من المدن والحصون وزاد في شحنها» ثم أخذ زمام المبادرة في عدة حملات هجومية كان أهمها حملة 779م و782م. وكان الانتصار الذي تحقق سنة 782م كبيراً، حيث حاصر الأمير هارون بن المهدي القسطنطينية بعد أن قاد جيشه عبر الأناضول، وحصل على جزية كبيرة، وعاد إلى بغداد حيث استقبل بمظاهر العظمة والتهليل ومنحه أبوه لقب «الرشيد». إلا أن هذه الحملة كانت آخر حملة وصلت إلى أسوار القسطنطينية التي ظلت لقرون عديدة في مأمن من هجوم إسلامي جديد.

وقد عني الخليفة هارون الرشيد (786-808م) عناية كبيرة بتنظيم منطقة الحدود بينه وبين البيزنطيين. فقد عزل الثغور عن الجزيرة وقنسرين وجعلها منطقة واحدة سماها «العواصم»[58]. وقد نظمت الدولة خطين للدفاع على الحدود البيزنطية. الأول هو «الثغور» وإلى جنوبها الخط الثاني «العواصم» التي سميت بهذا الاسم لأن المسلمين يعتصمون بها من الثغور فتعصمهم.

وكانت منطقة الثغور التي اهتم بها الرشيد تنقسم إلى ثلاث مناطق[59]:

المنطقة الشرقية: وتشمل حصون قاليقلا وكمخ وقلودية.

المنطقة الوسطى: وتشمل حصون الحدث وزبطرة وملطية.

المنطقة الغربية: وتشمل حصون المصيصة وطرسوس وأدنة.

أما الخط الفاصل بين الثغور والعواصم فقد حدده ابن الفقيه بأنه خط منبج من جهة، إلى انطاكية من جهة أخرى، فما كان إلى شمال الخط فهو من الثغور، وما كان إلى جنوب الخط فهو من العواصم، ويمر هذا الخط بحصون الجومة وقورس وتيزين، وكان مركز العواصم منبج.

وزاد الرشيد في تحصين الجبهة ببناء حصون جديدة وترميم الحصون القديمة، فقد بنى كفربيا بجوار المصيصة، وعمر طرسوس وشحنها بأكثر من6000 مقاتل، وبنى حصن عين زربي وشحنها بالرجال، كما زاد في بناء الهارونية، وأعاد بناء حصن الكنيسة السوداء، وعمر مدينة الحدث، وبنى حصن زبطرة[60].

واهتم الرشيد بإرسال الحملات كل سنة للجهاد ضد البيزنطيين، وكان يقود الحملات بنفسه كما في سنة 170هـ/ وسنة 181هـ/ 797م ، أو يرسل قادة من البيت العباسي لقيادة الحملات. وليدلل على أهمية هذه الحملات، ولإظهار سطوة الدولة العباسية عين الرشيد سنة 186هـ/ 802م ابنه القاسم بولاية العهد بعد أخويه الأمين والمأمون وسماه المؤتمن، وولاه الجزيرة والثغور والعواصم، وأشخصه إلى منبج فأنزله إياه. ولعل أهم حملة قادها الرشيد بنفسه كانت سنة 804م حين نقض نقفور امبراطور الروم والصلح مع العباسيين، وكتب إلى الرشيد:

«من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب. . أما بعد، فإن الملكة التي كانت قبلي (يقصد ايريني) أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق. فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليها، لكن ذاك ضعف النساء وحمقهن. فإذا قرأت كتابي فأردد ما حصل قبلك من أموالها. وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك».

ولما قرأ الرشيد الكتاب استنفره الغضب، وكتب على ظهر الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم. . . من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه دون أن تسمعه»[61].

ولم يكن نقفور مهيئاً للقتال لنشوب ثورة مفاجئة داخلية، فهاجم الرشيد هرقلة، ثم تقدمت جيوشه حتى وصلت إلى أبواب أنقرة فاتحة أمامها حصون الصفصاف ودبسه. فعرض الامبراطور دفع الجزية ووافق الرشيد على ذلك. ولكن البيزنطيين عادوا فأغاروا على عين زربة والكنيسة السوداء سنة 806م، فأجابهم الرشيد واستولى على عدد من القلاع المهمة مثل هرقلة وطوانة شمالي لؤلؤة، ورضخ نقفور لطلب الرشيد بأن يدفع 300 ألف دينار ويعمر بعض القلاع التي هدمت. واتخذ الرشيد قلنسوة مكتب عليها «غاز حاجش وتعتبر هذه الحملة أقصى ما وصلت إليه الجيوش العباسية في أرض الروم[62]. على أن كل هذه المعارك لم تكن تستهدف توسيع رقعة الدولة العباسية الإسلامية أو إقامة إدارة دائمة في الأناضول، بل سرعان ما كان الجيش العباسي يعود إلى قواعده في مناطق الثغور والعواصم.

وفي مجال النشاط الحربي البحري فإن التاريخ يسجل للعباسيين عنايتهم بتحصين الموانئ الشامية؛ إلا أنهم نظروا إليها كقواعد دفاعية لا هجومية، وكحدود لدولتهم ينبغي حمايتها والدفاع عنها.

ورغم استمرار حالة الحرب على الحدود الإسلامية- البيزنطية، إلا أن الأيام «المجيدة» للفتوحات كانت قد ذهبت، وهذا ما دعا الناقد الاجتماعي الجاحظ إلى تصوير المقاتلة وكأنهم قد انقلبوا إلى قصاصين وشحاذين يروون للناس أخبارهم ويعيشون على ذكريات الماضي المجيد[63].

العلاقات الدبلوماسية في عهد هارون الرشيد:

لم تكن العلاقات بين الشرق والغرب مقصورة على العداء والحرب، بل شملت صلات ودية مع الامبراطوريتين البيزنطية والفرنجة (الكارلونجية).

لقد كانت تتخلل الحروب بين المسلمين والبيزنطيين فترات سلمية يتبادل فيها الطرفان الأسرى والوفود. كما ساعد امبراطور الروم (البيزنطيين) الأمويين في عملية إعادة بناء بعض المساجد في الحجاز والشام. وكانت التجارة نشطة بين الدولتين برا وبحراً. وتشير رواية إلى أن عبد الملك بن مروان استعان بخبرة البيزنطيين في مشروعه لتعريب السكة (النقود)[64]. كما استقبل المنصور سفيراً بيزنطياً بعد انتقاله إلى بغداد عاصمة العباسيين الجديدة، الذي أشار على الخليفة، ما تقول الرواية، بألا يبني السوق داخل سور المدينة حفظاً للأمن من الشغب والتجسس[65].

وإذا كانت روايتنا عن العلاقات الإسلامية- البيزنطية الحربية والسلمية واضحة وصريحة، لأنها في الغالب تتصل بالجهاد، فإن الطابع الاسطوري الغامض يغلب على الروايات القليلة الغامضة المتعلقة بالعلاقات الإسلامية- الفرنجة (الكارولنجية) تلك العلاقات التي تلتزم المصادر العربية بشأنها جانب الصمت، ولا تذكرها إلا ثلاثة مصادر لاتينية، هي (الأخبار الملكية الفرنجيه) و(سيرة الامبراطور) وشارك الكبير (شارلمان) لاينهارد، وما كتبه الراهب سنت كول St. Goll.[66]

إن العلاقات الإسلامية- الفرنجية (الكارونجية) هي في الواقع ذات طبيعة معقدة. وسيجد القارئ أن المؤرخين اختلفوا ليس فقط بشأن طبيعة هذه العلاقات وأهدافها بل على حقيقة وقوعها. تشير بعض الروايات اللاتينية المضطربة إلى أن شارلمان امبراطور الامبراطورية الكارولنجية بدأ بخطب ود الخليفة هارون الرشيد، فأرسل له وفداً رسمياً سنة 797م، ثم أرسل رسولاً إلى بطريق القدس سنة 799م، وقد رد الرشيد بإسال وفد سنة 801م، وأعقبه شارلمان بإرسال وفد ثان سنة 802م، فرد عليه الرشيد بوفد سنة 807م.

كانت الوفود تحمل الهدايا المختلفة إلى كل من العاهلين. كما أرسل شارلمان هبات إلى الأماكن المسيحية المقدسة في فلسطين، مما دعا بطريق القدس إلى إرسال وفد سنة 800م يحمل مفاتيح كنيسة القيامة ومدينة القدس ورايتها إلى شارلمان. وقد حمل بعض الباحثين الأوروبيين هذه الروايات المفعمة بالخيال والغامضة في مصادرها الأصلية أكثر مما يجب، فابتدعوا أسطورة تاريخية جديدة فحواها أن شارلمان أصبح حامياً للأراضي المقدسة في فلسطين وأميراً على القدس، بموافقة الخليفة، مقابل أن يحاول شارلمان الاستيلاء على الاندلس باسم العباسيين، ويقف ضد البيزنطيين، ليحول دون تهديدهم البري والبحري للدولة العباسية.

لقد كان دي ريان[67] أول من أيد هذه الفرضية بدراسة مسهبة مبنية على المصادر اللاتينية، ولكن المؤرخ الروسي الشهير تارتولد[68] عارضها بمقالة سنة 1912، وقد أنكر بارتولد أن يكون شارلمان قد فاوض الرشيد، وأن هذا الأخير لم يعطه حق في الحماية على فلسطين، واستند بارتولد في رأيه هذا على سكوت المصادر العربية والمسيحية الأخرى، عدا المصادر الثلاثة اللاتينية. ويرى بارتولد أن ما يسمى «بالوفود» لم يكن أكثر من تجار يهود لا سفراء رسميين. وقد رد فاسيلييف[69] على مقالة بارتولد بمقالة سنة 1914 أكد فيها أن شارلمان أصبح حامياً لمسيحيي فلسطين، وصار له حق إنشاء كنائس وخانات للحجاج الأوروبيين على طول الطريق إلى الأراضي المقدسة. وأيده بربيه[70] مشيراً إلى أن إرسال مفاتيح الكنيسة المقدسة (القيامة) والراية، معناه إعطاء شارلمان حق الحماية بإذن الرشيد.

وقد تصدى كلينكلوز[71] سنة 1929 وجوارنسون[72] سنة 1926 لفرضيات برييه، ورد الأخير على أقوال ناقديه سنة 1928 [73]

ثم جاء بكلر فكتب مقالة سنة 1931 بصدد الموضوع، فأضاف عنصراً خيالياً تصورياً للمناقشة الحادة، مدعياً أن الدبلوماسية العباسية هدفت من وراء إعطاء شارلمان امتيازات سياسية في فلسطين وتعيينه أميراً عليها، أن تستخدمه مقابل ذلك في الهجوم على الأندلس وإعادتها إلى حظيرة الدولة العربية الإسلامية!!. ولا شك أن هذه الافتراضات لا تقف أمام النقد الموضوعي ولا تنسجم مع سياسة هارون الرشيد وروح العصر الذي عاش فيه.

وأخيراً اشترك رنسيمان[73]في المشادة، فدحض «أسطورة الحماية» مؤكداً أنها من اختراعات الراهب سنت كول المستندة إلى روايات اينهارد الغامضة.

أما المؤرخون العرب فقد أيد بعضهم فرضية الحماية، حيث ناقشها جميل نخلة المدور، إلا أن كتابه مفعم بالخيال، وهو أقرب إلى الرواية القصصية منها إلى التاريخ المحقق فهو لا يذكر مصادره أو يحمل نصوصه أكثر من طاقتها، بل إنه خلط بين الوفود الرسمية ووفود بطريرك القدس[74]. أما الدكتور مجيد خدوري فقد ناقشها مناقشة موضوعية مسهبة معتمدة على المصادر، فكانت دراسته أحسن دراسة علمية حديثة للموضوع وهو يرى:

«بأن المصادر اللاتينية المعاصرة بالغت كثيراً في خطورة هذه الصلات وفي شأنها السياسي، فنسجت بشأن البعثات الدبلوماطيقية ما شاءت لها مخيلات مؤلفيها أن ينسجه من الآراء تعظيماً لمركز الامبراطور شارلمان في الغرب»[75].

صحيح أن المصلحة السياسية كانت تدعو الدولتين العباسية والكارلونجية (الفرنجية) إلى التقارب لأن عدوهما المشترك كان واحداً، ألا وهو البيزنطيون والأمويون في الأندلس فكانت الدولة العباسية في نزاع حربي مستمر مع البيزنطيين، بينما كانت الدولة الكارلونجية في حروب مستمرة مع العرب الأمويين في الأندلس[76] من جهة، ومن جهة أخرى كان العباسيون يعتبرون الأمويين متمردين، وقاموا بعدة

محاولات لاستعادة الأندلس. وكان النزاع على أشده بين البيزنطيين والكارلونجيين حيث كاد كل منهما يعتبر نفسه الوريث للمجد السياسي للامبراطورية الرومانية القديمة. وزادت البابوية في توتر الصلات بين الطرفين، فقد ناصر البابا الكارولنجيين وعارض بشدة سياسة البيزنطيين الدينية (الايقونية) وهي عبادة الصور المقدسة للمسيح والعذراء والقديسين، وقدم الدعم المعنوي للأباطرة الفرنج الكارولنجيين، وساند طموحهم السياسي للسيادة على أوروبا.

ويبدو أن هناك سفارات متبادلة بين البيزنطيين والأمويين في الأندلس، بسبب عداء الدولتين للفرنك والعباسيين، إلا أن هذه العلاقات الدبلوماسية جاءت متأخرة قليلاً عن الفترة موضوعة البحث في هذا الكتاب، حيث وقعت في بداية القرن التاسع الميلادي[76].

إن كل هذه المصالح المشتركة بين الأطراف المعنية كان من الممكن أن تؤدي إلى صلات سياسية وعسكرية قوية، إلا أن مصادرنا لا تذكر عنها إلا القليل الغامض. ورغم أن الدولة العباسية تركت السياسة الهجومية إلا أنها كانت تمثل الجانب الأقوى في النزاع مع البيزنطيين طوال العصر العباسي الأول. ثم إن الرشيد عرف بسياسته الدينية المتشددة، تلك السياسة التي لا تسمح له بأن يعطي شارلمان حقاً أو امتيازاً في الأراضي المقدسة بفلسطين، أو يسمح لبطارقة الكنيسة بالاتصال بعاهل اجنبي. وكانت الدولة العباسية في عهد الرشيد تمر بمرحلة التفكك الإداري وانفصال الولايات وقد حاول الرشيد كإجراء إصلاحي أن يقسم الدولة بين أبنائه الثلاثة. فقد انفصلت المغرب وتونس عن جسم الدولة رغم اعترافها بسلطة الخليفة. فكيف يفكر الرشيد باستعادة الأندلس وقد فقد شمالي افريقيا؟.

وأخيراً وليس آخراً، فقد كانت الأراضي المقدسة في فلسطين وخاصة مدينة القدس ذات أهمية دينية وسياسية في وقت واحد، حتى أن بعض الخلفاء الأمويين كانوا يختارون إعلان بيعتهم فيها. كما بنى عبد الملك بن مروان فيها قبة الصخرة والمسجد الأقصى. واهتم بها الخلفاء العباسيون والأوائل حيث زاروها وأصلحوا مساجدها. فكيف يحق للرشيد بعد ذلك أن يعطي امبراطور الفرنج امتيازات مهمة في فلسطين؟.

وبسبب سكوت مصادرنا العربية عن ذكر أية علاقة سياسية- عسكرية بين العباسيين والفرنج ، فلا يسعنا إلا القول بأنه إذا كانت هناك علاقات بين الطرفين ، فلا بد أن تكون ودية ، لعب فيها التجار -بعضهم من اليهود- دوراً رئيسياً بنقل الهدايا والرسائل. وحتى يتم اكتشاف مصادر جديدة موثوق بها تاريخياً تحتوي معلومات جديدة عن ماهية تلك الصلات الدبلوماسية ، فإننا نؤيد وجهة نظر بارتولد ونقول بأن ما ذكر عن هذه الصلات هو محض خيال[77] .

أما الرشيد فقد فكر بأن يجعل من إمارة الأغالبة[78] دويلة حاجزة بينه وبين الأمويين في الأندلس ولكن الرشيد أخطأ في سياسته هذه لأنه عالج الانفصال بخلق انفصال جديد عن جسم الخلافة فزاد من عوامل التفكك ، وكان المفروض أن ينهج سياسة تزيد من قوة عوامل التماسك .

الخلفاء المعتزلة والبيزنطيون:

استمر المأمون على سياسة الرشيد في شحن الجند والميرة على الحدود البيزنطية ، وربما كان هذا الخليفة يعد العدة لخطة هجومية تصل القسطنطينية أو على أقل تقدير تبعد البيزنطيين وتدفعهم وراء هضبة الأناضول ، فيتخلص الخليفة من إثارتهم للاضطرابات في ارمينيا واذربيجان والحدود الشمالية . وقد حاول المأمون أن يستغل الحركات والاضطرابات الداخلية في دولة الروم ، فساعد توماس الصقلبي في حركته سنة 821-823م ، وأمده بالمساعدات المتنوعة ، وقد حاول الامبراطور البيزنطي أن يساعد بابك الخرمي الذي تمرد في اذربيجان وارمينيا سنة 201هـ/ 816م ، فأمدهم بالعون ، وجعل من بلاد الروم ملجأ للخرمية من اتباع بابك .

واستغل الروم انشغال السلطة العباسية باضطرابات مصر 215هـ فهاجموا طرسوس والمصيصة وقتلوا عديداً من المسلمين ، فقاد المأمون صائغة ضدهم وتوغل في أرضهم ، فاحتل هرقلة القريبة من عمورية ، وافتتح العديد من المطامير (وهي حصون عسكرية صغيرة) مما دعا الامبراطور إلى طلب الهدنة بشروط هي[79] :

1-هدنة لمدة خمس سنين.

2-الانسحاب من الحصون الرومية التي احتلها العباسيون.

3-أن يدفع الروم 100 ألف دينار.

4- أن يعيد الروم جميع الأسرى المسلمين ويبلغ عددهم سبعة آلاف أسير.

ولكن المأمون رفض الشروط واستمر في القتال في السنة التالية سنة 217هـ فاحتل حصن لؤلؤة وبنى مركزاً عسكرياً جديداً (الطونة).

فكتب إليه الامبراطور رسالة جاء فيها:

«أما بعد، فإن اجتماع المختلفين على حظهما أولى بهما في الرأي مما بالضرر عليهما. ولست حرياً أن تضع لحظ يصل إلى غيرك حظا إلى نفسك وفي علمك كاف عن أخبارك. وقد كنت كتبت إليك داعياً المسالمة راغباً في فضيلة المهادنة لتضع الحرب أوزارها عنا، ولنكون واحداً لكل واحد ولياً وحزباً مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر واطلاق المستأسر وأمن الطرق والبيضة.

فإن أبيت فلا أدب لك في الخبر ولا أزخرف لك في القول فإني لخائض غمارها أخذ عليك أسدادها... وأن أفعل فبعد أن قدمت المعذرة وبيني وبينك علم الحجة والسلام».

ولكن المأمون عدّ ذلك تهديداً ورد على الامبراطور ثيوفيلس قائلاً:

«أما بعد، فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوت إليه من الموادعة... غير أني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة، الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدانية والشريعة الحنيفية، فإن أبيت فإنك توجب ذمة وتثبت نظرة. وإن تركت ذلك ففي يقين المعاينة ليفوتنا ما يغني عن الإبلاغ في القول والإغراق في الصفة والسلام على من اتبع الهدى»[(80)].

وفي سنة 218هـ تجهز المأمون لخطة تهدف إلى احتلال عمورية باعتبارها مهمة

في الطريق إلى القسطنطينية. ولكن الخليفة توفي قرب طرسوس لم ينسى أن يوصي أخاه المعتصم بالاهتمام بالثغور والعواصم الشمالية وعدم ترك الجهاد ضد الروم. وذكره إلى أن الخرمية حلفاء الروم يجب القضاء عليهم بكل ما تملك الدولة من إمكانيات(٨١).

فتح عمورية:

وكان المعتصم رجل حرب وقائداً عسكرياً من الطراز الأول، ولذلك كان من الطبيعي أن يشهد عهده زخماً جديداً في الحرب العباسية- البيزنطية. فقد شدد البيزنطيون من هجماتهم بالتعاون مع بابك الخرمي على العواصم والثغور العباسية. وكانت قمة نشاطهم في هذا الاتجاه هو احتلاله زبطرة. فقد كتب بابك الخرمي للامبراطور تيوفيل يعلمه: «إن ملك العرب قد وجه كل عساكره ومقاتلته إليه (بابك)... فإن أردت الخروج فاعلم أن ليس في وجهك أحد يمنعك»[82].

وقد استجاب الامبراطور لهذا النداء فزحف نحو الجنوب، واحتل زبطرة بمساعدة المحمرة الخرمية الذين «خرجوا بالجبال فلحقوا بالروم حين قاتلهم اسحق بن ابراهيم، جماعة رئيسهم بارسيس». وكان ملك الروم قد جعلهم مقاتلة يستعين بهم في قتال المسلمين. وقد أباد الروم المئات من سكان زبطرة، فكانت مذبحة رهيبة[83] ثم تقدم نحو سمياط وأحرقها.

ولم يكن المعتصم بالخليفة المتقاعس في مواجهة حالة كهذه ولكن المشاكل الداخلية والاضطرابات ربما كانت عقبة في سبيل الإعداد والاستعداد، مما فسح المجال أمام الروم لهذه الأعمال. فأعلن المعتصم الجهاد حيث يقول المسعودي: «ونودي في الأمصار بالنفير... فسارت إليه العساكر والمطوعة»[84] ويشير الطبري إلى أن الخليفة «تجهز جهازاً لم يتجهز مثله خليفة قط من السلاح والعدد والآلات وحياظ الادم والروايا والقرب والبغال والدروع.. وآلة النار والنفط»[85]. وكان جيشه كثيفاً جعل على مقدمته اشناس ويتلوه محمد بن ابراهيم، وعلى ميمنته ايتاخ، وعلى ميسرته جعفر بن دينار، وعلى القلب عجيف بن عنبسة».

والظاهر أنه أراد أن يتمم خطة المأمون في فتح عمورية، فقد سأل: «أي بلاد الروم أمنع وأحصن؟ فقيل: عمورية لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الإسلام، وهي عين النصرانية، وهي أشرف عندهم من القسطنطينية». ولذلك سار يقصد عمورية سنة 223هـ/ 838م. وكان أول اشتباك بين جيش الروم بقيادة الامبراطور والجيش العباسي بقيادة الافشين سجالاً بين الطرفين، انتهى بانسحاب الروم وتركيز قواتهم باتجاه عمورية تحت قيادة ياطس ذلك لأن تيوفيل عاد مسرعاً إلى القسطنطينية لحدوث اضطرابات عسكرية فيها.

وبعد أن استطاعت الجيوش العباسية احتلال انقرة تحركت نحو عمورية، وهي أهم مدينة في الأناضول، فحاصرتها حصاراً شديداً حتى استطاعوا النفوذ من ثغرة ضعيفة في السور، وفتحت عمورية حرباً ووصلت أخبار الفتح إلى الآفاق شرقاً وغرباً.

وكان رد فعل المسلمين على مذابح (زبطرة) عنيفاً، فقتلوا وسبوا، ويقول صاحب العيون والحدائق[86]. إنه كان ينادي على الرقيق خمسة خمسة، وعشرة عشرة، وعلى المتاع جملة وحدة ويظهر أن المعتصم كان ينوي «السير إلى القسطنطينية والنزول على خليجها والحيلة في فتحها براً وبحراً»[87] ولذلك كان موقف الامبراطور تيوفيل حرجاً جداً، فقد راسل المعتصم معتذراً على مذابح زبطرة دون جدوى كما طلب النجدة من أوروبا الغربية.

وتشير بعض المصادر إلى حدوث تقارب بين البيزنطيين ودولة الأمويين في الاندلس بعد موقعة عمورية في 2 آب 838م. فعلى أثر هذه النكبة أرسل تيوفيل سفارة إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط يطلب فيها إنشاء صلات قوية بين الطرفين، وأن يعمل الأمير الأموي على استرجاع الأمر من العباسيين، كما طلب الامبراطور البيزنطي استرجاع جزيرة اقريطش التي احتلها الربضيون في عهد ميشيل الثاني بعد خروجهم من الاسكندرية سنة 212هـ. وكان هؤلاء الربضيون قد خرجوا من الأندلس بعد حركة فاشلة ضد السلطة ونزلوا الاسكندرية، ولكن العباسيين طلبوا منهم الخروج عنها، وكان عددهم ثلاث آلاف، فخرجوا إلى اقريطش في عهد

المأمون. وقد أرسل عبد الرحمن الأول سفارة إلى ميشيل الثاني ورسالة رد فيها على رسالة الامبراطور. ويبدو أن الرد كان دبلوماسياً لم يلزم فيه عبد الرحمن نفسه بأية مساعدة.

ويبدو أن الصلات توثقت أكثر في عصر الخلافة الأموية بقرطبة وزاد تبادل الهدايا والتحف.

ومهما يكن من أمر فإن المعتصم نفسه لم يواصل الحرب بسبب شكه في مؤامرة عسكرية استهدفت قتله، دبرها القائد عجيف بن عنبسة بالاتفاق مع العباس بن المأمون بسبب امتعاض القائد العربي عجيف من تسلط القادة الترك وسوء تصرفهم. على أن المؤامرة فشلت[88].

ورغم أن المناوشات استمرت سجالاً بين الطرفين إلا أنها لم تحقق شيئاً يذكر، وحدث تبادل في الأسرى في عهد المعتصم. على أن أكبر عملية تبادل بالأسرى حدثت سنة 231هـ/ 846م على عهد الواثق حيث اتفق الطرفان على الفداء على ضفاف نهر اللامس قرب طرسوس، وحضر الفداء خاقان الخادم وأمير الثغور أحمد بن سعيد الباهلي. وقد افتدى من المسلمين نحو خمسة آلاف أسير. وتشير بعض الروايات إلى أن الواثق أمر بأن يمتحن الأسرى من المسلمين حول طبيعة القرآن وطبيعة الله، فمن وافق المعتزلة في الرأي فودي به ومن رفض ترك دون فداء!!.

المتوكل والبيزنطيون[89]:

شهد عصر المتوكل هجوماً بيزنطياً قوياً على السواحل المصرية سنة 238هـ فنهبوا وأحرقوا وسبوا من النساء 600 امرأة، ثم عادوا بسفنهم دون أن يجابهوا بمقاومة لأن دمياط كانت خالية من الجند الذين ذهبوا إلى الفسطاط لحضور احتفال خاص! واستمر الغزو سجالاً بين الروم والمسلمين، لا يتعدى الهجوم على العواصم والثغور ثم الأسرى والنهب ثم الانسحاب نحو الداخل. وحصل الفداء مرتين: الأولى سنة 241هـ والثانية سنة 246هـ.

نلاحظ من سير العمليات العسكرية على الحدود الشمالية أن الحرب كانت سجالاً وكانت مناوشات حدودية، في ما عدا حرب عمورية التي كانت ضربة قوية وجهها المعتصم للبيزنطيين، واعتبرها البيزنطيون نكبة كبيرة.

إن هذه المناوشات لم تثمر عن تغيير كبير في وضع الحدود، كما وأن الطرفين انشغلا بمشاكل داخلية عديدة، ولذلك أصبحا أكثر رغبة في التفاهم مع بعضهم البعض ولا ننس بأن الروم كان عليهم بعد فترة قصيرة أن يجابهوا الدويلات الإسلامية التي انفصلت عن السلطة العباسية، وتحركت بنشاط ضد البيزنطيين، كالحمدانيين والأغالبة والطولونيين والاخشيديين على أن هذا النشاط لا يدخل ضمن حدود هذه الدراسة.

الرشيد وجزر البحر المتوسط:

رغم إهمال العباسيين للنشاط الحربي البحري في البحر المتوسط فإن الاسطول البحري على عهد الرشيد كان فعالاً نسبياً، فقد أغار الاسطول على قبرص واشتبك في معركة مع الأسطول البيزنطي الذي انهزم وأسر قائده فأمر الرشيد بقتله.

وفي سنة 190هـ/ 806م غزا حميد بن معيوف قبرص «فهدم وأحرق وسبى..» ومع ذلك لم يستقر الحكم العباسي في قبرص لكثرة ما نقض أهلها العهود، ويبدو أن نقاشا طويلا وقع بين الفقهاء بخصوص الكيفية التي يعامل بها المسلمون سكان قبرص واشترك في النقاش مالك بن أنس وسفيان بن عينية والليث بن سعد والأوزاعي واسماعيل بن عياش وغيرهم.

وفي سنة 161هـ/ 807م أرسل الرشيد حملة إلى (رودس) عادت بكثير من الغنائم. ثم انشغل العباسيون بالحرب الأهلية والفتن الداخلية. وانتقلت مسؤولية الدفاع عن النفوذ الإسلامي في البحر المتوسط إلى أمراء المغرب والأندلس.

أما كريت فقد غزاها حميد بن معيوف في عهد الرشيد وتمكن من السيطرة على جزء ساحلي منها، واستطاع عمر بن عيسى الأندلسي أن يفتتح حصناً فيها في عهد

المأمون، ثم توسع نفوذه تدريجياً وطرد الروم منها. ونزلها سنة 211هـ الثوار الربضيون بعد أن اتفقوا مع عبد الله بن طاهر بالهجرة من الاسكندرية فأعطاها الأمان ونزلوا كريت.

وقد ارتبط منذ بداية القرن الثالث الهجري مصير الجزر في البحر المتوسط بقوة العرب في الأندلس وقوة الأغالبة في المغرب، وقد استطاع الأغالبة أن يفتحوا (صقلية) ويثبتوا نفوذهم فيها، أما كريت فقد ارتبطت بدولة الأمويين في الأندلس أما الدولة العباسية فقد انشغلت بالقلاقل في عصر فوضى الأتراك، ومع ذلك، فقد حاول المعتصم كما ذكرنا ذلك سابقاً، بعد انتصاره في عمورية «المسير إلى القسطنطينية . . . فأتاه ما أزعجه وأزاله عما كان عزم عليه».

العلاقات مع التركستان:

كان على العباسيين أن يحافظوا على حدوده الشرقية في بلاد ما وراء النهر تجاه الهجمات التي يقوم بها الأتراك الشرقيون وكذلك الصينيون. وقد استطاع العباسيون سنة 751م أن يهزموا جيشاً صينياً يقوده كاوهين شيه. وتفرغ العباسيون للسيطرة على تحركات الترك الذي انقسموا فيها بينهم إلى إمارات صغيرة، أهمها إمارة القرلوق وإمارة الأغوز. إن انقسام الترك دون شك أثر في قوتهم، وخفف من وطأتهم على الحدود الإسلامية[90].

وفي خلافة الرشيد، استطاع العطريف بن عطاء بسط سيطرته على (إمارةالقرلوق) مرة أخرى، كما استطاع الفضل البرمكي أن يكسب ملك اشروسنة. . واستمر المأمون في سياسته هذه متوغلاً في آسيا الوسطى (تركستان). ولعل من نتائج بسط السيطرة العباسية على أقاليم الصغد وفرغانه واشروسنة أن كثر تدفق الترك إلى الدولة والمجتمع العباسي حتى تزايد عددهم على عهد المعتصم.

ولعل نظرة إلى تركيب الجيش العباسي الذي سار من خراسان إلى بغداد أثناء النزاع بين الأمين والمأمون تعطينا فكرة عن كثرة نسبة الترك في هذا الجيش كما أن البلاذري[91] يقول عن المعتصم أن:

«جل شهود عسكره من جند أهل ما وراء النهر من الصغد والفراغنة والاشروسنة وأهل الشاش وغيرهم، وحضر ملوكهم بابه، وغلب الإسلام على ما هنالك، وصادر أهل تلك البلاد يغزون ما وراءهم من الترك، ففتح مواضع لم يصل إليها أحد قبله».

الرشيد والشرق الأقصى:

تشير رواية تاريخية[92] إلى زيارة وفد أرسله ملك من ملوك الهند إلى بلاط الرشيد وقدم للخليفة هدايا تتضمن السيوف والثياب والكلاب، وقد أعجب الرشيد بالهدايا وقدم للوفد هدايا وجوائز سنية. والظاهر أن الرشيد استقبلهم استقبالاً رسمياً لأنه «أمر الأتراك فصفوا صفين ولبسوا الحديد حتى لا يرى منهم إلا الحدق». ولعل في هذه الرواية دليلاً جديداً يشير إلى أن اصطناع الترك لم يبدأ منذ عهد المعتصم، بل كان كما ذكرنا، قبل المعتصم ومنذ عهد المنصور، ولكن نسبتهم كانت قليلة، وغير ذات بال. كما تبادلت الخلافة في عصر الرشيد الذي تميز بزيادة الارتباطات التجارية بالشرق والغرب، وفوداً مع الصين، حيث أرسل الرشيد ثلاثة وفود إلى الصين[93].

ولكن الصفة الغالبة على هذه الوفود والزيارات أنها وفود تجارية، ولم تكن لها صبغة سياسية، ولعل العباسيين كانوا يحاولون معرفة أحوال تلك البلاد النائية والتعرف على ما فيها من بضائع وتحف، وكذلك التعرف على أحوال الجاليات التجارية العربية والإسلامية هناك.

الرشيد والأمويون في الأندلس:

لم تستطع الخلافة العباسية على عهد الرشيد مواصلة جهود المنصور والمهدي في محاولة استرجاع الأندلس من أيدي الأمويين وضمها إلى حظيرة الخلافة. والواقع أن أكبر جهد في هذا الاتجاه حصل على عهد المهدي العباسي حين اعتمد على عدة شخصيات سياسية للقضاء على انفصال الأندلس، وهي: عبد الرحمن بن حبيب الفهري الصقلبي الذي تحرك في (تدمير) سنة 162هـ ثم سليمان بن يقظان الاعرابي وأخيراً الرماحس بن عبد العزيز الكناني أمير الجزيرة الخضراء الذي ثار سنة 164هـ ثم فشلت حركته وهرب إلى العباسيين[94].

هوامش الفصل الحادي عشر

Vasiliev, Histoire del, Emp. Byz., Vel. 1 p. 229.-1

Vasiliev, OP. Cit. P. 302- Runciman Byzantine Civilization. P. 112 f.

2-البلاذري- فتوح، ص 190- اليعقوبي- تاريخ، ج2، 435 (الطبعة الاوروبية) جـ3، ص 99٠-
المنظر كذلك Cambridge Medieaval Hist. Vol IV, PP. 121 ff.

3-دايونسيس، تاريخ، ص 62 فما بعد. - البلاذري، فتوح، ص 190، 195.

4-البلاذري، طبعة ثانية جـ1، ص 236- الطبري، III، 125.

5- اليعقوبي، تاريخ، الطبعة اوربية، II، ص 470.

6-انظر: الهمذاني، مختصر كتاب البلدان ص 113- البلاذري جـ1، ص 223-225، اليعقوبي، II، ص 466- الطبري، III، ص 135- قدامة، الخراج، ص 254.

7-الطبري- الطبعة المصرية جـ9، ص 171- البلاذري، ص 195 فما بعد.

Vasiliev, OP. Cit. 339 ff. Bury. of the Eastern Empire. PP. 343, 348. -8

9- إن مما يدل على اهتمام العباسيين الأوائل بالجبهة الشرقية اكثر من الحرب مع البيزنطيين هي ابيات السيد الحميري التي انشدها امام المنصور حيث لا يذكر فيها إلا اقاليم شرقية (الاغاني جـ7 ص 16):

أعطاكم الله ملكاً لا زوال له حتى يقاد اليكم صاحب الصين

وصاحب الهند مأخوذ برمته وصاحب الترك محبوسا على وهن

10- الطبري، الطبعة المصرية، جـ9 ص 284- ابن الأثير، جـ5 ص 246.

Bury , op. cit. PP. 285 ff. -11

J.M. Hussey. The Byzantine World, PP. 28-30.

12- اليعقوبي، الطبعة المصرية، جـ3 ص 126-127- الطبري 1 جـ9 ص 321- ابن الاثير الكامل، جـ، ص7.

13-البلاذري، ص 18.

14- البلاذري، ص 166- الطبري III، ص 459- اليعقوبي II 486- ابن الاثير جـ6، ص 27-
Cambridge, Med. Hist. Vol II. P. 123.

15- اليعقوبي، II، 486- الطبري، III، ص 477.
انظر كذلك: Brooks. Byzantine and Arabs. P. 735.

16-البلاذري، ص 176، 189.

17- البــلاذري، ص 169، 90- اليــعــقــوبي، II، ص 477-478. الطبــري، III، ص 494-500كتاب العيون والحدائق، المؤلف مجهول، ص 278- 312 .Mescati- op. cit. P.

18- البلاذري ص 170 اليعقوبيII w 4 الطبري III 494 العيون والحدائق 378.

19- ويذكر ان المهدي عزل عمه عبد الصمد بن علي عن الجزيرة بعد مشادة حصلت بينهما عند حصن مسلحة لأن عبد الصمد لم يتلقه كما يحب. انظر ابن العديم زبدة الحلب ص 60، فما بعد.

20- يعقوبي، II، ص 477- الطبري III، ص 501- ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة II، 147 انظر كذلك:

Weil, Geschichte der chalifen. II. 99.

21- البلاذري، ص 168- العيون والحدائق، ص 278 فما بعد- اليعقوبي، II 478، 486. ابن الأثير، المصدر السابق جـ 6، ص 44-45- ابن خلدون- العبر، II، ص 213.

عبد الجبار الجومرد، يزيدبن مزيد الشيباني، ص 104 فما بعد.

Moscati. op. cit. 361.

23- الاصبهاني، الاغاني، جـ 12، ص 153.

24-ديوان صريع الغواني، تحقيق سامي الدهان مصر 1958 ص 1- الجومرد- يزيد بن مزيد ص 116.

25-اليعقوبي، II، ص 486- الطبري، III، ص 505-506، 520- ابن الأثير جـ6، ص 51.

Ali Fahmi. Muslim sea power in the Eastern Miditerraanean. 1950. -26

27- البلاذري، جـ1، ص 183. 193 -184- الطبري- III، 477. 491- فهمي، المصدر السابق، ص 61.

28-البيهقي، المحاسن، جـ2، ص 622-624.

29-ابن عساكر، تاريخ دمشق، جـ 5، ص 341.

30- الاصبهاني، حيلة الأولياء. انظر النفس الزكية- انظر كذلك الطبري، III، 1249.

31-فتحي عثمان، المصدر السابق، ابراهيم العدوي، المصدر السابق محمد شعيرة المرابطون في الثغور البرية العربية الرومية. ص 157 فيما بعد.

32-المقدسي: البدء والتاريخ حـ6، ص 74 فما بعد. ابن الاثير، الكامل جـ5 ص 214.

33-بارتولد، تركستان. . (بالانجليزية)، ص11 فما بعد.

34-البلاذري، ص 192, 392. 418.

35- اليعقوبي، تاريخ، طبعة النجف 1358، جـ3، ص 131.

36- الطربي، III، ص 369.

37- اليعقوبي، op. cit.

38- الطبري، III، ص 460 فما بعد، 476-477.

39- الازدي تاريخ الموصل ص 145. طبعة القاهرة 1967.

ويبدو أن محمد بن صول هذا كان واليا على أرمينية واذربيجان قبل أن يتولى الموصل حيث تعقب الثائر الخارجي مسافر بن كثير الشاري الذي التجأ إلى (قلعة الكلاب) في بلاد الروم وتحصن فيها. ولكن ابن صول تبعه وقتله. انظر ابن اعثم الكوفي، فتوح (مخطوطة) (ص 235 ب-236أ).

40-ابن اعثم الكوفي، مخطوطة الفتوح، جـ2 ص 241ب. - اليعقوبي، II، ص 446.

41-اليعقوبي، II، 446، الهمداني، مختصر كتاب البلدان، ص 239- ابن اعثم الكوفي جـ2، ص 281.

42- ابن اعثم الكوفي، الفتوح، ص 241 ب.

43-ابن اعثم الكوفي، المصدر السابق، ص 242 أ. اليعقوبي، جـ 2 ص 446 فما بعد- الطبري III، ص 328.

44-ابن اعثم الكوفي، جـ 2422ب- اليعقوبي، II، 447.

45- ابن اعثم الكوفي، جـ 2، 243 أ.

Ibid - 46

47-دايونسيس- تاريخ، ص 101 فما بعد.

48- انظر: Moscati- Le Califat d'al- Hodi PP. 16-17.

49-بل على العكس تذكر مصادرنا الاسلامية وجود تبادل بين سفراء الدولة العباسية والدولة البيزنطية (انظر مثلا الجهشياوي)، الوزراء والكتاب ص 123- الطبري III، 323-324.

50-الطبري، III، ص 1250 الكتبي، (عيون التواريخ)، المكتبة الوطنية بباريس، ص 1 ب- 2 ب- المقري- كتاب نفح الطيب، جـ 2، ص 17، ص 40-41- ابن خلدون، العبر، جـ 1، ص 211 فما بعد، جـ 2، ص 23- ليفي بروفنسال، تاريخ اسبانيا المسلمة (بالفرنسية) ص 74 فما بعد.

51-انظر Lammens, "La Sofiani", B.I.F.A.O.P. (4)

كذلك F. Omar, The' Abbasid Caliphete, P. 327.

52- العقد الفريد، جـ 3 ص 201.

53-ابن عذارى، البيان المغرب، جـ2، ص 51- اخبار مجموعة، ص 101-103- ابن القوطيه، تاريخ افتتاح الاندلس، ص32-34- بروفنسال- المصدر السابق، ص 78.

54-أخبار مجموعة ص 110-111- ابن عذارى، المصدر السابق، جـ2، ص 55- انظر كذلك

Moscati, op. cit. PP. 321-326.

Omar, op. cit. PP. 327-328.

55- Moscati op. cit, 325.

56- فيليب حتي، تاريخ سوريا، بيروت 1959 جـ2 ص 15.

57- فتحي عثمان، الحدود الاسلامية البيزنطية، القاهرة جـ 2 ص 15.

58- E. I. (2), Harun al- Rashid by F. Omar.

59- Le Strange, Palastine under the Moslems p. TP.

محمد عبد الهادي شعيرة، المرابطون في الثغور البرية العربية الرومية عند جبال طوروس 147-148.

60- فتحي عثمان، المصدر السابق، جـ2 ص 158 -162.

61- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ 10 ص 94 فما بعد.

62- يقول ابن الداية في كتابة (المكافأة): أن نقفور اعلن الاحتفال والسرور حين سمع بنبأ وفاة الرشيد، ص 80- انظر كذلك:

B. Lewis, An Arabic account,...... p. 383.

61- البيهقي، المحاسن، جـ2 ص 622 فما بعد.

62- هاملتون كب، دراسات في الحضارة الاسلامية، الفصل الثالث، ص 61 فما بعد.

63- المصدر السابق.

64-مجيد خدوري، الصلات الدبلوماطيقيه بين هارون الرشيد وشارلمان، بغداد 1938 ص 4.

65- Conte de Rian, Inventaire Critique des letters relatives an Premier Croisade. Paris, 1880.

66- بارتولد، هارون الرشيد وشارلمان (بالروسية في I. Khritainsky Vostok سنت بطرسبوغ 1912 فازيليف، هارون الرشي، وشارلمان (بالروسية) XX, Vizantinsky Vremiennik سنت بطرسبوغ 1914.

67- Brehier: Les Origines des Rapports enter Idem, La Situation des chretiens de Palestine in Paris, 1919.

idem. La situation des chretiens de Palestine....., in Croisades, Paris: 1919; 1982.

68- Kleinclaucz, La Legende de la Protectorate de charlemagne..... Paris, 1926.

69- Jonason, The Alleged Frankish Protectorate in Palestine, A Historical Rev., XXXI, 1926-27.

70- Brehier, Charlemagne and la Palestine R. H., Paris 1928 pp. 277-19.

71- Buckler, Charles the Great and Harun al- Rashid Cambrideg, Mass 1931.

72- S. Runciman, Charlemagne and Palestine in EHR. 1935.

73- المدور. حضارة الاسلام في دار السلام، القاهرة 1923. ص 266 فما بعد- عنان، مواقف

حماسة في تاريخ الاسلام. القاهرة سنة 1929، ص 23 فما بعد. انظر كذلك الدوري، العصر العباسي الأول، بغداد، 1945. ص 149-156 - زهدي الداية، هارون الرشيد وشارلمان مجلة الهلال سنة 1933 ص 986 فما بعد- فاروق عمر، هارون الرشيد في (دائرة المعارف الاسلامية) الطبعة الجديدة- عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب، ص 78-72

74-مجيد خدوري، الصلات الدبلوماطيقيه بين الرشيد وشارلمان بغداد 1929، ص 61.

75-راجع: عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب، القاهرة 1966، ص 65-72.

76- السابق، ص 78-82.

من الهدايا المتبادلة: فيلا وساعة وأواني نحاسية نفيسة وصيوان ملون وعطور واقمشة حريرية ومفتاح القدس ورايتها. كما ارسل شارلمان هبات ومبرات للكنيسة في القدس. انظر:

H. T. Bitterman, Harun al- Rashid gift of an organ to charlemagne pp. 215-217.

77- ان L. Palpnen نفسه محقق كتاب اينهارد يشكك في بعض رواياته وتحيزه إلى شارلمان، انظر

Etudes Critigues sur l'Histoire de CHariemage, Paris (Feix Acian) 1921, p. 81.

كما وان بارتولد يرى ابأن هذا الكتاب منسوب لاينهارد.

78- (2)! E.I. (الاغالبة)

79- اليعقوبي، التاريخ، جـ3 ص 192.

80- الطبري، جـ10 ص 283.

81- المصدر السابق ص 124-215.

82- المصدر السابق، ص 305.

83-العيون والحدائق، ص 28- اليعقوبي، التاريخ، جـ3 ص 129- الطبري جـ10 ص 25.

Campridge Mediieval History, Vol. IV, P. 130.

84-المسعوري، مروج جزء ص 14.

85-الطبري، المصدر السابق، ص 235- العيون والحدائق، ص 30 فما بعد.

86- العيون والحدائق، ص 40.

78- المسعودي، مروج، جـ4 ص 14.

88-فتحي عثمان، المصدر السابق. ص -193.

89- حسن احمد محمود، العالم الاسلامي في العصر العباسي، ص 169-184.

90- البلاذري، فتوخ ص 420.

92-ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ1ص 261 فما بعد.

Bertschneides, Medieval Researches, LONDON 1931, VOL. PP 264 f. -93

S. Moscati, op. cit. o. 1946. -94

الخاتمة

لقد كان نجاح الدعوة العباسية ووصول العباسيين إلى الخلافة منعطفاً مهماً في تاريخ الدولة والمجتمع في الإسلام. إن أهمية الانتصار العباسي تكمن في التغيرات الجذرية التي تلته في المجالات السياسية والحضارية على حد سواء، لقد كان العباسيون أنفسهم أول من أكد بأن حركتهم كانت ثورة ولذلك اطلقوا على نظامهم الجديد اسم «دولة» بمعنى فاتحة عهد جديد في التاريخ، عبر عن القيم الحضرية (المدنية) في المجتمع بصورة اوسع مما كان عليه من قبل، خاصة وأن العباسيين بصفة عامة اتبعوا سياسة السلم وتوجهوا نحو الدفاع أكثر من الهجوم، ونحو البناء أكثر من الحرب، تلك السياسة التي شجعت على ازدهار الاقتصاد وتنامي المؤسسات والنظم ومشاركة قطاعات اجتماعية جديدة في الحياة العامة.

إن المتمعن في احداث الدعوة العباسية وماوقع في اعقابها عبر مطالع العصر العباسي يدرك أهمية دور العرب ومشاركتهم الفعالة في الدعوة العباسية التي لم تكن موجهة في أية مرحلة من مراحلها ضد العرب بل أن جل دعايتها السياسية كانت ضد البيت الأموي والفئات المنتفعة منه من أهل الشام، كان أغلب قادة الدعوة ثم خلفاء الدولة الجديدة من العرب كما وأن الكتلة التاريخية التي تكونت من عناصر وفئات ساندت الدعوة ثم الدولة، كانت قوتها الضاربة من القبائل وخاصة اليمانية والربعية وكذلك الموالي، وظل العرب (ومنهم بنو هاشم) يتقلدون المناصب السياسية والإدارية والعسكرية واعتمد عليهم الخلفاء في المهمات الصعبة والمواقف الحرجة، وبمعنى أدق فإن العرب في العصر العباسي الأول لم يفقدوا السلطة والنفوذ بل اصبح المجال أكثر اتساعاً لمشاركة غير العرب في السلطة.

على أن الازدهار والرفاهية اديا إلى تغيرات اجتماعية مهمة فقد حل محلت المقاتلة وبصورة تدريجية فئات اجتماعية جديدة تشمل التجار واصحاب الاصناف والحرف واصحاب الأراضي والكتاب (الموظفين في الدواوين) والعلماء والفقهاء

وغيرهم، كما تحولت الامصار من قواعد عسكرية إلى مراكز حضرية Urban Centres تتمثل فيها بؤر الثقافة والاسواق والمدارس ولا غرو فقد كان هذا العصر عصر الحضارة الإسلامية الغنية التي تعتبر نتاج شعوب عديدة وتجارب متنوعة وكانت حضارة مدن، تلك المدن التي اضحت مستودعاً للفعاليات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية، ولم تكن هذه الحضارة العربية الإسلامية الجديدة (ساسانية جديدة) أو (بيزنطية جديدة) كما يحلو لبعض الباحثين تسميتها ذلك لأنها بقيت مخلصة لروح الإسلام ومتمسكة بقيم العروبة ومآثرها مع اقتباسها عناصر حضارية من الحضارات المجاورة أو الحضارات السابقة لها وتمثلها داخل بودقتها مما لا يتعارض مع مثلها.

إن توسع المدن وتعقد الحياة الحضرية بجوانبها المختلفة وتطور الريف وتوسع الملكيات الزراعية وانتعاش الحرف والصناعة والتجارة ادى إلى ظهور تنظيمات جديدة فسحب المجال امام حركة العامة و ازدياد نفوذهم في المجتمع على الاصعدة كافة أمثال الشطار والعيارين والزواقيل والفتوة وغيرهم، كما ظهرت بوادر التنظيمات الحرفية مثل الاصناف التي تطورت بصورة أوضح منذ القرنين الثالث والرابع الهجريين. إن هذه المظاهر الرئيسة التي ميزت العصر العباسي كانت في الواقع قد بدأت منذ أواخر العصر الأموي إلا إن الانتصار العباسي اعطى قوة دفع جديدة وزخماً قوياً لتلك التغيرات حتى بدت وكأنها مظاهر جديدة وهذا يعني أن العصر العباس الأول لم يكن إلا امتداداً طبيعياً للعصر الأموي.

بعد مبايعته في مسجد الكوفة في ربيع الأول 132هـ/ 750م ألقى الخليفة العباسي الأول أبو العباس عبدالله بن محمد (السفاح) خطبته الأولى أوضح فيها بأن دولة العباسيين قامت باسم الإسلام وأنها تبغي تحقيق العدالة للمستضعفين مؤكداً حق بني العباس في الخلافة باعتبارهم (آل البيت) منددا بالأمويين الذين اغتصبوا الخلافة محذراً المناهضين للدولة الجديدة وواعداً الموالين بالعطاء.

ولم يستقر أبو العباس في الكوفة موطن شيعة العلويين بل اختار موقعاً قريباً منها بنى فهي عاصمة جديدة سماها (الهاشمية) ثم بنى هاشمية اخرى قرب الانبار وسكن فيها.

وكانت أول مهمة يواجهها أبو العباس التصدي لمروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين فكانت معركة (الزاب الكبير) المعركة الاخيرة والوحيدة التي خسرها مروان بن محمد في حياته. وهكذا حصد مروان ثمار سياسته القبليه والتي اخذت الناس بالشك حتى تفرقوا عن نصرة الخلافة الأموية، وبمقتل مروان بن محمد في صعيد مصر سقطت الدولة الأموية واستسلمت البقية الباقية من المدن التي كانت لاتزال معتصمة بانتظار اخبار الخليفة الأموي، ففتحت واسط والبصرة والموصل أبوابها للعباسيين، وكان أبو العباس قد اوصى بالخلافة من بعده إلى اخيه أبي جعفر عبدالله بن محمد (المنصور) الذي تولى الخلافة في ذي الحجة 136هـ/ تموز 754م.

ويُعد المنصور باتفاق المؤرخين المؤسس الحقيقي للدولة الجديدة وبإني مجدها وقوتها ويصفه المؤرخ ابن الطقطقي بقوله «هو أصل الدولة وضبط المملكة ورتب القواعد واقام الناموس واخترع أشياء»، والواقع أن المنصور نجح في القضاء على كل الاخطار التي جابهت الخلافة، فبعد أن تخلص من عمه ومنافسه عبدالله بن علي العباسي قضى على أبي مسلم الخراساني ثم أخمد الحركتين العلويتين الخطرتين الأولى في المدينة بقيادة محمد بن عبدالله الحسني والثانية في البصرة بقيادة إبراهيم بن عبدالله الحسني كما قمع عددا من حركات الفرس والخوارج.

إن هذه الحركات المناهضة للدولة لم تشغل المنصور كثيراً بل أنه تفرغ لبناء الدولة واعمار البلاد فشهد عهده تحولاً نوعياً في الإدارة المركزية حيث تبلورت صلاحيات الدواوين وظهرت دواوين جديدة وعمل على تطبيق المركزية الإدارية كعلاج للانحلال الإداري في أواخر العصر الأموي، وشرع بتأسيس جيش نظامي جديد يرتبط الولاء للدولة، كما بنى عاصمة جديدة (مدينة السلام، بغداد) رمزاً للعهد الجديد ومركزاً للدواوين الإدارية وقاعدة للجند، وقد استمر بناؤها من 141هـ/ 758م إلى 149هـ 766م ثم شرع المنصور ببناء الرصافة شرقي دجلة وأمر ولي عهده المهدي بعمارتها، وكانت خطة المنصور أن يحفظ الخلافة في نسله وكان يعد ابنه محمد لتولي الخلافة من بعده وبث من أجل ذلك دعاية واسعة ملقباً اياه «بالمهدي» اجبرت في النهاية ولي العهد الشرعي عيسى بن موسى على التنازل له بولاية العهد وقد بويع بالخلافة في ذي الحجة 158هـ/ تشرين الأول 775م.

وتميزت خلافة المهدي العباسي بالاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي واتسمت بالمرونة الاتزان ومحاولات التوفيق إذا ما قورنت بشدة المنصور، كما اغدق الأموال والعطايا على الناس ونظر في المظالم وكان ابوه قد اوصاه بقوله :

«لقد تركت لك ثلاثة أنواع من الناس: الفقير الذي يتوقع ان تغنيه، والخائف الذي يتوقع أن تحميه، والسجين الذي يتوقع أن تطلقه فاوسع لهم دون اسراف»،

كما حاول المهدي أن يكسب الحركات المعارضة وخاصة شيعة العلويين دون جدوى، إلا أنه تجرد لمحاربة الزندقة وهي في حقيقتها ديانة مانوية جديدة باتت خطرة تهدد العقيدة الإسلامية، وقد أسس ديواناً خاصاً لتتبع الزنادقة ومعاقبتهم.

وكان للاستقرار والأمن أثرهما الايجابي في تطور مؤسسات الدولة الإدارية والحضارية، فقد توسعت بغداد وازدهرت أسواقها وعمائرها واستكمل بناء الرصافة، وبرزت دواوين جديدة. وانتعشت الزراعة حيث ابتدعت طرق جديدة لقسمة الحاصل لاستيفاء ضريبة الخراج، وبنى دوراً للمرضى والمجذومين، وبدأت مؤسسة الوزارة العباسية تأخذاً شكلاً جديداً حيث اتضحت معالمها وصلاحياتها وتقلدها اشخاص ذو كفاءة متميزة، كما برزت إلى جانب الخليفة والوزير تكتلات جديدة في البلاط والإدارة ولعبت الخيزران، الجارية التي اعتقها المهدي وتزوجها، دوراً بارزاً في الأمور السياسية في ذلك العهد. وأهتم المهدي بالجهاد حيث نشطت حركات الجيش في الصوائف والشواتي واتسعت حملات العباسيين لتشمل بلاد الهند وما وراء النهر والاناضول، وقد خامرت الخليفة المهدي فكرة تعيين ولديه لولاية العهد موسى الهادي وهارون الرشيد الأمر الذي يدل على نفوذ الخيزران.

وقد تولى الهادي الخلافة في شهر محرم 169هـ/ آب 785م ولم يدم حكمه طويلاً وكان موته بعد نحو السنة مفاجئاً وغامضاً ويبدو أن مؤامرة دبرت له في البلاط اشتركت فيها أمه الخيزران والبرامكة وكتلتهم بعد أن جردهم من نفوذهم وحاول استبعاد اخيه الأمير هارون عن ولاية العهد. ويبدو أن الخليفة الهادي حاول أن يباشر الحكم بنفسه ولكن مراكز القوى السياسية التي بدأت تظهر في الإدارة والتي لا تريد

للخليفة أن يكون الحاكم الفعلي حالت دون ذلك فوقع الهادي ضحية ذلك. إن هذه الظاهرة التي حدثت مبكراً في مطالع العصر العباسي ستتكرر بل وستكون الظاهرة الأكثر شيوعاً في الحقب العباسية التالية.

اعقب الخليفة هارون الرشيد أخاه الهادي في الخلافة في ربيع الأول 170هـ/ 786م ولا شك فإن شخصية الرشيد هي الأكثر ذيوعاً وشهرة بين خلفاء بني العباس لا في الاساطير الشعبية فحسب بل في روايات التاريخ كذلك، وقد تباينت وتناقضت الروايات بشأنه وبشأن سياسته لدرجة أنها اخفت شخصيته الحقيقية ومنجزاته، تحاول بعض الروايات أن تظهر الرشيد بمظهر الخليفة الذي لا يهتم بأمور الرعية حيث «قُلد أمر الرعية إلى البرامكة» بينما تقلل روايات اخرى من دورهم وتبرز شخصيات اخرى لعبت دوراً موازياً لهم في الإدارة والسياسة.

لقد شهد عهد الرشيد انجازات مهمة في ميادين البناء والتمدن الحضري والنظم والمؤسسات المدنية، وكان هاجس الخليفة هو توطيد الأمن والاستقرار في ارجاء (دار الإسلام) مترامية الاطراف، كما بعث روحاً جديدة في الجهاد وقاد بنفسه الجيش إلى عمق الأراضي البيزنطية ووصل إلي مشارف القسطنطينية لأول مرة في تاريخ العصر العباسي، وأهتم بمنطقة الحدود (الثغور والعواصم) ونظمها تنظيماً إدارياً وعسكرياً جديداً، واعتنى بالاسطول البحري في البحر الأبيض المتوسط واعاد اعمار الموانئ وشحنها بالمقاتلة، وقد اكسبته هذه الانجازات بالإضافة إلى التقدم في ميادين الحضارة والعلوم شهرة واسعة في العالم المعروف آنذاك فكانت سفارات الدول (الفرنك الكارولنجين مثلاً) تحث السفر إلى بغداد لتوثيق صلاتها الدبلوماسية والتجارية مع دولة الخلافة، وهكذا فقد بدا عصر الرشيد عصراً ذهبياً لما ظهر فيه من مظاهر الرقي الثقافي والحضاري ومع ذلك فالملاحظ في بعض احداثه بوادر وارهاصات التحلل السياسي وبدايات التفكك الإداري وظهور الميول الانفصالية في المشرق والمغرب، وأساءة بعض الولاة استخدام صلاحياتهم مسببين مشاكل للحكومة المركزية في بغداد.

وقد لعب البرامكة في الفترة بين 171هـ/ 788م -187هـ/ 803م دوراً واضحاً في

الإدارة العباسية فقد كانت الدواوين كلها بيد يحيى بن خالد البرمكي، وتولى ابنه الفضل إدارة عديد من الاقاليم خاصة خراسان وكان مربياً للأمير محمد الأمين بن هارون الرشيد أما جعفر بن يحيى البرمكي فكان مقرباً إلى الرشيد لا يقدم عليه احد وعهد إليه بمهمات سياسية عديدة. أما المهمات الإدارية فقد اعطاه الخاتم واشركه في النظر في المظالم وفي مراقبة دور الضرب (السكة) وكتب اسمه على الدنانير بجانب اسم الخليفة، وكل هذا جعل بعض المؤرخين يبالغون حين الاشارة إلى البرامكة بحيث قالوا: «إن في دولة الرشيد دولة ملوكها البرامكة» ولقبهم بعض المتملقين بلقب ملك وسلطان، ولكن الواقع يثبت غير ذلك فهذه السلطات غير المحدودة لم تستمر أكثر من اربع سنين حيث كانت سنة 173هـ/ 790 م وهي سنة وفاة الملكة الخيزران ام الرشيد بداية نهاية نفوذهم، وفي سنة187هـ سقط البرامكة حين قرر الرشيد ذلك، ورغم أن المؤرخين اوردوا عديداً من الروايات المتناقضة والاسطورية بخصوص سقوطهم إلا إن السبب الحقيقي وراء ذلك هو استبدادهم بالأمور دون الرشيد ومشاركة الخليفة في صلاحياته السياسية والمالية، كما وأن سقوطهم لم يكن وليد مكيدة أو أنفعال مفاجئ من قبل الخليفة بل كان تدبيراً مخططاً له اختمر تدريجياً بسبب احداث تراكمت بعضها فوق بعض عبر عنها الرشيد بنفسه حين قال عن يحيى البرمكي: «استبد بالأمور دوني وامضاها على غير رأيي وعمل بما احبه دون محبتي»، كما وأن سقوطهم بالطريقة التي سقطوا فيها وبالسهولة التي وصفها المؤرخون يدل على مدى قوة الخليفة العباسي في مطالع العصر العباسي الأول وعلى مدى المبالغة في الاراء التي تحاول أن تبرز دور العناصر غير العربية في السياسة والإدارة والجيش في تلك الفترة المبكرة نفسها.

ويبدو أن هارون الرشيد قد نسي الظروف الصعبة التي مر بها حين كان ولياً للعهد في خلافة اخيه الهادي ولذلك وقع في الخطأ نفسه الذي وقع فيه والده المهدي واعطى ولاية العهد الأولى إلى ابنه محمد الأمين والثانية إلى ابنه عبدالله المأمون والثالثة إلى ابنه القاسم (المؤتمن)، كما قسم ولايات الدولة الإسلامية بينهم فكان أول خليفة يبايع لأولاده الثلاثة من بعده، وينقل الطبري رواية على لسان العامة من الناس تقول:

«بل ألقى بأسهم بينهم وعاقبة ما صنع في ذلك مخوفة» .

توفى هارون الرشيد في مدينة طوس في بلاد فارس وهو في طريقه لقمع حركة رافع بن الليث وتولي بعده ابنه محمد الأمين في جمادي الآخرة 193هـ/ نيسان 809م ، وكان عهده الذي استمر حتى 198هـ/ 813م حرباً أهلية بسبب الفتنة التي وقعت بينه وبين اخيه المأمون ، ذلك لأن قرار الرشيد بخصوص ولاية العهد كان يمكن أن يؤدي إلى انفجار الوضع السياسي في أية لحظة ويعتمد في دقة تطبيقة على توفر حسن النيه وعدم تأثر الاخوين بالتكتلات السياسية الموجودة في البلاط ، وبموت الرشيد المفاجئ خارج العراق ترك الخلافة بيد الأمين ولكن دون قوة عسكرية تسندها تلك القوة التي بدأت تتجمع مع معسكر المأمون في خراسان .

لقد وصلت المفاوضات بين الأمين والمأمون إلى طريق مسدود وحدثت الحرب التي كانت سجالاً بين الطرفين في البداية ثم بدأت كفة المأمون بالرجحان وتقدم جيشه بقيادة طاهر بن الحسين باتجاه العراق وبعد أن هزم عدداً من جيوش الأمين دخل حدود العراق من الاحواز197هـ/ 812م واعلن عديد من المدن ومنها مكة اعترافها بخلافة المأمون ، وبعد حصار لبغداد دام أربعة عشر شهراً قاوم فيه الأمين وانصاره مقاومة شديدة حيث كان القتال يدور من شارع إلى شارع حتى سميت المعارك باسم الدروب ، قتل الخليفة الأمين من قبل جند طاهر بن الحسين في المحرم 198هـ/ ايلول812م .

رغم أن المأمون كان قد أعلن نفسه خليفة في خراسان والمشرق عامة منذ جمادى الآخرة 195هـ/ اذار 811م إلا إن بيعته الرسمية تمت في المحرم 198هـ/ ايلول 812م حيث تسلم شارات الخلافة من بغداد ، ولكنه قرر أن يستقر بمرو مركز خراسان مستنداً إلى مشورة وزيره الفضل بن سهل الذي طغت شخصيته على شخصية الخليفة وسيطر على الأمور واتخذ لقب (ذي الرئاستين) متمتعاً بنفوذ لا حدود له محاولاً ادخال التقاليد الفارسية في مراسم البلاط والدولة مرسلاً أخاه الحسن بن سهل والياً على العراق . ولكن العراق المركز التقليدي للخلافة العباسية سرعان ما اعلن معارضته لسياسات الفضل بن سهل الجديدة واستمر أهل بغداد في المقاومة رغم مقتل الأمين واعلنوا خلافة عباسية منافسة لخلافة المأمون منذ المحرم 202هـ/ تموز 817م .

إن ما يميز عصر المأمون، إضافة إلى النشاط العلمي والازدهار الحضاري، ظواهر ثلاث هي: محاولته البقاء في خراسان وسياسته المرنة التوفيقية مع العلويين حين بايع لعلي الرضا بولاية العهد في رمضان 201هـ/ اذار817م، واخيراً اعلانه في اواخر أيامه مذهب الاعتزال مذهباً رسمياً للدولة، ولعل هذه الظواهر تعكس صفاته كخليفة فقد كان مثقفا وفيه دهاء وحكمة وحسن تدبير، وتنم سياسته عن نزعة واقعية (براكماتية).

إلا إن سياسة المأمون الخراسانية كان لها ردود أفعال قوية في العراق والجزيرة الفراتية تمثلت في حركة السري بن منصور الشيباني في السواد ونصر بن شبث العقيلي في الجزيرة الفراتية، واستفحال النزعات القبلية والميول الانفصالية في بلاد الشام ومصر واليمن وغيرها وهذا ما اجبره على العودة إلى العراق 204هـ/ 819م والتخلص من علي الرضا والوزير الفضل بن سهل.

قرر المأمون في السنة الأخيرة من حكمه أن يجعل الاعتزال المذهب الرسمي للدولة وبقي كذلك حتى خلافة المتوكل. ولم يعرف عن خلفاء بني العباس الأوائل تفضيلهم بصورة رسمية مذهباً على آخر رغم ميلهم إلى «أهل الحديث» وارتباطهم بعلاقات ودية مع بعض المحدثين البارزين، وكان المأمون يميل إلى أهل العلم من مفكريين وفلاسفة وأهل الكلام وابدى اعجاباً واضحاً بالادلة العقلية للمعتزلة الذين دافعوا عن العقيدة الإسلامية بأساليب جديدة هي أساليب المنطق والجدل المقتبس من الفكر اليوناني، على أن المشادة التي اثارها المعتزل في ذلك الوقت وايدهم فيها المأمون هي مسألة خلق القرآن والتي ادت إلى ما اصطلح عليه باسم (المحنة)، فالمعتزلة تقول بإن القرآن مخلوق- بمعنى أنه غير أزلي أو قديم- انطلاقاً من مبدأ نفي صفات المعاني عن الله تعالى ولا يمكن اعتباره قديماً لأن ذلك يؤدي إلى مشاركة القرآن بصفة من صفات الله تعالى وهي القدم وهذا نقص في التوحيد ومن هنا جاء اسم المعتزله (اصحاب التوحيد). و نادى المعتزلة بحرية الإرادة وأن الإنسان مخير في أعماله والعبد خالق لأفعاله مستحق على ذلك ثواباً وعقاباً في الدار الاخرة ومن هنا جاءت تسميتهم «أهل العدل»، والواقع أن المعتزلة حين وصلوا إلى السلطة اضطهدوا

مخالفيهم في الرأي فكانت المحنة التي قاسى منها الفقهاء امثال أحمد بن حنبل واتباعه وأحمد بن نصر الخزاعي وكان لهذه المحنة ردود فعل أفعال عنيفة كادت أن تؤدي إلى مجازر لولا حزم الخليفة المتوكل وحنكته.

وقد توفي المأمون وهو يجاهد الروم ودفن في طرطوس في رجب 218هـ/ آب 833 م وكان ولي عهد علي الرضا قد مات 203هـ/ 819م في ظروف غامضة أثناء عودة المأمون من خراسان إلى العراق، وعين المأمون قبيل مرضه الاخير اخاه المعتصم ولياً للعهد واوصاه خيرا بالرعية.

كانت شخصية الخليفة المعتصم على النقيض من شخصية أخيه المأمون، فلم يكن مهتماً بالفكر والثقافة والعلوم قدر اهتمامه بأمور الجيش والحرب، وبقدر ما كان المأمون مفكراً ملتزماً كان المعتصم عسكرياً محترفاً، ولذلك فإن استمرار مذهب الاعتزال لم يكن عن عقيدة أو ايمان الخليفة الجديد به بل تقليداً لسلفه وانقياداً لوصيته له، ومع ذلك فإن اختيار المأمون للمعتصم خليفة من بعده يدل على ذكاء وحكمة عرف بهما المأمون، فالظروف السياسية التي كانت تمر بها الدولة داخلياً وخارجياً كانت تحتم اختيار رجل عسكري من طراز المعتصم الذي كان بحق الشخص المناسب في المحل المناسب والوقت المناسب فقد اعاد تنظيم الجيش وأكثر من استخدام الاتراك وفضلهم على سائر الاجناد وبهذا جابه وحسم عديداً من الاضطرابات القديمة التي كانت تعاني منها الدولة وخاصة الحركة الخرميه بقيادة بابك في اذربيجان والجبال والجزيرة الفراتية ومؤامرة الافشين، القائد التركي المتنفذ.

إن ما يميز عهد المعتصم هو كثرة تجنيده للترك في الجيش العباسي، والمعروف أن الترك بدأوا بالدخول في الجيش بأعداد قليلة منذ العصر الأموي وفي مطالع العصر العباسي فجاء المعتصم فزاد من استخدامهم زيادة ملحوظة، وكان الجندي التركي يتميز إضافة إلى بسالته ومقدرته العسكرية في القتال كونه غريباً لايرتبط برباط الولاء للخليفة مما يجعل اخلاصه للدولة فقط لا للقبيلة أو شخص معين، ثم أن العناصر الاخرى مثل العرب والفرس كانت قد استقرت وتحضرت وعزفت عن الحرب ومالت إلى المهن الحضرية مثل الزراعة والتجارة والحرف والولع بالعمران والثقافة والعلوم،

اما الترك فكانوا لا يزالون بدواً متنقلين معتادين على شظف العيش وصعوبة الحياة مما يجعلهم مقاتلين اشداء، وكان عددهم يتزايد سنة بعد اخرى اما بسبب هجرتهم إلى داخل (دار الإسلام) من آسيا الوسطى (تركستان) أو عن طريق الشراء أو الاسر أو ارسال بعضهم كجزء من الضريبة السنوية أو هدية إلى الخلافة العباسية. ولا شك فإن النتائج الايجابية لهذه الظاهرة كانت قدرة الدولة على قمع الاضرابات الخطيرة وكذلك ايقاف تجاوزات الروم على الثغور الإسلامية بل وتحقيق انتصار كبير عليهم في عمق الاناضول في معركة (عمورية) المشهورة، إلا إن النتائج السلبية ما لبثت أن ظهرت بعد حين حيث تسلط بعض القادة العسكريين خلال الحقبة التالية على مقدرات الدولة العباسية وبدأوا يختارون من يرغبون من أمراء بني العباس الضعفاء وينصبونهم خلفاء للدولة.

كما وأن من نتائج استخدام الترك في الجيش والإدارة العباسية كان بناء سامراء 220هـ/ 835م ونقل مركز الدولة إليها حيث اصبحت مقراً للجيش والدواوين، ولعل العامل الأهم وراءنقل العاصمة هو الفارق الحضاري بين أهل بغداد المتمدنين وبين الجند الترك البدو الجفاة، مما أدى إلى التصادم بين الفئتين، كما ضاقت سكك بغداد بالترك بعد أن زاد عددهم. ولعلنا نلاحظ دور أهل بغداد في احداث تلك الفترة فهم الذين صمدوا امام جيش طاهر بن الحسين أثناء الفتنة بين الأمين، ونظروا إليهم نظرة اصفار وهم الذين اجبروا الخليفة المأمون على تغيير سياسته والعودة إلى بغداد، وهم انفسهم اجبروا المعتصم على الرحيل بالترك إلى سامراء التي لم تصبح بديلاً لبغداد بل ظلت هذه الاخيرة مركزاً للثقافة والعلم والتجارة رغم فقدانها مؤقتا لصفتها كعاصمة للعباسيين حتى 279هـ/ 892م.

تمت البيعة للواثق يوم وفاة المعتصم في ربيع الأول 232هـ/ كانون الثاني843م وزاد في عهده نفوذ بعض القادة العسكريين الترك مثل اشناس ووصيف وايتاخ وبغا الكبير، كما استمر نفوذ المعتزلة القوي وخاصة أحمد بن أبي دؤاد الذي كان احد اثنين لا يصدر الخليفة إلاعن رأيهما، أما الثاني فهو الوزير محمد بن عبدالملك الزيات، وقد تشدد الواثق في تطبيق مذهب الاعتزال فكانت (المحنة) أعنف مما كانت عليه أيام

المأمون والمعتصم مما ادى إلى انفجار أهل بغداد 231هـ/ 846م في انتفاضة عارمة قادها أهل الحديث بزعامة أحمد بن نصر بن مالك الخزاعي ولكن الانتفاضة قمعت وحكم على أحمد الخزاعي بالموت، ولكن سياسة اسكات المعارضين كانت لها مردودات سلبية حيث زادت من التذمر وسهلت على الخليفة الجديد المتوكل انهاء سلطة المعتزلة السياسية بعد مدة قصيرة دون صعوبة.

لم يعهد الواثق لأحد من بعده بالخلافة مما فسح المجال امام البيروقراطية العسكرية والمدنية للتدخل في اختيار الخليفة الجديد فكانت سابقة خطيرة لتدخل الجيش في المؤسسة السياسية نتجت عنها عواقب سيئة على مستقبل الخلافة، لقد جاء المتوكل إلى الخلافة بمساندة بعض القادة العسكريين الترك ورؤوس المعتزلة، ومنذ البداية حاول أن يتبع سياسة جديدة بتكوين كتلة موالية له تضبط الإدارة وتضع حداً للفساد وتعمل بصورة تدريجية على تقليص نفوذ العسكريين في السياسة والإدارة، وكان موقفه المعادي للمعتزلة والمتشدد تجاه انصار العلويين وأهل الذمة قد اكسبه تأييد بعض الفقهاء ومن ورائهم العامة من الناس حاول أن يستغله في مجابهته للطغمة العسكرية التركية التي بدأ يدرك خطرها على الخلافة والدولة معاً.

إن هذه الاجراءات وغيرها مثل الانتقال من سامراء إلى دمشق ثم إلى الجعفرية ودمج قوات سامراء القديمة بالجيش الجديد الذي أنشأه جلبت انتباه القادة الاتراك الذين بدأوا يشكون في نيات الخليفة تجاههم فقرروا التخلص منه فوراً بانقلاب عسكري حيث اغتالوه واختاروا ابنه المنتصر الذي كان حليفهم في المؤامره ضد ابيه.
لقد تميز عهد المتوكل بالتخلي عن مذهب الاعتزال كمذهب رسمي للدولة، بعد أن فشلت المعتزلة خلال خمسة عشر عاماً من سياسة الاضطهاد من تحقيق نتائج ايجابية بل لاقت اشمئزازاً من أهل بغداد وفقهائهم، على أن المتوكل اتبع في تعامله مع رؤوس المعتزلة سياسة معتدلة متسامحة ولولا وجوده في الحكم واجراءاته لمنع الصدام لحدثت ردة فعل دموية ضد المعتزلة المسؤولين عن سياسة المحنة. لقد كانت المعتزلة فئة مثقفة اسرفت في الاستدلالات العقلية والمنطقية وهذا ما جعل عامة المسلمين لا يفهمونها والفقهاء لا يستسيغونها مما دعى المعتزلة إلى مهاجمة الفقهاء والعامة معاً، لقد

بقى المعتزلة دون سند حقيقي معزولين عن المجتمع فكان ما فعله الخليفة في أنهاء نفوذهم استجابة لرغبة نابعة من داخل المجتمع .

إن سياسات المتوكل ساعدت بصورة تدريجية على بلورة ما سمي في ما بعد بمذهب «أهل السنة والجماعة» الذي كان في مرحلة التكوين ، فبالإضافة إلى منشوره الذي دعى فيه إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهاجم المعتزلة ، فقد حث المحدثين على دراسة الحديث ونشره بين الناس وشجع الكتاب على الكتابة في العقيدة واصول الدين فكتب علي بن ربان الطبري كتابه (الدين والدولة) وكتب الجاحظ رسالته (في الرد على النصارى) وكان الهدف من هذه المؤلفات وغيرها نشر فضائل الإسلام ودحض الدعايات المشوهة ، على أن الفقهاء وزعماء أهل الحديث ومنهم أحمد بن حنبل بقوا حذرين من السلطان كما كان خلفاء بني العباس ، عدا فترة المحنة ، لا يزالون فوق الميول المذهبية والاتجاهات الفقهية ولم يجبروا احداً على اتخاذ مذهب معين ، أن هذا الموقف المرن المتزن الذي مثلته الدولة والفقهاء من مختلف المذاهب كان يمثل روح العصر المتسامحة الوسطية الجامعة .

اما في مجال الإدارة فقد استجدت مظاهر ومؤسسات جديدة . فقد استحدثت مؤسسة الوزارة في مطالع العصر العباسي كمنصب رسمي له صلاحيات محددة نسبياً ومسؤوليات مهمة رغم أن نفوذ الوزير ظل مرتبطاً إلى حد كبير برغبة الخليفة الذي كان الشخص الاقوى خلال العصر العباسي الأول ، ولهذا قرت الوزارة بفترات من القوة والضعف فكانت تارة وزارة تفويض مثل وزارة البرامكة وآل سهل ووزارة يعقوب بن داود في عهد المهدي ، وتارة اخرى وزارة تنفيذ مثل وزارة أبي أيوب المورياني والفضل بن الربيع .

إن المؤسسات الإدارية في عصر العباسيين الأوائل هي المؤسسات الإدارية نفسها في عصر الأمويين إلا إنها تطورت وفق سنة التطور وتغير الاوضاع . وهذا الكلام يصدق على الدواوين الإدارية التي بقيت تعمل عملها في هذا العصر وأهلها ديوان الجند وديوان الخراج وديوان الخاتم وديوان البريد وغيرها . ولكي استحدثت بجانبها دواوين اخرى جديدة وفق الحاجة وتتطلبات المجتمع والدولة .

فمن الدواوين الجديدة ديوان الضياع وديوان الزنادقة وديوان المصادرات وديوان الزمام وزمام الأزمة. لقد كان غالبية الكتاب (وهم موظفو الدواوين) من الموالي وأهل الذمة. ولعبت هذه الفئة دوراً في الحركة الشعوبية فهاجمت العرب وتراثهم الحضاري وشككت بدورهم التاريخي ووقفت إلى جانب التراث الاعجمي محاولة بجهد جعلت بديلاً للثقافة العربية- الإسلامية.

إن كثرة المؤسسات التي انشئت في الدولة الإسلامية لدعم الأمن والاستقرار يدل على مدى الاهتمام بإشاعة العدالة في المجتمع، ففي مجال القضاء بدأ العباسيون الأوائل تقليداً جديداً بتعيين القضاة بأنفسهم مما يدل على علو منزلة القاضي عندهم، كما رغب العباسيون من وراء ذلك التأكيد على الجانب الديني في خلافتهم ولعل شاخت كان يشير إلى هذا حين اكد على اهتمام العباسيين في اقامة حكم الله في الأرض واقرارهم بالقانون الديني كجزء لا يتجزأ من منهاجهم، كما انيطت ببعض القضاة احياناً مسؤوليات اخرى مثل النظر في المظالم والمواريث والاحباس والحسبة. إن الميل إلى المركزية الإدارية في عهد العباسيين الأوائل كان وراء ظهور منصب (قاضي القضاة) وقد اطلقه هارون الرشيد على قاضيه أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الانصاري صاحب أبي حنيفة النعمان، وكان قاضي القضاة يقيم في بغداد ويعين القضاة على الاقاليم ويشرف على أعمالهم بالنيابة عن الخليفة، لقد نتج عن التطور الاجتماعي وتعقد مظاهر الحياة الحضرية ظهور عدد من المدارس الفقهية من أجل تدبير شؤون الحياة اليومية فبرز علم الفقه، وتقاسمته مدرستان: مدرسة أهل الحديث بالحجاز ومدرسة أهل الرأي بالعراق ولكن الخلفاء العباسيين الأوائل كانوا فوق المذاهب ولم يفاضلوا بين مدرسة واخرى وتركوا القضاة احراراً يجتهدون في احكامهم، ولعل عبدالله بن المقفع كان أول من اشار إلى موضوع تقنين التشريع بحيث يستقى من مصدر واحد، وتأتي محاولة الخليفة المنصور مع مالك بن انس لوضع كتاب جامع في الفقه يحمل عليه الفقهاء والقضاة ضمن هذا المنهج، ومما له صلة بتطور المؤسسات القضائية ظهور الحسبة، وهي منصب ديني- مدني شملت صلاحياتها إضافة إلى أحوال السوق والاصناف، حفظ الآداب العامة ومنع الاحتكار ومنع تزييف العملة ومراقبة الاسعار كما وأن تغلغل حركات المعارضة داخل

(الاصناف) في السوق اضاف واجباً آخر إلى المحتسب وهو مراقبة النشاطات السياسية المناهضة للدولة، وكان أهتمام العباسيين الأوائل النظر في المظالم واشرافهم المباشر على هذه المؤسسة متأتياً من الفكرة التي اشاعوها من أنهم جاءوا لتحقيق العدالة والعمل بالقرآن والسنة، ومع أن النظر في المظالم يعتبر صورة من صور القضاء ولكنه كان أهم شأنا واعمق اثراً خاصة أن الخليفة أو من ينوب عنه يتولى النظر فيه، وقد اكد أبو يوسف القاضي على ضرورة جلوس الخليفة بنفسه للنظر في المظالم حيث يصل خبر أهتمامه إلى الاقاليم فيخاف الظالم ولا يتجرأ على الظلم، وكانت الشرطة مؤسسة اخرى من المؤسسات التي هدفها دعم الأمن وتنفرد الشرطة بواجب تأديب المجرمين والمفسدين وردعهم واخماد الفتن والاضطرابات في المدينة الإسلامية من خلال استخدام القوة وتطبيق القانون، وقد أهتم العباسيون الأوائل بالشرطة واعتبرها الخليفة المنصور أحد الاركان التي يستند إلي سلطان الدولة التي «نزهت هذه المرتبة (الشرطة) وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم»، ويرى آدم متز بأن الذي يعني بالأمن في مقر الأمير هو صاحب الشرطة أما في المدن الاخرى من الاقليم فكان يتولى ذلك (صاحب المعونة) فكانت صلاحياته تقويم أمور العامة واعانة المظلوم على الظالم ومساعدة القضاة في تنفيذ احكامهم مما يفضى إلى الصلاح والنظام، وكان لصاحب المعونه دار وله حبس وديوان يضم الكتاب الذي لديهم المام بالحدود والقصاص.

وقد تدهور أمر القضاء في الحقب التي تلت عصر العباسيين الأوائل ويبدو أن هذه المؤسسة كانت أول من انحلت في الدولة بسبب سياسات الوزراء والأمراء الذين عينوا رجالاً في منصب القضاء لا علم لهم به وذلك بهدف الحصول على الأموال من الضمانات، رغم أن الخليفة ظل متمسكاً بحقه في اصدار مراسم تعيين القضاة واسقاط بعضهم من مناصبهم، وظل القضاة على مختلف مراتبهم ومذاهبهم ينظرون إلى منصبهم على أنه منصب ديني مرتبط بمؤسسة الخلافة في بغداد وأن من مهامهم الدفاع عن الدين بوجه التيارات (الغالية) المتطرفة.

لقد شهدت المؤسسة العسكرية منعطفاً مهماً في مطالع العصر العباسي حيث

تكون ولأول مرة في تاريخ الدولة الإسلامية ما يسمى بـ (الجيش النظامي) المحترف الدائمProfessional Army حيث انتظم (أهل خراسان) من عرب وموال كافراد في الجيش لا كقبائل وسجلوا في (ديوان الجند) على اسماء مدنهم وقراهم لا على اسماء قبائلهم مرتبطين برباط الولاء للدولة التي تعنى بتدريبهم وتموينهم وتجهيزهم، كما ادارك العباسيون مع مرور الزمن مدى الحاجة إلى دماء جديدة في الجيش وبدأوا خطة منظمة لادخال عناصر من (المرتزقة) من الترك وغيرهم من سكان المشرق الإسلامي خاصة.

لقد بقى دور العرب كقوة عسكرية في الجيش حيوياً في مطالع العصر العباسي فكان (أهل خراسان) من العرب والموالي فرقة عسكرية واحدة برابطة برابط الولاء للدولة التي سميت (بدولة أهل خراسان)، كما نظم العباسيون تشكيلات عسكرية اخرى على أسس قبلية فكانت هناك تشكيلات يمانية وربعية ومضرية، وقد تأكدت أهمية العرب كقوة ضاربة في الجيش العباسي من خلال المعارك التي خاضها العباسيون ضد مناوئيهم، لقد ضعف الوازع الديني كعامل لدفع المقاتله إلى الجهاد، ثم أن حياة الاستقرار في الامصار والمدن الإسلامية وما صاحبها من بذخ ودعة واشتغال بأمور التجارة والزراعة والحرف أبعد العرب وعناصر اخرى عن حركة الفتوحات في الاطراف البعيدة من الدولة الإسلامية، وعملت الفرق الدينية والاحزاب السياسية عملها في تفتيت البنيه الاجتماعية وهدم وحدتها، وقد زادت الفتنة الأهلية بين الأمين والمأمون في اقناع الخلافة بالحاجة إلى تشكيل جيش جديد من عناصر جديدة موالية وبعيدة عن الصراعات الداخلية في الوقت نفسه، وهذا ما فعله الخلفاء وخاصة المعتصم في استقدامه لاعداد كبيرة من الترك المرتزقة لتحل محل الفرق القديمة.

إن استخدام الترك وغيرهم في الجيش كانت له نتائجة الإيجابيه العديدة من عصر المعتصم الذي حقق انتصارات مهمة على حركات مناهضة مثل حركة بابك الخرمي وانتصر على البيزنطيين في معركة (عمورية) ولكن الأمر لم يستمر طويلاً ذلك أن قادة الفرق الجديدة ادركوا أهميتهم في مساندة الخلافة وشعروا بقوتهم فقتلوا الخلفاء أو خلعوهم أو ابعدوهم كما شاركوا في الصراع على السلطة وفي الخصومات

الداخلية بين الكتل المتنافسة أو احياناً داخل كتلة الاتراك نفسها، فغدا الجيش عبارة عن مجموعة فرق متنازعة على السلطة والمال والامتيازات لا ضابط لها، وإذا كانت السلطة قوية والأموال متوفرة في مطالع العصر العباسي فإن الوضع السياسي اختلف في القرن الثالث الهجري بسبب ازدياد حركات الانفصال وكثرة الفتن المناهضة للخلافة ناهيك عن توقف الفتوحات على حدود الدولة الإسلامية وهي عوامل ادت إلى تقلص الموارد وبالتالي قلة الأموال التي تعتبر الدعامة الأساسية التي تستمد الدولة قوتها منها من خلال ارضاء الجند وكسب تأييدهم، «فقوام الملك بالمال وأن الجند لا يسمعون ولا يطيعون إلا لمن اعطاهم»، فكان قادة الجيش يستولون على الولايات أو يأخذونها بالضمان من الدولة ويعيشوا على مواردها وهذا بطبيعة الحال يؤدي إلى فقدان الحكومة المركزية في بغداد موارد كبيرة فكان الصراع بين القادة العسكريين والزعماء المتسلطين في الاقاليم على اشده من أجل البقاء خلال هذه الفترة.

لقد وصفت الثورة العباسية بأنها «ثورة البرجوازية» لأنها عبرت عن طموحات الطبقة المتوسطة التي بدأت تظهر في المراكز الحضرية وتكتسب النفوذ والثروة تدريجياً كما عبرت الثورة العباسية – من منظور اجتماعي- عن أزمة في المجتمع أفرزتها ظروف اجتماعية اقتصادية سياسية في أواخر عصر الأمويين، فكانت الثورة بمثابة استجابة لها اعطت زخماً لعوامل التغيير باتجاه المظاهر الحضرية في المجتمع.

إن بغداد العاصمة الجديدة للعهد الجديد والتي بناها المنصور في مطالع العصر العباسي كانت خير ممثل للاتجاهات الجديدة في المجتمع، وقد راعى الخليفة المؤسس في اختيار موقعها العوامل التي تساعد على تطورها كمركز حضري Urban Centre حيث سهولة المواصلات والتربة والمناخ الجيدين والمياه الوافرة والموقع القابل للتطور كمركز تجاري، ثم إن الاستقرار والتعايش في رقعة محددة مثل بغداد ادى إلى زيادة الاختلاط بين عناصر سكانية متنوعة بسبب المصالح المتبادلة وهذا بدوره اضعف تدريجياً الروح القبلية وعزز الروح الاقليمية والمدينية.

كان الدين الإسلامي منذ البداية مع التحضر وشجع على الاستقرار في الحواضر وبنى الامصار الجديدة وقد وجد العرب المسلمون الذين استقروا في الامصار

والمدن مجالات جديدة للعيش من الزراعة والتجارة والحرف تدر ارباحاً جيدة وشجعت المذاهب الفقهية والفرق الإسلامية على دراسة الشريعة والعلم، واشتد الصراع بين التقاليد القبلية والمفاهيم الإسلامية الجديدة، ولكن عملية التحول الاجتماعي استمرت بخطى ثابتة.

نادت الثورة العباسية ثم الدولة بعد تأسيسها بمفهوم اوسع للإسلام وعمد العباسيون الأوائل إلى توسيع قاعدة اعتمادهم لتشمل نسبة أكبر من الموالي وفئات اخرى بالإضافة إلى العرب، ومع ذلك فقد ظل العرب في مطالع العصر العباسي الفئة الفاعلة والمتميزة في المجتمع، فقد ظهرت أهمية العرب كقوة ضاربة وكانوا العامل الحقيقي وراء نجاح العباسيين، وكان خلفاء بين العباس عرباً يعتزون بتراثهم وشجعوا في بلاطهم التقاليد والقيم العربية وكانو يقدمون بني هاشم ويستشيرونهم في الأمور المهمة وكون العرب الغالبية من (صاحبة) الخليفة بلغ عددهم في عهد المنصور سبع مئة صحابي وفي عهد المهدي خمس مئة من الانصار، أما الموالي الذين لم يكونوا فئة اجتماعية واحدة ولم يكن وضعهم سيئاً بل بدأ بالازدهار في أواخر العصر الأموي وفي العصر العباسي لاشتغالهم بالتجارة والحرف وامتلاكهم الأراضي متمتعين بحماية الدولة أو العشائر المرتبطين بها برباط الولاء وكلما ازدهرت الحياة الاقتصادية كلما تقاطر الموالي إلى المدن الكبيرة وازداد عددهم وهم يبحثون عن موقع جديد في التركيب الاجتماعي، وقد غدا قسم منهم علماء مختصين بالحديث والفقه وغيرها من العلوم بعد ان تتلمذوا على يد العلماء العرب الرواد، كما وأن تطور الماكنة الإدارية استدعى وجود موظفين يعملون في الديوان وكان الموالي غالبية (الكتاب) في الدواوين المركزية والاقليمية قبل التعريب وبعده.

إن بروز فئة الموالي خلال العصر العباسي وقيامها بدور أكبر من قبل كان محكوما بعامل الوقت والتطور التاريخي ليس إلا، فكان لابد أن يمر بعض الوقت قبل أن تأخذ هذه الفئة موقعها الذي تستحقة وتلعب دورها المتميز جنباً إلى جنب مع الفئات الاجتماعية الاخرى، فالسياسة العباسية المرنة بصورة عامة كانت موائمه وسنة التطور التاريخي الذي اتصف بالتغير المستمر، فأكدوا على القيم الحضرية واعطوا قوة

دفع لعملية المشاركة والتمازج بين الفئات الاجتماعية المتعددة ومنها الموالي، وقد ساعد ذلك على تنامي هذه الفئات وظهور كفاءات جديدة في مجالات مختلفة من مناحي الحياة. إن ذلك كله نتج عنه ظهور معيار جديد لتصنيف المجتمع يرفض فكرة العنصر (أو الدم) ليحل محلها الثقافة والفكر والولاء للمجتمع العربي الإسلامي ومبادئه.

وكان أهل الذمة في المجتمع وهم اليهود والنصارى والصائبة والمجوس. وشارك أهل الذمة الموالي في الحرف والتجارة والصنائع وكان منهم خلال العصر العباسي وزراء واطباء وجهابذة ومترجمين وعلماء ومثلما لعب الموالي دوراً في الحركة الشعوبية التي طعنت بالتراث العربي الإسلامي وشككت بدور العرب التاريخي، لعب بعض أهل الذمة دوراً في حملات التشكيك في الإسلام وترجمة كتب المانوية إلى العربية واشاعة (الزندقة) في المجتمع الإسلامي. إن هذه الاعتبارات وكذلك اتصال بعضهم بالروم وقيامهم بحركات ضد الدولة جعلت بعض الخلفاء العباسيين الأوائل يقفون، رسمياً وظاهرياً في الأقل، موقفاً متشدداً من أهل الذمة إلا إن الاجراءات التي اتخذوها كانت شكلية بدليل استمرار استخدام أهل الذمة في الوظائف الإدارية والبلاط واستمرار تمتعهم بنشاطهم في الحياة العامة، وتعتبر اشارات الجاحظ الكاتب المشهور في العصر العباسي وثيقة تاريخية تؤكد الاختلاط بين الذميين والمسلمين والمستوى الاجتماعي والاقتصادي المرموق الذي وصلوه.

وكان لكل طائفة منهم رئيس مسؤول عن الطائفة امام الدولة يعين بمرسوم صادر من الخليفة وتجري له مراسيم خاصة عند التولية وكان رئيس النصارى يسمى (الجاثليق) ورئيس اليهود (رأس الجالوت) وفرضت عليهم الجزية يؤدونها مقابل حمايتهم وضمان أمنهم واستقرارهم، وأعفي منها الأطفال والنساء والشيوخ العاجزين والرهبان والمرضى الذين لا يقدرون على العمل.

إنتهى الجزء الأول ويليه الجزء الثاني

ملحق

الخلفاء العباسيون في عصر القوة والازدهار

- أبو العباس عبدالله بن محمد (السفاح) 132هـ/750م.

- أبو جعفر عبدالله بن محمد (المنصور) 136هـ/754م.

- محمد بن عبدالله (المهدي) 158هـ/775م.

- موسى بن محمد (الهادي) 169هـ/785م.

- هارون بن محمد (الرشيد) 170هـ/786م.

- محمد بن هارون (الأمين) 193هـ/809م.

- عبدالله بن هارون (المأمون) 198هـ/883م.

- محمد بن هارون (المعتصم) 218هـ/833م.

- هارون بن محمد (الواثق) 227هـ/842م.

- جعفر بن محمد (المتوكل) 232هـ/847م-247هـ/ 861م.

المصارد الاصيلة

ابن الآبار 856هـ اعتاب الكتاب طبعة باريس 1954.

ابن الاثير 630هـ الكامل في التاريخ ليدن 1851-1867.

الاصفهاني مقاتل الطالبيين، القاهرة، 1949.

الازرقي 204هـ اخبار مكة ليبزك 1858.

اخبار العباس وولده (المؤلف مجهول) تحقيق الدوري والمطلبي، بيروت، 1978.

اخبار مجموعة (المؤلف مجهول) مدريد 1867.

ابن اصفنديار ق 7هـ تاريخي طبرستان، طهران 1942، مترجم للإنجليزية، لندن 1905.

ابن ابي اصيبعة 668هـ، عيون الانباء في طبقات الاطباء، كونسبرك 1884.

ابن اعثم الكوفي 314هـ. الفتوح حيدر آباد 1969.

الباقلاني 403هـ التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة،القاهرة 1947.

بشار بن برد 168هـ، ديوان بشار، القاهرة 1954.

البغدادي 429هـ كتاب الفرق بين الفرق القاهرة 1328/1910.

البلاذري 279هـ. انساب الاشراف طبعة 1883، والقدس 1938، القاهرة 56-1957.

فتوح البلدان ليدن 1866، طبعة القاهرة 1956.

البلعمي 362هـ، ترجماي تاريخي طبري طبعة 1324/1906 ، والترجمة الفرنسية باريس 1867-1874.

البيهقي ق. 4هـ، المحاسن والمساوئ ليبزك 1900-1902، القاهرة 1906.

تاريخي سيتسان (المؤلف مجهول) طهران 1314.

ابن تغري بردي 874هـ، النجوم الزاهرة ليدان 1851- القاهرة 1929-1939.

التنوخي 384هـ الفرج بعد الشدة القاهرة، 1938- المستجاد، دمشق 1946- نشوار المحاضرة لندن 1921.

الثعالبي 429هـ لطائف المعارف القاهرة 1960.

الجاحظ 255هـ البيان والتبيين القاهرة 1948.

الحيوان القاهرة 190-1906.

البخلاء القاهرة 1980.

العثمانية القاهرة 1955.

ثلاثة رسائل ليدن 1903.

رسائل، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة1964.

رسائل تحقيق السندوبي القاهرة 1933.

مجموعة رسائل القاهرة 1906.

كتاب التبصر بالتجارة القاهرة 1933.

التاج (منسوب إليه) القاهرة 1914.

نفي التشبيه مجلة المشرق 1953.

من كلام الجاحظ لغة العرب ج2.

رسالة في اثبات امامه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لغة العرب ج 7.

رسالة إلى أبي عبدالله لغة العرب ج9.

رسالة في النابتة X.I.I.O.C، باريس 1897.

رسالة في الحكمين المشرق 1908.

رسالة لم تنشر للجاحظ، المشرق 1953.

الجهشياري 247 هـ الوزراء والكتاب، القاهرة 1938.

ابن حبيب 245 هـ، كتاب المحبر، حيدر أباد، 1942.

اسماء المغتاليين من الاشراف، القاهرة 1954 ضمن سلسلة نوادر المخوطات).

ابن حجر العسقلان 852 هـ، تهذيب التهذيب، حيدر اباد 1325-1327 لسان الميزان، حيدر اباد 1329.

ابن أبي الحديد 955 هـ. شرح نهج البلاغة القاهرة 1329.

ابن حزم 456 هـ كتاب الفصل في الملل والنحل، القاهرة 1317-1320.

حمزة الاصفهاني 360 هـ، تواريخ سني ملوك الأرض والانبياء، ليبزك 1844.

الحكمي كتاب تاريخ اليمن، لندن 1309/1892.

ابن حمدون 562 هـ تذكرة القاهرة 1927.

الحنفي النهر والي 990 هـ، الاعلام باعلام بيت الله الحرام ليبزك 1861.

ابن خرداذبة 300 هـ كتاب المسالك والممالك، ليدن 1889.
الخزرجي 812 هـ الكفاية والاعلام فيمن ولي اليمن وسكنها من الاعلام.
الخطيب البغدادي 643 هـ تاريخ بغداد، القاهرة 1931/1349.
ابن خلدون 804 هـ كتاب العبر القاهرة 1957/1384.
المقدمة، بيروت 1957.
ابن خلكان 681 هـ وفيات الاعيان القاهرة 1299.
الخياط المعتزلي 300هـ كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد (مع مقدمة للمستشرق نيبرك)، بيروت 1957.
ابن الداية 945 هـ المكافات القاهرة 1941.
دعبل الخزاعي 246 هـ ديوان النجف 1962.
ابو دلامة زند بن الجون 160 هـ، ديوان الجزائر 1922.
دينسس التلمحري ق 2 هـ، تاريخ ترجم إلى الفرنسية باريس 1985.
الدينوري 282 هـ الاخبار الطوال ليدن 1888.
الذهبي 748هـ تاريخ الإسلام الكبير.
الزبيري 236 هـ نسب قريش القاهرة 1953. كتاب «الموفقيات»
الزجاجي 337 هـ الامالي، القاهرة1324.
ابو زكريا الازدري 182 هـ. تاريخ الموصل القاهرة 1967.
ابو زكريا يحيى /336هـ السبرو وأخبار الأئمة ، ترجمة انجيلزية. الجزائر 1878
السالمي1913 م تحفة الاعيان بسيرة أهل عمان القاهرة1961.
ساويرس ابن المقفع ق 4 هـ تاريخ البطارقةالمصرية القاهرة 1943.
سرحان بن سعيد الازكوي كشف الغمة الجامع لاخبار الأمة، 1933.
ابن سعد 230 هـ كتاب الطبقات ليدن 1905
سعيد بن بطريق ق 4 هـ التاريخ المجموع على التحقيق بيروت 1905.
الاسفرايني 471 هـ التبصير بالدين، القاهرة 1939-1940.
ابن سلام 223 هـ، كتاب الأموال، القاهرة 1930/1353
السمهودي 911 هـ، خلاصة وفاء الوفاء في اخبار دار المصطفى بولاق 1285.

السيوطي 911هـ، اخبار الخلفاء القاهرة 1887.

الاشعري 324 هـ مقالات الإسلاميين استانبول 1929.

الشهرستاني 548 هـ كتاب الملل والنحل ليبزك 1923.

الشيرازي 476 هـ طبقات الفقهاء بغداد 1356.

الصابئ 448 هـ رسوم دار الخلافة بغداد 1964.

أبو صالح الارمني ق 6 هـ الكنائس والاديرة اكسفورد 1895.

صالح بن رزيق ق 19م تاريخ الائمة والسادة في عمان ترجمة انجليزية، لندن 1871.

ابن الصباغ كتاب الفصول المهمة في معرفة الائمة نجف 1348.

الصفدي 764 هـ الوافي بالوفيات استانبول 1931-1959.

الصولي 335 هـ أدب الكتاب القاهرة 1341- اخبار الشعراء المحدثين لندن 1934.

الطبري 310هـ تاريخ الرسل والملوك ليدن 1881، دار المعارف، القاهرة، 1986

ابن الطقطقي 709 هـ الفخري باريس 1895.

الطوسي 548 هـ فهرست كتب الشيعة كلكتا 1853-1855.

ابن طيفور 280هـ كتاب بغداد ليبزك 1094 أو القاهرة 1949.

ابن عبدالحكم 242هـ فتوح مصر الجزائر 1947.

ابن عبدربه 328 هـ العقد الفريد القاهرة 1940.

ابن العبري 681 هـ مختصر تاريخ الدول بيروت 1890، النسخة الإنجليزية لندن 1932.

ابن عذاري ق 7 هـ البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب ليدن 1948-1951.

ابن عساكر 571 هـ تاريخ دمشق 1333.

علي بن ربان الطبري ق 3 هـ كتاب الدين والدولة ما نجستر 1922.

ابن عنبة 828 هـ عمدة الطالب في انساب آل بي طالب نجف 1961

الفاسى 992هـ شفاء الغرام... ليبزك 1858.

أبو الفرج الاصفهاني 356 هـ الاغاني بولاق 124. مقاتل الطالبين النجف 1965

ابن الفقيه الهمداني 289هـ كتاب البلدان ليدن 1885.

ابن قتيبة 276 هـ الشعر والشعراء ليدن 1904

عيون الاخبار القاهرة 1925.

كتاب المعارف القاهرة 1960

كتاب العرب (رسائل البلغاء) تحرير محمد كرد علي ادب الكاتب ليدن 1900.

الامامة والسياسة القاهرة 1904 (منسوب إليه) اختلاف اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة القاهرة 1930 رسالة في الرد على المعتزلة. (مخطوطة Sg. V. 411. S. O. A. S) لندن.

قدامة بن جعفر 337 هـ كتاب الخراج ليدن 1889.

القفطي 646 هـ تاريخ الحكماء ليبزك 1320

القلقشندي 821 هـ ماثر الانافة في معالم الخلافة كويت 1964.

صبح الاعشى القاهرة 1919-1920

القمي 301 هـ فرق الشيعة طهران 1935.

القمي ق 9 هـ تاريخ قم طهرن 1935.

كتاب العيون والحدائق ليدن 1869 (المؤلف مجهول).

الكتبي 764 هـ فوات الوفيات القاهرة 1283.

ابن كثير 774 البداية والنهاية القاهرة 1932.

الكشي ق 4 هـ معرفة اخبار الرجال النجف 1964.

ابن الكلبي، هشام ق 3 ق نسب مضر واليمن الكبير (المتحف البريطاني، 22376 جمهرة النسب المتحف البريطاني 1202).

الكليني 329 هـ اصول الكافي لكناو 1302.

الكميت الاسدي 126 هـ الهاشميات القاهرة 1950.

الكندي 350 هـ الولاة والقضاة ليدن 1912- كتاب القضاة باريس 1908.

المبرد 225 هـ الكامل في الادب القاهرة 1956.

المجلسي 111 هـ بحار الانوار طهران 1302-1315.

محاسن المساعي في مناقب الامام أبي عمر والاوزاعي (المؤلف مجهول)، دمشق 1312.

ابن المرتضى 840 هـ طبقات المعتزلة بيروت 1961.

مسلم ابن الوليد 208 هـ ديوان ليدن 1875.

المسعودي 345 هـ مروج الذهب باريس 1873.

التنبيه والاشراف ليدن 1894 بيروت 1965.

ابن المعتز 296 هـ طبقات الشعراء المحدثين القاهرة 1955.

الشيخ المفيد 413هـ الارشاد النجف 1962.

المقدسي، مطهر بن طاهر 355 هـ البدء والتاريخ باريس 1899-1906.

ابن المقفع 139 هـ رسالة في الصحابة بيروت 1960(رسائل البلغاء).

المقريزي 854هـ الخطط القاهرة 1959.

المقري 355 هـ نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب القاهرة 1949.

الملي 377 هـ كتاب التنبيه والرد استانبول 1936.

ابن منظور 771 هـ لسان العرب بيروت 1955-1956.

ميشيل السوري تاريخ، باريس 1904.

نبذة من كتاب التاريخ (لمؤلف مجهول) موسكو، معهد الدراسات الشرقية، 1960

النجاشي 450 هـ كتاب الرجال بومبي 1917.

ابن النديم 377 هـ كتاب الفهرست القاهرة 1947

النرشخي 348 هـ تاريخي بخاري طهران 1939 - ترجمة إنجليزية للمستشرق فراي 1954.

نظام الملك 485 هـ سياسة نامه (سير الملوك) لندن 1960.

أبو نعيم الاصبهاني 430 هـ حلية الأولياء القاهرة 1938 - ذكر اخبار اصبهان ليدن 1931.

النوبختي 300 هـ كتاب فرق الشيعة النجف 1959.

الواسعي 1326 هـ تاريخ اليمن (كتب سنة 1326هـ/ 1908 م) القاهرة 1346

وكيع 306 هـ اخبار القضاة القاهرة 1947.

ياقوت الحموي 626 هـ معجم البلدان ليبزك 1866/1873- ارشاد الاريب ليدن 1907-1931.

يحيى بن آدم 203 هـ كتاب الخراج ليدن 1958.

اليعقوبي 284 هـ التاريخ، ليدن 1883.

البلدان، ليدن 1892.

مشاكلة الناس لزمانهم، طهران 1323.

أبو يعلي الفراء 458هـ طبقات الحنابلة، دمشق 1350

أبو يوسف القاضي 182 هـ كتاب الخراج القاهرة 1352/1933.

الكتب الحديثة باللغة العربية

أحمد أمين: ضحى الإسلام ج 3 القاهرة 1936 المهدي والمهدوية، القاهرة 1953.

أحمد ، الدكتور محمد حلمي: الخلافة والدولة في العصر العباسي القاهرة 1959.

الباشا، حسن: السفاح والمنصور بيروت 1960.

الالقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق القاهرة 1957.

بدير متولي حميد : من أدب الحركات الفكرية، القاهرة، دار المعرفة، د.ت.

ثابت، نعمان: الجندية في الدولة العباسية، بغداد 1956.

الجواري، الدكتور عبدالستار: الشعر في بغداد، بغداد 1956.

جوزي، بندلي : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، بيروت د.ت.

الجومرد، الدكتور عبدالجبار: (1) أبو جعفر المنصور، بيروت 1963

(2) يزيد بن مزيد الشيباني، بيروت.

(3) هارون الرشيد، بيروت، د. ت.

حجاب، محمد نبيه: مظاهر الشعوبية في الادب العربي، القاهرة 1961.

حسن، سعد محمد: المهدية في الإسلام، القاهرة، 1953

حسن، محمد: أبو مسلم الخراساني «مشاهير العرب»8، القاهرة 1958

حميدة، عبد الحسيب طه: أدب الشيعة، بغداد 1968.

الدوري، الدكتور عبدالعزيز: (1) العصر العباسي الأول بغداد 1945

(2) مقدمة في تاريخ صدر الإسلام بغداد 1949.

(3) النظم الإسلامية بغداد 1950.

(4) الجذور التاريخية للشعوبية بيروت 1960.

(5) مقدمة في تاريخ العرب الاقتصادي، بيروت.

رفاعي، أحمد مزيد: عصر المأمون، القاهرة 1928.

رستم عبدالسلام: أبو جعفر المنصور، القاهرة 1965.

الريس محمد ضياء الدين: الخراج في الدولة الإسلامية، القاهرة 1957.

أبو زهيرة محمد: المذاهب الإسلامية، القاهرة 1950

زكي، أحمد: الحياة الادبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، دمشق 1961.
زيدان، جرجي :(1) أبو مسلم الخراساني القاهرة 1933.
(2) العباسة اخت الرشيد القاهرة، 1933.
السيابي، سالم: اسعاف الاعيان في انساب أهل عمان، بيروت، 1965.
الشيال، جمال الدين: تاريخ مصر الإسلامية، الاسكندرية 1957.
الشيبي، كامل مصطفى : الصلة بين التصوف والتشيع، بغداد 1963.
العاملي، محمد أمين : اعيان الشيعة دمشق 1936.
العلي، الدكتور صالح أحمد : التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية في البصرة في القرن الأول الهجري بغداد 1953.
علي، محمد كرد : (1) خطط الشام دمشق 1922-1926.
(2) أمراء البيان، القاهرة 1937.
(3) رسائل البلغاء ، القاهرة 1957.
عمر، الدكتور فاروق: (1) مقدمة في مصادر التاريخ العماني، بغداد 1979.
(2) طبيعة الدعوة العباسية، بيروت 1970.
(3) العباسيون الأوائل، الجزء الأول بيروت 1970
(4) العباسيون الأوائل، الجزء الثاني، دمشق 1972
عنان، محمد عبدالله: تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة القاهرة 1926
فروخ، عمر : عبدالله بن المقفع، بيروت 1941.
بشار بن برد، بيروت 1946.
القمي : سفينة البحار، النجف 1355
آل كاشف الغطاء : أصل الشيعة واصولها، بيروت 1931
كاشف، سيده إسماعيل: مصر في فجر الإسلام، القاهرة 1947.
كحالة، عمر رضا : معجم قبائل العرب، دمشق 1949.
معروف، ناجي : عروبة المدن الإسلامية، بغداد 1964
المقدسي : أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، بيروت 1961
موسى ، محمد يوسف : تاريخ الفقه الإسلامي 1964.
النجم، الدكتورة وديعة طه: الجاحظ والحضارة العباسية، بغداد 1965.

المقالات والبحوث باللغة العربية

الدوري، عبدالعزيز: ضوء جديد على الدعوة العباسية، مجلة كلية الآداب، 1961.

الديوجي، سعيد: خطط الموصل، سومر، 7، 1951.

الزيات، حسن : (1) التشيع لمعاوية في العصر العباسي، المشرق 1928

(2) مزاعم المؤرخين العباسيين في وصف شره الأمويين، المشرق 1948

شعيره، عبدالهادي: المرابطون في الثغور البرية العربية الرومية الذكرى الفرضية لطه حسين، القاهرة 1963.

الشيبي، كامل مصطفى: التقيه، مجلة جامعة الاسكندرية ج 16 ص 1962-1963.

شيخو : المحاورة الدينية التي جرت بين المهدي وطيماثوس، المشرق 1923 انظر كذلك 1931 M.W.

العلي، صالح أحمد : (1) خطط البصرة، سومر 1952

(2) منطقة الحيرة، مجلة كلية الاداب 1962

(3) استيطان العرب في خراسان، مجلة كلية الاداب 1959.

(4) بغداد في عهد المنصور، مؤتمر المدن الإسلامية، اكسفورد، انكلترا 1965.

علي، محمد كرد: مميزات بني أمية مجلة المجمع العلمي العربي، ج 15، ج، 1 16 ,1937-1941.

عمر، فاروق :موقف المعتزلة من العباسيين الأوائل، مجلة الاقلام، بغداد، 1968الجذور التاريخية لادعاء العباسيين بالخلافة، مجلة كلية الدراسات الإسلامية، بغداد، 1968 وصايا المنصور لولي عهده المهدي مجلة الرسالة الإسلامية، بغداد 1969 نظرة جريدة الي علاقة الترك بالخلافة العباسية، مجلة المكتبة، بغداد، 1968.

الكتب الحديثة باللغات الأجنبية

Abbott, N., **Two Queens of Baghdad**, New York, 1946 (Arabic translation 1970)

Agha Buzurg al- **Tihrani, al- Dhari'a ila tasanif al- Shi'a**, Jagaf, 1936.

Ahmad, M.,al- Mas'udi Millenary Commemoration volume, aligarh, 1960.

Arabic and Islamic Studies in honour of Sir H. A. R. , Gibb, published by E. J. Brill, Leyden, 1965.

Arberry, A. J., **The Chester Beatty Library, a Hadbook of the Arabic manuscripts,** Dublin, 19550.

Arendonk, C van, **De Opkomst van het Zadietische Imamat in Yemen,** Leyden, 1919 (French trans J. RYckmans, Leyden, 1960).

Aronld, Sir Thomas, **W., The Caliphatte, Oxford, 1924.**

Bagdad, volume special, publie ́a I'occassion du Mille Deux Centime Anniversaire de la Fondation, Leyden, 1962.

Barthold, W., **Turkestan down to the Mougol Invasion**, Snd ed., London, 1928.

Bausani, A., **Persia rligios de Zaratustra a Bahau' llah**, Milano, 1959.

Blochet, E.,

-1 Catalogue de Mansuscripts Arabes, Nouvelles Acquisitions, 1884-1924, Paris 1925.

-2 **Le messianisme dans I'hétérodoxie musulmane,** Paris, 1903.

Bouvat, **L. Les Barmécides d'apres les auteurs arabes et persans**, Paris, 1909.

Brockelmann C.,

-1 Gesehichte der Arabisehen Litterature, 2 voles., Leyden 1898. Supplement 3 vol. 1937-43. 2 nd.,2 vols, Leyden, 1943-9.

-2 History of he Islamic peopples, New York, 1947.

Browne, **B.,G Aliterary History of Persia,** Cambridge, 1909-1930.

al-Bustani, B., **Mutaqayat udaba, I-Arab fi' IUsür al-Abbässiya,** Beirut, 1948.

Butcher, **E. L., The story of the Church of Egypt,** 2 Vols., London Chejne, A. G., **Succession to the Rule in Islam**, Lahore, 1960.(Arbic Trans. by. aL Khashsab, Cairo. 1957)

Christensen, **A., L'Iran sous les Sassanides,** Copenhagen, 1936.

Caler. N., **The stracture of authority in Imami shili Jurispvadenee,** Rh. D. Thesin, Londen, 1979.

Chohn, N., **The pursuit of the Millennium**, Lodon , 1962.

Cahen, **C. les peuples musulmaus**..., paris, 1977.

Creswell, K. A. C.,

1- Fortification in Islam berore A. D. 1250,London, 1952.

2- A short Account of early Muslim Architecture, London 1958

Danial, **The pditical and Soceal Histry of khurasan Unden Abbasid Rule,** 1979.

Dawood, A. H., **A comparative study of Aravic and Persian Mirrors for Prinecs from the second tothe sixth century A. H.,** Ph. D. Thesis, S. O. A. S., 1965.

Denner, D. C.

1- Marwan Ibn Muhammad, Ph. D., Thesis Harvard University, 1939

2- Conversion and poll-tax in early Islam, Harvard University Press, 1950.

De Slane, **M., Catalogue des Manuscripts Arabe, Bibliotheque Nationale,** Paris, 1883-95.

Donadson, **D. M., The Shi'ite Religion,** London, 1933.

Dunlop, D. M., **The history of the Jewish Khazars**, Princeton, 1954.

Cambridg Histroy of lnam, IV, ed. R. N. Frye, Cambridge, 1975.

Eghbal, Al., **Khanedane Nawbakhti**, Teheran. 1933.

Encyclopaedia of Islam, 1st edition, Leyden,1913.

Encyclopaedia of Islam, 2nd edition, Luzac & Co., 1960 in progress.

Fahmy, A. M., **Muslim Sea power in the Eastern Mediterranean** (7 th to the 10 th century A. D.) , London, 1950.

Fattal, R., **La staaut des non-musulmans en pays d' Islam an Moyen Age,** Beirut, 1958.

Fischal, W. J., **The Jews in the economic and political life of Medieval Islam,** London,1937.

Frye, R. N., **The Heritage of Persia,** London, 1962.

ed., Cambridge History of Iran, IV, Cambridge, 1975.

Gibb, H. A. R.,

1- **The Arab conquests in Central Asia,** London, 1923.

2- **Studies on the civilization of Islam,** London, 1962.

Gotein, S. D., **Studies in Islamic histroy and institutio,** Leyden, 1966.

Goldziher, I., **Muhammedanische Studien,** 2 vols. Halle, 1889-90, new edition, Hildesheim, 1961.

Grohmann, A., **Arabic papyri in the Egyptian Library,** Cairo, 1934.

Grunebaum, G. E., **Medieval Islam,** Chicago, 1946.

Hovannisian , R., **The persiam presence in the Islmic World,** 1998, A. B. C. Co. Hd.

Jafri, S. H. M.., **The early development of Legitimate Shi' ism**, Ph. Dd., S. O. A. S., 1966.

Kennedy, J., **The Early Abbasid Caliphote**, London, 1981.

Khulousi S.D., **Shi' ism and its influence on Arabic literature,** Ph. D. Thesis, S. O. A. S., 1947.

Khurasani, M. gh., **Abdallah b. al- Muqaffa,** Cairo 1965.

von Kremer, A., **Orient under the Caliphs,** trans, into English by K. Bukhsh, Calcutta, 1920.

Lambton, A. K. S., **Landlord and peasants in Persia,** Oxford, 1953.

Lassner, J., **The Shaping of Abbasid Rulle**, Princeton, 1980.

Lapidus, I., **The Euolution of Muslim Urban Socity,** C. S. S. H., 1973.

Lane Poole, S.

1- **Catalogue of Oriental coins in the British Museum**, vols, I, IX London, 1875.

2- **Catalogue of the Mohammadan coins preserved in the Bodleian Library at Oxford,** Oxford 1888.

3- **The Mohammadan dynasties,** Paris, 1925.

Le Strange, G.

1- **The lands of the Eastern Caliphate,** Cambridge, 1930.

2- **Baghdad during the ' Abbasid Caliphate,** Oxford, 1924.

Lévi- Provencal, E., **Histoire de :I'Espagne Musulmane, vol. I, 1944.**

Etudes Historiques, publiées par l'Institut Francais d'Archéologie Orientale du Cairo.

Lewicki, T., **Les Ibadites en Tunisie au Moyen Age, Accademia palacca di scienze e letters, Biblioteca di Roma,** Roma, 1958.

Lewis, Bernard.,

1- **The Origins of Isma'ilism,** Cambridge, 1940.

2-The Arabs in history, London, 1950.

Lewis, B. and Holt, **P.M., Historians of the Middle East,** London, 1962.

Loekkegarrd, F., **Islamic Taxation in the classic period.,** Copen., 1950.

Marcais, G., **La Berbere musulmane**, Paris, 1946.

Margolioth, D. S., **Lectures on Arabic Historians,** Calcutta, 1930.

Massignon L.

1-**La passion d'al Hallaj, martyr mystique de I'Islam,** Paris, 1922.

2- **Sam'an P'ak et les premices spirituelles de I'Islam Iranian**, Paris, 1934 (Arabic trans. by A. Badawi in Shakhisyyat qaliqa fi 'I Islam, Cairo, 1956.

McGovern, W.M., **The early empires of Central Asia**, Chapil Hill, 1939.

Mélikoff- sayar, I.,

1-**La Geste de Melik Danismand**, Paris, 1960. (see B.S.O. A. S., XXVII, 11964 , pp.36 /63)

2- **Abu Muslim le "porte- Hache" du Khorasan,** Paris, 1962.

Miz, A., **Die Renaissance des Islam,** Heidelberg, 1922. (English trans. by K. Bukhsh, **Renaissance in Islam**, Patna, 1937).

Miles, S.B., **The countries adn tribes of the Persian Gulf**, London, 1919.

Minorsky, V.F., **La Domination des Dailamiters,** Paris, 1932. (Publications de la Société des Etudes Iraniens et de ;'Art Persian).

1- **Studies on the witings of al-Jahiz**, Ph. D. Thesis, S.O.A.S., 1958.

Nichelson, R. a., **A Literary history of the Arabs** Cambridge, 1953.

Noldeke, Th., **Setches from eastern History** (English trans. by J.S. Black), London, 1892.

Omar. F., **The Abbasid Caliphate, 132/750 -170/786**, Baghdad, 1969.

Ostrogorsky, **G., History of the Byzantion State** (English trans. by J. Hussey) Oxford, 1956.

Pellat, Ch., **Le Milieu Basrien et de Frmation du Gahiz,** Paris, 1953. (Arabic trans. by I. al-Kilani, Damascus, 1961).

Petersen, E. L., **Ali and Muawiya, Copenhagen**, 1964.

Rajkowski, W. W., **Early Shi'ism in Iraq, Ph Thesis**, S. O. A. S..,1955.

Rosenthal, F.,

1- **A History of muslim Historiogaraphy,** Leyden, 1952 (Arabic trans. by al Ali).

2- **Teehnique and approach of the Muslim scholarship,** Rome, 1947.

Sadighi G. H., **Les mouvenents religieux Lraniens du 11e et 111e, siecles de l'Jégire,** Paris 1938.

Salem, E. A., **Political Theory and institutions of the Khawarij** (The John Hopkins University Studies in Historical and Political Science, Series LXXIV, No. 2, 1955).

Sauvaget, J., **Introduction a l'Histoire de l'Orient Musulman**, 2 nd ed. C. Cahen, Paris 1961.

Schacht, J.,

1- **The Origins of Muhammadan Jurisprudence**, Oxford, 1950.

2- **An Introduction to Islamic law,** Oxford, 1964.

Sourdel, **D., Le vizirat 'Abbasid,** Damascus, 1959-1960.

Spuler, B., **Iran in füh-Islamischer Zeit,** Wiesbaden, 1952.

Storey, C. A., **Persian literature**, London, 1935.

Tritton, A. S.,

1- **Muslim Theology**, London, 1947.

2- **The Caliphs and their non-Muslim subjects**, Oxford, 1930.

Tyan, E., Institutions duDroit public Musulman, 1954, 1957.

Vajda, G.,

1- **Répertoire des catalogues et inventaord de manuscripts Arabes,** Paris, 1949 (Institut de Rwchercheet d'Histoire des TextesII).

2- **Index général des manuscrips arabed Musulmans de la bibliothéques nationale** de Paris, Paris, 1953.

Van Vloten, G.,

1- **De opkomst der Abbasiden in Chorasan**, Leyden, 1890.

2- **Recherches sur la Domination Arab**, Amsterdam 1894. (Arabic trans. by H.

I. Hasan, Cairo, 1934).

Vasiliev, A.A.,

1- **Byzance et les Arabes,** Bruxelles, 1935.

2- **History of the Byzantine Empire,** 2 vols., Madison.,1958.

Vasmer, R., **Chronologie des arabischiscen stathalter von Armanien unter den Abbasiden, von assaffah biz Zur Krönung Ashots I, 750-887,** Lenigrad, 1931.

Walker, J., A catalogue of the Arab-Sassanian Coins, London, 1941.

Watt, M.,

1- **Islamic Survey**, 1, Islamic philosophy and theology., Edinburgh, 1962.

2- **Free Will and predestination**, Edinburgh, 1962.

Walker, J., A **Catalogue of the Aual- Sassanian Coins**, Londan 1941

1- **The Arab Kingdom and its fall,** Calcutta. 1922.

2- **Die religiös- politischen Opposition Sparteien im alten** (Arabic trans. by A. Badaei, al-Khawarij wa' I Shi'a Cairo, 1958).

Eensink, A. J., **The Muslim Creed**, Cambridge, 1932.

Yusufi gh., **Abu Muslim, Sardar Khurasan**, Teheran, 1964.

Zachner R.C., **The dawn and twilight of Zorastrianism**, London, 1960.

Zaydan, J.,

1- **The Umayyards and the 'Abbasids, translated into** Englis by D. S. Margoliouth , London , 1907.

2- **The signiticauce of Khavijism unden the Abbasids,** R. I. R.

Wiet, G., "L'empire néo-byzantin des Omayyades et l'empire neo-Sassanide ded 'Abbasided", in Cahiers d'histoire mondiale, I, 1953,pp. 63-71.

Wright, E. M., "Symbols of Iranian persistence...A, M. W., 38, 1948, pp. 43-59, 124 -131.

Yakubovsky, A. Y., **"Vosstaniye Mukanni",** S. V., V, 1948, pp. 35-54.

البحوث باللغات غير العربية

Amedroz , H.F. " Of the meaning of the Laqab " Al -Saffáh " , **J.R.A.S**, 1907 , pp. 660 -663 .

mélineau, M.E., " Les derniers jours et la mort du Khalifa Merwán" , J.A., II , 1914 , pp . 660-663 .

Ashtor, E., " Essai sur les prix et les salairés dans l'empire Califien " , **R.S.O** ., 36, 1961 , pp . 16-69.

Ayalon , D., " The military reforms of the Caliph al - Mu'tasim. Their background and consequences" Unpublished paper .

Bosworth , C.E. " The rise of the Karámiyyah in Khurasan " **M.W.**, 50, 1960, pp. 5-14 .

Brooks , E.W.,

1- " **Byzantines and Arabs in the time of the early Abbásid " , E.H. R.** XV . 1900, XVI, 1901.

2- "The Arabs in Asia Mionr from Arabic siurces", **J. H.S.**, 18, 1898.

Cahen C., 1- Dhimma, E. i.(2).

2- "Points de vue sur la' Révolution 'Abbaside'" in **R. H.,** 1963.

3- "Les chroniques Arabes concernant la Syrie, l' Wgypte et al Mésopotamie...". **R.E.I.**, 10, 1936, pp. 333-362.

Canard, M., "Les Exp´editions des Arabed Scontre Constaninople dans.

Dietrich, A., "Das politische Testamen des Zweitigen ' Abbasiden Kalifen al-Mansur', **Der Islam,** 1952, pp. 133-165.

Eliash, J.the shicite Qur'am, a reconsidnation of G. int., Arabica, 1969.

Friedlaender, I., "The Heterodoxies of the Shi'ited in the presention of Ibn Hazm' , **J. A. O. S.,** XXVVII.

Frye, R. N.,

1- "The rôle of Ablû Muslim', **M.W.,** 1947, 37, pp. 28-38.

2- "The ' Abbâsid Consipracy and modern revoution theory', **Indo-Iranica,** III, 1952-53, pp. 9-14.

3- "Turks in Khurasan and Transoxania at the time of the Arab conquest', **M. W.,** 35, 1945, pp. 308-15.

4- "History of Bukhâra, a review', **R. S.O.,** 30, 1955.

5- "City chronicles of central Asia adn Khurasân' (Avicenna Commemoration Volume, Calcutta, 1956, pp. 89-92).

Frye, R. N., and Sajili : Turks in the Middle East before the Saljûks', **J. A. O. A.,** 63, 1946, pp. 194-207.

Gabrieli Fr.

1- "Sl-Ma'mûn e gli ' Alidi , **Morgeul Texte und Forschungen**, II, 1929, Leipzig.

2- "La succession di Hârûn al-Rashîd e la guerra fraal- Am'mûn', R. S. O., XI, 1928, pp. 341-97.

3- "L'opera di Ibn al-Muqaffa' **R. S. O.,** XIII, 193-32.

Gibb, H. A. R.,

1- "The Argument from design, A Mu'tazilite treatise attributed to Jahiz," I. Goldrzhier. Mem. Volume, I,pp. 150- 62.

2- "Chinese records of the Arabs in Central Asia", **B. S. O.S. ,** II, 1922, pp. 613-622.

3- "Government and Islam under the early 'Abbâsid' **Elaborations d'Islam,** VIII,pp. 115-127, Press Université de France 196-62.

4- Constitutional organization, in M. kh. ed , law, 1955

5- "The fiscal rescriop of ' Uma II', **Arabica**, II, 1955. pp. 1-16.

6- "The Caliphate and the Arab states', in a **History of the Crusades,** vol. I, 1958, pp. 81-89.

Goije, J. de, "Al-Balâdhurî's Ansâb al- Ashrâf", **Z.D.M.G.,** 38, 1884.

Goitein, S.D.,

1- "The origin of the visirate and its true character, **I. C.,** XVI, 1942, pp. 255-263, 380-92.

2- "A turning point in the history of the Muslim state", I. C., 28, 1949, pp. 120-135.

3- "The rise of the Near Eastern Bourgeoise in early Islamic times", **J. W. H.,** III, 1956 (Reviwe and reply by A. Belyaw, **J. W. H., IV**, 1957-8).

4- "The place of Balâdhurî's Ans^b al-Ashrâf in Arabic historigraphe", **I. C. O.,** 1935, pp. 603-606.

5- A Hitudes towards qovenment in Islam... in studies Leiden, 1968.

Goldziher, I.,

1- "Ombre de Dieu, Khalifa de Dieu", **R. H.E.,** XXXV 1897.

2- Sâlih b. 'Abd al-Kuddûs, **I. C. O. ,** London , 1893, II, pp. 104- 29.

Graber, O., "Umayyad ' palace' and the' Abbâsid revolution", **S.I.,** XVIII,1963.

Gregoire H., "Les Armenians entre Byzance et I'Islam", **Byzantion**, X, 1935.

Grunebaum, G. E.,

1- "Three Arabic poets of the ealy 'Abbâsid Age", **Orientalia**, Vol, 17, 1948, vol. 19, 1950, vol 22, 1953.

2- "Muslim civilisation in the 'Abbâsid period", Cambridge Medieval History (new ed. 1966).

Guest, R.,

1- "Relations between Persia and Egypt under Islam", **Browne Festschrift**, 1922.

2- "A coin of Abû Muslim", **J. R. A. S.,** 1932, pp. 54-6.

Hedgson, M. G.S., "How did the early Shî'a become a sectarian?" **J.A.O.S.,**751955, pp 1-13.

Houtsma, M.,

1- "Bih'afrîd", W.Z.K.M., 3, 1889,pp. 301-37.

2- "Die Hashwîya", **Zeit fûr Associalligi**, XXVI, pp. 196-202.

al-Hussaynî, A.M., "The Umayyad policy in Khurasân", Jouranl University of **Peshawar**, 4, 1955, pp. 1-21.

Iranî, M.S., "Khorasan after the Arab conquest", **All India Oriental Conference,** 13, 1946, pp. 530-37.

Ivanow, W., "The Early Shi'ite movement", **J.B.B.R.A.S.,** 1939.

Köcher, E., "Ya ' qûb b. Da' ûd, Wezir al- Mahdi" in Mitteilungen des Instituts für **Orientforschung**, III, 1955.

Krenkow, F., "The book of strife" , **I.C.,** III. 1929, pp. 561-568.

Kurat, A. N., "Abû Muhammad Ahmad b. A' tham al-Kûfîs Kitâb al- Futûh", A. U. **T. F.,** vols 6,7, 1949,pp. 255-282.

Lambton, A. K. S.,

1- "An account of the Târîkh-i Qumm," **B.S.O.A.,** 12, 1948.

2- "The Persian Theory of government",**S.I.,** 1956-57.

Lammens, H "Le ' Sofiani", **B.I.F.A.D.**, 21,1923

Laoust, H., "Le Hanbalisme sous le califat de Baghdad", **R. E.I.**, 27, 1959, pp. 67-74 Seealso Ahmad b. Hanbal, E.I, 121.

Lapidus, I., Te separation of State and Religeon in the devel. of eavly Islamic Society IJMES, VI, 1975.

Lassner, J.,

1- "Notes on the Topography of Baghdad", **J.A.O.S.,** vol. 83, 1963.

2- "Some speculative thoughts on the search for an ' Abbâsid capital", part I, **M.W.,** 1965; part II, **M.W.,** 1966.

3- "why did Caliph al-Mansur build Ar-Rusâfa?", **J.N.E.S.,** vol XXXIX , 1965.

4- "The caliph's persnal domain", **Kunsr des Oriens,** IV, 1964.

5- "Massigono and Baghdad: The Complexities of growth in an imperial city", J. **E. S. H.O.,** vol. IX, 1966 , pp. 1-27.

lewicki, T. Al- Ibadiyya. E.1.(2).

Lewis, B.,

1- "An apocalyptic vision of Islamic History", **B.S.O.A.S.,** 13, 1950, pp. 308-338.

2- "Some observations on the significance of Heresy in the History of Islam", **S. I.,** vol. I, 1953 pp. 43-63.

3- "Government, society and economic life under the 'Abbâsids and Fatimids" in **Cambridge Medieval History** (new ed. 1966, pp.639-661).

Lichtenstadter, E., "From paricularism to unity", **I.C.,** 1949, pp. 251-80.

Madelumg, W., Atrreatise of the sharif al-Murtada مسألة في العمل مع السلطان B.S.O. A.S., 1980 Religious Trends in Early Islamic Ivan, B.p., 1988.

Margolioth, D. S., "On Mahdis and Mahdism", **Proceedings of the British Academy,** 1915.

Mélikoff-Sayor, I., "Abû Muslim, Parton des Akhis", **I. C. O.,** 1957,pp. 419-421.

Mpseti, S.,

1- "Studi su Abu Muslim", **Rendiconti Incei**, ser. VII, IV, 1949, pp. 323-335, 474-495; ser. V, 1950, pp. 89-105.

2- La rivolta di ' Abd al-Gabbâr contro il califfo almansûr", , Rendiconti Lincei, ser. VIII, II, 1947, pp. 613-615.

3- "Studi storici sul califfato di al-Mahdi", **Orientalia.**

4- "Nuovi studi storici sul califfato di al-Mahdi" **Orientalia,** XV, 1946,pp 155-179.

5- "Le Califat d'al-Hâdi", Studia Orientalia, XIII,4, 1946, pp. 1-28.

6- "Il Testament di Abû Hâshim', **R. S. O.**, XXVII, 1952, pp. 28 ff.

7- "Le Massacre des Umayyades...", **Archiv Orientalni,** 1950, pp. 88-115.

8- "Per uns storia dela ' Sntica Si's", **R.S.O.,** 1955, pp. 251-267.

Nadvi, S. S., "The Origin of the Barmakids", I,C., VI, 1932.

Nallino, C.,

1- "sul Nome di Qadariti" **R. S. O.,** VII, 1916-1918, pp. 461-66 (Arabic trans. by A. Badawî in al- **Turâth al-Yunânï fi ' I hadâra al- ' Arabiyya).**

2- "Sull' Origin de Nome die Mu'taziliti" , **R. S. O.,** VII, 1916-18, pp. 429-454 (Arabic trans. by A. Badawî, op. cit.).

Nyberg, H. S., "Zum Kampt Zwischen Islam und manichäismus", **O.L.Z.,** XXXII, 1929, pp. 426-434.

Omar, Farouk.,

1- Hârûn al-Rashîd in the **E. I.** (2).

2- Ibrâhïm al-Imâm in the **E. I.** (2).

3- Ibn al- Nattâh in the **E. I.** (2).

4- The Composition of the ' Abbâsid Support in the early ' Abbâsid period in the B.**C.A.,** (Baghdad Universtyy). 1968.

5- The Barmacid es, **E. B.,** New Ed.

pahom, R., Ahmad b. Haual and the imhan, Leiden,1987.

Pellat, Ch.,

1- "La 'Nabita' de Djâhiz", **A. L. E.** O. ., X, 1952, pp. 302-325.

2- "Gâhiz á Baghdad et Samarrâ", **R. S. O.,** XXVII, 1952, (Arabic trans. by I. Kîlânï in al- Jâhiz, Damascus, 1961).

3- "La culte de Mu'âwiya au IIIe siécle de l'hégire", **S. I.,** VI, 1956, pp. 53-66.

4- "La Imâmat dans la Doctrine de Gâhiz", **S. I.,** 1961, pp. 23-53.

Quartrémere M., "Avênement des 'Abbâsides auKhalifat", Nouveau Journal **Asiatique**, XVI, 1835.

Rubinacci, R., Azarika, E.1. (2).

Rabino, H. L., "Les préfets du califat au Tabaristan". J. A., 1939. pp. 237-274.

Rogers, E. T., "Notes on the Dînars of the ' Abbâside Dynasty", J. R. A. S., 1875, pp, 281-82.

Scarcial, G., "Lo scambio di letters tra HIarûn al-Rashîd e Hamza al- Hârigî secondo il ' Tâ'rih-i Sistân'" , **A.I. U.O. N.,** XIV, 1964, pp. 623-45.

Serjeant, R. B., "Haram and Hawtah , the saced enclave in Arabia", **Melanges Tâha Husayn,** Cairo, 1963.

Sourdel, D.,

1- "Baghdad, capital du nouvel empire ' abbâside" in **BAGHDAD, volume spécial**, Leyden, 1962.

2- "La biographie d'Ibn al- Muqaffa' d'aprês les sources anciennes", **Arabica**, I, 1954, pp. 307-325.

3- Jahsiyâri, al-Wuzarâ' wa'l kuttâb', **Melanges Louis Massignon**, III, 1957, Damascus.

4- "Problémes de l'histoire du vizirat ' abbâside (132/749 'â 324/936). I. C. O., 1957.

5- La polifique religieuws du Calife el-M'muen, **RE.,I.** 1961.

Spuler,B., "Iran: the persistent Heritage", in **Unity and Varietyof Muslim Civilisation**, ed. G. E. von Grunbaum, Chicago, 1955,pp. 168-182.

Strauss, E., "The socialisolation of Ahl adh-Dhimma", **E.O.,** á la Memoire de PaulHirscher , Budapest, 1950, pp. 73-94.

Tavadia, J. C., "Iran in the first centuries of Islam...", **Journal University of Bombay,** 1954, pp. 106-117.

Thomson, W. "Kharijitism and the Kharijites", D.B. Macdonald presentation volume. 1933, pp. 373-389.

Traini, R., "La Corrispondenza tra al-Mansûr e Muhammad ' an- Nafsaz-zakiyya",

A.I.U.O.N., 1964. pp. 773-798.

Vaglieri, **L. U.,**

1- "Limâmato Ibâdita dell' 'Omân", **A.I.U.O.N.,** 3, 1949.

2- "Le vicende del Hârigismo in epoca 'Abbâside', **R.S.O.,** 24, 1949.

Vajda, G., "Les Zindiqs en pays d'Islam audábut de la période 'ab-baside", **R.S.O.,** XVII, 1938, pp 173-229.

Van Vloten, G.,

1- "Zur ' Abbâsiden Geschichte", **Z.D.M.G.,** 52, 1898, pp. 213-226.

2- "Schüsmus und Motazilisma in Basra" **Z.D.M.G.,** 53 , 1899.

Vasmer, R., "Die Eroberung Tabristân durch die Araber Zur Zeit des Chalifen al-Mansûr". **Islamica**, ,3, 1927, pp. 86-150.

Watt, M.,

1- "The Rafidites", **Oriens,** XVI, 1961.

2- "The politicalthougth of the Mu'taziah", **J.R.A.S.,** 1962, pp. 38-57.

3- "The reappraisal of 'Abbâsid Shi'ism", in **Arabic and Islamic Studies in honour of H.A. R.** Gibb, E.J. Brill, 1965.

4- The Significauce of Khavigism unden the Abbasids, R. I.R. Louvain, 1977.

Wiet, G., "L'émpire néo-byzantin des Omayyaded et l'empire nêo-Sassanide des 'Abbasides", in **Cahiers d'histoire mondiale**, I, 1953, pp. 63-71.

Wright, E.M., "Symbols of Iranian persistence...", **M. W.,** 38, 1948, pp. 43-59, 124-131.

Yakubovsky, A. Y., "Vosstaniye=iye Mukann", **,S. V., V. 1**948, pp,35-54.